إقرار لجنة مناقشـــــة أطروحة دكتوراه

نشهد نحن أعضاء لجنة المناقشة أننا اطلعنا على الأطروحة الموسومة بـ (سور القرآن المدنية ، دراسة نصية) التي أعدّها الطالب (مكي حسين حمادي) ،وقد ناقشناه في محتوياتها وفي ما له علاقة بها ، وهي جديرة بالقبول بتقدير (جيد جداً عالٍ) للحصول على شهادة الدكتوراه فلســـــــفة في (اللغة العربية وآدابها / لغة)

الإمضاء :	الإمضاء :
الإسم : أ. د. مجيد طارش عبد	الإسم : أ.م.د. بان صالح مهدي
التاريخ : ٢٠١٧/٥/٢٥	التاريخ : ٢٠١٧/٥/٢٨
عضو اللجنة	عضو اللجنة
الإمضاء :	الإمضاء :
الإسم : أ.م.د. عمار نعمة نغيمش	الإسم : أ.م.د. حسام عدنان رحيم
التاريخ : ٢٠١٧/٥/١٨	التاريخ : ٢٠١٧/٥/١٨
عضو اللجنة	عضو اللجنة
الإمضاء :	الإمضاء :
الإسم : أ.د. كريم حسين ناصح	الإسم : أ.د. سعاد كريدي كنداوي
التاريخ : ٢٠١٧/٥/٢٨	التاريخ : ٢٠١٧/٥/١٨
رئيس اللجنة	عضواً ومشرفاً

يصادق مجلس كلية الآداب / جامعة القادسية على قرار اللجنة

أ.د. ياسر علي عبد الخالدي

عميد كلية الآداب

/ / ٢٠١

وزارة التعليم العالي والبحث العلميّ
جامعة القادسيّة / كليّة الآداب
قسم اللغة العربية

سور القرآن المدنيّة

دراسة نصّيّة

أطروحة تقدّم بها الطالب

عليّ حسين حمّادي التميميّ

إلى مجلس كليّة الآداب – جامعة القادسيّة ، وهي جزء من متطلّبات نيل درجة الدكتوراه في فلسفة اللغة العربيّة ، وآدابها .

بإشراف
الأستاذة الدكتورة

سعاد كـريدي كنداويّ

١٤٣٨ هـ ٢٠١٧ م

فهرس المحتويات

الموضوع	الصحيفة
المقدّمة	أ ــ ث
التمهيد	
السورة في اللغة والاصطلاح	
المدنيّة في اللغة والاصطلاح	
المدنيّة في الدراسات القرآنيّة	
النصّ في اللغة والاصطلاح	
نشأة نحو النصّ	
وظيفة نحو النصّ	
الفصل الأوّل / السبك	
السبك في اللغة والاصطلاح	
السبك في الدراسات النصيّة الحديثة	
المبحث الأول : الإحالة	
الإحالة لغةً واصطلاحاً	
الإحالة في الدراسات النصيّة الحديثة	
الإحالة بالضمائر (النصيّة ــ المقاميّة)	
الإحالة بأسماء الإشارة	
الإحالة بالاسم الموصول	
الإحالة بـ (ال) التعريف	
الإحالة بالاسم الصريح	
المبحث الثاني : الاستبدال	
الاستبدال لغةً واصطلاحاً	
الاستبدال في الدراسات النصيّة الحديثة	
البدل النحويّ ونحو النصّ	
الاستبدال الاسميّ	
لفظة (آخر) ومشتقاتها	
إحدى ــ أحد ــ نفس - واحدة	
تكرار اللفظ مع اختلاف المعنى	
الاستبدال الفعليّ	
الاستبدال القوليّ	
المبحث الثالث : الحذف	
الحذف لغةً واصطلاحاً	
الحذف في الدراسات النصيّة الحديثة	
مظاهر الحذف في السور المدنيّة	
حذف الحرف :	
حذف (هاء) التنبيه	
حذف حرف الجرّ	
حذف الاسم	
حذف الفعل	
حذف الجملة	
حذف شبه الجملة	
المبحث الرابع : الاتساق المعجميّ	
الاتساق لغة واصطلاحاً	
التكرار لغةً واصطلاحاً	
التكرار في الدراسات النصيّة الحديثة	
تكرار الحرف	
تكرار الاسم	

تكرار الفعل	
تكرار التركيب	
تكرار الجملة	
التضامّ لغةً اصطلاحاً	
التضام في الدراسات النصيّة الحديثة	
العلاقات التضامّيّة في السور المدنيّة	
علاقة التضادّ	
علاقة التلازم الذكريّ	
علاقة الكلّ – بالجزء	
علاقة الجزء – بالجزء	
علاقة الترادف	
علاقة الاختلاف	
علاقة التدرج التسلسليّ	
المبحث الخامس : الوصل	
الوصل لغةً واصطلاحاً	
الوصل في دراسات العرب القدماء	
الوصل في الدراسات النصّيّة الحديثة	
أدوات المقارنة	
المقارنة لغةً واصطلاحاً	
المقارنة في الدراسات النصيّة الحديثة	
علاقات المقارنة في السور المدنيّة	
الفصل الثاني / الحبك	
توطئة	
الحبك لغةً واصطلاحاً	
الحبك في دراسات العرب القدماء	
الحبك في الدراسات النصيّة الحديثة	
المبحث الأول : العلاقات الدلاليّة	
المبحث الثاني : موضوع الخطاب	
المبحث الثالث : الخطط التنظيميّة / ترتيب الخطاب ، وخطط التأكيد	
المبحث الرابع : البنية الكبرى وقواعد البناء	
المبحث الخامس : التغريض	
الفصل الثالث / السياق	
السياق لغةً واصطلاحاً	
السياق في دراسات العرب القدماء	
السياق في علم اللغة الحديث	
علم اللغة النصيّ والسياق	
أنواع السياق - عناصر السياق	
السياق اللغويّ في السور المدنيّة	
السياق الصوتيّ :	
التكرار الصوتيّ للحرف في النصّ	
جَرْس الألفاظ	
تغير حركة آخر الكلمة	
الفاصلة القرآنيّة	
السياق الصرفيّ :	
لجمع على فُعَلاء وفِعَال	
جمع فاعل على فواعل	
ختيار جمع القلّة	
اختيار صيغة الجمع	
المزاوجة بين المفرد والجمع	
دلالة المصادر والمشتقات	
استعمال صيغة المفاعلة	

اختيار صيغة الفعل المجرّد أوالمزيد	
ختيار اسم المفعول بدلاً من اسم الفاعل	
دلالة اسم الفاعل على حاليّة الحدث	
اختلاف صيغتي المصدر	
احتمال الصيغة لأكثر من دلالة	
السياق التركيبيّ :	
استعمال الجملة الاسميّة	
التقديم والتأخير	
قديم شبه الجملة على متعلّقها	
الفصل بين الجمل بالوقف	
التعريف والتنكير	
السياق يوضّح كون الجملة إنشاءً لا إخباراً	
السياق المعجميّ	
سياق الموقف / أسباب النزول	
السياق التداوليّ	
السياق النفسيّ	
السياق الثقافيّ	
الفصل الرابع / القصديّة والمقبوليّة والإعلاميّة	
توطئة	
المبحث الأول : القصديّة القصديّة لغةً واصطلاحاً	
القصديّة في دراسات العرب القدماء :	
القصد عند اللغويين	
القصد عند البلاغيين	
القصد عند المفسّرين	
القصد عند النحويين	
القصد عند الأدباء والنقاد	
القصد عند الأصوليين	
القصد في الدراسات النصيّة الحديثة	
القصديّة ونظريّة أفعال الكلام	
آيات الأحكام التشريعيّة وأفعال الكلام	
القصديّة في السور المدنيّة	
القصد على مستوى الصوت :	
التنغيم	
زيادة اللفظ	
اختلاف الصوت في الكلمات المترادفة	
القصد على مستوى الصرف :	
اختلاف بناء الفعل من حيث التجرّد والزيادة	
استعمال الفعل في صيغتي الإدغام ، وفكّ الإدغام	
استعمال المفردة في حالتي الإفراد والجمع	
إيثار الفعل المضعّف على المجرّد	
القصديّة على مستوى التركيب :	
التقديم والتأخير- الانتقال من الجملة الفعليّة إلى الاسميّة – التعريف والتنكير	
الإضافة وتركها – الخبر المتضمّن معنى الأمر	
القصديّة على مستوى المعجم :	
استعمال الألفاظ شبه المترادفة	
استعمال الألفاظ المشتركة	
القصد على مستوى البلاغة :	
الإطناب	
الإيجاز	
الكناية	

المبحث الثاني : المقبوليّة المقبوليّة لغةً واصطلاحاً	
المقبوليّة في دراسات العرب القدماء	
المقبوليّة في الدراسات النصيّة الحديثة	
المقبوليّة على مستوى الألفاظ / المستوى المعجميّ	
المقبوليّة على مستوى التركيب	
المقبوليّة على مستوى البلاغة	
المقبوليّة والتدرج في الحكم	
المقبوليّة والأسلوب في الحكم الشرعيّ	
المقبوليّة والقراءات القرآنيّة	
المحكم والمتشابه بين القصديّة والمقبوليّة	
المبحث الثالث : الإعلاميّة الإعلاميّة لغةً واصطلاحاً	
الإعلاميّة في الدراسات العربيّة القديمة	
الإعلاميّة في الدراسات النصيّة الحديثة	
الإعلاميّة على مستوى الصوت	
الإعلاميّة على مستوى الصرف :	
استعمال وزن صرفيّ لم يستعمل من قبل	
المصدر الصناعيّ	
الخروج على القاعدة الصرفيّة	
الإعلاميّة على مستوى التركيب :	
مجيء الاستعمال على لغة (أكلوني البراغيث)	
عطف المرفوع على المنصوب	
عطف المنصوب على المرفوع	
تقديم المفعول به على الفاعل	
حذف حرف النداء في الخطاب مع الله – تعالى – وصفاته	
الإعلاميّة على مستوى الألفاظ / المستوى المعجميّ	
الإعلاميّة على مستوى البلاغة :	
المجاز	
الإطناب	
الأسلوب الحكيم	
المغايرة السياقيّة	
الإعلاميّة في القصّة القرآنيّة :	
قصة ابني آدم	
قصّة الذي مرّ على قرية	
الإعلاميّة في المثل القرآنيّ	
الخاتمة ونتائج البحث	
المصادر والمراجع	
ملخص باللغة الإنجليزيّة	**A – c**

المقدّمة

الحمد لله ربّالعالمين حمداً لا يُحصى عدداً ، الحمد لله الذي لم يتّخذ صاحبة ولا ولداً ، وصلّى الله تعالى على نبيّه محمّد وآل بيته الطاهرين أوتاد الأرض ، والعروة الوثقى ، وحبل الله المتين . موضوع الدراسة هو (سور القرآن المدنيّة ، دراسة نصيّة) ، وهو يبحث عن المعايير النصيّة ، التي وضعها (روبرت دي بوجراند) للنصّ ، في النصّ القرآنيّ الكريم . وقد سبق أن درس الدكتور صبحي إبراهيم الفقيّ معايير النصّ في السور المكيّة – وإن كانتْ دراسته لم تستوعب المعايير النصيّة جميعاً –، وجاء عملي هذا إكمالاً لما بدأه ، بدراسة السور المدنيّة . وجاءت خطة البحث بأربعة فصول ، مسبوقة بتمهيد ، ومتلوّة بخاتمة تتضمّن نتائج البحث . بحثتُ في التمهيد التعريف بالسورة في اللغة ، والاصطلاح ، والتعريف بـ (المدنيّة) في اللغة والاصطلاح ، ثم جئتُ بالنصوص التي تحدّد السور المدنيّة بحسب تسلسل نزولها على النبيّ ρ . ولم يكن موقف علماء التفسير ، وأصحاب علوم القرآن موّحداً من القول بمدنيّة بعض السور ، فاختلفتْ رواياتهم بين مكيّة السور ، أو مدنيتها . وقد ذهب بعض الباحثين المحدثين إلى القول بمكيّة بعض السور ، التي عدّها العلماء القدماء مدنيّة ، وقد ناقشتهم في آرائهم ، وجئت بأدلة تدلّ على مدنيّة تلك السور. وقد بلغ عدد السور المدنيّة ثماني وعشرين سورة . ثمّ عرّفت النصّ لغةً ، واصطلاحاً ، وبحثتُ في نشأة الدراسات النصيّة ، وتطورها ، والمعايير التي يجب أن تتوافر في عمل أدبيّ ما للحكم عليه بالنصيّة ، وبحثت وظيفة علم النصّ في الدراسات اللغويّة الحديثة . أمّا الفصل الأول ، فقد خصّصته لدراسة المعيار الأول من المعايير النصيّة ، وهو معيار (السبك) ، وقد انقسم البحث فيه إلى خمسة عناصر ، يُدرس سبك النصّ من خلالها ، وهي : الإحالة ، والاستبدال ، والحذف ، والاتساق المعجميّ ، والوصل . وهذه العناصر وضعها (هاليداي ، ورقيّة حسن) . وجئتُ بنماذج تطبيقيّة لها من نصوص السور المدنيّة . وكانتْ الإحالة تتمّ – بحسب ما نظّر له الباحثان – باستعمال الضمائر ، وأسماء الإشارة ، والأسماء الموصولة ، و(ال) التعريف ، وأدوات المقارنة . وقد رأى الباحث أنّ أدوات المقارنة ليستْ عنصراً إحاليّاً ، بل تصلح أن تكون في مبحث الوصل ؛ لذا قد درستها هناك . وظهرتْ في النصّ بعض الظواهر اللغويّة المستعملة في النصّ القرآني ، التي لا توافق ما نظّر له علماء النصّ المحدثون ، فحاولتُ أن أشير لها في البحث كلّما وجدت الفرصة مؤاتية لذلك. أمّا الاستبدال ، فقد جاء بعض منه بحسب القواعد النصيّة المقرّرة . وبرزتْ بعض الظواهر التي ينماز بها النصّ الكريم ، وساعدتْ عليه خصائص اللغة العربيّة ، فأشرتُ إليها ، ووازنتها مع القواعد النصيّة ، وأظهرت التفرد القرآنيّ فيها . ومن ثمّ كان مبحث الحذف –وهو ما كان معروفاً عند العلماء العرب القدماء بتقسيماته ، وشروطه وفوائده – متوافراً في النصّ القرآنيّ الكريم ، وحقق دلالات بلاغيّة كثيرة فيه . أمّا الاتساق المعجميّ ، فقد انقسم إلى مبحثين : التضامّ ، والتكرار . فالتضامّ تحقق وجوده في النصّ الكريم ، وكثرتْ العلاقات التضاميّة ، التي أسّس لها علماء النصّ . والتكرار موجود في النصّ القرآنيّ ، ولا سيّما التكرار ، الذي سمّاه بعض المحدثين (التكرار الاشتقاقيّ) . أمّا الوصل ، الذي قسّمه علماء النصّ على أربعة أقسام ، فقد وجد في النصّ القرآنيّ ، وزيادة على ذلك قد استعمل النصّ الكريم أكثر من نوع في موضع واحد . وكان علماء العربيّة قد أشاروا إلى ذلك ، وبيّنوا دواعيه . ودرست ضمن مبحث الوصل أدوات المقارنة ، التي تُوظّف لربط جمل النصّ ، وآياته بإظهار العلاقة الدلاليّة الرابطة لها . وبحثتُ في الفصل الثاني المعيار الثاني (الحبك) ، فعرّفْته لغةً ، واصطلاحاً ، ثم بحثتُ في مظاهره في الدراسات العربيّة القديمة ، ثم عند المحدثين ، ثمّ قمتُ بتطبيق وسائله على النصّ القرآنيّ المدنيّ ، وهذه المظاهر هي : العلاقات الدلاليّة بين الجمل ، وآيات السور ؛ وموضوع الخطاب ، وقدحاولتُأن أجد جامعاً موضوعيّاً للسور المدنيّة ، زيادة على التعريف بموضوع كلّ سورة على حدة . وبحثتُ كذلك في ترتيب الخطاب ، والبنية الكليّة ، والتغريض ، وأخذتُ لأغلب المباحث المتقدّمة سورة كريمة مثالاً تطبيقيّاً على تحقق الوسيلة النصيّة فيها . أمّا الفصل الثالث ، فقد بحثتُ فيه معيار السياق فعرّفتُ به لغةً ، واصطلاحاً ، ثم بحثتُ عن وجوده في الدراسات العربيّة القديمة ، ثم عند المحدثين ، ثم ذكرتُ أقسامه ، وتفرّعاته ، وقسّم السياق الأول (السياق اللغويّ) على أقسام بحسب مستويات الدراسة اللغويّة (الصوتيّ – الصرفيّ – التركيبيّ – المعجميّ) . وقسّمتُ (السياق غير اللغويّ) على (سياق الموقف – السياق النفسيّ – السياق التداوليّ – السياق الثقافيّ).أمّا الفصل الرابع ، فكان لدراسة المعايير الثلاثة الأخرى (القصديّة ، والمقبوليّة ، والإعلاميّة) . فدرستُ القصد أولاً لغةً ،واصطلاحاً ، ثم بحثتُ عن مفهومه في الدراسات العربيّة القديمة، ثم عند المحدثين ، ثم قمتُ بأخذ أمثلة تطبيقيّة له ، وقسّمتُ التطبيق بحسب مستويات اللغة (الصوتيّ – الصرفيّ – التركيبيّ – المعجميّ) ، ثمّ درسته بلاغيّاً . ثمّ شرعتُ في بحث معيار المقبوليّة، فعرّفتها لغةً، واصطلاحاً ، وبحثتُ مظاهر وجودها عند القدماء ، ومفهومها عند المحدثين ، وقمتُ بدراسة تطبيقات لها على السور المدنيّة ، مستعيناً بمستويات الدراسة اللغويّة، وأفردتُ مباحث لبعض مظاهر المقبوليّة الخاصّة بالنصّ القرآنيّ الكريم ، ومن أهمّها : العلاقة بين الأحكام الشرعيّة والمقبوليّة ، والقراءات القرآنية وعلاقتها بمفهوم المقبوليّة . أمّا معيار الإعلاميّة ، فقد عرّفتُ به لغةً ، واصطلاحاً ، ثمّ بحثتُ في مفهومه عند القدماء ، والمحدثين ، ثمّ جئت بدراسة تطبيقيّة له على السور الكريمة بحسب المستويات اللغويّة ، وأفردتُ مباحث لمظاهر الإعلاميّة من خلال القصة القرآنيّة ، والمثل القرآنيّ .وقد اعتمدت هذه الدراسة على مصادر كثيرة ، من أهمّها تفاسير القرآن الكريم ، التي منها: مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهانيّ ، تفسير الكشاف للزمخشريّ ، ومجمع البيان للطبرسيّ، والبحر المحيط لأبي حيان ، وروح المعاني للآلوسيّ ، والميزان في تفسير القرآن للعلامة الطباطبائيّ ، والتحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ، وكذلك مصادر الدراسة النصيّة الحديثة ، ومن أهمّها : لسانيات النصّ لمحمّد خطابيّ ، والنصّ والخطاب والإجراء لـ (روبرت دي بوجراند) ، وعلم لغة النصّ ، النظريّة والتطبيق لعزّة محمّد شبل ، ونظريّة علم النصّ لحسام أحمد فرج ، وغيرها من المصادر والمراجع . وقد واجهتني في الدراسة صعوبات كثيرة ، من أهمّها أنّ موضوع الدراسة هو النصّ القرآنيّ الكريم ، فقداسته ، وعدم القدرة على الإحاطة بمعانيه ممّا لا يمكن أن يخالفها أحد . وزيادة على ذلك ، السور المدنيّة مجتمعة نصّ كبير نسبيّاً ، ولا يمكن أن تكون الدراسة فيه مستوعبة لكلّ آياته ، وسوره على سبيل الاستقصاء لها جميعاً ؛ لذلك حاولتُ قدر الإمكان أن تكون الأمثلة المدروسة في كلّ فصل مغايرة لما يُدرس في غيره . وزيادة على ذلك ، إنّ معظم الدراسات النصيّة السابقة كانتْ أغلب تطبيقاتها على المعايير (السبك ، والحبك، والسياق) . ولم أجد أحداً سبقني إلى المعايير الأخرى – في القرآن الكريم – غير باحثة معاصرة، درستْ القصديّة

، والإعلاميّة في دراستها للماجستير ، والدكتوراه . وقد درس بعض الباحثين قبلي ، بعضًا من السور المدنيّة ، من ذلك أطروحة الدكتوراه (نحو النصّ نظريّة وتطبيق ، سورة آل عمران أنموذجًا) ، ورسالة الماجستير (سورة البقرة ، دراسة في ضوء علم لغة النصّ) . ولا يسعني إلاّ أن أقدّم شكري الجزيل إلى أستاذتي المشرفة الدكتورة (سعاد كريدي) على الجهد الذي بذلته في متابعة هذه الدراسة ، وتقويمها ، وتصحيح ما فيها من خطأ ، أو زلل ، فلها منّي فائق الشكر والامتنان . والشكر موصل إلى الأساتذة في قسم اللغة العربيّة بدءاً برئيس القسم ، ومن ثمّ إلى الأساتذة الذين درّسوني في السنة التحضيريّة على الجهود التي بذلوها معنا لتذليل الصعوبات ، وتقديمهم كلّ المساعدات ، التي تسهّل سير الدراسة . وفي الختام لا أدّعي لعملي الكمال ، وأنا أمام النصّ المقدّس ، الذي أعجز فصحاء العرب ، وبلغاءهم ، ولكن حسبي أنّي اجتهدتُ ما وفّقني الله – تبارك وتعالى –إلى التماس اللمحة الإعجازيّة ، واللفتة البلاغيّة فيه ، وما توفيقي إلاّ بالله .

تمهيد :

السورة في اللغة والاصطلاح :

السُوْرَة لغةً : اختلف اللغويون في أصل اشتقاقها ، فمَن لم يهمزها ، قال : هي من السُوْر ، جمع سُوْرة ((وهي كلّ منزلة من البناء ، ومنه سُورة القرآن ؛ لأنها منزلة بعد منزلة مقطوعة عن الأخرى))[١] . ومَن همزها جعلها بمعنى : ((بقية من القرآن ، وقطعة ، وأكثر قرّاء القرآن على ترك الهمزة فيها))[٢] . **السورة اصطلاحاً** : عرّفها الكفويّ [ت ١٠٩٤ هـ] بقوله : ((قرآن يشتمل على آي ذي فاتحة ، وخاتمة))[٣] . وحدّها التهانويّ [ت ١١٥٨ هـ] بقوله : ((السورة : بالضمّ في الشرع بعض قرآن يشتمل على آيٍ ذو فاتحة وخاتمة ، وأقلّها ثلاث آيات ... وقيل : السورة الطائفة المترجمة توقيفاً ، أي الطائفة من القرآن المسماة باسم خاص ، بتوقيف من النبيّ ρ ... وقيل : السورة بعض من كلام منزّل مبيّن أوله ، وآخره ، أعلاماً من الشارع ، قرآناً كان ، أو غيره ، بدليل ما يقال : سورة الزبور ، وسورة الإنجيل))[٤] .

المدنيّة في اللغة والاصطلاح :

المدنيّة لغةً : المدينة كلّ أرض يُبنى بها حصن في اصطمّتها ، فهو مدينتها . والمدينة اسم مدينة الرسول ρ خاصةً ، والنسبة إليها مدنيّ . ومَدَنَ الرجل إذا أتى المدينة ، ومَدَنَ بالمكان : أقام به ، وتمدين : تنعّم [٥]. **المدنيّة اصطلاحاً** : عرّف الزركشيّ المدنيّ بقوله : ((ما نزل بعد الهجرة ، وإن كان بمكة)) [٦]. ومن ذلك يتبيّن أنّ مصطلح (المدنيّة) يطلق على السور القرآنيّة النازلة بعد هجرة النبيّ ρ .

السور المدنيّة في الدراسات القرآنيّة : اختلف علماء القرآن في مفهوم المكيّ ، والمدنيّ ، قال الزركشيّ [ت ٧٩٤ هـ] : ((إنّ للناس في ذلك ثلاثة اصطلاحات : أحدها أنّ المكيّ ما نزل بمكة ، والمدنيّ ما نزل بالمدينة . والثاني – وهو المشهور – أنّ المكيّ ما نزل قبل الهجرة ، وإنْ كان بالمدينة ، والمدنيّ ما نزل بعد الهجرة ، وإنْ كان بمكة . والثالث أنّ المكيّ ما وقع خطابًا لأهل مكة ، والمدنيّ ما وقع خطاباً لأهل المدينة ... ؛ لأنّ الغالب على أهل مكة الكفر ، فخوطبوا بـ (يا أيّها الناس) ، وإنْ كان غيرهم داخلاً فيهم ، وكان الغالب في أهل المدينة الإيمان ، فخوطبوا بـ (يا أيّها الذين آمنوا) ، وإنْ كان غيرهم داخلاً فيهم))[٧] . يلاحظ أنّ المفهوم الثاني يتّخذ من البعد الزمنيّ عاملاً في التقسيم ؛ لذا إنّه ينماز بالشموليّة عن المفهومين الآخرين ؛ ((لأننا إذا أخذنا بالناحية الزمنيّة ، كانت كلّ آية في القرآن إمّا مكيّة ، أو مدنيّة ... وأمّا على الاتجاهين الأخيرين في تفسير المصطلح ، فقد نجد آيةً ليستْ مكيّة ، ولا مدنيّة ، كما إذا كان موضع نزولها مكاناً ثالثاً ، لا مكة ، ولا المدينة ، ولم يكن خطابها لأهل مكة ، أو أهل المدينة ، نظير الآيات التي نزلتْ على النبيّ ρ في معراجه ، أو إسرائه))[٨].وقد وضع العلماء القدماء شروطاً ؛ لمعرفة المكيّ من المدنيّ ، فـ ((من جملة علاماته أنّ كلّ سورة فيها (يا أيّها الناس) وليس فيها (يا أيّها الذين آمنوا) ، فهي مكيّة ، وفي الحجّ اختلاف . وكلّ سورة فيها (كلاّ) فهي مكيّة ، وكلّ سورة فيها حروف المعجم ، فهي مكيّة إلاّ البقرة ، وآل عمران ، وفي الرعد اختلاف . وكلّ سورة فيها قصة آدم ، وإبليس ، فهي مكيّة سوى البقرة . وكلّ سورة فيها ذكر المنافقين ، فمدنيّة سوى العنكبوت ... [و] كلّ سورة ذُكرتْ فيها الحدود ، والفرائض ، فهي مدنيّة ، وكلّ ما كان فيه ذكر القرون الماضيّة ، فهي مكيّة))[٩] . ويبدو أنّ ضابط احتواء السور المدنيّة على الحدود والفرائض غير مطّرد ، إذ يُلحظ وجود آيات كثيرة من العهد المكيّ تتناول فريضةً ، أو حداً ، وإنْ كان بعضها يأتي بصيغة الخبر ، وليس بصيغة الأمر ، أو الفرض ، الذي يُوجب العمل به ، من ذلك قوله تعالى : **﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾**[١٠] ، وقوله تعالى : **﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾**[١١] ، وقوله تعالى : **﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ**

---

(١) تاج اللغة وصحاح العربيّة : ٢ / ٤٢٨ . وينظر : معجم مقاييس اللغة : ١ / ٥٧٧ (سور) .
(٢) لسان العرب : ٢ / ١٩٣٦ (سور).
(٣) الكليّات : ٤١٥ .
(٤) كشاف اصطلاحات الفنون : ٢ / ٣٥٨ .
(٥) ينظر : كتاب العين : ٨ / ٥٣ ، وتاج اللغة وصحاح العربيّة : ٥ / ١٣١٠ ، ومعجم مقاييس اللغة : ٢ / ٥٠٣ ، ولسان العرب : ٤ / ٣٦٨١ ، والقاموس المحيط : ١١٣٧ (مدن).
(٦) البرهان في علوم القرآن : ١ / ١٣٥ .
(٧) البرهان في علوم القرآن : ١ / ١٣٥ . وينظر : الإتقان في علوم القرآن : ١ / ١٩ – ٢٠ .
(٨) المدرسة القرآنيّة : ٢٤٩ – ٢٥٠ . وينظر : مباحث في علوم القرآن : ١٦٩ .
(٩) البرهان في علوم القرآن : ١ / ١٣٦ .
(١٠) سورة الأنعام : ١١٨ . وينظر من السورة نفسها الآيات : ١١٩ – ١٢١ – ١٤٥ – ١٥١ – ١٥٢ .
(١١) سورة النحل : ١١٥ . وينظر من السورة نفسها الآيات : ٩٠ – ٩١ – ٩٢ – ٩٤ – ٩٥ .

تَبْذِيرًا ﴾ [١]. إنّ هذين المصطلحين(المكيّ والمدنيّ) ليسا توقيفيين ، بل ((الواقع أنّ لفظ المكيّ ، والمدنيّ ليس لفظاً شرعياً ، حدّد النبيّ مفهومه ؛ لكي نحاول اكتشاف ذلك المفهوم ، وإنّما هو مجرّد اصطلاح تواضع عليه علماء التفسير))[٢] .
وتظهر أهميّة التمييز الزمنيّ (قبل الهجرة ، وبعد الهجرة) في نقطتين : إحداهما : (فقهيّة) ، إذ إنّها ترتبط بعلم الفقه ، ومعرفة الأحكام الشرعيّة ، وهي أنّ تقسيم الآيات على أساس الزمن إلى مكيّة ، ومدنيّة ، وتحديد ما نزل قبل الهجرة ، وما نزل بعد الهجرة يساعدنا على معرفة الناسخ ، والمنسوخ ؛ لأنّ الناسخ متأخر بطبيعته عن المنسوخ زماناً ، فإذا وُجِد حكمان ينسخ أحدهما الآخر، استطعنا أن نعرف الناسخ عن طريق التوقيت الزمنيّ ، فيكون المدنيّ ناسخاً للمكيّ ؛ لتأخره عنه زمنيّاً . والثانية : هي أنّ التقسيم الزمنيّ للآيات إلى مكيّة ، ومدنيّة يجعلنا نتعرّف على مراحل الدعوة التي مرّ بها الإسلام على يد النبيّ ρ ، فالهجرة النبويّة المباركة ليستْ مجرّد حدث عابر في حياة الإسلام ، وإنّما هي حدّ فاصل بين مرحلتين من عمر الدعوة ، فإذا ميزنا آيات كلّ مرحلة ، استطعنا أن نواكب تطورات الدعوة ، والخصائص العامّة لكلّ منهما [٣]. وقد عدّ الطبرسيّ [ت ٥٤٨ هـ] السور المدنيّة ، ورأى أنّها ثمان وعشرون سورة ، فقال : ((أنزلتْ بالمدينة البقرة ، ثمّ الأنفال ، ثمّ آل عمران ، ثمّ الأحزاب ، ثمّ الممتحنة ، ثمّ النساء ، ثمّ إذا زلزلتْ ، ثمّ الحديد ، ثمّ سورة محمّد ، ثمّ الرعد ، ثمّ سورة الرحمن ، ثمّ هل أتى ، ثـ مّ الطلاق ، ثمّ لم يكن ، ثمّ الحشر ، ثمّ إذا جاء نصر الله ، ثمّ النور ، ثمّ الحجّ ، ثمّ المنافقون ، ثمّ المجادلة ، ثمّ الحجرات ، ثمّ التحريم ، ثمّ الجمعة ، ثمّ التغابن ، ثمّ سورة الصفّ ، ثمّ سورة الفتح ، ثمّ سورة المائدة ، ثمّ سورة التوبة ، فهذه ثمان وعشرون سورة))[٤]. في حين عدّ الزركشيّ السور النازلة في المدينة، وترتيبها ، وقد ذكر أنّها تسع وعشرون سورة ، ولكنّه عدّها ثماني وعشرين ، فقال : ((ذكر ترتيب ما نزل بالمدينة ، وهو تسع وعشرون سورة : فأوّل ما نزل فيها سورة البقرة ، ثم الأنفال ، ثم آل عمران ، ثم الأحزاب ، ثم الممتحنة ، ثم النساء ، ثم (إذا زلزلتْ) ، ثم الحديد ، ثم محمد ، ثم الرعد ، ثم الرحمن ، ثم (هل أتى) ، ثم الطلاق ، ثم (لم يكن) ، ثم الحشر ، ثم (إذا جاء نصر الله) ، ثم النور ، ثم الحجّ ، ثم المنافقون ، ثم المجادلة ، ثم الحجرات ، ثم (يا أيّها النبيّ لِمَ تحرّم) ، ثم الصف ، ثم الجمعة ، ثم التغابن ، ثم الفتح ، ثم التوبة ، ثم المائدة))[٥] . واللافت للنظر أنّ العلماء لم يذكروا الفاتحة في السور المكيّة ، ولا المدنيّة ، وإنّما ذكروا اختلاف العلماء فيها ، ((ففاتحة الكتاب قال ابن عباس ، والضحّاك ، ومقاتل ، وعطاء : إنّها مكيّة ، وقال مجاهد : مدنيّة))[٦] . ولعلّ ما يُرجّح أنّها مكيّة أنّ الصلاة فُرضتْ على النبيّ ρ في مكة ، في أثناء الإسراء ، والمعراج ، والصلاة لا تجوز بغير الفاتحة ، ((وليت شعري ألم يدرْ السؤال التالي [٧] في أذهان من قالوا بمدنيتها : كيف كانت صلاة المؤمن تقوم بدون الفاتحة ؟ إنْ كانت هي مدنيّة ؟))[٨] ، وزيادة على ذلك ، فإنّ سورة الحجر قد أتتْ على ذكر (السبع المثاني) ، وهي ما فُسّرتْ بالفاتحة ، وسورة الحجر مكيّة ، قال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ** ﴾ [٩]. وقد رجّحتْ إحدى الباحثات المعاصرات كون سورة الرعد ، وسورة الرحمن ، وسورة الزلزلة من السور المكيّة ، لا من المدنيّة ،وقد علّلت ذلك اعتماداً على رأي سيّد قطب في ذلك – إذ قال : ((إنّ موضوعها الرئيسيّ[١٠] ، ككلّ موضوع السور المكيّة –كلّها على وجه التقريب – هو العقيدة ، وقضاياها))[١١]. وممّا يردّ به على هذا الترجيح أنّ الآيات من قوله تعالى : ﴿ **عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ** ﴾[١٢]، نزلت في عامر بن الطفيل ، وأربد بن ربيعة اللذين حاولا قتل النبيّ ρ في المدينة [١٣] . زيادة على ذلك ، فإنّ قوله تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ** ﴾[١٤]، فقوله (وأنفقوا ممّا رزقناهم) ، المقصود به الزكاة المفروضة [١٥]، والزكاة لم تفرض على المسلمين ، وهم في مكة ، بل في المدينة . ودليل آخر هو قوله تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ** ﴾[١٦] . فقوله (والذين آتيناهم الكتاب) نزلتْ في ((مؤمني أهل الكتاب ، كعبدالله بن سلام ، وكعب ، وأضرابهما من اليهود ، وكالذين أسلموا من النصارى ، كالثمانين

---

(١) سورة الإسراء : ٢٦ . وينظر من السورة نفسها الآيات : ٣٢ – ٣٣ – ٣٤ – ٣٥ .
(٢) المدرسة القرآنيّة : ٢٥٠ .
(٣) ينظر : المدرسة القرآنيّة : ٢٥١ – ٢٥٢ .
(٤) مجمع البيان : ١٠ / ٣٠٧ .
(٥) البرهان في علوم القرآن : ١ / ١٣٩ – ١٤٠ . وينظر : الإتقان في علوم القرآن : ١ / ٢٣ . مع فارق تقديم المائدة على التوبة .
(٦) البرهان في علوم القرآن : ١ / ١٤٠ .
(٧) كذا ، والصحيح : الآتي . وكذلك ورد خطأ لغويّ آخر ، وهو (بدون) ، والصحيح : من دون .
(٨) السور المدنيّة ، دراسة بلاغيّة أسلوبيّة : ٢١ .
(٩) سورة الحجر : ٨٧ .
(١٠) كذا ، والصحيح : الرئيس .
(١١) في ظلال القرآن : ٤ / ٢٠٣٩ . وقال في هامش الصفحة نفسها : ((ومكيّة السورة شديدة الوضوح : سواء في طبيعة موضوعها ، أو طريقة أدائها ، أو جوها العام ، الذي لا يخطئ تنسمه مَن يعيش فترة في ظلال القرآن)) .
(١٢) سورة الرعد : ٩ – ١٣ .
(١٣) ينظر : أسباب النزول : ١٤٢ ، لباب النقول : ١٣٩ ، وروح المعاني : ١٣ / ١٠٦ .
(١٤) سورة الرعد : ٢٢ .
(١٥) ينظر : البحر المحيط : ٦ / ٣٨٠ – ٣٨١ .
(١٦) سورة الرعد : ٣٦ .

المشهورين ، وهم أربعون رجلاً بنجران ، وثمانية باليمن ، واثنان وثلاثون بالحبشة ، فالمراد بالكتاب التوراة ، والإنجيل))[1]. ومن نافلة القول أنّ ورود ذكر الكفار في السورة الكريمة ، وذكر بعض الأدلة على وجود الله تعالى ، وعظيم خلقه ، وعجيب تنظيمه لهذه الحياة لا يدلّ بالضرورة على مكيّة السورة ، فالمسلمون لم يكونوا منقطعين تماماً عن الكفار من قريش ، والعرب ، فهذه سورة البقرة ، وغيرها من السور تتناول كثيراً من الأمور الخاصّة بالكفار ، وأقوالهم ، وما يفعلون ، وما يشيعون من إشاعات ، وأراجيف ضدّ النبيّ ρ ، والمسلمين ، ولا يمكن بحال من الأحوال أن نقول : إنّها من السور المكيّة على هذا التقدير ، فما زالت ديانة الكفر – وقت نزول هذه السورة – مواكبة ، ومنافسة للديانة الإسلاميّة ؛ لذا كان لا بدّ من إبقاء المحاججة ، وتقديم الأدلّة التي تثبت وحدانية الله تعالى في السور القرآنيّة ، حتى وهم في المدينة . أمّا سورة الرحمن ، فالباحثة ترى أنّها مكيّة معتمدة في ذلك على أنّها ((ذات موضوع مكيّ ... تذكر الخلق بآلاء الرحمن على الإنس ، والجانّ في جميل صنعه ، وبديع خلقه ، وكثرة نعمه))[2]. وجعلتْ من مزايا الأسلوب الذي يدلّ على مكيّتها ، تكرار قوله تعالى : ﴿**فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**﴾، والتكرار معهود في السور المكيّة ، وزادتْ دليلاً آخر – كما تراه - ، وهو ورود المفردة (آلاء) فيها ، وهي لم ترد إلاّ في السور المكيّة [3].إنّ التكرار الذي في السورة ليس دليلاً كافياً على مكيّة السورة ، ولو نظرنا إلى المعنى الذي تؤدّيه الآية المكرّرة ، لكان هنالك رأي آخر ، فالتذكير بنعم الله تعالى على البشر ليس حصراً على الكافرين فقط ، فالمؤمنون أولى بهذا التذكير ، بل إنّ المهاجرين من مكة أولى بذلك ، فهم من بعد أن كانوا مستضعفين في مكة ، وأذلاء ، ليس لهم كلمة ، ولا رأي ، ولا حريّة في أداء العبادة ، وإذا هم أصحاب شأن في المدينة ، يرفعون اسم الله تعالى من دون خوف ، ويأمنون على أنفسهم ، وعيالهم ، بل لقد رأوا أعظم من ذلك ، إذ إنّهم في معركة بدر قتلوا كثيراً من مضطهديهم الكفار، ورأوا مصارعهم في المعركة ، وأصبحتْ قريش ، والعرب تحسب لهم ألف حساب ، فارتفعتْ مكانتهم ، وعلتْ منزلتهم ، وكان ذلك أولى لهم بأنْ يُذكروا بنعم الله تعالى عليهم ، فيشكرونه على ما وهبهم ، ولا ينسوا أنّ ذلك كان بفضل منه – عزّ وجلّ - . وتقول في سورة الزلزلة : ((أمّا سورة الزلزلة ، فيؤكد العلماء مدنيتها ، وأراها مكيّة الموضوع ، والأسلوب ... ولو نظرنا لموضوعها لوجدناها تتحدّث عن قيام الساعة ، وتصوّر بدقة هول ذلك اليوم ... فموضوعها مكيّ بحت ، لم يداخله موضوع مدنيّ ، من تشريع ، أو أحكام ، أو جهاد ، أو حديث مع أهل الكتاب . أمّا الأسلوب ، فمكيّ ، فهي قصيرة الفقرات ، متماثلة الفواصل))[4]. وممّا يمكن الردّ به أنّ السورة مدنيّة بحسب الدليل النقليّ عن العلماء الذين رأوا مدنيتها[5] ، وهو ما نقلته الباحثة . وزيادة على ذلك ، فالسورة تتحدّث عن يوم القيامة ، ولكنّها تجعل معيار النجاة ، والخلاص من عذاب النار، العمل الصالح، وأنّ عمل الإنسان سيكون حاضراً أمامه مهما صغر ، وبلغ (مثقال حبة من خردل) ، وهذا لا يدلّ على مكيّة السورة ، إذ يمكن القول إنّ السورة قد جاءتْ مذكرة للمسلمين بالحياة الآخرة ، وما يجب عليهم من الاستعداد لها بالعمل الصالح ، وترك الذنوب ، والآثام الباقية؛ لأنها لو بلغتْ (مثقال ذرّة) ، فهو محاسب عليها ، ولذا وجب تنقية النفس من شوائبها ، وتخليصها من ذنوبها ، وأدرانها . فكأنّ السورة قد فرغتْ من الجانب العقائديّ ، الذي أصبح فيه أهل المدينة يدينون بالتوحيد ، والإسلام ، وكان عليهم أن ينتقلوا إلى الجانب التطبيقيّ المتمثّل في العمل الصالح مهما صغر ، أو كبر .

النصّ لغةً [6] : نصصتُ الحديث إلى فلان نصّاً : رفعته ، ونصصتُ الشيء : حرّكته ، ونصصتُ الرجل : استقصيتُ مسألته عن الشيء . ونصّ كلّ شيء : منتهاه . نصّ المتاع نصّاً : جعل بعضه على بعض . والنصّ : الإسناد إلى الرئيس الأكبر ، والنصّ : التوقيف ، والنصّ : التعيين على شيء ما . ونصّ القرآن ، ونصّ السُّنّة : ما دلّ ظاهر لفظهما عليه من الأحكام . **النصّ اصطلاحاً** : عرّف الشريف الجرجانيّ النصّ ، بقوله : ((ما ازداد وضوحاً على الظاهر لمعنًى في المتكلم ، وهو سوق الكلام لأجل ذلك المعنى ... وما لا يحتمل إلاّ معنًى واحداً . وقيل : ما لا يحتمل التأويل))[7] . وذكر الكفويّ تعريفين للنصّ ، قال في الأول : ((النصّ : ما فيه زيادة ظهور ، سيق الكلام لأجله ، وأريد بالإسماع ذلك باقتران صيغة أخرى بصيغة الظاهر ، كقوله تعالى : ﴿**وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا**﴾ [8] ، سيق هذا النصّ للتفرقة بينهما ، وهو المراد بالإسماع))[9] ، وقال في الثاني : ((النصّ : أصله أنْ يتعدّى بنفسه ؛ لأنّ معناه الرفع البالغ ، ومنه منصّة العروس ، ثم نُقل في الاصطلاح إلى الكتاب ، والسُّنّة ، وإلى ما لا يحتمل إلاّ معنًى واحداً ، ومعنى الرفع في الأول ظاهر ، وفي الثاني أخذ لازم النصّ ... والنص قد يطلق على كلام مفهوم المعنى ، سواء كان ظاهراً ، أو نصّاً ، أو مفسّراً ، اعتباراً منه للغالب ؛ لأنّ عامّة ما ورد من صاحب الشريعة نصوص))[10] . وخصّ التهانويّ تعريف النصّ بالأصوليين ، فقال : ((النصّ : بالفتح ، والتشديد ، هو في عُرف الأصوليين يُطلق على معانٍ : الأول : كلّ ملفوظ مفهوم المعنى من الكتاب ، والسُّنّة ، سواءٌ كان ظاهراً ، أو نصًّا أو مفسّراً ، حقيقة ، أو مجازاً ، عامّاً ، أو خاصّاً ، اعتباراً منهم للغالب ؛ لأنّ عامة ما ورد من صاحب الشرع نصوص ، وهذا المعنى هو المراد بالنصوص في قولهم : عبارة النصّ ، وإشارة النصّ ، ودلالة النصّ ،

---

(1) روح المعاني : ١٣ / ٢٠٧ . وينظر : البحر المحيط : ٦ / ٣٩٥ – ٣٩٦ .

(2) السور المدنيّة ، دراسة بلاغيّة أسلوبيّة : ٢٦ .

(3) وردتْ المفردة في سورة الأعراف : ٦٩ ، ٧٤ ، وسورة النجم : ٥٥ ، وهما سورتان مكيّتان .

(4) السور المدنيّة ، دراسة بلاغيّة أسلوبيّة : ٢٣ – ٢٤ .

(5) ينظر : لباب النقول في أسباب النزول : ٢٦٢ .

(6) ينظر : كتاب العين : ٧ / ٨٦ – ٨٧ ، وتاج اللغة وصحاح العربيّة : ٣ / ٦٥٤ ، ومعجم مقاييس اللغة : ٢ / ٥٢٦ ، وأساس البلاغة : ٦٣٦ ، ولسان العرب : ٤ / ٣٩٣٠ ، والقاموس المحيط : ٥٨٣ – ٥٨٤ (نصّ).

(7) التعريفات : ١٩٤ .

(8) سورة البقرة : ٢٧٥ .

(9) الكليّات : ٧١٣ .

(10) الكليّات : ٧٦٥ .

واقتضاء النصّ ... والثاني : ما ذكر الشافعيّ ، فإنّه سمّى الظاهر نصّاً ، فهو منطلق على اللغة ، والنصّ في اللغة بمعنى الظهور ... فعلى هذا حدّ الظاهر ، وهو اللفظ الذي يغلب على الظنّ فَهْم معنى منه ، من غير قطع ، فهو بالإضافة إلى ذلك المعنى الغالبظاهر ، ونصّ . والثالث ، وهو الأشهر : هو ما لا يتطرّق إليه احتمالٌ أصلاً ... والرابع : ما لا يتطرّق إليه احتمال مقبول ، يعضّده دليل ... والخامس : الكتاب ، والسُنّة))[١] . ويبدو أنّ استعمال مصطلح (النصّ) بمفهومه الحديث كان استعمالاً منقولاً من معناه اللغويّ ، فقد تقدّم – في النصّ لغةً – أنّ من معاني (نصّ): نصّ المتاع جعل بعضه على بعض ، فيكون النصّ ضمّ الكلام بعضه إلى بعض . وزيادة على ذلك ، فالمعنى اللغويّ يدور حول معنى : الرفع ، والارتفاع ، والانتهاء ، فجاء معنى النصّ من خلال ذلك ، إذ إنّ مؤلف النصّ يعطي أقصى ما عنده من قدرة أدبيّة ، وموهبة ذاتيّة لإنتاج النصّ . فالمؤلف يبذل قصارى جهده ليخرج النصّ من مستوى الكلام العادي ، ويرفعه إلى مستوى الإبداع الأدبيّ .

أمّا عند المحدثين ، فقد تعدّدت – أيضاً – تعريفات النصّ لديهم ، فقد نظر الغربيون إليه من زوايا عدّة، ومنها جاءتْ تعريفاتهم فقد عرّفه (شميت) ((كلّ تشكيلة لغويّة منطوقة من حدث اتصاليّ في إطار عمليّة اتصاليّة ، محدّد من جهة المضمون ، ويؤدّي وظيفة اتصاليّة يمكن إيضاحها ، أي يحقّق إمكانيّة قدرة ، وإنجاز واضحة ، وجليّة))[٢]، وعرّفه (هارفج) بأنّه ((ترابط مستمرّ للاستبدالات السنتجميميّة التي تظهر الترابط النحويّ في النصّ))[٣] ، وعرّفه (فاينرش) ، بقوله : ((النصّ عبارة عن بنية ترتبط أجزاؤها بعضها ببعض ، إذ تستلزم وحداتها اللغويّة بعضها البعض لفهم الدلالة الكليّة))[٤] ، أمّا (هاليداي ورقية حسن) ، فقد عرّفاه بأنّه ((ليس بنية نحويّة أكثر حجماً من الجملة ، أو مجرّد سلسلة من الجمل ، أو جملة كبرى ، وإنّما هو بنية من نمط مختلف ، إنّه يشكل وحدة دلاليّة ، الوحدة التي لها معنى في سياق))[٥] ، وترى (جوليا كريستفيا) أنّ ((النصّ ليس مجموعة من الملفوظات النحويّة ، واللانحويّة [٦]، إنّه كلّ ما ينصاع للقراءة عبر خاصيّة الجمع بين مختلف طبقات الدلاليّة الحاضرة هنا داخل اللسان ، والعاملة على تحريك ذاكرته التأريخيّة ، هذا يعني أنّه ممارسة مركبة يلزم الإمساك بحروفها عبر نظريّة للفعل الدالّ الخصوصيّ الذي يمارس لعبه داخلها بواسطة اللسان ، وبهذا المقدار فقط يكون لعلم النصّ علاقة ما مع الوصف اللسانيّ))[٧]. أمّا الباحثون العرب ، فقد عرّف صلاح فضل النصّ معتمداً المعطيات التي توفرات له عند اطّلاعه على مؤلفات الغربيين ، والعرب ، فقال : ((النصّ هو القول اللغويّ المكتفي بذاته ، والمكتمل في دلالته))[٨] ، وعرّفه بعضهم بقوله : ((وحدة كبرى شاملة ، تتكون من أجزاء مختلفة تقع على مستوى أفقي من الناحية النحويّة ، وعلى مستوى عمودي من الناحية الدلاليّة . ومعنى ذلك أنّ النصّ وحدة كبرى لا تتضمنها وحدة أكبر منها . والمقصود بالمستوى الأول (الأفقي) أنّ النصّ يتكوّن من وحدات نصيّة صغرى ، تربط بينها علاقات نحويّة ، أمّا الثاني ، فيتكون من تصورات كليّة ، تربط بينها علاقات التماسك الدلاليّة المنطقيّة))[٩]. وعرّفه آخر بقوله : ((هو مجموعة من الكلمات التي تكون ظا حقيقيّاً في اللغة . والنصوص إمّا أن تكون مكتوبة ، أو مسجلة على جهاز التسجيل ، أو عملاً أدبيّاً ، أو معلومة ، أو رسالة . وفي جميع الحالات ، يُعدّ النصّ وثيقة من قبل علماء اللغة لاحتوائه على نموذج لغويّ خاص ، يكون مادة رئيسة للتحليل ، والوصف))[١٠]. وعرّفه الأزهر الزناد بقوله : ((نسيج من الكلمات ، يترابط بعضها ببعض . وهذه الخيوط تجمع عناصره المختلفة ، والمتباعدة في كلّ واحد هو ما نطلق عليه مصطلح (نص) . وقد قامتْ علوم عدّة ، ومناهج كثيرة للبحث في هذا الترابط ، وتعدّدتْ هذه العلوم منذ أقدم العصور ، وتقاطعتْ مناهجها بحكم التقائها في موضوع بحث واحد هو النصّ ، ثمتفرّدت به اللسانيّات في زمن متأخر جداً بالقياس إلى المعارف البشريّة . وهذا التفرّد نفسه مرّ بمراحل عديدة [١١] ، عند كلّ واحدة منها يقوم حدّ بين تلك العلوم المشتركة في النصّ))[١٢]. وحاول محمد مفتاح أن يجد تعريفاً للنصّ يعكس التوجهات المعرفيّة ، والنظريّة، فرأى أنّه ((أمام هذا الاختلاف ، فإنّه لا يسعنا إلاّ أن نركب بينها جميعاً ؛ لنستخلص المقومات الجوهريّة الأساسيّة التالية [١٣]: مدونة كلاميّة : يعني أنّه مؤلّف من الكلام ... حدث : إنّ كلّ نصّ هو حدث يقع في زمان ، مكان معينين ، لا يعيد نفسه إعادة مطلقة ، مثله في ذلك مثل الحدث التأريخيّ . تواصليّ : يهدف إلى توصيل معلومات ، ومعارف ، ونقل تجارب إلى المتلقي . تفاعليّ : على أنّ الوظيفة التواصليّة في اللغة ليستْ هي كلّ شيء ، فهناك وظائف أخرى للنصّ اللغويّ ، أهمها الوظيفة التفاعليّة ، التي تقيم علاقات اجتماعيّة بين أفراد المجتمع ، وتحافظ عليها . مغلق : ونقصد انغلاق سمته الكتابيّة الأيقونيّة ، التي لها بداية ، ونهاية ، ولكنّه من الناحية المعنويّة هو : توالديّ : إنّ الحدث اللغويّ ليس منبثقاً من عدم ، وإنّما هو متوالد من أحداث تأريخيّة ، ونفسانيّة ، ولغويّة ، وتتناسل منه أحداث لغويّة أخرى لاحقة له . فالنصّ إذن مدونة حدث كلاميّ ذي وظائف متعدّدة))[١٤] . إنّ هذا التعريف الذي وضعه محمد مفتاح محاولة لجمع كلّ الصفات للنصوص المختلفة ، إذ إنّ التعريفات السابقة له تركز على جانب معيّن ، وتسقط الجوانب الأخرى ،

---

(١) كشاف اصطلاحات الفنون : ٤ / ٢٢٦ – ٢٢٨ .
(٢) لسانيات النصّ ، النظرية والتطبيق ، مقامات الهمذانيّ أنموذجاً : ٢٢ .
(٣) المصدر نفسه : ٢١ .
(٤) لسانيات النصّ ، النظرية والتطبيق ، مقامات الهمذاني أنموذجاً : ٢١ .
(٥) المصدر نفسه : ٢١ – ٢٢ .
(٦) كذا ، والصحيح : غير النحويّة .
(٧) علم النصّ : ١٤ .
(٨) بلاغة الخطاب وعلم النصّ : ٢٩٩ .
(٩) المصطلحات الأساسيّة : ١٤١ .
(١٠) معجم اللغة واللسانيّات : ٥٤٢ .
(١١) كذا ، والصحيح : كثيرة .
(١٢) نسيج النص ، بحث ما يكون به الملفوظ نصّاً : ١٢ .
(١٣) كذا ، والصحيح : الآتية .
(١٤) تحليل الخطاب الشعريّ ، استراتيجية التناص : ١١٩ – ١٢٠ .

فمنهم من ركز على وحدة النصّ ، وترابطه ، ومنهم من ركز على الجانب الدلاليّ ، ومنهم من ركز على البعد التداوليّ ؛ ولذا فقد كانت المعايير النصيّة السبعة التي وضعها (روبرت دي بوجراند) شاملة لكلّ التعريفات المتقدّمة .

نشأة نحو النص : لعلّ من المغالطة اتباع كثير من علماء النصّ ، والباحثين فيه ، من أنّ القدماء قد اقتصروا في دراستهم للغة على دراسة الجملة ، ولم يخرجوا عنها . فإذا كان ذلك يصدق على وضع القواعد النحويّة للغات – ولعلّ في أغلب دراسات العرب خير مثال - ، فإنّهم في بعض الأحيان وضّحوا العلاقات القائمة بين الجمل ، كعلاقة الحاليّة ، أو الوصفيّة ، أو البدليّة ، أو غيرها . زيادة على ذلك ، إنّ اهتمامهم بالسياق الذي يقع فيه الكلام ، وتغيير الكلام تبعاً لذلك ، من ذلك قول سيبويه ، وهو يوضّح الفارق بين (أم) المنقطعة ، والمعادلة ، إذ قال : ((وذلك قولك : أعمرٌو عندك ، أم عندك زيد . فهذا ليس بمنزلة أيُّهما عندك ... ويدلّك على أنّ هذا الآخر منقطع من الأول قول الرجل : إنّها لإبلٌ ، ثم يقول : أم شاءُ يا قوم))[(١)]. ويُلحظ في الدراسات البلاغيّة ، والنقديّة الكثير من الإشارات إلى العلاقات بين الجمل من ناحية المعنى ، فكانوا يحدّدون العلاقة بين جمل متتالية على أنّها علاقة (تذييل ، توكيد ، احتراس ، استدراك ، استثناء) وغيرها . ولكنّ النظرة العامّة التي شاعتْ عند علماء النصّ الغربيين ، وتبعهم الباحثون العرب على ذلك أنّ الدراسات اقتصرتْ على دراسة الجملة فقط ، من ذلك قول بعضهم : ((ذكرنا أنّ تصوّر (نحو النصّ) لا وجود له في العربيّة ، ونحوها ، بل إنّنا لا نكاد نجد لدى الباحثين إحساس الحاجة إليه أصلاً))[(٢)] . إنّ البلاغيين والمفسّرين ساروا على غير ذلك ، فكانوا قريبين في دراساتهم من الدراسة النصيّة ؛ لذلك كوّنوا الأساس ، أو اللبنات الأولى لإنشاء تلك الدراسة اللسانيّة الحديثة ؛ لأنّ دراسة النحو على مستوى الجملة لا يُقدّم العلاقات الدلاليّة بين الجمل بصورة كافية ، كما يقدّمها علم النص[(٣)]. وقد رأى بعض الباحثين المحدثين أنّ المفهوم الاصطلاحيّ لكلمة (نصّ) مفهوم حديث في الفكر العربيّ المعاصر ، وهو ليس وليد هذا الفكر ، وإنّما هو وافد علينا من الحضارة الغربيّة ((وهذا ما يجعل البحث عن أصول هذا المصطلح في التراث الفكريّ العربيّ ، وربط ذلك بما يدلّ عليه في الوقت الحاضر ضرباً من التحمّل الذي لا تُرجى منه فائدة))[(٤)]. ويرى أنّ ممّا زاد من حيرة مثقفين ، ونقاد عرب أنّهم لم يجدوا صلة مقنعة – قد حاول البحث إيجاد الرابط كما تقدّم - بين المعنى المعجميّ ، والمفهوم الاصطلاحيّ ، وهو ما ((وضع المتلقي العربيّ اليوم في حالة اضطراب يعيشها جرّاء قراءاته ، أو سماعه لهذا المصطلح ، وهو يتردّد في جميع الدراسات النقديّة الحديثة ؛ وذلك لعدم مقدرته على الربط بين المفهوم (المعجميّ العربيّ) ، الذي يعرفه ، وبين ما تبثّه الحقول المعرفيّة في المصطلح من مفاهيم جديدة))[(٥)]. إنّ هذا الكلام فيه الكثير من عدم الدقّة ، فعند الرجوع إلى مؤلفات القدماء يلحظ في مواضع كثيرة استعمال مصطلح (نصّ) في كلامهم ، وكان يعني المفهوم المتعارف عليه في الدراسات المعاصرة ، من ذلك ما يلحظ من قول ابن رشيق القيروانيّ [ت ٤٥٦ هـ] – في الدراسات النقديّة - ، إذ قال : ((... فهو غلط ، وسوء تأول ؛ لأنّ المقصود بهذا النصّ شعراء المشركين ...))[(٦)] . أمّا عند المفسّرين ، فاستعمال هذا المصطلح ممّا لا يُعدّ ، من ذلك قول الشيخ الطوسي [ت ٤٦٠ هـ] : ((وفي الآية دلالة على أنّ الصلاة لطف ؛ لأنّ الله تعالى أمرنا بالاستعانة بها ، وتوضيحه قوله : ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾[(٧)]، ولولا هذا النصّ لجوزنا أن يكون في غير ذلك))[(٨)] ، ومثله قول الزمخشريّ [ت ٥٣٨ هـ] : ((ودلالة على أنّ القياس يهدمه النصّ ؛ لأنّه جعل الدليل على بطلان قياسهم إحلال الله ، وتحريمه))[(٩)] . أمّا النحويون ، فقد استعملوا هذا المصطلح، من ذلك قول الصبّان [ت ١٢٠٦ هـ] : ((والمثبت لإعمالها عمل ليس هو الاستقراء ، وتلك المشابهة علة إعمال العرب إياها عمل ليس ، لا أنّ المثبت قياسنا إياها على ليس ، وتلك المشابهة جامع القياس ، إذ لا قياس مع النصّ))[(١٠)] .ووجد بعض العلماء – في العصر الحديث – مَن يرفض هذا القيد المقتصر على دراسة الجملة ، وذلك لأنّ ((وصف الجملة وحدها وصفاً نحويّاً ليس كافياً للوصف اللغويّ ، بل لا بدّ من إحداث ترابط بين النصّ، والسياق الاتصاليّ))[(١١)]، ويسعى إلى دراسة الوحدة الممثلة لتتابعات من الجمل ، والتي عُرفتْ عند الغربيين – إذ إنّ العرب كانوا يعرفون هذا المصطلح بحسب ما تقدّم – بـ (النصّ). وكان من أوائل هؤلاء اللغويين (هاريس)، الذي أطلق على نمط هذه الدراسة (النهج المجاوز للجملة) ، وقد جاء ذلك في بحثه (تحليل الخطاب)١٩٥٢، الذي اهتمّ فيه بتوزيع العناصر اللغويّة في النصوص ، واهتمّ بالربط بين النصّ ، وسياقه الاجتماعيّ . ويعتمد الرافضون لنحو الجملة على أنّ البشر عندما يتواصلون لغويّاً ، لا يُمارسون ذلك في جمل مفردة منعزلة ، بل في تتابعات مجاوزة للجملة ، مترابطة ، ولا تدرك النصوص في ذلك أساساً بوصفها أفعال تواصل فرديّة ، بل بوصفها نتائج تفاعلات متجاوزة الإفراد . وهذا يعني أنّ كلّ تحليل لغويّ يجب أن ينطلق من النصّ ؛ لكونه مجال الدرس . وتتابعت اهتمامات علماء اللغة بأبحاثهم ، ودراساتهم في تأكيد هوية علم اللغة النصيّ ، وبيان خصائصه ، وأهدافه ، وقد توّج ذلك على يد (هاليداي) الذي رسّخ مفاهيم علم لغة النصّ في اللغويات البريطانيّة . ثم ظهر كثير من الباحثين الذين قدّموا دراسات

---

(١) الكتاب : ٣ / ١٧٢ .

(٢) العربيّة من نحو الجملة إلى نحو النصّ : ٤١٦ .

(٣) ينظر : علم اللغة النصيّ بين النظرية والتطبيق ، دراسة تطبيقيّة على السور المكيّة : ١ / ٤٩ – ٥٠ ، والدرس النحويّ النصيّ في كتب إعجاز القرآن الكريم : ١٧ / ١٨ ، وأدعية الصحيفة السجاديّة ، دراسة في ضوء علم اللغة النصيّ : ١٤ .

(٤) مدخل إلى علم النصّ ، ومجالات تطبيقه : ١٨ .

(٥) المصدر نفسه : ١٨ .

(٦) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده (باب الردّ على مَن يكره الشعر) : ١ / ٢٠ – ٢١ .

(٧) سورة العنكبوت : ٤٥ .

(٨) التبيان في تفسير القرآن : ١ / ٣٥ . ومثله في : ١/ ١٩٨ .

(٩) تفسير الكشاف : ١ / ٣١٦ . ومثله في أنوار التنزيل وأسرار التأويل : ١ / ٥٧٥ ، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم : ١ / ٥٨ – ٥٩ ، ٢ / ١٤٢ ، والبحر المحيط في التفسير : ١ / ٥٣١ ، وروح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني : ١ / ١٦٤ ، ٢ / ٧١٥ .

(١٠) حاشية الصبان على شرح الأشمونيّ : ١ / ٣٨٨ .

(١١) قراءة نحويّة نصيّة في سورة (ص) : ٨ .

، وأبحاثاً أدّتْ إلى تطور هذا العلم بحيث إنّه لا يقتصر على دراسة النصّ فحسب ، بل إلى دراسة بيئته ، والثقافات المتصلة به ، ومعارفه المختلفة [1]. ويُعدّ (فان دايك) المؤسس الحقيقيّ لعلم النصّ ، وذلك في كتابيه (النص والسياق) ، و(علم النص ، مدخل متداخل الاختصاصات) ، والذي رأى أنّ علم النصّ يستهدف ((كلّ أشكال النصّ الممكنة ، وبالسياقات المختلفة المرتبطة بها))[2] . ووصل علم النصّ – عند الغربيين – مرحلة النضج على يد (روبرت دي بوجراند) ، الذي رأى ((أنّ الكيان اللغويّ المتعدّد المستويات ، لا بدّ أن يكون هو النصّ المشتمل على أجزاء يمكن لها ، أو لا يمكن أن تركب في صورة جمل))[3] . وقد فرّق بين النصّ ، والجملة بفروق ، هي [4]:

أولاً : أنّ النصّ نظام فعّال ، على حين نجد الجمل عناصر من نظام افتراضيّ .

ثانياً : الجملة كيان قواعديّ خالص ، يتحدّد على مستوى الجملة فحسب . أمّا النصّ ، فحقّه أن يُعرّف تبعاً للمعايير الكاملة للنصيّة .

ثالثاً : قيود القواعد المفروضة على البنية التجريديّة للجملة في النصّ يمكن أن يتمّ التغلب عليها بوساطة الاهتمام بتحفيزات تعتمد على سياق الموقف . فالعناصر التي يمكن فهمها من الموقف ، مثلاً من الإدراك الحسيّ ، يمكن السكوت عنها ، أو اقتضابها بوساطة المتكلّم من دون ضرر يعود على الطاقة الاتصاليّة للنصّ ، وهكذا لا ينبغي للصواب النحويّ أن يُعدّ قانوناً ، بل تعويضاً ، أي : معياراً يلجأ إليه فقط عند عدم وجود قرائن محدّدة ، أو هو تفضيل ، أي معيار يفضّل على غيره حينما تتعدّد الاحتمالات .

رابعاً: التمييز بين ما يُطابق القواعد ، وما لا يُطابقها تمييزاً ثنائيّاً عندما تكون ثمّة قواعد دقيقة ، وكاملة لضبط الجمل . فالحكم على تركيب ما بأنّه جملة ، يتمّ بمقارنة هذا التركيب بالأنماط التي تسمح بها القواعد النحويّة . أمّا التمييز بين ما يعدّ نصاً ، وما لا يعدّ نصاً ، فلا يتمّ بمثل هذه المقارنة الآليّة . فكون النصّ مقبولاً ، أو غير مقبول يتمّ بحسب تدرجات معقدة ، لا بحسب تقابل ثنائيّ .

خامساً : ينبغي للنصّ أن يتّصل بسياق يكون فيه ، تتفاعل فيه مجموعة من المرتكزات ، والتوقعات ، والمعارف ، وهذه البيئة الشاسعة تسمّى سياق الموقف .

سادساً : لا يمكن النظر إلى النصّ على أنّه مجرّد صورة مكوّنة من الوحدات الصرفيّة ، أو الرموز . فالنصّ تجلٍّ لعمل إنسانيّ ، ينوي به الشخص أن ينتج نصاً ، ويوجّه السامعين إلى أن يبنوا عليه علاقات من أنواع مختلفة .

سابعاً : النصّ توالٍ من الحالات ، فالحالة المعلوميّة ، والحالة الانفعاليّة ، والحالة الاجتماعيّة لمستعمليّ النصّ عرضة للتغيير بوساطة النصّ . لذا يأتي إنتاج النصّ ، وفهمه في صورة توالٍ من الوقائع .

ثامناً : الأعراف الاجتماعيّة تنطبق على النصوص أكثر ممّا تنطبق على الجمل ، فالوعي الاجتماعيّ ينطبق على الوقائع ، لا على أنظمة القواعد النحويّة .

تاسعاً : العوامل النفسيّة أوثق علاقة بالنصوص منها بالجمل . فحدود الجملة يتمّ تعيينها بعد إنتاج النصّ ، ويُستغنى عنها في المراحل الأولى للفهم .

ورأى (دي بوجراند) أنّ تحقّق النصيّة تحتاج إلى معايير تؤكد وجودها ، فقال : ((وأنا اقترح المعايير التالية [5] لجعل النصيّة أسلساً مشروعاً لإيجاد النصوص ، واستعمالها))[6] . ثمّ عدّ سبعة معايير ، هي : السبك ، والالتحام ، والقصد ، والقبول ، ورعاية الموقف ، والتناص ، والإعلاميّة . وقد نفى كون ((هذه المعايير جديدة بطبيعة الحال ، ولكنّ علاجها حتى هذه اللحظة جاء مفرّقاً ، ومدمجاً ... ولكن يظهر من النظرة الفاحصة أنّه لا يمكن لواحد من هذه المعايير أن يفهم دون التفكير في العوامل الأربعة جميعاً : اللغة، والعقل ، والمجتمع ، والإجراء ... أمّا أن يمكن ، أو لا يمكن لشيء أن يعدّ نصّاً ، فذلك يتوقف على مراعاة هذه المعايير))[7] .

وظيفة نحو النصّ : لعلّ من المناسب – في هذا المبحث – التعرّف على الوظيفة التي يؤدّيها نحو النصّ ، فما عمل نحو النصّ ؟ ، أإحصائيّ ، استقرائيّ ؟ أم هو عمل تفسيريّ للنص ؟ أم هو تقويميّ يبحث عن تحقّق المعايير في النصّ موضوع الدراسة ، أم النظر إلى النصّ ، هل استعمل وسيلة التماسك المناسبة ، التي وظّفتْ اللفظ الموجز الفصيح ؛ لإعطاء المعنى الدقيق البليغ ؟ ، يرى بعض الباحثين أنّ ((الهدف الأساسيّ لما أطلق عليه لسانيات النصّ ، ليس إيجاد الترابط بين الوحدات اللغويّة الأساسيّة في النظام اللغويّ فحسب ، وإنّما إيجاد علاقة هذه الوحدات – أيضاً – بظاهرة النصّ ... وأجزائه من جهة ، وسلوك المتحدثين الاجتماعيّ ، ومع التصرّف الاجتماعيّ للمتحدثين من جهة أخرى))[8]. في حين يرى فان دايك ((من الناحية الوظيفيّة ، فإنّ هذا العلم يُعنى بشرح كيفيّة قيام النصّ بوظائفه ، أي بتحليل الخواص المعرفيّة العامة ، التي تجعل من الممكن إنتاج البيانات النصيّة المعقّدة في مرحلة الأداء ، وإعادة إنتاجها بالفهم في مرحلة التلقي))[9]. ويؤكد صلاح فضل أنّ الاتجاهات البلاغيّة الجديدة تمضي في تكوين مشروع البلاغة النصيّة ، الذي يصبّ بدوره في مجال التوحيد بينها ،

---

(1) ينظر : علم اللغة النصيّ بين النظريّة والتطبيق : ١ / ٢٣ – ٢٤ ، علم اللغة النصيّ بين النظريّة والتطبيق ، الخطابة النبويّة أنموذجاً : ٣ – ٤ ، نحو النصّ نظرية وتطبيق ، سورة آل عمران أنموذجاً : ١٩ – ٢٠ .

(2) علم النص ، مدخل متداخل الاختصاصات : ١٤ .

(3) النصّ والخطاب والإجراء : ٨٩ .

(4) ينظر : النصّ والخطاب والإجراء : ٨٩ – ٩٣ .

(5) كذا ، والصحيح : الآتية .

(6) النصّ والخطاب والإجراء : ١٠٣ .

(7) المصدر نفسه : ١٠٥ – ١٠٦ .

(8) أسس لسانيات النصّ : ١٣ .

(9) بلاغة الخطاب وعلم النصّ : ٣٢٢ .

وبين علم النصّ [١] ، فقد أجمع الباحثون على أنّ البلاغة هي الأفق المنشود والملتقى الضروري للتداوليّة ، وعلم النصّ ، على أنّ تحول البلاغة الجديدة في الواقع إلى علم النصّ يرتبط بمدى قدرة البلاغة في الثقافات المختلفة على تكوين أنموذج جديد لإنتاج الخطاب بكلّ أنماطه ، وكلّ التعريفات التي أعطيت للبلاغة في تأريخها الطويل تتوحّد من منظور عام بعدّها علم إنتاج النصّ[٢]، ((فإحلال مصطلح علم النصّ محل البلاغة ، أو وضعه بجوارها بعد تحديدها على الأقلّ مؤشر ضروريّ للتحول في التأريخ العلميّ ، وانعطاف نحو أفق منهجيّ مخالف للمسار القديم ممّا تفرضه نظريات العلم ، ونماذجه ، وتدعو إليه بقوة حركة الإبداع في النصوص المنتمية للأجناس المختلفة ، والفكر الذي يدور حولها ويتمثّل كيفيّة إنتاجها))[٣]. من ذلك يمكن القول : إنّ نحو النصّ منهج تقويميّ للنصوص ، يمكننا من الحكم على نصّ ما بالجودة ، إذا ما وجدنا فيها المعايير النصيّة متوافرة ، ومتضافرة عند انتاج النصّ .

الفصل الأول : السبك

السبك في اللغة والاصطلاح :

السبك لغةً : هو من ((تسبيكك من الذهب ، أو الفضّة ، تُذاب فتفرغ في مسبكة)) [٤]. ومن المجاز فيه ، ((هذا كلام لايثبت على السبك ، وهو سبّاك للكلام . وفلان قد سبكته التجارب))[٥]. **السبك اصطلاحاً :** لم أجد تعريفاً للسبك في معاجم المصطلحات العربيّة ، ولكنّ عدم وجود تعريف لا يعني عدم استعمالهم له ، ولمشتقّاته ، فقد استعمله علماء البلاغة ، والنحو ، إذ استعمله الجاحظ [ت ٢٥٥ هـ] ، في وصفه لأجود الشعر ، إذ قال : ((وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء ، سهل المخارج ، فتعلم بذلك أنّه قد أفرغ إفراغاً واحداً وسُبك سبكاً واحداً))[٦] ، واستعمله أبو هلال العسكريّ[٧] [ت ٤٠٠ هـ] ، واستعمله من النحويين الرضيّ[٨] [ت ٦٨٨ هـ] ، والصبّان[٩] ، إذ استعمله الصبّان ، ومن قبله الأشمونيّ [ت ٩٠٠ هـ] للدلالة على ترابط الكلام ، فاستعملاه في دلالة الاسم الموصول ، والمعرّف بـ (ال) على معلوم ، فكان الإخبار بالذي ، والألف واللام ؛ لقصد الاختصاص ، أو تقوي الحكم ، أو تشويق السامع ، أو إجابة المخاطب الممتحن ، وقد سمّياه – الأشمونيّ والصبّان –باب السبك ، وشرحه الصبّان قائلاً : ((أي سبك كلام من كلام آخر))[١٠]. يُزاد على ذلك أنّ السيوطيّ قد استعمل مصطلح (الانسجام) ، وهو يقرب في مفهومه من مصطلح السبك ، إذ قال : ((هو أن يكون الكلام لخلوّه عن العَقدة متحدّراً كتحدّر الماء المنسجم ، ويكاد لسهولة تركيبه ، وعذوبة ألفاظه أنْ يسيل رقّةً . والقرآن كلـّه كذلك))[١١] .

السبك في الدراسات النصّيّة الحديثة :

من أكثر الظواهر اللافتة للنظر في نحو النصّ ، كثرة المصطلحات الدالـّة على مفهوم واحد ، واستعمال المصطلح الواحد في مفهومين مختلفين ، وسبب ذلك يعود إلى كون نحو النص منهجاً غربيّاً منقولاً إلى لعربيّة عن طريق الترجمة ؛ لذا قد اختلفت المصطلحات فيه ، وتكاثرت . فمصطلح الاتساق الذي وضعه هاليداي ورقيّة حسن ، يقابله السبك عند روبرت دي بوجراند ، وهو المعيار الأوّل من المعايير السبعة التي جعلها شرطاً لتحقّق النصّ ، قال : ((وهو يترتب على إجراءات تبدو بها العناصر السطحيّة على صورة وقائع يؤدّي السابق منها إلى اللاحق بحيث يتحقّق لها الترابط الرصفيّ ، وبحيث يمكن استعادة هذا الترابط))[١٢] ، في حين يرى هاليداي ورقيّة حسن أنّ ((مفهوم الاتساق مفهوم دلاليّ ، إنّه يحيل إلى العلاقات المعنويّة القائمة داخل النصّ ، والتي تحدّده كنصّ))[١٣]. ولم يكن هذا المصطلح واحداً عند الباحثين العرب – عند ترجمته – ، فقد استعملوا مصطلحات[١٤] عدّة ، لعلّ من أهمها : الاتساق[١٥]، الانسجام[١٦] ، الترابط [١٧] ، الترابط القواعديّ[١٨] ، التماسك[١٩] ، الربط اللفظيّ[٢٠] ، الربط النحويّ[٢١]، السبك[٢٢]، وقد حاول د . تمام حسان أن يصوغ تعريفاً للسبك ، فقال : ((السبك إحكام علاقات الأجزاء ، ووسيلة ذلك إحسان استعمال المناسبة المعجميّة من جهة ، وقرينة الربط النحويّ من جهة أخرى ، واستصحاب الرتب النحويّة إلاّ حين تدعو دواعي الاختيار الأسلوبيّ ، ورعاية الاختصاص ، والافتقار في ترتيب

---

[١] ينظر : بلاغة الخطاب وعلم النصّ : ٣٢٢ .

[٢] ينظر : بلاغة الخطاب وعلم النصّ : ٣٢٣ – ٣٢٥ .

[٣] المصدر نفسه : ٣٢٦ .

[٤] كتاب العين : ٥ /٣١٧ . وينظر : تاج اللغة وصحاح العربيّة : ٤ /٩٦٦ ، ومعجم مقاييس اللغة : ١ /٥٨٤ -٥٨٥ ، وأساس البلاغة : ٢٨٢ ، و لسان العرب : ٢ /١٧٤٨ ، والقاموس المحيط : ٨٦٨ (سبك).

[٥] أساس البلاغة : ٢٨٢ .

[٦] البيان والتبيين : ١ /٦٧ . وينظر : السبك النصّيّ في القرآن الكريم ، دراسة تطبيقيّة في سورة الأنعام : ٤٨ – ٥١ .

[٧] ينظر : كتاب الصناعتين : ١٥٣ – ١٥٤ .

[٨] ينظر : شرح الرضيّ على الكافية : ٣ /٣١ .

[٩] ينظر : حاشية الصبّان على شرح الأشمونيّ : ١ / ٢٣٧ .

[١٠] حاشية الصبّان على شرح الأشمونيّ : ٤ /٧٦ .

[١١] معترك الأقران في إعجاز القرآن : ١ /٢٩٢ .

[١٢] النص والخطاب والإجراء : ١٠٣ .

[١٣] لسانيات النصّ ، مدخل إلى انسجام الخطاب : ١٥ .

[١٤] ينظر : السبك في العربيّة المعاصرة بين المنطوق والمكتوب : ٤ – ٦ . وينظر : السبك النصّيّ في القرآن الكريم،دراسة تطبيقيّة في سورة الأنعام : ٥١ – ٥٢ .

[١٥] ينظر: لسانيات النص ، مدخل إلى انسجام الخطاب : ١١ .

[١٦] ينظر : مدخل إلى علم النصّ ومجالات تطبيقه : ٨٦ .

[١٧] ينظر : أصول تحليل الخطاب في النظريّة النحويّة العربيّة ، تأسيس نحو النصّ : ١ /٢٥ .

[١٨] ينظر : أسس لسانيّات النصّ : ١٥١ .

[١٩] ينظر : علم اللغة النصّيّ بين النظريّة والتطبيق ، دراسة تطبيقيّة على السور المكـّيّة : ١ / ٩٣ .

[٢٠] ينظر : علم لغة النصّ ، النظريّة والتطبيق : ٩٩ .

[٢١] ينظر : علم لغة النصّ ، المفاهيم والاتّجاهات : ١٤٥ .

[٢٢] ينظر : نظريّة علم النصّ ، رؤية منهجيّة في بناء النصّ النثريّ : ٧٨ .

الجمل))[1] ، أمّا محمد خطابي ، فعرّف الاتساق / السبك ، بقوله : ((ذلك التماسك الشديد بين الأجزاء المشكلة لنصّ / خطاب ما ، ويهتم فيه بالوسائل اللغويّة (الشكلية) التي تصل بين العناصر المكوّنة لجزء من خطاب ، أو خطاب برمّته))[2] . ويقوم هذا المعيار النصّيّ بدراسة الروابط الشكليّة التي تحقق للنص تماسكه ، وقد قُسّمتْ على خمسة مباحث : الإحالة ، الاستبدال ، الحذف ، الاتّساق المعجميّ ، الوصل . وسيقوم البحث بدراسة السور المدنيّة في ضوء هذه المباحث ، مع مراعاة ما للغة العربيّة من خصوصيّة في التعبير ، قد لا توافق التنظير الغربيّ ، فقد يوجد في العربيّة ما يكون خارج النظريّة النصّية الغربيّة . وفيما يأتي تفصيل الكلام على كلّ مبحث :

المبحث الأول : الإحالة :

الإحالة لغةً : ((حال الحول ،وهو يحول حولاً وحؤولاً وأحال الشيء إذا أتى عليه حول كامل ... وحال الشيء يحول حؤولاً ، يكون تغييراً ، ويكون تحويلاً ... والحائل كلّ شيء يتحرك من مكانه ، أو يتحول من موضع إلى موضع ، ومن حال إلى حال)) [3]. **الإحالة اصطلاحاً :** عرّف الكفويّ الإحالة تعريفاً ، لم يفارق فيه معناها اللغويّ ، قال : ((أحال الرجل في المكان : قام فيه حولاً))[4] . وعرّفها التهانويّ تعريفا أقرب إلى العلم التجريبيّ ، قائلاً : ((تغيير الشيء في الكيفيّات كالتسخين والتبريد ،ويلزمها الاستحالة كالتسخّن والتبرّد))[5] . والإحالة – موضوع البحث – تمسّ المعنى اللغويّ ولو مسّاً خفيفا ؛ وذلك أنّ معنى دوران الحول يحمل في طيّاته الرجوع إلى اليوم الذي بدأ به ، والإحالة في الدراسة النصيّة ، تعني رجوع عناصر الإحالة إلى المُحال عليه المقصود منها ، عند استعمالها في الكلام . ولم يكن مفهوم الإحالة غائباً عن أذهان علماء العربية القدماء ، فالزركشيّ –مثلاً – يُقرّر أنّ الأصل تقديم ما يدلّ على الضمير عند استعماله ، ويُشير إلى دلالة الضمير على صاحبه بتضمّن معناه في الكلام ، أو أن يعود الضمير على بعض ما تقدّم [6]، وزاد على ذلك بوقوع عناصر أخرى تسدّ مسدّ الضمير ، وأغلبها ممّا جاءت به الدراسات النصيّة ، قال : ((قد يسدّ مسدّ الضمير أمور : منها الإشارة ... ومنها الألف واللام ... ومنها الاسم الظاهر ، بأن يكون المقام يقتضي الإضمار ، فيعدل عنه إلى الظاهر))[7]. يتبيّن من كلام الزركشيّ أنّ معظم عناصر الإحالة كان متعارفاً عليها في ربط أجزاء الكلام ، فلم يكن ما جاء به علماء النصّ المحدثون أمراً جديداً ، أو غير مطروق في الدراسات العربيّة القديمة ، بل كانتْ لهم إشارات في نظم الكلام ، تفوق ما جاء به المحدثون ، ولعلّ العبارة الأخيرة للزركشيّ خير مثال على ذلك ، فقد يعاد استعمال الاسم ثانياً ، ((والأصل أنّه إذا ذكر ثانياً أن يُذكر مضمراً للاستغناء عنه بالظاهر السابق . وللخروج على خلاف الأصل أسباب))[8] ، ومن الأسباب التي ذكرها لذلك : التعظيم ، والإهانة والتحقير ، وإزالة اللبس ، والقصد إلى تربية المهابة ، والخصوص، وغيرها [9].

الإحالة في الدراسات النصيّة الحديثة : عُرفت الإحالة في الدراسات النصيّة بكونها عنصراً من عناصر السبك النصّيّ ، فقد جعل هاليداي ورقيّة حسن الإحالة أحد العناصر الخمسة التي يتحقّق بها الاتساق في اللغة الانكليزيّة [10] . ويرى الباحثان أنّ ((العناصر المحيلة كيفما كان نوعها لا تكتفي بذاتها من حيث التأويل ، إذ لا بدّ من العودة إلى ما تشير إليه من أجل تأويلها . وتتوفر كلّ لغةٍ طبيعيّة على عناصر تملك خاصّيّة الإحالة ، وهي حسب الباحثين : الضمائر ، وأسماء الإشارة ، وأدوات المقارنة))[11] . ويرى فان دايك أنّ ((علم دلالة الإحالة يتيح إعادة بناءٍ مجرّد للواقع ، بحيث يمكننا ربط وحدات مجموعة في اللغة (كلمات ومقولات وعلاقات) بوحدات مجرّدة في الواقع الخارجيّ ؛ وذلك من خلال المعاني المفهوميّة لوحدات اللغة ... وينتج عن ذلك أنّه في علم الدلالة هذا يرتبط المعنى والإحالة ارتباطاً شكليّاً ، فمعنى المنطوقات مساوٍ للتفسير المفهوميّ لهذه المنطوقات ، وتكون العلاقة بأوجه تحقّق لهذه التصورات في العوالم الممكنة المختلفة في أثناء إحالتها))[12] . ويرى روبرت دي بوجراند أنّ الإحالة هي ((العلاقات بين العبارات والأشياء والأحداث والمواقف في الذي يُدلّ عليه بالعبارات ذات الطابع البدائليّ في نصٍّ ما ، إذ تشير إلى شيء ينتمي إلى نفس عالم النص ، أمكن أن يُقال عن هذه العبارات إنّها ذات إحالة مشتركة))[13] . ويُركز دي بوجراند في الإحالة على ما سمّاه (الألفاظ الكنائيّة) ، ويرى أنّها تنماز بميزات ، منها [14] :

١- أنّ للألفاظ الكنائيّة مدًى أوسع من حيث إمكانيّة التطبيق ، إذ إنّها تصلح أن تكون محيلاً على أيّ شيء ، سواءٌ أكان ذلك ماديّاً أم معنويّاً ، نصيّاً أم مقاميّاً .

٢- خلوّها من أيّ محتوًى ذاتيّ ، ومعنى ذلك أنّها لا دلالة لها في ذاتها ، وإنّما دلالتها ممّا تحيل عليه .

---

(1) البديع بين البلاغة العربيّة واللسانيات النصيّة : ٧٨ – ٧٩ . وينظر : السبك النصيّ في القرآن الكريم : ٥٣ – ٥٤.
(2) لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب : ٥ .
(3) كتاب العين : ٣ / ٢٩٧ – ٢٩٨ (حول) .
(4) الكليّات : ٤٧ .
(5) كشّاف اصطلاحات الفنون : ١ / ٥٠١ .
(6) ينظر : البرهان في علوم القرآن : ٤ / ١٩ – ٢٥ .
(7) المصدر نفسه : ٤ / ٢٧ – ٢٨ .
(8) المصدر نفسه : ٢ / ٢٩٧ – ٢٩٨ .
(9) المصدر نفسه : ٢ / ٣٠٠ – ٣٠٤ .
(10) ينظر : لسانيّات النص : ١١ .
(11) لسانيات النصّ : ١٦ – ١٧ . وينظر : علم اللغة النصّيّ بين النظريّة والتطبيق ، دراسة تطبيقيّة على السور المكيّة : ١ / ١١٦ .
(12) علم النصّ ، مدخل متداخل الاختصاصات : ٥٠ – ٥٢ .
(13) النص والخطاب والإجراء : ٣٢٠ . وينظر : إشكالات النص : ٣٤٧ .
(14) ينظر : المصدر نفسه : ٣٢٠ .

٣- الألفاظ الكنائيّة في العادة أكثر اختصاراً ممّا يشاركها في الإحالة ، ومعنى ذلك أنّ (الضمائر ، وأسماء الإشارة ، والأسماء الموصولة) مكوّنة في الغالب من حروف أقلّ عدداً من حروف المحال عليه . ومع الاستبدال تكون هذه الميزة أكثر ظهوراً .

٤- تخضع الألفاظ الكنائيّة لقيود عند ورودها ، كي لا يتحوّل الإفهام إلى إشكال ، بمعنى أنّ مرجعيتها تتضح عن طريق بعض الخصائص كالتذكير والتأنيث ، والعدد ، وغيرها .

٥- تحتاج الألفاظ إلى شكل خارجيّ متميّز ، كالتفريق بين ضمائر المذكر والمؤنّث ، ومثل أن تبدأ أسماء الإشارة في الانكليزية بالحرفين (th) . وهذا ما يلحظ –أيضاً – في اللغة العربيّة التي تنماز هذه الألفاظ فيها بوجود حروف مشتركة بين ألفاظها المستعملة للإحالة .

فالإحالة بحسب ما يتّضح ممّا تقدّم ، ((عبارة عن ألفاظ ترد في نصّ لغويّ لا تُفهم إلاّ بواسطة [١] علاقتها بألفاظ أخرى داخل النصّ أو بعلاقتها بالواقع الخارجيّ من سياقٍ خاصّ أو معارفٍ عامّة . ولا يمكن تقييد الألفاظ الإحاليّة بكونها (لا تملك دلالة مستقلّة) وقيّدتها بعض البحوث النصّية ، إذ إنّها قد تملك دلالةً مستقلّةً ، ولكنّ فهم تلك الدلالة لا يمكن أن يكتمل إلاّ باستحضار ما تحيل إليه تلك الألفاظ))[٢]. ومن أشهر العناصر الإحاليّة : الضمائر ، وأسماء الإشارة ، والأسماء الموصولة ، والتعريف بـ (ال) . وكان هاليداي ورقيّة حسن قد أدخلا أداة التعريف في العناصر الإشاريّة . ورأى محمّد الشاوش عدم صحّة عدّ الإحالة القائمة على المقارنة بما فيها المقارنة القائمة على التشبيه من عناصر الإحالة ؛ لأنك إذا عددتَ هذه ((الظاهرة الدلاليّة التركيبيّة من قبيل الإحالة ، فتحت باباً يصعب عليك أن تغلقه ، إذ سيدخل فيه جميع البنى الدلاليّة التركيبيّة التي تقتضي عنصرين اثنين بما في ذلك الصيغ الدالّة على المشاركة ، بل و حتّى الأفعال التي لا تتحقّق إلاّ بتوفر عدد معيّن من العناصر ... والملاحظ أيضاً أنّ وجوه المقارنة هي أقرب إلى السمات الدلاليّة منها إلى المبهمات أو العناصر الإحاليّة))[٣] . وقد نبّه محمّد الشاوش إلى أنّ عدّ المقارنة من عناصر الإحالة يرجع إلى ((خصوصيّة في اللغة الانقليزيّة أوهمتْ بذلك ، وإذا ما تجاوزنا خصوصيّة هذه اللغة لاحظنا أنّ الإطار الأنسب لتناول مظاهر الربط هذه ليس عمليّة المقارنة في حدّ ذاتها ، وإنّما ما يصحبها من عمليات أخرى تعود أساساً إلى الإضمار والحذف))[٤] . وفي كلامه كثيرٌ من الدقة ، إذ إنّ كلّ استعمالٍ لأدوات المقارنة ، يصحبها استعمال عناصر الإحالة الأخرى ، ولذا يرى البحث أن تخرج أدوات المقارنة من الإحالة ، وأن تكون عنصراً من عناصر الوصل ، فقد تقدّم في كلام الشاوش أن المقارنة تقتضي عنصرين ، وأنّها أقرب إلى السمات الدلاليّة – بحسب ما سيظهر في البحث – وتنقسم الإحالة في النصّ إلى قسمين :

الإحالة المقاميّة : وهي الإحالة التي تحتاج في فهم العنصر الإحاليّ إلى معرفة سياق الموقف ، أو المعرفة بالظروف التي ينتج فيها الخطاب ، من متكلم ومخاطب ، وزمان ، ومكان . وعلى الرغم من أنّ الإحالة المقاميّة لا تسهم في تماسك النصّ بشكلٍ مباشر ، فإنّ ذلك لا يلغي أثرها في فهم النصّ ، وتفسير كثير من الألفاظ والعبارات فيه . إنّضمائر المتكلّم ، أو المخاطب ، أو الغائب ، زيادة على ظروف النص ، من زمانٍ ، ومكان ، وأحداثٍ ، لا يمكن تفسيرها بعيداً عن الموقف الذي أنتج فيه النصّ [٥] .

الإحالة النصّيّة : وهي إحالة عنصرٍ لغويّ على عنصرٍ لغويّ آخر مذكور في النصّ ، وهذه الإحالة تُسهم في ربط أجزاء النصّ بعضها ببعض ، ممّا يُفضي إلى تماسك النص . ولهذه الإحالةأنواع مختلفة ، ومعايير مختلفة ، لعلّ من أهمّها : موضع العنصر اللغويّ المُحيل بالنظر للعنصر المُحال عليه ، ونوع العنصر المُحال عليه . فهي ، بالنظر إلى موضع العنصر المُحيل والمُحال عليه ، نوعان[٦] ، هما :

أ- إحالة الضمير على متقدّم : إذ يشير العنصر المُحيل على ما تقدّمه من العناصر اللغويّة المختلفة ، وهذه الإحالة أكثر شيوعاً من الحالة الثانية .

ب- إحالة الضمير على متأخّر : إذ يشير العنصر المُحيل على ما تأخر عنه في النصّ .

وممّا يلفت النظر أنّ بعض العناصر تصلح أن تكون عناصر إحاليّة ، وتصلح أن تكون عناصر استبداليّة ، وخاصّة أسماء الإشارة ، التي تحيل أحياناً على عنصرٍ لغويٍّ مفرد ، وتحيل أحياناً على جملةٍ أو جملٍ عدّة ؛ ولذا قد سمّى هاليداي ورقيّة حسن الإحالة باسم الإشارة المفرد بـ (الإحالة المُوسّعة) ، ((أي إمكانيّة الإحالة على جملة بأكملها أو متتالية من الجمل))[٧]. وقد يصل الأمر إلى أن يصعب معرفة كون اسم الإشارة عنصرا إحاليّا أو عنصرا استبداليّا في النص . فقد يَرد اسم الإشارة في نصٍّ ، ونقول إنّه يحيل على جملٍ متقدّمةٍ ، ولا سيّما إذا اقترن بـ (كاف) التشبيه في اسم الإشارة (كذلك) ، وقد نقول إنّه جاء مُستبدِلاً لها في النصّ . ومن ذلك تتّضح صعوبة أن نجعل معايير النصّ الغربيّة هي هي معايير نصٍّ للغة العربية ، ولا سيّما النصّ القرآنيّ الكريم . فالعربيّة لها خصوصيّاتها اللغويّة ، والنصّ القرآنيّ له استعمالاته اللغويّة التي تميّزه من باقي نصوص العربيّة . وزيادة على ذلك ، فقد لا يستعمل اسم الإشارة عنصراً إشاريّاً مُحيلاً ، بل يؤتى به على سبيل الاستئناف في العربيّة ؛ الغرض منه استئناف الكلام ، وسيُمثّل له في الصفحات الآتية . أمّا الأسماء الموصولة ، فتتّخذ نمطين من الاستعمال في العربيّة : فهي عنصرٌ إحاليّ إذا جاءتْ في مواضع معيّنة ، وقد تقدّمها كلام سابق عليها ، وتكثر هذه الإحالة عندما تكون في موقع الصفة ؛ وهي عنصر مُستقلّ بذاته ، إذا جاءتْ في أوّل الكلام ،

---

(١) كذا ، والصحيح : بوساطة .
(٢) إشكالات النص : ٣٤٧ – ٣٤٨ .
(٣) أصول تحليل الخطاب في النظريّة النحويّة العربيّة ، تأسيس نحو النص : ١/ ١٣٠ .
(٤) المصدر نفسه : ١ / ١٣٠ .
(٥) ينظر : إشكالات النصّ : ٣٤٩ .
(٦) ينظر : لسانيّات النصّ : ١٧ . وينظر : مدخل إلى علم النصّ ومجالات تطبيقه : ٩٠ .
(٧) لسانيات النصّ : ١٩ .

وكانتْ أحد طرفي الإسناد في الجملة العربيّة ، إلاّ إذا عُدّتْ إحالةً مقاميّةً على مُحالٍ عليه خارج النصّ ، بل قد تكون ذات دلالة عامّة تصلح لكلّ زمان ، وهو ما سيُلحظ في البحث.

وسيقوم البحث على عدّ كلّ العناصر التي ذكرها علماء النص الغربيّون ، والعرب عناصر إحاليّة ، عدا أدوات المقارنة ، التي يرى البحث أنّها أقرب إلى أن تكون أداةً للوصل في النص القرآنيّ الكريم ، ونادراً ماتكون دالّة على إحالة على متقدّمٍ ، أو مُتأخّر . زيادة على ما سيظهر للبحث من إحالةٍ تنماز بها اللغة العربيّة أوّلاً ، والنصّ القرآنيّ الكريم ثانياً . إذ لوحظ أنّ النصّ القرآنيّ الكريم قد استعمل أسماءً صريحةً ، أحال بها على متقدّم ، أو متأخّر نصّيّاً ، أو أحال بها مقاميّاً على مُحالٍ من خارج النص . ووجد البحث أنّ بعض المعايير التي وضعها الغربيّون ، وتبعهم فيها العرب المحدثون ، في بعض عناصر الإحالة، في النصّ القرآنيّ الكريم ما يُخالفها ، فقد اشترط علماء النصّ الغربيّون التطابق الدلاليّ بين المُحيل والمُحال عليه ، وعدّوه العلامة الفارقة بين الإحالة والاستبدال [(1)]. ولكنّ البحث وجد في مواضع كثيرةٍ ، عدم التطابق الدلاليّ بين المُحيل ، والمُحال عليه ، وعدم التطابق هذا يعود ، أمّا لخصيصة في اللغة العربيّة ، كالإيجاز ، وغيره ، أو لأنّ عدم التطابق سببه إعطاء العنصر الإحاليّ بُعداً دلاليّاً بلاغيّاً ، وهو ما يُمّثل انعكاساً للإعجاز القرآني ، الذي تحدّى فيه العرب البلغاء على الإتيان بمثله . من ذلك ، أنّ الإحالة بالضمير ، التي يُفترض أن يتطابق الضمير فيها مع الاسم الصريح ، الذي يُحيل عليه ، لوحظ أنّه قد ورد في النصّ الكريم ، إحالة الضمير على اسم غير مساوٍ له دلاليّاً ، من ذلك قوله تعالى : **﴿ وَحَسِبُوا أَلا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾**[(2)] . فالظاهر أنّ ضمير الجمع في (عموا) ، و(صمّوا) يحيل على (كثير منهم)، ومعنى هذه الكلمة يدلّ على أنّه غير شاملٍ للضمير ، إذ لو شملهم لقال : كلّهم ، لا كثير منهم ، فـ ((إسناد العمى ، والصمم إلى جمعهم أولاً ، ثم إلى كثير منهم بإتيان كثير منهم بدلاً من (واو) الجمع ، أخذ بالنصفة في الكلام بالدلالة على أنّ إسناد العمى ، والصمم إلى جمعهم من قبيل إسناد حكم البعض إلى الكلّ ،والواقع أنّ المتصف بهاتين الصفتين كثير منهم ، لا كلّهم أولاً ، وإيماء إلى أنّ العمى ، والصمم المذكورين أولاً شملا جميعهم على ما يدلّ عليه المقابلة ثانياً ، وأنّ التوبة الإلهيّة لم يبطل أثرها ، ولم تذهب سدًى بالمرّة ، بل نجا بالتوبة بعضهم ، فلم يأخذهم العمى ، والصمم اللاحقان أخيراً ثالثاً))[(3)]. ومثله قوله تعالى : **﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾**[(4)]. فقد جاء الضمير المنصوب في قوله (يرضوه) بصيغة المفرد ، على الرغم منأنّ المُحال عليه مُثنى ، هما قوله (الله ورسوله) ، وعلّل بعض المفسرين إفراد الضمير بقوله : ((وإنّما أفرد الضمير في قوله (أنْ يرضوه) مع أنّ المُعاد اثنان ؛ لأنّه أريد عود الضمير إلى أوّل الاسمين ، واعتبار [(5)] العطف من عطف الجمل ، بتقدير : والله أحقّ أنْ يرضوه ورسوله كذلك ... ومن نكتة ذلك الإشارة إلى التفرقة بين الإرضاءين))[(6)]. ويبدو الأمر على العكس من ذلك ، فجاء بإحالة المفرد على المُثنى كي لا يُفرّق بين الإرضاءين ؛ وذلك للدلالة على أنّ رضا الله هو رضا رسوله ، فمن غير المعقول - أصلاً - أنّ شيئاً يرضي الرسول في الوقت الذي يسخط الله – سبحانه وتعالى – . ففي استعمال ضمير المفرد دلالة على أنّ الإرضاء للرسول هو إرضاءٌ لله تعالى ، و((خصّ الرسول بالعائد ؛ لأنّه هو داعي العباد إلى الله ، وحجته عليهم ، والمخاطب لهم شفاهاً))[(7)]. وهذا ما ذهب إليه السيوطيّ [ت ٩١١ هـ] ، قائلاً : ((أفرد [أي الضمير] لتلازم الرضاءين))[(8)]. ومثله قوله تعالى : **﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ ﴾** [(9)]. فالذي يُلحظ أنّ معنى قوله (الحجّ أشهر معلومات) : ((أشهر الحجّ أشهر معلومات ، أو وقت الحجّ أشهر معلومات))[(10)] ، فدلّ ذلك على أنّه ((لا حجّ إلاّ في هذه الأشهر . فالأشهر على هذا متسع فيها ، مخرجة عن الظروف ، والمعنى على ذلك : ألا ترى أنّ الحجّ في الأشهر))[(11)]. فالضمير في قوله (فيهنّ) يعود على قوله (أشهر) ،والمقصود بها أشهر(شوّال – ذو القعدة – ذو الحجّة) ، ومعنى قوله (فرض فيهنّ) ، أي ((ألزم نفسه بالتلبية ، أو بتقليد الهدي ، وسوقه ... [أو] بالنيّة))[(12)] ، أو ((أوجب على نفسه فيهنّ بالحجّ ، أي فمَن أحرم فيهنّ بالحجّ بلا خلاف ، أو بالعمرة التي يتمتع بها إلى الحجّ))[(13)]. وذكر المفسّرون[(14)] أنّ الإحرام بالحجّ لا يقع إلاّ فيها ، وأنّ عدّ (ذي الحجّة) شهراً مع أنّ الحجّ في بعضه ؛ ((لأنّه قد يُضاف الفعل إلى الوقت وإنْ وقع في بعضه))[(15)]. والمسألة الأكثر أهميّة ، هي أنّ أعمال الحجّ لا يُباشر بها إلاّ في شهر ذي الحجّة ، فكيف يكون معنى قوله (فيهنّ) عائد على الأشهر ؟ ، هل يعني ذلك أنّ الضمير للكلّ ، والمقصود به

---

(1) ينظر : لسانيّات النص : ٢١ .

(2) سورة المائدة : ٧١ .

(3) الميزان في تفسير القرآن : ٦ / ٣٣٨ .

(4) سورة التوبة : ٦٢ .

(5) كذا ، والصحيح : عدّ .

(6) تفسير التحرير والتنوير : ١٠ / ١٣٦ – ١٣٧ .

(7) البرهان في علوم القرآن : ٤ / ٢٣ .

(8) معترك الأقران في إعجاز القرآن : ١ / ١٩٣ .

(9) البقرة : ١٩٧ .

(10) التبيان في تفسير القرآن : ٢ / ١٦٢ . وينظر : مجمع البيان في تفسير القرآن : ٢ / ٦٤ .

(11) مجمع البيان : ٢ / ٦٤ .

(12) تفسير الكشاف : ١ / ٢٤٠ .

(13) مجمع البيان في تفسير القرآن : ٢ / ٦٦ .

(14) ينظر : التبيان في تفسير القرآن : ٢ /١٦١ ، وتفسير الكشّاف : ١ /٢٤٠ ، ومجمع البيان : ٢ /٦٥ ، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل : ١ /٤٨٢ ،والبحر المحيط : ٢ /٢٧٩ ، والجواهر الحسان في تفسير القرآن : ١ /٤١٤، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم : ١ /٢٠٧ ،وتفسير شبّر : ٣١ ، وروح المعاني : ٢ /٦٥٧ ، وفي ظلال القرآن : ١ /١٩٦ ، والميزان في تفسير القرآن : ٢ / ٣٧٢ .

(15) التبيان في تفسير القرآن : ٢ / ١٦١ .

الجزء ؟ يبدو أنّ الحجّ لم يكن مقصوراً على ذي الحجة ، فـ ((قد وافقتْ حجة الوداع ذا الحجّة ، وكانتْ حجّة أبي بكر رضي الله عنه قبلها في ذي القعدة))[١] ؛ وذلك أنّهم ((كانوا يؤخّرون الحجّ في كلّ سنة شهراً ... ووافق حجّ المشركين في السنة التي حجّ فيها أبو بكر في ذي القعدة ، فلمّا حجّ النبيّ في العام المقبل وافق ذلك في ذي الحجّة ، فلذلك قال : ألا إنّ الزمان قد استدركه كهيأة يوم خلق السموات والأرض))[٢].وعند البحث عن عناصر الإحالة في سور القرآن المدنيّة ، يلحظ أنّ السور الكريمة قد استعملتْ تلك العناصر بكثرة ، وفيما يأتي استقراء لهذه العناصر :

الإحالة النصّيّة بالضمائر : تُعدّ الضمائر أكثر العناصر الإحاليّة وروداً في النصوص اللغويّة عامّة ، ولم يختلف النصّ القرآنيّ الكريم عن هذه السمة اللغويّة ، وهي بذلك تكون وسيلةً من وسائل تماسك النصّ . إنّ قراءة أيّ سورة من سور الكتاب الكريم ؛ بحثاً عن العناصر الإحاليّة يُظهر كثرة الضمائر الواردة فيه ، وقد يناسب عدد الضمائر الواردة في أيّ سورةٍ الأغراض التي تتناولها ، فمثلاً (سورة المنافقون) ، من أهمّ أغراض السورة تقريع المنافقين ، وبيان كثيرٍ من دخائلهم ، ونقضهم لعهد الله ، واضطرابهم في أمر العقيدة ، وإصرارهم على الإعراض عن طلب الحقّ والهدى ، وتأمر النبيّ ρ بالحذر منهم [٣] ؛ ولذا يُلحظ أنّ معظم الضمائر المُحيلة فيها ، كانتْ تُحيل على المنافقين (موضوع السورة) ، وهو ما يتبيّن من هذا الجرد للضمائر المُحيلة فيها :

إذا جاءك المنافقون :(قالوا – نشهد – اتخذوا أيمانهم – فصدّوا – إنّهم – كانوا – يعملون – بأنّهم – آمنوا ثمّ كفروا – قلوبهم – فَهُمْ لا يفقهون – رأيتهم – أجسامهم – يقولوا – لقولهم – كأنّهم – يحسبون – عليهم – هم العدوّ – فاحذرهم – قاتلهم – يؤفكون – لهم – تعالوا – لكم – لوّوا رؤوسهم – ورأيتهم – يصدّون – هم – عليهم – لهم – لهم – هم - يقولون – لا تنفقوا – لا يفقهون – يقولون – رجعنا – لا يعلمون) .

ولأنّ أفعالهم السيّئة كانتْ موجّهةً في أساسها إلى مُبلّغ الرسالة ، الرسول ρ ، فقد كانت الضمائر التي تُحيل على الرسول في المرتبة الثانية من حيث العدد ،فقد بدأت السورة الكريمة بقوله تعالى : **﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾**[٤] ، يلحظ أنّ الضمير المنصوب في قوله (جاءك) ، يُحيل إحالتين ، فهو يُحيل مقاميّاً على الرسول ؛ وذلك لأنّ الضمير لم يسبقه كلام ليُحيل عليه ، فهو يُحيل نصّيّاً على قوله (لرسول الله) ، وبذلك تكون الإحالة بعديّة . وعند استقراء الضمائر الأخرى المُحيلة عليه ، يلحظ ما يأتي : (إنّك لرسول الله – إنّك – رأيتهم – تُعجبك - – تسمع – فاحذرهم – يستغفر – رأيتهم – استغفرتَ – تستغفر) .في حين أنّ الضمائر التي ترجع إلى الذين آمنوا أقلّ بكثير ممّا يرجع للمنافقين ، فالضمائر العائدة للذين آمنوا ، هي : (يا أيّها الذين آمنوا – لا تلهكم – أموالكم – أولادكم – أنفقوا – رزقناكم – أحدكم – تعملون) . ويوجد في السورة الكريمة مجموعة من الضمائر ، تُحيل على اسم الجلالة (الله) ، وهي : (يعلم – لرسوله – يشهد – لا يهدي – لرسوله – رزقناكم – أخّرتني) . إنّ وجود هذا العدد من الضمائر ، في سورةٍ مكوّنة من إحدى عشرة آيةً ، يدلّ على قوّة التماسك الموجود في السورة الكريمة، فهي تربط العبارات ، والجمل ، وتخلق صفة النصّيّة في السورة الكريمة .

ومثلها في ذلك (سورة المُمتحنة) ، التي تناولتْ أغراضاً عدّةً[٥]، معظمها يتعلّق بالمؤمنين ، والمؤمنات ، وتحذيرهم من اتخاذ المشركين أولياء من دون الله تعالى ، وتشبيه حالهم بحال إبراهيم ﷺ مع أبيه ، وقومه ؛ لذلك يلحظ أنّ مُعظم الضمائر كانتْ تُحيل على المؤمنين ، وعلى مَن يقابلهم من الكافرين . ولأنّ التحذير ، والتشريع كان من الله تعالى ، فقد كثرت الضمائر التي تُحيل على اسم الجلالة ، زيادة على أنّ في النصّ ضمائر ، ترجع إلى الرسول ρ؛ لكونه المُبلّغ للأمر الإلهي. وعند استقراء الضمائر في السورة ، يتبيّن الآتي : يبدأ النصّ بقوله تعالى : **﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ...﴾** [٦] ، ثمّ تأتي الضمائر التي تُحيل عليهم ، وهي : (تتخذوا - عدوّكم – تُلقون – جاءكم – وإيّاكم – تؤمنوا – ربّكم – كنتم – خرجتم – تُسرّون – أخفيتم – أعلنتم – منكم – يثقفوكم – لكم – إليكم – تكفرون – تنفعكم – أرحامكم – أولادكم – بينكم – تعملون – لكم – لكم – بينكم – عاديتم – ينهاكم – يُقاتلوكم – يُخرجوكم – دياركم – تبرّوهم – تُقسطوا – آمنوا – جاءكم – فامتحنوهنّ – علمتموهنّ – ترجعوهنّ – وآتوهم – عليكم – تنكحوهنّ – آتيتموهنّ – تُمسكوا – واسألوا – أنفقتم – بينكم – فاتكم – أزواجكم – فعاقبتم – فآتوا – اتقوا – أنتم – آمنوا –تتولّوا) . والمؤمنات جزء من المجتمع المسلم ، والتحذير شامل لهنّ فيبدأ ذكر المؤمنات عند قوله تعالى : **﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ ... ﴾**[٧] ، ثمّ أعقب ذلك بالضمائر العائدة عليهنّ ، وهي : (امتحنوهنّ – بإيمانهنّ – علمتموهنّ – ترجعوهنّ – هنّ – لهنّ – تنكحوهنّ – أجورهنّ – يُبايعنك – يشركنَ – يسرقن – يزنين – يقتلن – أولادهنّ – يأتين – يفترينه – أيديهنّ – أرجلهنّ – يعصينك – فبايعهنّ – لهنّ) . ولأنّه شبّه حالهم بحال إبراهيم ﷺ ، والذين آمنوا معه ، فقد أحال عليهم بعدد من الضمائر ؛ حتى يكون حالهم قدوةً لهم ، وذلك كما يأتي : **﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ ... ﴾**[٨] ، ثمّ أعقبه بالضمائر المُحيلة الآتية : (قالوا– لقومهم – إنّا – كفرنا – بيننا – لأبيه – لأستغفرنّ – أملك – ربّنا– توكلنا – أنبنا – ربّنا – تجعلنا – اغفرْ – ربّنا – فيهم) . وجاءت الآية الأولى في السورة بضمير يُحيل على اسم الجلالة الأعظم ، وهي إحالة مقاميّة ، وذلك في قوله تعالى : **﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ ...﴾** ، ثمّ أعاد ذكره أمّا بالاسم الصريح ، أو

---

(١) تفسير الكشاف : ٢ / ٢٦١ .

(٢) التبيان في تفسير القرآن : ٥ / ١٩٦ .

(٣) ينظر : بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز : ١ / ٤٦٥ ، والميزان في تفسير القرآن : ١٩ / ٢١٦ .

(٤) سورة المنافقون : ١ .

(٥) ينظر : بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز : ١ / ٤٦٠ .

(٦) سورة الممتحنة : ١ .

(٧) سورة الممتحنة : ١٠ .

(٨) سورة الممتحنة : ٤ .

بصفةٍ من صفاته ، أو بالضمائر التي تُحيل عليه ، وهي : (عدوّي –ربّكم – سبيلي – مرضاتي – أنا – يفصل – وحده – ربّنا عليك – إليك – إليك – تجعلنا – اغفرْ – إنّك أنت – هو يجعل – يحبّ – أعلم – يحكم – به – غضبَ) . والتحذير في السورة من اتّخاذ الكفّار أولياء ، وقد عبّر عنهم بـ (عدوّكم) [1]، فالتعبير بالاسم الصريح (عدوّكم) نوع من الإحالة ، وهي إحالة مقاميّة ؛ وذلك لكونها مفهومة من جهة المُحال عليه من المقام ، وقد ساعد السياق على فهم هذه الإحالة من خلال مُقابلته لـ (الذين آمنوا) من جهة أخرى . إنّ في إضافة (عدو) إلى الضمير المحال به على الله تعالى –وهو أيضاً مفهوم من المقام –((تغليظاً لجرمهم، وإعلاماً بحلول عقاب الله بهم))[2] . وهذا النوع من الإحالة بالاسم لم تُشر إليه الدراسات النصّيّة الحديثة . وقد أحال عليه بالضمائر ، زيادة على استعمال الاسم الصريح لهم ، وبعض الصفات بالاسم الموصول – وهو عنصر إحاليّ أيضاً – وهذه الضمائر هي : (عدوّكم – إليهم – كفروا – يُخرجون – إليهم – يثقفوكم – يكونوا – يبسطوا أيديهم – ألسنتهم – ودّوا – الذين عاديتم منهم – الذين قاتلوكم – أخرجوكم – ظاهروا –تولّوا – الكفّار – لهم –هم يحلّون – وآتوهم – أنفقوا – ليسألوا – أنفقوا – أزواجهم – أنفقوا – عليهم – يئسوا) . وفضلاً عن ذلك ، فقد جاءتْ بعض الضمائر التي تُحيل على النبيّ ρ ، فقد خاطبه بقوله (يا أيّها النبيّ) ، ثمّ أحال عليه بالضمائر الآتية : (جاءك – يُبايعنك – يعصينك – فبايعهنّ – استغفر) . إنّ هذا الكمّ الكبير من الضمائر العائدة على أهمّ العناصر الرئيسة في النص هو ما أوجد التماسك في النصّ ، فترابطتْ آيات النصّ ، وظهر الاتساق في السورة الكريمة .

ومثلها في ذلك (سورة الحديد) ، التي كان من أهمّ أغراضها التذكير بجلال الله تعالى ، وصفاته العظيمة، وتحريض المؤمنين على الإنفاق في سبيله ، وتذكر ما أعدّ لهم يوم القيامة من ثواب ، ثمّ التعريض بالمنافقين ، وما أعدّ لهم من عذاب يوم القيامة ، زيادة على تحذير المسلمين ممّا وقع فيه أهل الكتاب من قبلهم[3]. وقد مثّلت الضمائر التي تُحيل على العناصر الرئيسة معظم الضمائر . فالسورة الكريمة تبدأ بقوله تعالى : **﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾** ، فأعقبتها ضمائر كثيرة ، تُحيل على اسم الجلالة ، وذلك في : (وهو – له – يُحيي – يُميت – وهو – هو – وهو – هو الذي خلق – استوى – يعلم - - وهو معكم – له – يُولج – ويُولج – وهو – ورسوله – جعلكم – أخذ – هو الذي يُنزّل على عبده – ليُخرجكم – فيُضاعفه – يُحيي- بيّنا – ورسله – ورسله – بآياتنا – ورسله – يؤتيه – نبرأها – يحبّ – هو – أرسلنا – رسلنا – أنزلنا – أنزلنا – ينصره ورسله – أرسلنا – جعلنا – قفّينا – برسلنا – وقفّينا – وآتيناه – جعلنا – كتبناها – فآتينا – برسله – يؤتكم – رحمته – يجعل - - يغفر – يؤتيه من يشاء) . أمّا الضمائر التي تُحيل على المخاطبين ، فتبدأ بضمائر تُحيل على الناس عامّة ، ثمّ بدأ بتفريع الضمائر ، بعد أنْ وجّه الخطاب لكلّ فئة من الفئات الموجودة في المدينة المُنوّرة . وقد بدأ الخطاب للبشر عند قوله تعالى : **﴿... وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾**[4]. فضمائر الجمع للمخاطبين ليس لها مُحال عليه سابق في النصّ ؛ لتُحيل عليه ؛ فالإحالة فيها مقامية ، والسياق يشير إلى أنّ المقصود بالخطاب البشر جميعاً ، فالمعيّة حيثما كانوا ((بالعلم الذي لا يخفى عليه شيء من أعمالكم ، وأحوالكم))[5]، ليس مقصوراً على طائفة من البشر من دون طائفةٍ أخرى . ثمّ أتبعه بالضمائر الآتية : (آمِنوا – أنفِقوا – جعلكم – منكم – لكم – تؤمنون – يدعوكم - - لتؤمنوا بربّكم – ميثاقكم – كنتم) . ثمّ توجّه بالخطاب للمؤمنين ، فأحال عليهم بالاسم الموصول ، وذلك في قوله تعالى: **﴿... فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾**[6]، وأتبعه بالضمائر التي تُحيل عليهم ، وهي : (ما لكم ألاّ تُنفقوا – منكم – مَن أنفق – قاتل – الذين أنفقوا – وقاتلوا – تعملون – نورهم – أيديهم – بأيمانهم – بشراكم – للذين آمنوا – أنظرونا – نوركم – بينهم – يُنادونهم – للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم – يكونوا – اعلموا –لعلّكم تعقلون – أقرضوا – لهم – ولهم - - والذين آمنوا – هم – ربّهم – لهم – أجرهم – نورهم – اعلموا – بينكم – سابقوا – ربّكم – للذين آمنوا – أنفسكم – تأسوا – تفرحوا – آتاكم – الذين آمنوا – اتقوا الله وآمِنوا – يؤتكم – لكم – لكم) . أمّا المنافقون والمنافقات ، فقد ذُكروا بالاسم الصريح ، وذلك في قوله تعالى : **﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾**[7] ، وأحال عليهم بالضمائر الآتية : (انظرونا – نقتبس – ارجعوا وراءكم – فالتمسوا – بينهم – يُنادونهم – نكن – ولكنّكم فتنتم أنفسكم – وتربّصتم وارتبتم وغرّتكم – منكم – مأواكم مولاكم) . وتكرّرت الإحالة على أهل الكتاب ، بعد أن ذكرهم في قوله تعالى : **﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾**[8]، فالضمائر المُحيلة عليهم ، هي : (عليهم – قلوبهم – منهم – الذين اتبعوه – ابتدعوها – عليهم – رعوها – الذين آمنوا منهم – فَهُمْ – يقدرون) . زيادة على ذلك ، فقد أحال على الكفّار في بعض المواضع ، وهي : (الذين كفروا – مأواكم – مولاكم – الذين كفروا وكذّبوا) . من ذلك يتبيّن أنّ كثرة هذه الضمائر قد ربطت الآيات ، وأوجدت التماسك الذي يخلق نصيّة السورة ، فكانتْ وحدة دلاليّة متماسكة ، ومترابطة ، تدور معاني آياتها في فلك إطاعة أمر الله تعالى ، والتحذير من العصيان .

وممّا يجب الإشارة إليه في هذه السورة أنّ بعض الضمائر المستعملة فيها ، لا تتطابق دلالياً – على العكس ممّا نظّر له علماء النصّ – مع المُحال عليه ، فالضمير في بعض المواضع قد يُحيل على أكثر من مُحال ، وقد يكون الطرفان المُحال

---

(١) ينظر : التبيان في تفسير القرآن : ٩ / ٤٦٠ – ٤٦١ ، ومجمع البيان في تفسير القرآن : ٩ / ٦٦١ – ٦٦٢ ، البحر المحيط : ١٠ / ١٥٢ .

(٢) البحر المحيط : ١٠ / ١٥٢ .

(٣) ينظر : بصائر ذوي التمييز : ١ / ٤٥٣ .

(٤) سورة الحديد : ٤ .

(٥) مجمع البيان : ٩ / ٥٦٨ .

(٦) سورة الحديد : ٧ .

(٧) سورة الحديد : ١٣ .

(٨) سورة الحديد : ١٦

عليهما متضادّين ، أو مختلفين . فمن النوع الأوّل ، قوله تعالى : ﴿ **يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ** ﴾[١]. فالضمير في قوله (بينهم) ، أي ((بين الفريقين))[٢] ، أي : المؤمنين ، والمنافقين . وهذا يُخالف ما جاء في معايير النصّ ، التي ترى أنّ العنصر المُحيل يُطابق دلاليّاً العنصر المُحال عليه . ولعلّ الذي أوجد هذا التشقق في الضمير ، ليس الضمير نفسه ، بل الظرف (بين) الذي أضيف إليه الضمير ، الذي يقتضي شيئين ؛ ليكون بينهما . أمّا عود الضمير على مختلفين ، فمنه ما جاء في قوله تعالى : ﴿ **فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ** ﴾[٣] . فالضميران في قوله (مأواكم) ، و(مولاكم) عائدان على المنافقين والكفار[٤] ، والذي يلحظ أنّ إشراك الكفار بالضمير ؛ سببه حضورهم في الموقف (يوم القيامة) ،فكان ذلك سبباً لإشراكهم في الخطاب ، إذ لو اكتفى بذكر المنافقين فقط لتوّهم البعض أنّ الفدية تؤخذ من الكفار . ومن المناسب أنْ يُزاد على مبحث الإحالة بالضمير ، وجود ظواهر في النصّ القرآنيّ ، كانت الإحالة بالضمير فيها ، إمّا بأنْ يتنازع الضمير فيها أكثر من مُحال عليه ، أو أنّ الضمير يُحيل على أكثر من مُحال ، أو أنّ تحديد أحد المُحالين ينقل الكلام من الحقيقة إلى المجاز . فمن التنازع على الضمير المُحيل ، قوله تعالى : ﴿**وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ [٥]. فالضمير في قوله (مثله) يحتمل أنْ يعود على قوله (ما نزّلنا) الموصول ، فيكون إحالةً على إحالةٍ ، إذ المقصود بـ (ممّا نزّلنا) القرآن الكريم ، ويحتمل أنْ يعود على قوله (عبدنا) ، وهو يُحيل بالاسم (عبدنا) على النبيّ ρ . ورأى بعض المفسّرين أنّ الاحتمالين مُرادان ؛ ((لردّ دعاوى المُكذبين في اختلاف دعاويهم ، فإنّ منهم مَن قال : القرآن كلام بشرٍ ، ومنهم مَن قال : هو مُكتتب من أساطير الأوّلين ، ومنهم مَن قال : إنّما يُعلمه بَشَرٌ . وهاته الوجوه في معنى الآية ، تُفند جميع الدعاوى ، فإنْ كان كلام بَشَرٍ ، فاتوا بمماثله ، أو بمثله))[٦] ، ومثله قوله تعالى : ﴿**وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ** ﴾[٧]. ففي هاتين الآيتين تُوجد إحالتان ، كلّ واحدةٍ منهما تُحيل على مُختلفين ، فالإحالة الأولى في قوله (عنها) ، فاحتمل أنْ يعود الضمير على الشجرة ؛ لكونها أقرب في الإحالة، فتكون (عن) دالّة على السببيّة[٨]، ويحتمل أنْ يحيل على الجنّة ، فتكون (عن) على ظاهرها . أمّا الإحالة الثانية المُختلف فيها ، فهي قوله (اهبطوا) ، فقد احتمل عود الضمير على آدم وزوجه وإبليس ، وبذلك يكون الضمير عائداً على مُختلفين ، واحتمل أنْ يكون الضمير عائداً على آدم وحوّاء . ورأى بعض المفسّرين أنّه على الاحتمال الثاني ((يكون ذلك إعلاماً لهما بأثر من آثار عملهما يُورَث في بنيهما ، ولذلك مبدأ ظهور آثار الاختلاف في تكوين خلقتهما بأنْ كان عصيانهما يُورَث في بنيهما))[٩] . ولا يبدو هذا الرأي مستقيماً ، إذ تكون المعاصي التي يرتكبها بنو آدم امتداداً لمعصية آدم عليه السلام ، وكأنّ في ذلك جبراً لأفعالهم ، لا اختياراً أرادوه بالقدرة التي وهبها الله لهم . ومن اختلاف المُحال عليه بالضمير ، قوله تعالى : ﴿**إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ** ﴾[١٠]. فقد اختلف في الضمير في قوله (فيهنّ) ، هل يعود على الشهور الاثني عشر ، أو على الأربعة الحُرُم ، وقد رجّح الفرّاء [ت ٢٠٧ هـ] أنْ يكون الضمير للأربعة ، وعلّل ذلك بقوله : ((ويدلّك على أنها للأربعة ... قوله (فيهنّ) ولم يقل (فيها) ، وكذلك كلام العرب لما بين الثلاثة إلى العشرة))[١١] . ويُرجّح قول الفرّاء أنّه – جلّ شأنه – قال في الآية الكريمة نفسها (منها) ، والضمير عائد على الاثني عشر [١٢]. وممّا يُمكن أنْ يُضاف أنّه لو كان الضمير عائداً على الأشهر الاثني عشر لما احتاج إلى ذكر (فيهنّ) أصلاً ، إذ يكون النهي مُطلقاً طوال السنة ، ولا حاجة إلى التخصيص بالظرفيّة ، ((وإنّما جعل الله تعالى بعض الشهور أعظم حرمة من بعض لما علم في ذلك من المصلحة في الكفّ عن الظلم فيها ، فعظّم منزلتها ، وأنّه ربّما أدّى ذلك إلى ترك الظلم أصلاً لانطفاء النائرة تلك المدّة ،وانكسار الحميّة))[١٣] ، أو أنّ ((تخصيصها بالنهي عن ارتكاب ذلك فيها فيها مع أنّ الارتكاب منهي عنه مطلقاً لتعظيمها ، ولله سبحانه أن يميز بعض الأوقات على بعض ، فارتكاب المعصية فيهنّ أعظم وزراً ، كارتكابها في الحرم ، وحال الإحرام)) [١٤]. ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ** ﴾[١٥]. فالذي يُلحظ أنّ

---

(١) سورة الحديد : ١٣ .
(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني : ٢٨ / ٢٥٠ .
(٣) سورة الحديد : ١٥ .
(٤) ينظر : تفسير التحرير والتنوير : ٢٧ / ٣٥٠ – ٣٥١ .
(٥) سورة البقرة : ٢٣ .
(٦) تفسير التحرير والتنوير : ١ / ٣٣٣ .
(٧) سورة البقرة : ٣٥ – ٣٦ .
(٨) ينظر : روح المعاني : ١ / ٣١٨ .
(٩) تفسير التحرير والتنوير : ١ / ٤٢٠ .
(١٠) سورة التوبة : ٣٦ .
(١١) معاني القرآن ، الفرّاء : ١ / ٢٩٣ .
(١٢) ينظر : البحر المحيط : ٥ / ٤١٥ – ٤١٦ .
(١٣) التبيان في تفسير القرآن : ٥ / ١٩٣ .
(١٤) روح المعاني : ١٠ / ٣٩٦ .
(١٥) سورة البقرة : ٣٣ .

الضمير(هم) في قوله (أنبأهم بأسمائهم) لا يُحيل على المُحال عليه نفسه ، إذ الضمير في (أنبأهم) يُحيل على الملائكة ، والذي في (أسمائهم) يُحيل على المُسمَّيات المعروضة عليهم [1] . ومنه قوله تعالى : **﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾**[2]. فالضمير (الواو) في قوله (علموا) يُحيل على الشياطين في أوّل الآية ، والضمير (الواو) في قوله (شروا، يعلمون) يعود على الناس [3]. ومن الإحالة التي تنقل الكلام من حقيقة إلى مجاز ، قوله تعالى : **﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾**[4]. فالضمير المُستتر في قوله (يُريه) ((إنْ كان عائداً إلى اسم الجلالة ، فالتعليل المُستفاد من اللام وإسناد الإرادة حقيقتان ، وإنْ كان عائداً إلى الغراب ، فاللام مُستعملة في معنى فاء التفريع ، وإسناد الإرادة إلى الغراب مجاز))[5] . ومنها قوله تعالى : **﴿إِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾**[6]. فضمير الجمع المخاطبين في (نجّيناكم) ، و(يسومونكم) ، و(أبناءكم) ، و(نساءكم) ، لا يُحيل على المخاطبين على الحقيقة ، بل الإحالة من المجاز العقليّ ، إذ ((عُدّي فعل (أنجينا) إلى ضمير المخاطبين مع أنّ التنجية إنّما كانتْ تنجية أسلافهم ؛ لأنّ تنجية أسلافهم تنجية للخلف ، فإنّه لو بقي أسلافهم في عذاب فرعون لكان ذلك لاحقاً لأخلافهم ، فلذلك كانتْ مِنّة التنجية مِنّتين : مِنّة على السلف ، ومِنّة على الخلف ، فوجب شكرها على كلّ جيلٍ منهم))[7] . ومن صور إحالة الضمير على مُتعدّدٍ ، قوله تعالى : **﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ... وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾**[8]. فالضمير في (وقالوا) عائد على الفرق الثلاث ، اليهود والنصارى والذين لا يعلمون ((على الجميع من غير تخصيص)) [9]. ولعلّ اتّحاد فعلهم هو الذي سوّغ اتحادهم في ضمير واحد ، فيكون ذلك من باب الإيجاز . وممّا يجب الوقوف عنده ، أنّ هنالك ضمائر لا تُحيل على أسماءٍ صريحة ، بل قد تُحيل على شيءٍ يُستفاد من معنى الكلام المُتقدّم ، أو من اسم يُقدّر معناه على فعلٍ تقدّم . ومن ذلك قوله تعالى : **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾** [10]. فالضمير المنفصل (هو) ليس له عائد صريح، بل هو ((عائد على العدل المفهوم من اعدلوا))[11] ، ويبدو أنّ سبب ذلك ما يظهر في قوله (هو أقرب للتقوى) ، أي ((أدخل في مناسبتها ، أو أقرب لكونه لطفاً فيها))[12] . ومثله قوله تعالى : **﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾**[13]. فالضمير المنصوب في قوله (جعله) ، يُحيل على جملة القول[14] (أنّي ممدكم بألفٍ من الملائكة مردفين). ومنه قوله تعالى : **﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾**[15] . فالضمير المنفصل (هو) يُحيل على المصدر (الدعاء) ، الذي يُفهم من الفعل (ادعوهم) . وممّا يلفت النظر للإحالة بالضمير ، ترك الإحالة – وهو ما سبق الإشارة إليه – وإعادة استعمال الاسم ثانية . فالذي يُلحظ أنّ النصّ القرآنيّ الكريم قد أعاد استعمال الاسم الصريح ، مع أنّه قد تقدم ذكره سابقاً ، وكان ذلك لدلالة يتطلبها النصّ المقدّس ، من ذلك قوله تعالى : **﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ .. وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ... ﴾** [16]. فقد أعاد ذكر اسم النبيّ ρ ، مع تقدم ذكره في أوّل الآية ؛ لأنّ الغرض من الإظهار بيان تزكية فعل المرأة التي تهب نفسها للنبيّ ؛ كونها راغبة في شرف خدمة النبيّ [17] ، ومعنى (أراد) في الآية هو : قِيل ؛ لأنّ المرأة هي التي وهبت نفسها للنبيّ ، ((ولا وجه لحملها على الحقيقة ؛ لأنّ قوله تعالى (يستنكحها) يغني عن الإرادة بمعناه الوضعيّ ، وهو يشير إلى أنّ السين للطلب ... [فـ] إرادة طلب النكاح كناية عن القبول))[18]. ومثله قوله تعالى : **﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ**

---

(1) **ينظر : تفسير الكشاف : ١ / ١٣٠ .**

(2) **سورة البقرة : ١٠٢ .**

(3) **ينظر : معاني القرآن ، الأخفش : ١٠٨ .**

(4) **سورة المائدة : ٣١ .**

(5) **تفسير التحرير والتنوير : ٥ / ٨٥ .**

(6) **سورة البقرة : ٤٩ .**

(7) **تفسير التحرير والتنوير : ١ / ٤٧٣ .**

(8) **سورة البقرة : ١١٣ ، ١١٦ .**

(9) **البحر المحيط : ١ / ٥٨٠ ، وينظر : روح المعاني : ١ / ٤٩٨.**

(10) **سورة المائدة : ٨ .**

(11) **البرهان في علوم القرآن : ٤ / ٢٠ .**

(12) **البحر المحيط : ٤ / ١٩٦ .**

(13) **سورة الأنفال : ٩ – ١٠ .**

(14) **ينظر : التبيان في تفسير القرآن : ٥ / ٧٦ ، والبحر المحيط : ٥ / ٢٨٠ ، و تفسير التحرير والتنوير : ٩ / ٣٤.**

(15) **سورة الأحزاب : ٥ .**

(16) **سورة الأحزاب : ٥٠ .**

(17) **ينظر : روح المعاني : ٢٢ / ٣٢٣ .**

(18) **روح المعاني : ٢٢ / ٣٢٢ .**

غَفُورًا رَحِيمًا ﴾[1] . فقد أعاد ذكر اسم الجلالة ؛ وذلك أمّا ((لإبراز مزيد الاعتناء بأمر المؤمنين ؛ توفية لكلّ من مقامي الوعيد ، والوعد حقّه))[2] . ومنه أيضاً قوله تعالى : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾[3] فقد أعاد اسم الجلالة ؛((لأنّ المغفرة تتعلّق بالآخرة ، والنصر يتعلّق بالدنيا ، فكأنّه أشير بإسناد المغفرة ، والنصر إلى صريح اسمه تعالى إلى أنّ الله – عزّ وجلّ- هو الذي يتولّى أمرك في الدنيا ، والآخرة))[4] ، أو لكونه ((اهتماماً بهذا النصر وتشريعاً له بإسناده إلى الاسم الظاهر)) [5] .

الإحالة المقاميّة بالضمائر : استعمل الضمير مُحيلاً مقاميّاً في النصّ القرآنيّ الكريم ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [6]. فالضمير في قوله (ولاّهم) ((عائد إلى معلوم من المقام غير مذكور في اللفظ حكايةً لقول السفهاء ، وهم يريدون بالضمير ، أو بما يُعبّر عنه في كلامهم أنّه عائد على المسلمين))[7]. ومثله قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾ [8] . فقد أحال الضمير في قوله (فيها) على (جهنّم) ، ولم يتقدّم لها ذكر في الآيات السابقة لها ، إذ لم يُصرّح بلفظ (جهنّم) إلاّ في الآية (٢٠٦) من السورة الكريمة [9] ، فعلى هذا يكون الضمير عائداً على النار ؛ لأنها ((كالمذكور لشهرته في حال المعذبين ؛ لأنّ اللعن إبعاد من الرحمة ، وإيجاد للعقاب ، والعقاب يكون في النار))[10] ، وأشار أبو حيان إلى أنّ الضمير يمكن أنْ يكون محيلاً نصيّاً ، أو مقاميّاً ، قال : (([فيها] أي اللعنة ، وهو الظاهر ، إذ لم يتقدّم ما يعود عليها في اللفظ إلا اللعنة . وقيل : يعود على النار ، أضمرتْ لدلالة المعنى عليها ، ولكثرة ما جاء في القرآن من قوله (خالدين فيها)))[11] . أمّا إذا لوحظ أنّ الضمير يعود على الاسم العام (النار) ، فقد تقدّم ذكره في أكثر من آيةٍ ، وذلك في الآيات (٢٤ – ٣٩ - ٨٠ – ٨١ – ١٢٦)[12] ، فتكون الإحالة على ذلك نصّيّة لا مقاميّة . ومنها أيضاً قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [13]. فالضمير المرفوع في قوله (حاجّوك) ((عائد على غير مذكور في الكلام ، بل هو معلوم من المقام ، وهو مقام نزول السورة ،أعني قضية وفد نجران ، فإنّهم الذين اهتمّوا بالمُحاجّة حينئذٍ))[14] . ومنها قوله تعالى : ﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ [15] . فضمير الجمع في قوله (فسيحشرهم) ((عائد إلى غير مذكور في الكلام ، بل معلوم من المقام ، أي فسيحشر الناس إليه جميعاً كما دلّ عليه التفصيل المُفرّع عليه))[16]. والمقصود بالتفصيل المُفرّع عليه ، ما جاء في الآية التي بعدها ، وهي قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [17]. إذ إنّ هذه الآية دلّت على أنّ الضمير في قوله (فسيحشرهم) يعود إلى الناس فقسّمتهم على المؤمنين والمستكبرين ، ويبدو أنّ الذي سوّغ هذا الشمول للضمير ((اقتضاء حشر أحدهما لحشر الآخر ضرورة عموم الحشر للخلائق أجمعين))[18] .

الإحالة بأسماء الإشارة : استعملتْ أسماء الإشارة دالّة على الإحالة في الدراسات النصّيّة الحديثة ، ولم تكن هذه السمة النصّيّة لأسماء الإشارة خافيةً على علماء اللغة العربيّة القدماء ، فقد عرفها علماء النحو ، وعلماء التفسير ، وعلوم القرآن . وعند النظر إلى أسماء الإشارة في ضوء معيار السبك ، يُلحظ أنّ أسماء الإشارة المستعملة في النصّ القرآنيّ الكريم ، قد اتخذتْ ثلاثة أنماط ، هي :

١- عنصر إحاليّ : وذلك بأنْ يكون اسم الإشارة مُحيلاً على متقدّم ، أو مُتأخّر في النص ، ويكون المُحال عليه مفرداً ، أو جملةً ، أو مجموعةً من الجمل .

٢- عنصر استبدال : وذلك إذا اقترن اسم الإشارة (ذلك) بـ(كاف التشبيه) ، فأغلب ما يكون اسم الإشارة (كذلك) عنصراً مستبدِلاً لجملة أو جمل من النصّ .

٣- أداة فصل : وذلك بأنْ يؤتى باسم الإشارة بعد كلامٍ سابقٍ ، ثمّ يُستأنف الكلام بعده .

---

(١) سورة الأحزاب : ٧٣ .
(٢) روح المعاني : ٢٢ / ٣٧١ – ٣٧٢ .
(٣) سورة الفتح : ٢ – ٣ .
(٤) روح المعاني : ٢٦ / ٣٤٣ .
(٥) تفسير التحرير والتنوير : ٢٦ / ١٢٥ .
(٦) سورة البقرة : ١٤٢ .
(٧) تفسير التحرير والتنوير : ٢ / ٨ .
(٨) سورة البقرة : ١٦١ – ١٦٢ .
(٩) ينظر : المعجم المُفهرس لألفاظ القرآن الكريم : ١٩٢ – ١٩٣ (جهنّم) .
(١٠) مجمع البيان : ١ / ٦١٩ .
(١١) البحر المحيط : ٢ / ٧٣ – ٧٤ .
(١٢) ينظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : ٧٢٨ – ٧٣٠ (نار) .
(١٣) سورة آل عمران : ٢٠ .
(١٤) تفسير التحرير والتنوير : ٣ / ٥٧ .
(١٥) سورة النساء : ١٧٢ .
(١٦) تفسير التحرير والتنوير : ٤ / ٣٣٨ .
(١٧) سورة النساء : ١٧٣ . ومثله في سورة التوبة : ٤٠ ، وسورة الرعد : ٥ ، سورة الرحمن : ٢٦ .
(١٨) روح المعاني : ٦ / ٢٩٤ .

والنمط الأوّل يختصّ بهذا المبحث ، أمّا النمط الثاني ، فسيرد ذكره في مبحث الاستبدال . أمّا النمط الثالث ، فمن أمثلته في النصّ الكريم ، قوله تعالى : **﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾**(1). فقد استعمل اسم الإشارة ((للفصل بين الكلامين ، أو بين وجهي كلام واحد ، والمشهور من ذلك (هذا) ... واختيار ذلك هنا لدلالته على تعظيم الأمر ، وبعد منزلته))(2) . ومثله قوله تعالى : **﴿ لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾** (3).أمّا استعمال اسم الإشارة عنصراً إحاليّاً ، فقد استعمل عنصراً مُحيلاً نصّيّاً ومقاميّاً ، قبليّاً وبعديّاً في السور المدنية من النصّ القرآنيّ الكريم ، وقد استعملتْ أسماء الإشارة (هذا – هذه – ذلك – تلك – هذان - هؤلاء – أولئك – هنالك) عناصر إحاليّة . ومن المناسب أن يُذكر أنّ أسماء الإشارة قد استعملتْ للدلالة على قرب ، أو بعد الشيء المُشار إليه ، فـ (هذا ، وهذه) للمفرد القريب ، المذكر ، والمؤنث ، و(هذان ، وهاتان) للمثنى القريب . أمّا (ذاك) فللمتوسط البعد ، و(ذلك) للمفرد البعيد ، و(هؤلاء) للجمع القريب ، و(أولئك) للجمع البعيد . وقد ذهب علماء النحو إلى أنّ الكاف ، تزاد على اسم الإشارة للدلالة على البعد ، ولكنّهم يرون أنّ هذه الكاف للخطاب ، وليس للبعد ، قال ابن السراج [ت ٣١٦ هـ] : ((واللام في (ذلك) زائدة ، والأصل (ذا) ، والكاف للخطاب فقط ، ومحال أن تكون هنا اسماً ... فإنّما زدت الكاف على (ذا) ، وكانت (ذا) لما يومي إليه بالقرب . فإذا قلت (ذلك) دلّتْ على أنّ الذي يومي إليه بعيد ، وكذلك جميع الأسماء المبهمة ، إذا أردت المتراخي زدت كافاً للمخاطبة لحاجتك أن تنبه بالكاف المخاطب))(4). ويبدو أنّ هذا الكلام قابل للردّ ، فتنبيه المخاطب لا يكون بآخر الكلام ، بل بأوّله ، وذلك كالهاء التي تسبق (ذا) في (هذا) . هذا من جانب ، ومن جانبٍ آخر ، فالفارق الدلاليّ بين (ذا)،و(ذاك) ، و(ذلك) هو البعد ، فالغاية بيان بعد المشار إليه ، وليس تنبيه المخاطب. أمّا ذهابهم إلى أنّ هنالك توافقاً بين حركة الكاف ، وجنس المخاطب ، فأغلب ذلك – وخاصّة الاستعمال القرآنيّ – جاء لغرض الإيقاع الداخليّ للنصّ ، وليس لغرض بيان جنس المخاطب . ومن أمثلة الإحالة النصّيّة بأسماء الإشارة، ما يأتي :

الإحالة بـ (هذا) : استعمل اسم الإشارة (هذا) مُحيلاً نصّيّاً ، وذلك في قوله تعالى : **﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾** (5) . فاسم الإشارة (هذا) يُحيل على (رزقاً) المتقدم ، وهي إحالة قبليّة ، ورأى الآلوسيّ [ت ١٢٧٠ هـ] حذف حرف الجر من اسم الاستفهام (أنّى) ، وذلك ؛ ((لأنّ الشيء إذا علم في موضع جاز حذفه))(6). وقد يكون سبب حذفه ؛ لدلالة الكلام بعده عليه ، إذ ورد قوله (من الله) . وزيادة على ذلك ، فالسياق سياق تعجّب ، ودهشة ، فيلائمه سرعة إظهار التعجب ، وإيجاز الكلام فيه . وقد جاء الردّ من مريم ∃ بـ (هو من عند الله) ، ولم تقل هذا ؛ للدلالة على تعظيمه لكونه ليس من طعام أهل الأرض ، إذ إنّه كان من ثمار الجنّة (7). ومن الإحالة المقاميّة بـ (هذا) ، قوله تعالى : **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾**(8). فقد استعمل اسم الإشارة مُحيلاً قبليّاً لـ (عامهم) ، فالإشارة إلى العام الذي نزلتْ فيه الاية ، وهو عام تسعةٍ من الهجرة ، فقد حضر المشركون موسم الحجّ فيه، وأعلن فيه عدم السماح لهم بالحجّ بعد ذلك العام (9) . فالذي يُلحظ أنّ اسم الإشارة لا يمكن معرفة ما يُشير إليه إلاّ عند معرفة وقت نزول السورة الكريمة ، ومن دونه يبقى معنى (عامهم هذا) غير معلوم .

الإحالة بـ (هذه) : استعملتْ (هذه)مُحيلاً نصّيّاً ، وذلك في قوله تعالى : **﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾** (10). فاسم الإشارة (هذه) يُحيل أمّا إلى ((نفس القرية بدون تقدير ، كما هو الظاهر ، فالإحياء ، والإماتة مجازان عن العمارة ، والخراب ، أو بتقدير مضاف ، أي : أصحاب هذه القرية ، فالإحياء ، والإماتة على حقيقتها))(11). ورجّح بعض المفسّرين الاحتمال الأول ؛ لأنّ ((إرادة إحياء- لأهل ، أو عظامهم – يأباه التعرّض لحال القرية دون حال من ذكر ،والاقتصار على ذكر موتهم دون كونهم تراباً ، أو عظاماً نخرة مع كونه أدخل في الاستبعاد لشدّة مباينته للحياة ، وغاية بُعده عن قبولها على أنّه لم تتعلّق إرادته – تعالى – بإحيائهم كما تعلّقتْ بعمارتها ، ومعاينة المارّ لها))(12) . ويبدو الأمر عكس ذلك ، إذ إنّ الاحتمال الثاني هو الأقرب ، ودليله ما جاء بعده من الكلام ، إذ إنّ الله – عزّ وجلّ – قد بيّن أنّ الإحياء للموتى من خلال إماتة المارّ ، وحماره ، فقال: (فأماته الله مئة عام ثمّ بعثه) ، وقال : (فانظر إلى طعامك وشرابك) ، وقال : (وانظر إلى العظام كيف ننشزها) ، فدلّ ذلك على أنّ المقصود هو

---

(1) سورة الحج : ٢٩ – ٣٠ .
(2) روح المعاني : ١٧ / ١٩٢ . وينظر : تفسير التحرير والتنوير : ١٧ / ١٨٢ .
(3) سورة الحج :٥٩ - ٦٠ .
(4) الأصول في النحو : ١٢٧/٢ . وينظر : سر صناعة الإعراب : ٣١٧/١-٣١٨ ، وشرح التسهيل : ٢٦٦/١ ، ورصف المباني : ٢٨٢ .
(5) سورة آل عمران : ٣٧ . ومثله في السورة نفسها : ٦٨ ، وسورة الأحزاب : ٢٢ .
(6) روح المعاني : ٣ / ١٨٦ – ١٨٧ .
(7) ينظر : روح المعاني : ٣ / ١٨٧ .
(8) سورة التوبة : ٢٨ . ومثله في سورة البقرة : ١٢٦ .
(9) ينظر : تفسير الكشّاف : ٢ / ٢٥٣ ، الجواهر الحسان في تفسير القرآن : ٣ / ١٧٤ .
(10) سورة البقرة : ٢٥٩ . ومثلها في سورة التوبة : ١٢٤ .
(11) روح المعاني : ٣ /٣١ .
(12) روح المعاني : ٣ / ٣١ .

إعادة الحياة لأصحاب القرية . ومثلها قوله تعالى : ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾[1]. وقد استعملت (هذه) مُحيلةً على (جهنّم) ، وهي إحالة بعدية . والكلام في السورة مبنيّ على التذكير بنعم الله – تعالى - ، وتخويفهم من عقابه ، وترغيبهم في ثوابه ، فكان التذكير يستلزم أن يكون التخويف – من جهنم في الآخرة –مستعملاً لذلك اسم الإشارة (تلك) ، ولكنّه عدل عنه إلى اسم الإشارة القريب على الرغم من أنّ جهنّم غير حاضرةٍ في الحياة الدنيا . وسبب ذلك ؛ للدلالة على اليقين من وجودها وتعذيبهم فيها . وقد استعمل أيضاً الفعل (يكذّب) بصيغة المضارع ؛ ((للدلالة على استمرار ذلك ، وبيان وجه توبيخهم ، وعلّته))[2]، وقد قابله في وصف أهل الجنة ، وثوابهم باستعمال الفعل (خاف) بصيغة الماضي الدالّ على خشية الله – سبحانه – في الدنيا ، فقال : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾[3] . ومن الإحالة المقاميّة بـ (هذه) ، قوله تعالى : ﴿ وَقُلْنَا يَاآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾[4]. فقد استعمل اسم الإشارة القريب (هذه) ؛ وذلك لكون الشجرة المُشار إليها كانت مرئيّةً لآدم ، وزوجه ، فهي إشارة يُوضحها المقام الذي دار فيه الخطاب . ومثلها قوله تعالى : ﴿ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ [5]. فاسم الإشارة (هذه) لا يمكن معرفة ما تُحيل عليه إلاّ عند التعرّف على المقام الذي نزلت فيه الآية الكريمة . ورأى المفسّرون أنّ المقصود بـ (هذه) غنائم خيبر [6].

الإحالة بـ (ذلك) : استعمل اسم الإشارة (ذلك) عنصراً إحاليّاً ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ [7]. أحال اسم الإشارة (ذلك) على اثنين على الرغم من دلالته على المفرد ، فهو قد أحال على قوله (لا فارض ولا بكر) ، فقصد أنّها وسط بين السنّين ، ولعلّ الذي سوّغ إحالة المفرد على اثنين هو المضاف (بين) ، الذي يستدعي أكثر من واحد ليكون بينهما ، قال الطبرسيّ : ((وإنّما جاز (بين ذلك) ، وبين لا يكون إلاّ مع اثنين، أو اكثر))[8] . وليس الأمر كما رأى أحد المفسّرين ، الذي ذكر أنّ ((الإشارة للمذكور المُتعدّد ، ولهذا صحّتْ إضافة بين لاسم الإشارة)) [9].

الإحالة بـ (تلك) :من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [10] . فاسم الإشارة (تلك) يُحيل على القول الصادر منهم ، وهو قولهم (لن يدخل الجنة إلاّ من كان هوداً أو نصارى) . والتعبير عن القول بصيغة الجمع ؛ ((إمّا لأنّها لمّا كانت أمنية كلّ واحدٍ منهم ، صارت أمانيَّ كثيرة ، وإمّا إرادة أنّ كلّ أمانيّهم كهذه ومعتادهم فيها ، فيكون من التشبيه البليغ))[11] . ويبدو أنّ المفردة(أماني) من المشترك اللفظيّ ، الذي يجوز إرادة أكثر من معنى فيه النصّ الكريم ، فـ ((الأماني الأكاذيب))[12] ، وقد تكون بمعنى : المتمنيات على سبيل ((الاستعارة تشبيهاً بالمتمنى في الاستحالة))[13]. وعلى المعنى الثاني تكون ((إشعاراً بأنّها بلغث كلّ مبلغ؛ لأنّ الجمع يفيد زيادة الآحاد ، فيستعمل لمطلق الزيادة))[14]. ولعلّ المعنى الذي أورده الراغب [ت ٤٢٥ هـ] جامع لهذين المعنيين ، إذ قال : ((الأمنية الصورة الحاصلة في النفس من تمنّي الشيء ، ولمّا كان الكذب تصوّر ما لا حقيقة له ، وإيراده باللفظ التمنّي كالمبدأ للكذب ، فصحّ أن يعبّر عن الكذب بالتمنّي))[15]. ومثله قوله تعالى : ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [16]. فالإشارة بـ (تلك) إلى إبراهيم (عليه السلام) وبنيه بكونهم جماعة . واستعمل اسم الإشارة الدالّ على البعد ؛ لكونه المناسب للسياق ، إذ إنّ الآية السابقة جاءت في ((توبيخ اليهود على إدّعائهم اليهوديّة على يعقوب ، وأبنائه ... أي : ما كنتم حاضرين حين احتضاره ، وسؤال بنيه عن الدين))[17]، ثمّ زاد في الإبعاد بقوله (قد خلت) بعد الإشارة ، فـ ((الخلوّ يستعمل في الزمان ، والمكان ، لكن لمّا تصوّر في الزمان المضيّ فسّر أهل اللغة : خلا الزمان، بقولهم : مضى الزمان ، وذهب))[18].

الإحالة بـ (هذان) :منه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ... هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴾[19] . فاسم الإشارة يُحيل على الفريقين اللذين تقدّم ذكرهما ، وهما فريق (الذين

---

(1) سورة الرحمن : ٤٣ .
(2) روح المعاني : ٢٧ / ١٦٣ .
(3) سورة الرحمن : ٤٦ .
(4) سورة البقرة : ٣٥ .
(5) سورة الفتح : ٢٠ .
(6) ينظر : التبيان في تفسير القرآن : ٩ / ٢٦١ ، الكشّاف : ٤ / ٣٣٢ ، مجمع البيان في تفسير القرآن : ٩ / ٢٨٩.
(7) سورة البقرة : ٦٨ . ومنه في سورة النور : ٤٧ ، وسورة التغابن : ٩ .
(8) مجمع البيان : ١ / ٣٣٢ .
(9) تفسير التحرير والتنوير : ١ / ٥٣٣ .
(10) سورة البقرة : ١١١ .
(11) تفسير التحرير والتنوير : ١ / ٦٥٥ .
(12) نزهة القلوب : ٦١ . وينظر : روح المعاني : ١ / ٤٨٩ .
(13) روح المعاني : ١ / ٤٨٩ .
(14) روح المعاني : ١ / ٤٨٩ .
(15) مفردات ألفاظ القرآن : ٧٨٠ (منى).
(16) سورة البقرة : ١٣٣ – ١٣٤ . ومثله في سورة النساء : ١٢ – ١٣ .
(17) روح المعاني : ١ / ٥٣١ .
(18) مفردات ألفاظ القرآن : ٢٩٧ (خلا).
(19) سورة الحجّ : ١٧ ، ١٩ .

آمنوا) ، وفريق الكفرة المنقسم إلى الفرق الخمسة (اليهود – النصارى – الصابئين – المجوس – المشركين)[١] ، فـ ((فريق يسجد لله تعالى ، وفريق يسجد لغيره . فالإشارة إلى ما يُستفاد من الكلام بتنزيله منزلة ما يُشاهد بالعين))[٢] .

الإحالة بـ (هؤلاء) : من ذلك قوله تعالى : **﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴾** [٣]. ولعلّ اسم الإشارة (هؤلاء) يُحيل إحالتين : الأولى نصّيّة إلى قوله (الذين في قلوبهم مرض) ، وهي إحالة قبليّة ، والثانية مقاميّة ؛ وذلك لكون الكلام الذي يقوله الذين آمنوا ، واسم الإشارة (هؤلاء) المستعمل فيه يُحيل ((إلى طائفةٍ مقدّرة الحصول يوم حصول الفتح ، وهي طائفة الذين في قلوبهم مرض))[٤]. ورأى العلاّمة الطباطبائيّ أنّ ((الخطاب للذين في قلوبهم مرض ، والإشارة إلى اليهود والنصارى ... والمعنى ... فيقول الذين آمنوا لهؤلاء الضعفاء الإيمان عند حلول السخط الإلهيّ بهم : أهؤلاء اليهود والنصارى هم الذين أقسموا بالله))[٥] .

ومن الإحالة المقاميّة باسم الإشارة (هؤلاء) قوله تعالى : **﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾** [٦]. فالإشارة بـ (هؤلاء) إلى المسلمين الذين خرجوا يوم معركة (بدر) ، وهم قلّة [٧]. ومنها أيضاً ، قوله تعالى : **﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾** [٨] . فأحال باستعمال (هؤلاء) ((إشارةً إلى حاضرين في ذهن المخاطب ؛ لكثرة الحديث عنهم ... فالمقصود به المشركون))[٩] .

الإحالة بـ (أولئك) : منها قوله تعالى : **﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾** [١٠]. فالإشارة بـ (أولئك) تُحيل على (للمتقين) المتقدّم ذكرهم ، فهي إحالة نصّيّة قبليّة[١١]. ومنها تعالى : **﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾** [١٢]. فاسم الإشارة يحتمل أنْ يُحيل على الصنفين (الذين يعملون السيّئات) ، و(الذين يموتون وهم كفار) ؛ لكونهما ((قد شُركا في إعداد العذاب لهما))[١٣] ، وقد يكون عمل اسم الإشارة كالضمير ، فيحيل على ((الكفار ؛ لأنه جرى ذكر الكفار ، وهم أقرب إلى أولئك من ذكر الفسّاق))[١٤] .

الإحالة بـ (هنالك) : وذلك في قوله تعالى : **﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾**[١٥] ، فالإشارة بـ (هنالك) إلى المكان المتقدّم (المحراب) ، وإلى الزمان أيضاً لمّا رأى هذا الخارق العظيم[١٦] . وفيما يأتي إحصائيّة بأسماء الإشارة الواردة في السور المدنيّة ، وعدد كلّ منها ، وسيستثني البحث الإشارة بـ (كذلك) ، إذ يرى البحث أنّها عنصر استبداليّ ، لا إحاليّ : هذا / ٢٦ مرّة ، هذه / ٨مرّات ، هذان /مرّة واحدة ، ذلك / ١٢٧ مرّة ، تلك / ١٩ مرّة ، هؤلاء / ١٢ مرّة ، أولئك / ١١٤مرّة ، ذلكم / ٢١مرّة ، هنا / مرّة واحدة ، هنالك / مرّة واحدة .

الإحالة بالاسم الموصول :

الاسم الموصول اسم مبهم ، لا يُعرف معناه إلاّ من خلال صلته ، التي تُزيل الإبهام عنه ، قال المبرّد [ت ٢٨٥ هـ] : ((واعلم أنّ الصلة موضّحة للاسم ؛ فلذلك كانتْ في هذه الأسماء المبهمة ، وما شاكلها في المعنى ، ألا ترى أنّك لو قلتَ : جاء الذي ، أو مررتُ بالذي ، لم يدللك ذلك على شيء حتى تقول : مررتُ بالذي قام ، أو مررتُ بالذي من حاله كذا وكذا ، أو بالذي أبوه منطلق . فإذا قلتَ هذا ، وما أشبهه وضعتَ اليد عليه))[١٧] . ورأى علماء النحو أنّ صلة الموصول تكون جملة

---

(١) ينظر : روح المعاني : ١٧ / ١٧٤ .
(٢) تفسير التحرير والتنوير : ١٧ / ١٦٥ .
(٣) سورة المائدة : ٥٢ – ٥٣ .
(٤) تفسير التحرير والتنوير : ٥ / ١٣٣ .
(٥) الميزان في تفسير القرآن : ٥ / ٢٧٤ .
(٦) سورة الأنفال : ٤٩ .
(٧) ينظر : تفسير الكشّاف : ٢ / ٢٢١ ، وروح المعاني : ١٠ / ٢٩٧ .
(٨) سورة الإنسان : ٢٧ .
(٩) تفسير التحرير والتنوير : ٢٩ / ٣٧٧ . وينظر : البحر المحيط : ١٠ / ٣٦٩ ، وروح المعاني : ٢٩ / ٢٥٦ .
(١٠) سورة البقرة : ٢ ، ٣ ، ٥ ، ومثلها في السورة نفسها : ١٢١ .
(١١) ين
(١١) سورة طه : ٧٨ . ومثله من سورة النجم : ١٠ .
(١١) سورة الصف : ٤ .
(١١) الميزان في تفسير القرآن : ١٩ / ١٩٣ .
(١١) سورة النساء : ١٣٧ . ومثلها في سورة آل عمران : ٩٠ .ظر : مجمع البيان : ١ / ٩٠ .
(١٢) سورة النساء : ١٨ .
(١٣) البحر المحيط : ٣ / ٥٦٦ .
(١٤) التبيان في تفسير القرآن : ٣ / ١٤٢ ، وينظر : البحر المحيط : ٣ / ٥٦٦ .
(١٥) سورة آل عمران : ٣٨ .
(١٦) ينظر : مفردات ألفاظ القرآن : ٨٤٦ (هنا)، والتبيان في تفسير القرآن : ٢ /٤٤١ ، ومجمع البيان : ٢ / ٤٢٨ ، البحر المحيط : ٣ / ١٢٥ ، وبصائر ذوي : ٥ / ٣٥٠ .
(١٧) المقتضب : ١ /١٩٧ . وينظر : المفصّل في صنعة الإعراب : ١٨٣ ، وشرح الرضي على الكافية : ٣ /٧-١١ ، وشرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك : ١ /١٥٣-١٥٥ .

(اسميّة ، أو فعليّة) ، أو شبه جملة (جار ومجرور ، أو ظرف)[1] . واشترط النحويون القدماء أن تكون جملة الصلة معلومة عند المخاطب، قال الرضي : ((الصلة ينبغي أن تكون معلومة للسامع في اعتقاد المتكلّم قبل ذكر الموصول على ما تقدّم : أنّ الحكم الذي تضمّنته الصلة ينبغي أن يعتقد المتكلّم في المخاطب أنّه يعلم حصوله للموصول ، فلا يقال : أنا الذي دوّخ البلاد إلاّ لمَن يعلم أنّ شخصاً دوّخها))[2] . فالاسم الموصول ((في العمل كـ (ال) العهديّة التي تُعرّف المفردات))[3] . وهذا الأمر غير لازم ، إذ قد لا يُراد من صلة الموصول العهد ، بل يُراد منها الدلالة على عموم الجنس[4] ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَاللاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ ...﴾[5]، ((فليس المقصود بذلك نساء معلومات ، بل المقصود الجنس))[6]. وزاد ابن مالك [ت ٦٧٢ هـ] أنّه ((قد يُراد تعظيم الموصول ، فتبهم صلته))[7] ، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى : ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾[8]. وزيادة على ذلك ، فقد جاء الاستعمال القرآنيّ للاسم الموصول ، وصلته جملة ، وشبه جملة مجتمعتين ، وذلك في قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾[9]، فصلة الموصول (الذين) لا يجوز أن تكون الجملة الفعليّة (يقاتلون) ، إذ لو كانتْ كذلك لكان المعنى أنّه – تبارك وتعالى – يحبّ كلّ مقاتلة بغضّ النظر عن أن تكون لرفع كلمة التوحيد ، أو لا ؛ لذا يجب أن يكون الجار والمجرور (في سبيله) هو ما يتمّم صلة الجملة الفعليّة ، ويُقيّدها ، بل ل قوله (صفّا) داخل في الصلة المراد التعبير بها عن الموصول ، قال العلامة الطباطبائيّ : ((يقاتلون في سبيله حال كونهم صافين))[10]. وزيادة على ذلك، فقد تكون صلة الموصول أكثر من جملة ، من ذلك قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلا ﴾[11] ، فصلة الاسم الموصول (الذين) ليستْ جملة (آمنوا) فقط ، بل مجموع الجمل الفعليّة (آمنوا ثمّ كفروا ثمّ آمنوا ثمّ كفروا ثمّ ازدادوا كفراً) . ولم أجد أحداً من النحويين قد أشار إلى ذلك

وقد استعمل الاسم الموصول عنصراً إحاليّاً في النصّ القرآنيّ الكريم . والأسماء الموصولة المستعملة في الإحالة ، هي :

الإحالة بـ (الذي) : وذلك في قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ... ﴾[12] . يلحظ أنّ هناك إحالتين بالاسم الموصول ، وهما (الذي هو أدنى) ، و(الذي هو خير) . فالأوّل منهما يُحيل على الكلام المتقدّم في الآية نفسها ، وهو قوله (من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها) ، والثاني يُحيل على كلامٍ متقدّم هو (المنّ والسلوى) من قوله تعالى : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[13]. ومنه قوله تعالى : ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾[14]. الموصول (الذي) يُحيل على اسم الجلالة ، وقد استعمل الاسم الموصول ؛ ليربط بين صلته ، والكلام المتقدّم ، فجملة صلة الموصول تعليليّة لجملة (حسبك الله) : أي تكفّل بكفايتك شرّهم ، ثمّ استدلّ له على ذلك بقوله (هو الذي أيّدك بنصره) ، فالمعنى فيه : فإنّ الله قد نصرك - في مكة - مع ضعف قوّتك قبلُ ، فيكون نصرك الآن – في المدينة - بتأييد الله والمؤمنين

---

(١) ينظر : شرح ابن عقيل : ١ /١٥٣ – ١٥٥ .
(٢) شرح الرضي على الكافية : ٣ /٩ .
(٣) معاني النحو : ١ /١١٢ .
(٤) ينظر : شرح التسهيل ، تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد : ١ / ٢٠٥ ،ومعاني النحو : ١ / ١١٢ .
(٥) سورة النساء : ١٥ . ومن أمثلته أيضاً : سورة البقرة : ١٧١ ، ٢٧٥ ، وسورة النساء : ١٧ .
(٦) معاني النحو : ١ / ١١٣ .
(٧) شرح التسهيل : ١ / ٢٠٥ .
(٨) سورة طه : ٧٨ . ومثله من سورة النجم : ١٠ .
(٩) سورة الصف : ٤ .
(١٠) الميزان في تفسير القرآن : ١٩ / ١٩٣ .
(١١) سورة النساء : ١٣٧ . ومثلها في سورة آل عمران : ٩٠ .
(١٢) سورة البقرة : ٦١ .
(١٣) سورة البقرة : ٥٧ .
(١٤) سورة التبيان في تفسير القرآن : ٥ / ١٣٦ ، وروح المعاني : ١٠ / ٣١٢ ، وتفسير التحرير والتنوير : ٩ / ١٥٠ – ١٥١ .
(١٤) سورة البقرة : ٢٥٨ .
(١٤) ينظر : تفسير الكشّاف : ١ / ٣٠٠ – ٣٠١ .
(١٤) مجمع البيان : ٢ / ٢٥٢ .
(١٤) مفردات ألفاظ القرآن : ٢١٩ (حجّ).
(١٤) بصائر ذوي التمييز : ٢ / ٤٣١ .
(١٤) ينظر : مجمع البيان : ٢ / ٢٥٣ ، والبحر المحيط : ٢ / ٦٢٥ وروح المعاني : ٣ / ٢٤ .
(١٤) ينظر : مجمع البيان : ٢ / ٢٥٢ ، وروح المعاني : ٣ / ٢٣ .
(١٤) البحر المحيط : ٢ / ٦٢٦ .
(١٤) البحر المحيط : ٢ / ٦٢٧ .
(١٤) سورة البقرة : ٢٤ .
(١٤) سورة التحريم : ٦ . وينظر : سورة الأنبياء : ٢١ ، وسورة الليل : ١٤ .
(١٤) تفسير التحرير والتنوير : ١ / ٣٣٩ / ٣٤٠ .
(١٤) البحر المحيط : ١ / ١٧٥ .
(١٤) ينظر : المصدر نفسه : ١ / ١٧٦ .
(١٤) ينظر : إرشاد العقل السليم : ١ / ٦٨ .
(١٤) سورة البقرة : ١٤٢ . ومثلها في سورة المجادلة : ١ .الأنفال : ٦٢ .

أولى وأقرب [١]. ومن الإحالة المقاميّة بـ (الذي) ، قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [٢] . فقد استعمل الاسم الموصول (الذي حاجّ) مُحيلاً مقاميّاً ؛ وذلك لأنه لم يتقدّم ذكر له في الكلام ، فالموصول يُحيل خارج النصّ ، والمقصود به النمرود [٣] ، وهو أحد الملوك ، كما تُشير الآية الكريمة وقد جاءت صلة الموصول غير معلومة للمخاطب – على خلاف ما قاله النحويون – إذ إنّ القصة على سبيل التمثيل لحال الكافرين ، فمعنى (ألم ترَ إلى الذي حاجّ إبراهيم) : ((ألم ينتهِ علمك ، ورؤيتك ... إلى مَن كان كالذي حاجّ ، فكأنه قال : هل رأيت كالذي حاجّ))[٤] ، وهذه المحاجّة لم يكن النبيّ على علم بها ، ولا المسلمون /المخاطبون، فكان ذلك دالاّ على عدم اطّراد كون صلة الموصول معلومة للمخاطب ، بل ساقها المتكلم / الله – تبارك وتعالى – للتمثيل على التجبّر ، والطغيان . ويدلّ على ذلك الفعل (حاجّ) ، فمعنى ((المحاجّة : أن يطلب كلّ واحد أن يردّ الآخر عن حجته))[٥] على سبيل المنافرة ، والمخاصمة [٦] . وفي الآية الكريمة حذف دلّ عليه قوله (حاجّ)، إذ إنّ كلام إبراهيم A كان جواباً لسؤال النمرود : مَن ربّك [٧] ، وفي التعبير بقوله(في ربّه) دلالة على عدم إيمانه بالله تعالى ، إذ إنّ الضمير يعود على إبراهيم A [٨] . ثمّ زاد في بيان كفره ، وتجبّره ببيان سبب ذلك بقوله (أن آتاه الله الملك) ، وهي مفعول لأجله ((على معنيين : أحدهما أنّ الحامل على المحاجّة هو إيتاؤه الملك ، أبطره ، وأورثه الكبر ، والعتوّ ، فحاجّ لذلك . والثاني : أنه وضع المحاجّة موضع ما وجب عليه من الشكر لله تعالى على إيتائه الملك))[٩] ، فجاء الردّ عليه من النبيّ A بقوله (ربّي الذي يحيي ويميت) ، ولم يقل : ربّي يحيي ويميت ، إذ لو قال ذلك لدلّ على أنّ هذه الصفة (يحيي ، ويميت) ، ليستْ خاصّة بمعيّن ، فكان الوصف بالاسم الموصول دليلاً ((على الاختصاص ؛ لأنهم قد ذكروا أنّ الخبر كان بمثل هذا دلّ على الاختصاص))[١٠] .

الإحالة بـ (التي) : من ذلك قوله تعالى : ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [١١]. فقد أحال الاسم الموصول (التي) على النار الموصوفة بقوله (التي وقودها الناس والحجارة) ، وهذا الوصف يرتبط نصّيّاً مع أكثرمن آية واصفة لجهنم ، من ذلك قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ...﴾[١٢] ، فكان ذلك دالاّ على علم المخاطبين بوصف هذه النار ، التي حذّرهم منها في أكثر من موضع . وفي جلء صلة الموصول جملة اسميّة ، وهي الدالّة على الثبوت ، والدوام تأكيد على أنّ هنالك صنفاً من الناس سوف يُعذبون في النار ، و ((تنزيل الجاهل منزلة العالم بقصد تحقيق وجود جهنّم))[١٣]، وفي ذلك ترهيب للمخاطبين من أن يكونوا منهم فـ ((الناس يُراد به الخصوص ممّن شاء الله دخولها ، وإنْ كان لفظه عامّاً ، والحجارة الأصنام ، وكانا وقوداً للنار مقرونين معاً ، كما كانا في الدنيا حيث نحتوها ، وعبدوها آلهة من دون الله))[١٤]. وتقديم (الناس) في الصلة إمّا لأنهم اختاروا أن يكونوا من أهل النار على الرغم من كثرة الأنبياء الذين أنذروهم من ذلك اليوم ، أو لأنهم يستشعرون الألم أكثر من سواهم ؛ لكونه أعظم وعيداً لهم ، أو لكون انتشار النار أسرع في أجسادهم [١٥]. وجاء بصلة [١٦] أخرى واصفة للنار ، وهي قوله (أُعدّتْ للكافرين)، وكانتْ جملة فعليّة ، فعلها ماضٍ ؛ للدلالة على تحقّق الإعداد للنار ، وقد بُني الفعل للمجهول للاهتمام بالحدث من دون الاهتمام بمحدِثه ، وقد تكامل التهويل من النار بوصف وقودها ، وإعدادها . وبين الصلتين مزيد ارتباط ، إذ إنّ قوله (للكافرين) بيان لـ (الناس) الوارد ذكرهم في الصلة الأولى ، وفي ذلك تخويف لمَن يسمع هذا الكلام أن لا يكون ممّن ينطبق عليه وصف الكفر . ومن الإحالة المقاميّة بـ (التي) ، قوله تعالى : ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [١٧] . فالاسم الموصول يُحيل إحالتين : الأولى منهما نصّيّة ، وهي أنّ موقع الاسم الموصول هو النعت لـ (قبلتهم) ، ((وفي وصفها بذلك بعد إضافتها إلى ضمير المسلمين تأكيد للإنكار))[١٨] ، والإحالة الثانية ، وهي مقاميّة ، إذ المقصود بـ (قبلتهم التي كانوا عليها) ، هي المسجد الأقصى في القدس ، الذي كان المسلمون يتوجّهون إليه في الصلاة قبل تحويل القبلة ناحية الكعبة الشريفة [١٩]. وتدلّ صلة الموصول (كانوا عليها) ((على تمكن استقبالها ، وديمومتهم على ذلك))[٢٠].

---

(١) ينظر : التبيان في تفسير القرآن : ٥ / ١٣٦ ، وروح المعاني : ١٠ / ٣١٢ ، وتفسير التحرير والتنوير : ٩ / ١٥٠ – ١٥١ .
(٢) سورة البقرة : ٢٥٨ .
(٣) ينظر : تفسير الكشّاف : ١ / ٣٠٠ – ٣٠١ .
(٤) مجمع البيان : ٢ / ٢٥٢ .
(٥) مفردات ألفاظ القرآن : ٢١٩ (حجّ).
(٦) بصائر ذوي التمييز : ٢ / ٤٣١ .
(٧) ينظر : مجمع البيان : ٢ / ٢٥٣ ، والبحر المحيط : ٢ / ٦٢٥ وروح المعاني : ٣ / ٢٤ .
(٨) ينظر : مجمع البيان : ٢ / ٢٥٢ ، وروح المعاني : ٣ / ٢٣ .
(٩) البحر المحيط : ٢ / ٦٢٦ .
(١٠) البحر المحيط : ٢ / ٦٢٧ .
(١١) سورة البقرة : ٢٤ .
(١٢) سورة التحريم : ٦ . وينظر : سورة الأنبياء : ٢١ ، وسورة الليل : ١٤ .
(١٣) تفسير التحرير والتنوير : ١ / ٣٣٩ / ٣٤٠ .
(١٤) البحر المحيط : ١ / ١٧٥ .
(١٥) ينظر : المصدر نفسه : ١ / ١٧٦ .
(١٦) ينظر : إرشاد العقل السليم : ١ / ٦٨ .
(١٧) سورة البقرة : ١٤٢ . ومثلها في سورة المجادلة : ١ .
(١٨) روح المعاني : ٢ / ٥٥٠ .
(١٩) ينظر : أسباب النزول : ٢٣ ، لباب النقول في أسباب النزول : ٢٥ .
(٢٠) البحر المحيط : ٢ / ١٠ .

الإحالة بـ (الذين) : من ذلك قوله تعالى : **﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾** (١). فقد رأى بعض المفسّرين (٢) أنّ الموصول (الذين كفروا منهم) ، يُحيل على الموصولين السابقين ، أي (الذين قالوا إنّ الله هو المسيح) ، و(الذين قالوا إنّ الله ثالث ثلاثة) ، ورأى آخر (٣) أنّ الموصول الأخير يُحيل على الموصول الثاني فقط ، وهو قوله (الذين قالوا إنّ الله ثالث ثلاثة) . ويبدو أنّ رأيه أقرب إلى الدقة ، إذ إنّ القول الأوّل (قالوا إنّ الله هو المسيح) ، قد تكفّل عيسى عليه السلام بالردّ عليهم ، وإنذارهم من الشرك المؤدّي إلى النار . أمّا القول الثاني (إنّ الله ثالث ثلاثة) ، فقد جاء الردّ عليهم من الله تعالى ، فيكون الاسم الموصول المُحيل مقصوراً على القول الثاني من الشرك . ورأى الزمخشريّ أنّ استعمال الموصول بدل الضمير ، بأنْ يقول (ليمسّنهم) ؛ ((فائدة وهي تكرير الشهادة عليهم بالكفر))(٤). ويبدو أنّ الإتيان بالضمير المجرور العائد عليهم في (منهم) ، مع أنّهم جميعاً كافرون ، بيان لمَن بقي على هذا القول بعد النهي النازل لهم . ومنه قوله تعالى : **﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴾** (٥).
فالتعبير بالاسم الموصول (الذين كفروا) ، يُحيل على أحد طرفي الخصام ، وهو الطرف الكافر ، إذ التخاصم في الربّ بين مؤمن به وكافر ، وقد أحال الضمير في قوله (ربّهم) على طرفي الخصام ، وفي الإضافة إلى الربّ مع كفر أحدهما دلالة على أنّ صفة الربوبيّة لازمة له – سبحانه وتعالى – على الرغم من إنكار طائفة منهم .

الإحالة بـ (مَنْ) : من الإحالة النصّية بـ (مَنْ) ، ما جاء في قوله تعالى : **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾** (٦). فالاسم الموصول (مَن) يُحيل على قوله (بقومٍ) ، فقد وصف سبحانه القوم بحبه لهم ، وحبهم له ، وبذلّتهم على المؤمنين ، وعزّتهم على الكافرين ، وجهادهم في سبيله، وعدم خوفهم لوم اللائمين ، فأشار إلى أنّ ما تقدّم من صفات ((الذين سبقتْ لهم العناية الإلهيّة))(٧) ، هو (فضل) ، ويؤتيه (مَنْ يشاء) ، فأحال بالموصول عليهم . ومن الإحالة المقاميّة بـ (مَنْ) ، قوله تعالى : **﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾**(٨). فالمقصود بالموصول في قوله (مَنْ في أيديكم من الأسرى) ، أسرى معركة (بدر) ، التي كانتْ أحد أسباب نزول السورة (٩). وصلة الموصول هي مجموع شبهي الجملة ، إذ إنّ شبه الجملة الأول (في أيديكم) لا يعطي الدلالة الواضحة على المقصود بالاسم الموصول ، فاحتاج إلى شبه الجملة الثاني (من الأسرى) لتكتمل دلالته ، وفي وصفهم بـ (في أيديكم) دليل على تمكنهم منهم ؛ ((لأنّ مَن كان في وثاقهم ، فهو بمنزلة مَن يكون في أيديهم لاستيلائهم عليه))(١٠).

الإحالة بـ (ما) :من ذلك قوله تعالى : **﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾** (١١). فالاسم الموصول في الآية الكريمة يُحيل على (المسيح)(١٢) ، المتقدّم في الآية الكريمة السابقة ، يُفترض أنْ تكون الإحالة بالموصول الدالّ على العاقل ، وهو (مَنْ) ، ويبدو أنّ الغرض من استعمال (ما) ذات الدلالة العامّة ؛ ليكون الكلام شاملاً المسيح ، وغيره من المعبودات ، التي اتخذها غيرهم ، فصار الجواب صالحاً للاحتجاج على كلّ مَنْ يدعو إلى عبادة غير الله تعالى . ومنه قوله تعالى : **﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾** (١٣). فالاسم الموصول (بما قالوا) يُحيل إمّا على قوله (يقولون ربّنا آمنّا)(١٤) ، أو على قوله (وما لنا لا نؤمن) وما بعده (١٥). ويبدو أنّه يُحيل على مجموع الكلام المتقدّم ؛ لأنّ قولهم (يقولون آمنّا) تصريح بالإيمان ، وقولهم (وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحقّ) دفاع عن هذا التصريح . وهو الدفاع الذي صدر منهم عن اعتقادٍ وإخلاص(١٦) .ومن الإحالة المقاميّة بـ (ما) ، قوله تعالى : **﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ**

---

(١) سورة المائدة : ٧٢ – ٧٣ .
(٢) ينظر : البحر المحيط : ٤ / ٣٣٠ .
(٣) ينظر : تفسير التحرير والتنوير : ٥ / ١٧٣ .
(٤) تفسير الكشّاف : ١ / ٦٥١ .
(٥) سورة الحجّ : ١٩ .
(٦) سورة المائدة : ٥٤ .
(٧) روح المعاني : ٦ / ٤٥٧ .
(٨) سورة الأنفال : ٧٠ .
(٩) ينظر : أسباب النزول : ١٢٥ ، ومجمع البيان : ٤ / ٧٠٤ ، وروح المعاني : ١٠ / ٣٢٤ .
(١٠) مجمع البيان : ٤ / ٧٠٤ . وينظر : روح المعاني : ١٠ / ٣٢٣ .
(١١) سورة المائدة : ٧٥ – ٧٦ .
(١٢) ينظر : تفسير الكشّاف : ١ / ٦٥٢ .
(١٣) سورة المائدة : ٨٣ – ٨٥ .
(١٤) ينظر : البحر المحيط : ٤ / ٣٤٩ ، تفسير التحرير والتنوير : ٥ / ١٨٨ .
(١٥) ينظر : روح المعاني : ٧ / ١٠ .
(١٦) ينظر : تفسير الكشّاف : ١ / ٦٥٦ .

وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ [(1)]. فالاسم الموصول (ما أنزل إليهم) ، يعطي في ظاهره دلالةً عامّة على سائر كتب الله – سبحانه - ، وهو ما ذهب إليه الزمخشريّ في أحد قوليه ، ولكنّ ذكر التوراة والإنجيل في الآية الكريمة يستبعد أنْ يكون الكلام على سائر الكتب المُنزّلة ، ولذا ذهب المفسّرون[(2)] إلى أنّ المقصود به هو القرآن الكريم . ولعلّ ممّا يقوّي هذا الرأي أنّ قد سبق في السورة المباركة أن أمر الله تعالى نبيّه الكريم بالحكم بما أنزل عليه ؛ لكونه أصحّ الكتب وأثبتها ، فقال تعالى : **﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾** [(3)] ، فيكون قوله (لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم) ، تحفيزاً لهم للإيمان بالقرآن الكريم كتاباً خاتماً مُنزّلاً على الرسول الأكرم ρ . ومثله قوله تعالى : **﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾** [(4)]. فالاسم الموصول (ما أنزل إليك) يُحيل مقاميّاً على أمر خاصّ ، قد اقترن تبليغ الرسالة به . وقد جاءتْ صلة الموصول جملة فعليّة ، فعلها مبنيّ للمجهول ، بصيغة الماضي ممّا يدلّ على أنّ الإنزال على الرسول قد تحقّق ، أمّا التبليغ ، فلم يتحقّق بعدُ . وقد تعلّق قوله (من ربّك) بصلة الموصول للدلالة على أنّ ذلك الأمر المنزّل من الله – جلّ اسمه - ، فـ (مِن) تفيد ابتداء الغاية [(5)].وفي إضافة ضمير المخاطب إلى (ربّ) مزيد فضل ، وتشريف للمخاطب ، فضلاً عن تقويته على تنفيذ الأمر المطلوب منه ؛ لكونه مأموراً من ربّه بأداء ما عليه من واجب ، إذ إنّ ((فيه عِدة ضمنيّة بحفظه عليه الصلاة والسلام ، وكلاءته ، أي بلّغه غير مراقب في ذلك أحداً ، ولا خائف أن ينالك مكروه أبداً))[(6)]. ثمّ أعقبه بقوله (وإنْ لم تفعل فما بلّغت رسالته) ، فاستعمل حرف الشرط (إنْ) الدالّ على الشك في وقوع الفعل ، فالمعنى : ((وإن لم تفعل بتبليغ ما أنزل إليك))[(7)]. فهذا القول متفرّع من الأمر بالتبليغ ، وقد زاد تأكيد الأمر ، وتثبيت النبيّ ρ بقوله (والله يعصمك من الناس) ، فاستعمل لفظ الجلالة ، ولم يقل : وهو يعصمك ، إذ إنّه استعمل الاسم الصريح ؛ للدلالة على أنّه – تبارك وتعالى – مَن لا تجوز العصمة إلاّ له ، وقد زاد في تثبيته بقوله (من الناس) ، ولم يقل : من المشركين ، أو اليهود ، أو غيرهم ، فكانت العصمة مطلقة من جميع البشر . ثمّ عيّن الله – تعالى – مَن المقصودون بالكلام ، فقال : (إنّ الله لا يهدي القوم الكافرين) . ويبدو أنّ كلمة (الكافرين) ليستْ بمعنى : المشركين ، الذين يعبدون غير الله – تعالى – بل بمعنى : الجاحد ، أو المنكر للنعمة ، أو الساتر للحقّ [(8)] ؛ ولذا يُلحظ أنّ بعض المفسّرين قد احتار في هذه الآية ، فقال : ((إنّ موضع هذه الآية في هذه السورة مُعضل ، فإنّ سورة المائدة من آخر السور نزولاً إنْ لم تكن آخرها نزولاً ، وقد بلّغ رسول الله ﷺ الشريعة وجميع ما أنزل إليه إلى يوم نزولها))[(9)] . وقد استبعد أن يكون نزول الآية قبل السورة ؛ لأنّه يقتضي بقاءها سنين غير مُلحقةٍ بسورةٍ ، ورجّح ((أن تكون هذه الآية نزلتْ بسبب خاصّ اقتضى إعادة تثبيت الرسول على تبليغ شيءٍ ممّا يثقل عليه تبليغه))[(10)] . ولعلّ ما جاء في أسباب النزول يُوضّح هذا الشيء ، الذي يثقل على الرسول ρ تبليغه ، وهي حادثة (يوم غدير خُم)[(11)]. ومنه قوله تعالى : **﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾** [(12)] . فقد أحال الاسم الموصول إحالةً مقاميّةً ، إذ لا يوجد ما يُحيل عليه من داخل النصّ أوّلاً ، ولأنّه لم يأتِ الاسم الموصول مُحيلاً بعدياً في النصّ القرآنيّ الكريم . وعلى الرغم من أنّ قوله (ما أحلّ الله لك) عامّ ، يصلح لكلّ ما هو محلّل للنبيّ ρ إلاّ أنّه – بقرينة المقام – يُحيل على شيء خاصّ من الملذات ، وهو العسل كما يشير إلى ذلك العلماء في أسباب النزول [(13)]. وهذه إحصائية بالأسماء الموصولة الواردة في السور المدنيّة : الذي / ٦٧ مرّة ، التي / ١٦ مرّة ، اللذان / مرّة واحدة ، الذين / ٣٢٨ مرّة ، اللاتي ، واللائي / ٦ مرّات ، مَنْ / ١٠٢ مرّة ، ما / ٣٠٣ مرّة. وفي هذه الإحصائيّة دليل على سبك النصّ ، إذ إنّ هذا العدد من الأسماء الموصولة يسهم في ترابط النصّ ، وتماسكه . ويُزاد على ذلك أنّ كثرة استعمال الاسمين الموصولين (الذين) ، و(ما) يدلّ على الاهتمام بالمتلقين للنصّ ، إذ إنّ الغاية من النصّ الكريم تطبيق التعاليم الشرعيّة الملقاة عليهم . ولكثرة تلك التعاليم والتشريعات ، والتوجيهات ، قد أكثر من استعمال الاسم الموصول (ما) .

الإحالة بـ (ال) التعريف :

---

(1) سورة المائدة : ٦٦ .
(2) ينظر : تفسير الكشّاف : ١ / ٦٤٤ ، روح المعاني : ٦ / ٤٨١
(3) سورة المائدة : ٤٨ .
(4) سورة المائدة : ٦٧ .
(5) ينظر : رصف المباني : ٣٨٨ ، والجنى الداني : ٣٠٨ .
(6) روح المعاني : ٦ / ٤٨٦ .
(7) البحر المحيط : ٤ / ٣٢١ .
(8) ينظر : بصائر ذوي التمييز : ٤ / ٣٦١ – ٣٦٢ .
(9) تفسير التحرير والتنوير : ٥ / ١٥١ .
(10) المصدر نفسه : ٥ / ١٥١ .
(11) ينظر : أسباب النزول : ١٠٤ - ١٠٥ .
(12) سورة التحريم : ١ .
(13) ينظر : أسباب النزول : ٢٢٦ ، ولباب النقول : ٢٤٢ .

عنصر إحاليّ أدخله هاليداي ورقيّة حسن ضمن الإحالة بالإشارة [١] ، وهو ما يُعرف بـ (ال) العهديّة في اللغة العربيّة ، وهي على ثلاثة أقسام[٢] :

١- العهد الذكريّ : وهو أنْ يُسبق المُعرّف بـ (ال) اسم ، ثمّ تأتي (ال) في الاسم الآخر ؛ لتشير إلى الاسم السابق ، نحو قوله تعالى : **﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولا فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلا﴾**[٣] . فـ ((قيل : الرسول بلام التعريف ؛ لأنّه تقدّم ذكره فأحيل عليه . كما تقول : لقيتُ رجلاً فضربتُ الرجل))[٤].

٢- العهد الذهنيّ : وهو لما لم يُذكر في النصّ ، ولا يكون إلاّ في الشيء المشهور ، نحو قوله تعالى : **﴿إِلا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾**[٥]. إذ ((أراد به هنا غار جبل ثور ، وهو جبل بمكة))[٦] .

٣- العهد الحضوريّ : وهو الإشارة إلى حاضر عن طريق التعريف ، ولا يقع إلاّ بعد أسماء الإشارة ، نحو : جاءني هذا الرجل ، أو في النداء ، نحو : يا أيّها الرجل ، أو إذا الفجائيّة ، نحو : خرجتُ فإذا الأسد ، أو في اسم الزمان الحاضر ، نحو : الآن . ومنه قوله تعالى : **﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾**[٧] .

ومن صور الإحالة بـ (ال) التعريف في سور القرآن المدنيّة ، قوله تعالى : **﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾** [٨]. فالتعريف في قوله (الشهر) ((للعهد ، والمراد به شهر رمضان))[٩] المتقدّم ذكره . ومثله قوله تعالى : **﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ...﴾**[١٠]. فـ ((في إعادة المصباح ، والزجاجة معرّفين إثر سبقهما منكرين ، والإخبار عنهما بما بعدهما ... من تفخيم شأنهما ، ورفع مكانهما بالتفسير إثر الإبهام ، والتفصيل بعد الإجمال ، وبإثبات ما بعدهما لهما بطريق الإخبار المنبئ عن القصد الأصليّ دون الوصف المبني على الإشارة إلى الثبوت في الجملة ما لا يخفى ... واللام مغنية عن الربط))[١١] . ورأى بعض المفسّرين أنّ كلمة (العذاب) في قوله تعالى : **﴿ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾** [١٢] . تُحيل على قوله (عذابهما) في قوله تعالى : **﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾**[١٣] ، فقال : ((والتعريف في (العذاب) ظاهر في العهد لتقدّم ذكر العذاب في قوله (وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين)))[١٤]. ويبدو أنّ هذه الإحالة غير موجودة بين الآيتين في كلمة (العذاب) ؛ وذلك لأنّ (عذابهما) في الآية المتقدّمة ، أي الجلد ، هو عقوبة الزانية والزاني غير المُحصَنين ، في حين أنّ (العذاب) في الآية المتأخرة هو للمرأة المحصنة ، التي تريد درء العذاب عن نفسها بحكم الملاعنة بين الزوجين ، وعذاب المحصن هو الرجم بالحجر ، وليس الجلد ، فيتبيّن من ذلك أنه لا إحالة بين الآيتين . ولعلّ ممّا يدخل في هذا المبحث ، قوله تعالى : **﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾** [١٥]. فقد رأى بعض المفسّرين أنّ التعريف (الأسماء) تعريف الجنس ، أريد منه الاستغراق ، وهو الذي يقتضيه منصب الخلافة [١٦]، فـ ((دلّ قوله تعالى (كلّها) على الشمول ، والحكمة حاصلة بتعليم الأسماء ، وإنْ لم تعلم مسمياتها))[١٧]، ورأى آخر أنه ((علّمه معاني الأسماء، إذ الأسماء بلا معان لا فائدة فيها ، ولا وجه لإشارة الفضيلة بها))[١٨]، ويبدو أنّ الرأي الأخير أقرب إلى الصحة ، وإنْ كان يمكن أن يؤوّل الرأي الأول بأنّه – تبارك وتعالى – أعطاه القدرة على تكوين الأسماء للمسمّيات التي لم تكن موجودة في ذلك الوقت .

ومن اللافت للنظر في الآية الكريمة أنّه استعمل اسم الإشارة (هؤلاء) ، الذي يُفيد الجمع القريب الحاضر ، إشارةً إلى أصحاب الأسماء ؛ ولذا رجّح بعضهم ((أنّ العرض للسؤال عن أسماء المعروضات لا عن نفسها ، وإلاّ لقيل : أنبؤوني بهؤلاء ، فلا بدّ أن يكون المعروض غير المسؤول عنه ، فلا يكون نفس الأسماء))[١٩] . ثمّ ألا يُمكن أنْ يكون تعليم الأسماء

---

(١) ينظر : إشكالات النصّ : ٣٤٨ -٣٤٩ .
(٢) ينظر : مغني اللبيب عن كتب الأعاريب : ١ / ٦١ . وينظر : إشكالات النصّ : ٣٥٣ .
(٣) سورة المُزّمل : ١٥ – ١٦ .
(٤) البحر المحيط : ١٠ / ٣١٧ .
(٥) سورة التوبة : ٤٠ .
(٦) مجمع البيان : ٥ / ٧٩ – ٨٠ .
(٧) سورة يوسف : ٥١ .
(٨) سورة البقرة : ١٨٥ . ومثلها في سورة آل عمران : ٤٩ -٥٣ ، ٨١-٨٦ ، ٩٦-٩٧ ، ١٤٠ -١٧٢ ؛ وسورة المائدة : ٣١ ؛ وسورة التوبة : ٩١-٩٣ .
(٩) مجمع البيان : ٢ / ٢٢ .
(١٠) سورة النور : ٣٥ .
(١١) إرشاد العقل السليم : ٦ / ١٧٦ . وينظر : مجمع البيان : ٧ / ٣٧٧ .
(١٢) سورة النور : ٨ .
(١٣) سورة النور : ٢ .
(١٤) تفسير التحرير والتنوير : ١٨ / ١٣٥ .
(١٥) سورة البقرة : ٣١ .
(١٦) ينظر : روح المعاني : ١ / ٣٠٢ – ٣٠٣ ، تفسير التحرير والتنوير : ١ / ٣٩٥ .
(١٧) البحر المحيط : ١ / ٢٣٦ .
(١٨) مجمع البيان : ١ / ١٨٣ .
(١٩) روح المعاني : ١ / ٣٠٤ .

يُفيد الاستغراق ، لكنّ الذين عرضهم جزء منهم ، فتكون الإحالة في (عرضهم) – إذ هي تُحيل على ذوات – إحالةً مقاميّة لخلقٍ مُعيّنين ،فضلاً عن ذلك ، فما علّمه لآدم أسماء ، وما عرضه ذوات ؛ بدليل الإشارة إليهم . يُزاد على ذلك ، أنه ليس بالضرورة أن تكون كلّ الأسماء لذوات ، فبعض الألفاظ ذات دلالة معنويّة لا حسّيّة ، فلا تكون داخلة في قوله (عرضهم) ، ودلالة الاستغراق في التعريف بـ (ال) للأسماء تُدخل الألفاظ المعنويّة فيها ، فيدلّ ذلك على أنّ المعروض ليس جميع ما علّمه .

الإحالة بالاسم الصريح : وردتْ في السور المدنيّة من النصّ القرآنيّ الكريم أسماء تُحيل على غيرها ، والأسماء المُحال عليها إمّا أنْ يُوضّحها السياق ، أو مفهومة من المقام ، أو أنْ تكون معروفةً عُرفاً. فمن ذلك قوله تعالى : **﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ... وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ... ﴾** [(١)]. فالذي يظهر من سياق الكلام عن خليفة الأرض ، وعطف تعليم آدم عليه السلام عليه ، أنّ آدم A هو المقصود بـ (خليفة) [(٢)] ، ((وإبراز اسمه عليه السلام للتنصيص عليه والتنويه بذكره)) [(٣)] ، وهذه الإحالة بالاسم الصريح . ومثله قوله تعالى : **﴿وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾**[(٤)] . فقوله (شياطينهم) ، اسم صريح ، يُحيل مقاميّاً على مَن يأمرونهم بالتكذيب من اليهود[(٥)] ، أو من قادة المنافقين[(٦)]. ومنه قوله تعالى : **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا وَقُولُواْ انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾**[(٧)]. فالآية الكريمة تُشير إلى بعض أفعال اليهود ، الذين استعملوا كلمة (راعنا) ، التي كانوا يقصدون منها معنى الجهل والحمق توريةً من (راعى مُراعاة) ، التي تشترك في بعض حروفها مع (رعن رعونة) ، فكانت الآية الكريمة تنهى عن استعمال هذه الكلمة ؛ ولذا يتّضح أنّ المقصود بـ (الكافرين) في الآية الكريمة ((اليهود خاصّةً ... والتعبير بالكافرين دون اليهود زيادة في ذمّهم))[(٨)]. ومثلها قوله تعالى : **﴿ رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأبْرَارِ ﴾** [(٩)]. فقد عبّر بكلمة (منادياً) عمّن يدعو الناس إلى الإيمان بالله تعالى ، وهذه الإحالة بالاسم مقصود بها النبيّ محمّد [(١٠)] ٩ .ومثلها قوله تعالى : **﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَآ آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾** [(١١)]. فسياق الآية الكريمة يُظهر أنّ المقصود بـ (الناس) شخصاً مُعيّناً ؛ إذ إنّ الله – عزّ وجلّ – قد قرن فضله عليه بالفضل الذي آتاه آل إبراهيم ، فيدلّ ذلك على أنّ الفضل هو النبوّة ، وأنّ المخصوص بالفضل هو النبيّ محمد [(١٢)] ρ. ومنها أيضاً قوله تعالى : **﴿وَإِن نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾** [(١٣)]. فالآية الكريمة استعملت عبارة (أئمة الكفر) ، وهي تُحيل إحالةً مقاميّةً على قومٍ معيّنين ، وذلك أنّ ((المُراد بأئمة الكفر : المشركون الذين نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم ، فوضع هذا الاسم موضع الضمير حين لم يقل : فقاتلوهم ؛ لزيادة التشنيع عليهم ببلوغهم هذه المنزلة من الكفر ، وهي أنّهم قدوة لغيرهم))[(١٤)] ، ورأى الآلوسيّ أنّ المقصود ((رؤساؤهم ، وصناديدهم ... وتخصيصهم بالذكر قتلهم أهمّ ، لا لأنّه لا يقتل غيرهم))[(١٥)]. ومنه قوله تعالى : **﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾** [(١٦)]. والتعبير بـ لا يُفيد استغراق الجنس ، بل المقصود منه – عُرفاً - شخص بعينه ، وهو النبيّ آدم عليه السلام [(١٧)]. ومنه قوله تعالى : **﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾** [(١٨)]. فالتعبير بـ (عباد الله) يُحيل على (الأبرار) المتقدّمة ، وهو (إظهار في مقام الإضمار ؛ للتنويه بإضافة عبوديّتهم إلى الله تعالى إضافة تشريف))[(١٩)].

المبحث الثاني : الاستبدال :

---

(١) سورة البقرة : ٣٠ – ٣١ .
(٢) ينظر : مجمع البيان : ١ / ١٧٧ ، والتبيان في تفسير القرآن : ١ / ١٩٨ – ١٩٩ .
(٣) روح المعاني : ١ / ٣٠٢ .
(٤) سورة البقرة : ١٤ .
(٥) ينظر : روح المعاني : ١ / ٢١٢ . وينظر : مجمع البيان : ١ / ١١٧ .
(٦) ينظر : البحر المحيط : ١ / ١٢١ ، وتفسير التحرير والتنوير : ١ / ٢٨٦ .
(٧) سورة البقرة : ١٠٤ . وينظر : قوله تعالى : ﴿ ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليّاً بألسنتهم ﴾ سورة النساء : ٤٦ .
(٨) تفسير التحرير والتنوير : ١ / ٦٣٤ . وينظر : البحر المحيط : ١ / ٥٤٤ .
(٩) سورة آل عمران : ١٩٣ .
(١٠) ينظر : التبيان في تفسير القرآن : ١ / ٨٢ ، وروح المعاني : ٤ / ٥٠٨ .
(١١) سورة النساء : ٥٤ .
(١٢) ينظر : التبيان في تفسير القرآن : ٣ / ٢١٨ ، والبحر المحيط : ٣ / ٦٧٨ .
(١٣) سورة التوبة : ١٢ .
(١٤) تفسير التحرير والتنوير : ١٠ / ٣٥ . وينظر : التبيان في تفسير القرآن : ٥ / ١٦٤ ، ومجمع البيان : ٥ /٣٠، والبحر المحيط : ٥ / ٣٧٩ .
(١٥) روح المعاني : ١٠ / ٣٥٤ .
(١٦) سورة الرحمن : ١٤ .
(١٧) ينظر : التبيان في تفسير القرآن : ٩ / ٣٧٤ ، والبحر المحيط : ١٠ / ٥٨ .
(١٨) سورة الإنسان : ٥ – ٦ .
(١٩) تفسير التحرير والتنوير : ٢٩ / ٣٥٤ .

الاستبدال لغةً[1] : البدل : خَلَف من الشيء ، والتبديل : التغيير . واستبدلتُ ثوباً مكان ثوبٍ ، وأخاً مكان أخٍ . وبدّل الشيء : غيّره . **الاستبدال اصطلاحاً** : لم يُعرِّف الشريف الجرجانيّ (الاستبدال) ، بل عرّف (الإبدال) ، والبدل ، وكان تعريفه الأوّل صرفيّاً ، فقال : ((هو أنْ يُجعل حرف موضع حرف آخر ؛ لدفع الثقل))[2]. في حين عرّف الثاني تعريفاً نحويّاً ، فقال : ((تابع مقصود بما نسب إلى المتبوع دونه))[3] . أمّا الكفويّ ، فقد ورد مُصطلح الإبدال في كتابه في أكثر من موضع ، أقربها إلى موضوع البحث ، تعريفه الذي يقول فيه : ((رفع الشيء ووضع غيره مكانه))[4] . ويُعرّف التهانويّ الإبدال ، بقوله : ((جعل شيءٍ مكان آخر))[5] . يتبيّن ممّا تقدّم أنّه لم يُستعمل مُصطلح (الاستبدال) عند علماء العربيّة القدماء ، بل استعملوا مصطلح (الإبدال) للدلالة عليه ، إلاّ ما يُلحظ عند الراغب ، الذي جعل مجموعة المصطلحات ((الإبدال ، والتبديل ، والتبدّل ، والاستبدال : جعل الشيء مكان آخر))[6].

الاستبدال في الدراسات النصّيّة الحديثة : ينقل محمّد خطابيّ عن هاليداي ورقيّة حسن تعريفهما الاستبدال بأنّه ((عمليّة تتمّ داخل النص ، إنّه تعويض عنصرٍ في النصّ بعنصرٍ آخر))[7]. ويختلف الاستبدال عن الإحالة في كون الإحالة علاقة معنويّة ، تُحقّق التطابق الدلاليّ بين المُحيل والمُحال عليه ، في حين يتمّ الاستبدال في المستوى النحويّ – المعجميّ ، ؛ وذلك لأنّ العلاقة بين العنصرين : المُستبدِل والمُستبدَل – هي علاقة بين عنصرٍ سابقٍ وعنصرٍ لاحقٍ – تتحقّق فيها استمراريّة وجود العنصر المُستبدَل ، بشكلٍ يُمكن أنْ تُسمّيه جُزئيّاً ؛ وذلك لأنّ الصفة المفرّقة بين العنصرين تكون مختلفةً . ففي المثال الذي ضربه المؤلفان : (فأسي مثلومة ، يجب أنْ أقتني أخرى حادّة) ، يظهر في المثال أنّ الفأس موجودة في الجملتين ، ولكنّ الفارق بينهما في كون صفة الأولى (مثلومة) ، تختلف في الثانية ، إذ تُصبح الصفة (حادّة) . فالعلاقة بين عنصري الاستبدال (المُستبدِل والمُستبدَل) علاقة تقابل، تقتضي إعادة التحديد ، والاستبعاد[8] . وينقسم الاستبدال في الدراسات النصّيّة إلى ثلاثة أقسام [9] :

١ – **استبدال اسميّ** : ويكون في استعمال ألفاظ ، مثل : آخر وتثنيته وجمعه . ومن اللافت للنظر أنّ الاستعمال القرآنيّ قد أوجد نوعاً من الاستبدال يغاير ما جاء به علماء النصّ المحدثون ، وهذا النوع من الاستبدال لا يقوم على أساس المغايرة ، وإنّما يقوم على أساس التخصيص الوصفيّ للعنصر المستبدَل ، وهذا التخصيص يحدّده السياق ، أو المقام الذي يرد فيه الكلام . من ذلك استعمال المفردة (ربّ) بدل اسم الجلالة الصريح (الله) في العبادة ، والرزق ، والرحمة ، نحو قوله تعالى : **﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾** [10]، وقوله تعالى : **﴿ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾** [11].

٢ – **استبدال فعليّ** : ويكون باستعمال فعل يحمل الدلالة العامّة على الحدث ، مثل الفعل (فَعَلَ ، يفعَل) . وقد عرف علماء العرب القدماء هذا النوع من الاستبدال ، وكانوا يعدّون استعمال صيغة الفعل العامة من باب الإيجاز ، من ذلك قول الزمخشريّ مفسّراً قوله تعالى : **﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾** [12] : ((فإنْ قلت : لِمَ عبّر عن الإتيان بالفعل ، وأي فائدة في تركه إليه ؟ ؛ لأنّه فعل من الأفعال ... والفائدة فيه أنّه جارٍ مجرى الكناية التي تعطيك اختصاراً ، ووجازة تغنيك عن طول المكني عنه))[13] ، وقول الزركشيّ : ((ومنه [أي الإيجاز] لفظ (فعل) ، فإنّه يجيء كثيراً كناية عن أفعال متعدّدة))[14].

٣ – **استبدال قوليّ** : ويكون باستعمال أدوات ، مثل اسم الإشارة (كذلك) ، حيث تُعوّض عن جملة أو مجموعة جمل . وقد عرف العلماء – أيضاً – هذا النوع من الاستبدال ، يقول ابن مالك : ((التعبير بـ (ذلك) عن مضمون كلام على إثر انقضائه شائع في القرآن ، وغيره ، ولا واسطة بين النطقين))[15].

ويمكن أن يزاد – أيضاً – أنّ الاستعمال القرآنيّ قد أوجد نوعاً من الاستبدال يمكن أن يصطلح عليه اسم (الاستبدال الجمليّ) ، وذلك بأن يظهر التقابل بين جملتين على سبيل المغايرة المعنويّة ، وهو ما ينسجم مع مفهوم الاستبدال ، وخاصّة الاسميّ منه ، من ذلك قوله تعالى : **﴿ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾** [16] ، وقوله تعالى : **﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ**

---

(1) ينظر : العين : ٨ / ٤٥ ، تاج اللغة وصحاح العربيّة : ٤ / ٩٩١ ، معجم مقاييس اللغة : ١ / ١١١ ، أساس البلاغة : ٣٤ ، لسان العرب : ١ / ٢٤٥ – ٢٤٦ ، القاموس المحيط : ٨٨٨ . (بدل) .

(2) التعريفات : ٨ .

(3) نفسه : ٢٥ .

(4) الكلّيّات : ٢٥ .

(5) كشّاف اصطلاحات الفنون : ١ / ١٩٧ .

(6) مفردات ألفاظ القرآن : ١١١ (بدل) .

(7) لسانيّات النصّ : ١٩ . وينظر : إشكالات النصّ : ، دراسة لسانيّة نصّيّة : ٣٥٤ .

(8) ينظر : لسانيّات النصّ : ١٩ – ٢١ .

(9) ينظر : لسانيّات النصّ : ٢٠ ، إشكالات النصّ : ٣٥٤ .

(10) سورة الحج : ٧٧ .

(11) سورة الإنسان : ٢١ .

(12) سورة البقرة : ٢٣ – ٢٤ .

(13) تفسير الكشاف : ١ / ١٠٧ .

(14) البرهان في علوم القرآن : ٣/١٤٩ ، ٤ / ٧٨ .

(15) شرح التسهيل : ١ / ٢٦٣ .

(16) سورة آل عمران : ١٥٢ .

فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [١]. ورأى بعض الباحثين أنّ التصنيف الذي وضعه هاليداي ورقيّة حسن للاتساق فيه شيء من التكلّف ، فرأى أنّ الإحالة والاستبدال صنف واحد ، ولا حاجة إلى الفصل بينهما ، وإيجاد الفوارق ، ويرى أنّ ((الإضمار يبدو أقرب إلى الاستبدال منه إلى الحذف ، إذ يعمد فيه المُتكلّم إلى تعويض عنصرٍ لغويّ بآخر، وبالتالي [٢] يحسن نقل الإضمار من القسم الذي جعله المؤلفان للإحالة إلى القسم الذي جعلاه للاستبدال))[٣] . وهذا الرأي فيه نظر ؛ لأنّ الاستبدال الاسميّ ، يتّخذ منحًى لا يُطابق منحى الإحالة ، فالعلاقة بين المُحيل والمُحال عليه تقوم على التطابق في أغلب الأحيان ، في حين أنّها في الاستبدال تقوم على المُغايرة . أمّا القسمان الآخران من أقسام الاستبدال ، فالظاهر أنّ الاستبدال الفعليّ ليس مُغايراً للفعل المستبدَل منه من حيث المعنى ، وإنّما هو استعمال للصيغة العامّة الدالّة على الحدث ، بدل الصيغة الخاصّة، إذ استعمال الفعل (فَعَلَ – يَفْعَلُ – افْعَلْ) نيابةً عن أفعال أخرى ، فهو حقيقة الأمر استعمال صيغة المعنى العام للحدث ، إذ يمكن أنْ ينوب مناب أيِّ فعلٍ آخر . وكذلك ، فإنّ الاستبدال القوليّ هو في حقيقة الأمر تعويض عن جملةٍ ، أو مجموعة جمل بأداة تُوجز وتُعوّض إعادة ذكر الجملة ، أو الجمل ، فليس في الاستبدال القوليّ مُغايرة معنى ، بل هو إيجاز كلام .

البدل النحويّ ونحو النصّ :عرّف النحويون القدماء (البدل) ، بقولهم : ((تابع مقصود بما نُسب إلى المتبوع دونه))[٤] ، وعرّفه ابن عقيل [ت ٧٦٩ هـ] : ((التابع المقصود بالنسبة ، بلا واسطة))[٥] . والبدل عند النحويين على أربعة أقسام [٦] ، هي : بدل الكلّ من الكلّ ، وبدل البعض من الكلّ ، وبدل الاشتمال ، والبدل المُباين . إنّ البدل الموجود في الدرس النحويّ العربيّ غير الاستبدال في الدراسات النصّيّة الحديثة ، ولعلّ الاختلاف بينهما يظهر في كون المقصود من البدل ، والمُبدل منه واحداً ، أي أنّ أحدهما هو المقصود بالكلام ، في حين أنّه الاستبدال في الدراسات النصّيّة ، يكون العنصران (المُستبدِل ، والمُستبدَل) مطلوبين في الكلام ، ومقصودين ، ((والاختلاف القائم بين البدل في النحو العربيّ ، والإبدال في علم اللغة النصّيّ لا يُمثّل مانعاً من الاعتراف بأنّ البدل في النحو العربيّ يُحقّق التماسك لكن على مستوى الجملة الواحدة في الغالب))[٧] . ويُلحظ أنّ بعض العلاقات بين العبارات في النصّ القرآنيّ قائمة على أساس البدل في النحو العربيّ ، وهو ما سيُلحظ في قادم البحث . إنّ النظر إلى البدل في النحو العربيّ على أنّه عنصر في تماسك النص شكليّاً ودلاليّاً يُحتّم البحث عن فاعليّة البدل الدلاليّة في اتّساق النصّ وتماسكه ، ولئن كان دور الاستبدال مقتصراً على السبك الشكليّ ، فإنّ أثر البدل يظهر في الحبك الدلاليّ ((فالعلاقة مستمرّة بين المُبدل منه والبدل . ومن هنا نلاحظ التماسك القائم بين البدل والمُبدل منه من خلال هذه الاستمراريّة ، ومن خلال الضمير العائد على المُبدل منه ، ومن خلال الدلالة أيضاً))[٨] .

الاستبدال الاسميّ : وردتْ في السور المدنيّة صور من الاستبدال الاسميّ ، من أهمها :

آخر ومُشتقّاتها (أخرى – آخران – آخرون –أُخر) : فمن أمثلة ذلك قوله تعالى : **﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾**[٩] . فـ (الآخر) تعود على ثاني ابني آدم اللذين ذكرهما في أوّل الآية ، فالمعنى : ولم يُتقبّل من الابن الآخر ، فكان استعمال كلمة (الآخر) الصفة ، عوضاً عن ذكر الموصوف (الابن) ، التي لا تكتفي بذاتها لو استعملتْ في النص ، إذ لو قال : ولم يُتقبّل من الابن ، وسكت لما تمّ المعنى ، في حين أنّ المعنى قد تمّ باستعمال (الآخر) الصفة ، فكان هذا الاستبدال موجزاً للكلام . ومن أمثلة الاستبدال بـ (أخرى) ، قوله تعالى : **﴿ ... وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى ... ﴾**[١٠]. ومن الاستبدال بلفظ (آخران) ، قوله تعالى : **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ... فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا ...﴾**[١١] . فالتعبير بقوله (آخران) جاء مُستبدِلاً لقوله (اثنان)، ثمّ استبدل بـه (آخران يقومان مقامهما) ، والاستبدال فيهما إمّا لـ (اثنان) ، أو لـ (آخران) الأولى بحسب الواقع الحاصل حين الوصيّة . ولعلّ من اللافت للنظر أنّ العنصر المُستبدَل (اثنان) هو عنصر مُستبدِل لـ (رجلان) مفهومة من سياق الكلام ، فنابت (اثنان) الصفة منابها ، كما نابتْ (آخران) عنها عند الاستبدال منها . ومن استعمال لفظ (آخرين) في الاستبدال ، قوله تعالى : **﴿ إِلا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلا سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ ... ﴾**[١٢] . فالتعبير بقوله (آخرين)، استبدال للقوم في قوله (فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم) ، فـ ((لمّا ذكر صفة المحقّين في المتاركة ، المجدّين في إلقاء السلم ، نبّه على طائفة أخرى مخادعة))[١٣]. ومثله قوله تعالى : **﴿إِنْ**

---

(١) سورة التغابن : ٢ . ومنه في سورة المائدة : ٦٦ ، وسورة الأحزاب : ٢٣ ، وسورة الزلزلة : ٧-٨ .

(٢) كذا ، والصحيح : ومن ثَمّ .

(٣) أصول تحليل الخطاب في النظريّة العربيّة ، تأسيس نحو النصّ : ١ / ١٣٣ .

(٤) شرح الرضي على الكافية : ٢ / ٣٧٩ .

(٥) شرح ابن عقيل : ٢ / ٢٤٧ .

(٦) ينظر : المصدر نفسه : ٢ / ٢٤٩ .

(٧) علم اللغة النصّيّ بين النظرية والتطبيق : ١ / ٢٦٨ .

(٨) علم اللغة النصّيّ بين النظريّة والتطبيق : ١ / ٢٦٩ .

(٩) سورة المائدة : ٢٧ . ومثله في سورة التوبة : ١٠٢ .

(١٠) سورة البقرة : ٢٨٢ . ومثلها في سورة آل عمران : ١٣ ، وسورة الفتح : ٢٠ -٢١ ، وسورة الحجرات : ٩ ، وسورة الصف : ١٢- ١٣ ، وسورة الطلاق : ٦ .

(١١) سورة المائدة : ١٠٦ – ١٠٧ .

(١٢) سورة النساء : ٩٠ – ٩١ .

(١٣) البحر المحيط : ٤ / ١٦ .

يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴾[١]. فالتعبير بقوله (آخرين) جاء مُستبدِلاً للضمير المنصوب في قوله (يُذهبكم) ، والذي أكّده في قوله بعده (أيّها الناس) . ولعلّ في استعمال النداء بـ (أيّها الناس) دلالةً على الاستغراق ، فالمعنى : ((إنْ شاء يهلككم كما أنشأكم وأنشأ قوماً آخرين يعبدونه))[٢] . ولعلّ ممّا يرتبط بتماسك النصّ ، تفسير العلماء لـ (آخرين) ، هل هم من البشر ، أو من غيرهم . فمَن رأى أنّهم من البشر ، استدلّ بأنّ ((مُقابلة قوله (أيّها الناس) بقوله (آخرين)، أنّ المعنى : بناسٍ آخرين غير كافرين ، على ما هو الشائع في الوصف بكلمة (آخر) ، أو (أخرى) بعد ذكر مُقابل الموصوف ، أنْ يكون الموصوف بكلمة آخر بعضاً من جنس ما عطف عليه باعتبار ما جعله المتكلّم جنساً في كلامه بالتصريح ، أو بالتقدير))[٣]. وجوّز الزمخشريّ عدم التطابق بينهما؛ ولذا جوّز أنْ يكون معنى الآية : ((خلقاً آخرين غير الإنس))[٤] . وممّا رُدّ به على الزمخشريّ أنّهم ((اتّفقوا على أنّه لا يجوز أنْ يُوصف بكلمة (آخر) موصوف لم يتقدّمهذكر مُقابل له أصلاً ، فلا تقول : جاءني آخر ، من غير أنْ نتكلّم بشيءٍ قبلُ ؛ لأنّ معنى (آخر) مُغاير في الذات مُجانس في الوصف))[٥] . ولعلّ كلام الزمخشريّ أقرب إلى الاستعمال القرآنيّ ؛ وذلك لأنّه قد ورد الوصف بـ (آخر) ، وهو مُغاير للموصوف في الذات والصفات ، من ذلك قوله تعالى : **﴿ الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون ﴾**[٦] ، فليس في استعمال كلمة (آخر) تطابق مع الاسم المستبدَل / الذات الإلهيّة المقدّسة . ومن استعمال (آخرين) في الاستبدال أيضاً ، قوله تعالى : **﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ ﴾** [٧] . فقد استعملتْ(آخرين) مُستبدِلةً لكلمة (عدوّ) المُتقدّمة في الآية الكريمة . وقد دلّتْ جملة (لا تعلمونهم) الواقعة صفةً لـ (آخرين) على ((أعداء لا يعرفهم المسلمون بالتعيين ، ولا بالإجمال))[٨]. ومن الاستبدال بـ (أخر) ، قوله تعالى : **﴿أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ... ﴾** [٩] . فلفظة (أخر) في الآية الكريمة جاءتْ في موضع استبدال من كلامٍ سابقٍ عليها ، واللافت للنظر أنّه قد تقدّمها موصوفها الذي كان من المفترض أنْ يكون (المُستبدَل) المحذوف ، وتدلّ عليه كلمة (أخر) ؛ وسبب ذكره هنا أنّه جاء عوضاً عن كلامٍ محذوف ، إذ ليستْ (أيّام أخر) استبدالاً عن (أيّاماً معدودات) ، بل هي مُستبدِلة الأيّام التي يفطرها الصائم في حالتي المرض ، والسفر ؛ فلذلك أعاد ذكر الأيّام (المُستبدَلة) بـ (أخر) ؛ حتى لا يُتوهم أنّها الأيام في قوله (أيّاماً معدودات) ، إذ التقدير : ((فعليه صوم عدد أيّام المرض ، أو السفر من أيّام أخر إنْ أفطر))[١٠] .

إحدى ، أحد : استُعملت هاتان المفردتان عنصري استبدالٍ في النصّ القرآنيّ الكريم ، ويُلحظ فيهما حالة التلازم مع (آخر) ومُشتقاتها المُتقدّمة ، وذلك في أغلب الأحيان . من ذلك قوله تعالى : **﴿ ... وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى ... ﴾**[١١] . فقد جاء الاستبدال باستعمال لفظة (إحدى) ، وهي مُستبدِلة للفظة (امرأتان) ، الواردة قبلها ، فالبحث عن المقصود بـ (إحدى) يتطلّب الرجوع إلى الكلام السابق لها ، وبذلك يظهر أثر هذه المفردة في تماسك النصّ . إنّ التركيب الذي وردتْ فيه المفردة كان موضع اختلاف القرّاء ، ((فقرأ حمزة وحده (إنْ تَضِلَّ) بكسر الألف (فتُذكّرُ) بتشديد الكاف ، ورفع الراء . وقرأ الباقون (أنْ تَضِلَّ) بفتح الألف (فتُذكّرَ) منصوبة الراء ، غير أنّ ابن كثير ، وأبا عمرو قرآ (فتُذكِرَ) خفيفة منصوبة الراء))[١٢] . ورأى سيبويه [ت ١٨٠ هـ] أنّه على قراءة فتح همزة (أنْ) يكون منصوباً على أنّه المفعول لأجله ، قال : ((فانتصب لأنّه أمر بالإشهاد لأن تذكّر إحداهما الأخرى ، ومن أجل أن تذكّر))[١٣] . أمّا قراءة كسر همزة (إنْ) ، فعلى ((جعلها شرطية ، رفع لأنّه وصف لقوله : وامرأتان، والشرط ، والجزاء يكون صفة للنكرة كما يكونان خبراً للمبتدإ))[١٤]. ويبدو أنّ قراءة أقرب إلى المعنى المطلوب في الآية ، ولكن العامل فيهما كما يبدو هو حال مقدّر مفهوم من سياق الكلام ، إذ التقدير يكون : تشهدان مجتمعتين أنْ تضلَّ إحداهما . ولعلّ من اللافت للنظر أنّ (إحدى) قد تكرّرتْ بعد ذلك في الآية الكريمة ، وليست الأولى عين الثانية ، إذ لو كانتْ عينها ؛ لاستعمل الضمير عنها ، فقال : فتذكّرها ، ولو كان الأمر كذلك ، فإنّه ((يتوهم أنّ إحدى المرأتين لا تكون إلاّ مذكرة الأخرى ، فلا تكون شاهدة بالأصالة))[١٥] ، ولذا إعادة اللفظ يدلّ على ((اختلاف معنى اللفظ في الموضعين ، فالمراد من الأوّل إحداهما لا على التعيين ، ومن الثاني إحداهما بعد ضلال الأخرى))[١٦].

---

(١) سورة النساء : : ١٣٣ .
(٢) البحر المحيط : ٤ / ٩٢ .
(٣) تفسير التحرير والتنوير : ٤ / ٢٧٢ – ٢٧٣ .
(٤) تفسير الكشّاف : ١ / ٥٦٢ .
(٥) تفسير التحرير والتنوير : ٤ / ٢٧٢ – ٢٧٣ .
(٦) سورة الحجر : ٩٦ . وقد ورد تعبير (إلهاً آخر) في سورة الإسراء : ٢٢ ، ٣٩ ؛ المؤمنون : ١٤ ، ١١٧ ؛ الفرقان : ٦٨ ؛ الشعراء : ٢١٣ ؛ القصص : ٨٨ ؛ سورة ق : ٢٦ ؛ الذاريات : ٥١ .
(٧) سورة الأنفال : ٦٠ .
(٨) تفسير التحرير والتنوير : ٩ / ١٤٦ .
(٩) سورة البقرة : ١٨٤ . وقد تكرّر هذا الاستبدال في الآية (١٨٥) من السورة نفسها . ومثلها في سورة آل عمران:٧.
(١٠) أنوار التنزيل وأسرار التأويل : ١ / ٤٦٢ . وينظر : التبيان في تفسير القرآن : ٢ / ١١٧ ، ومجمع البيان : ٢ / ١٣ ، وروح المعاني : ٢ / ٦٢١ .
(١١) سورة البقرة : ٢٨٢ .
(١٢) السبعة في القراءات : ١٩٣ . وينظر : التذكرة في القراءات : ٢١٣ ، والنشر في القراءات العشر : ٢ / ٢٣٦ – ٢٣٧ ، وكتاب العنوان في القراءات السبع : ٧٦ .
(١٣) الكتاب : ٣ / ٥٣ . وينظر : إعراب القرآن : ١٨٥ – ١٨٦ ، ومشكل إعراب القرآن : ١ / ١٤٤ ، والبيان في غريب إعراب القرآن : ١ / ١٨٣ .
(١٤) البيان في غريب إعراب القرآن : ١ / ١٨٣ .
(١٥) تفسير التحرير والتنوير : ٢ / ٥٧٦ .
(١٦) الميزان في تفسير القرآن : ٢ / ٦٣٥ .

وزيادة على ذلك ، فإنّ شهادة المرأتين مجتمعتين تعادل شهادة الرجل الواحد ، ويبدو أنّ سبب ذلك أنّ النسيان طبع في النساء ، ((واجتماع المرأتين على النسيان أبعد في العقل من صدور النسيان عن المرأة الواحدة ، فأقيمت المرأتان مقام الرجل ؛ حتى إن إحداهما لو نسيث ذكرتها الأخرى))[١] ، ولعلّ ذلك يدلّ على أنّ التذكير متبادل بين المرأتين ، فتكون مذاكرتهما تكامليّة ، فيكون مجموع شهادتيهما مساوياً لشهادة الرجل الذي نابتا عنه . ومثلها قوله تعالى : **﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾**[٢] . فالتعبير بـ (إحداهنّ) جاء استبدالاً لـ (زوج) الثانية ، بمعنى : الزوجة المُستبدَلة . والتعبير بـ (إحداهنّ) ، و(زوج) يدلّ على العموم ، وليس فيه قصد التعيين لزوج مُعيّنة ، فكان هذا الكلام حكماً شرعيّاً صالحاً لكلّ زمان ومكان[٣] . ومنه قوله تعالى : **﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾**[٤] . ومثله قوله تعالى : **﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾**[٥] . فالاستبدال في هذه الآية جاء بعديّاً لا قبليّاً ، إذ إنّ (إحدى) مُستبدِلة من (الطائفتين) ، وهذا الاستبدال قليل الوقوع ، وزيادة على ذلك ، فالاستبدال ليس على سبيل المغايرة ، التي نظّر لها علماء النصّ المحدثون ، إنّما جاء عن طريق علاقة الجزء – الكلّ . وملاحظة أخرى ، وهي أنّ التعبير بـ (إحدى الطائفتين) ، لا يُمكن معرفة معناه إلاّ بالتعرّف على المقام الذي نزلث فيه هذه الآيات ، إذ إنّ ((إحدى الطائفتين غير مُعيّنة ، والطائفتان هما كطائفة غير قريش ، وكانث فيها تجارة عظيمة لهم . . . وطائفة الذين استنفرهم أبو جهل))[٦] .

نفس : استعملث هذه المفردة مُستبدِلةً في النصّ القرآنيّ الكريم ألفاظاً أخر ، من ذلك قوله تعالى : **﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾**[٧] ، فقد استبدل اسم الجلالة بلفظ (نفسه) ، ((وهذه مخاطبة على معهود ما يفهمه البشر ، والنفس في مثل هذا راجع إلى الذات))[٨]. وفي تخصيص الاستبدال بالنفس دون غيره ؛ ((ليكون أعمّ في الأحوال لأنه لو قيل : يحذّركم الله غضبه لتوهم أنّ لله رضا لا يضرّ معه ، تعمّد مخالفة أوامره))[٩]. ورأى الراغب أنّ إضافة النفس إلى الله – عزّ وجلّ – ((إضافة المِلْك ، ويعني بنفسه نفوسنا الأمّارة بالسوء ، وأضاف إليه على سبيل المِلْك))[١٠]، وعلى هذا يكون الكلام داخلاً المجاز العقليّ . وفسّر جماعة من المفسّرين نفسه بـ : عذابه ، أو عقابه [١١]، ((وفيه تهديد بتناهي المنهي عنه في القبح حيث علّق التحذير بنفسه)) [١٢].

واحدة : استعملث هذه المفردة في السور المدنيّة من القرآن الكريم مُستبدِلةً لألفاظ أخرى ، من ذلك قوله تعالى : **﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا ﴾**[١٣] . فالظاهر من سياق الآية الكريمة أنّ المقصود بقوله (فواحدة) ، أي : فامرأة واحدة ، فاستُبدلث (واحدة) بـ (امرأة) . إنّ الاستبدال باستعمال هذه المفردة يخلق تماسكاً نصّيّاً مع الكلام الوارد قبله ، إذ إنّ السياق في بيان عدد الزوجات ، فكان هذا الاستعمال منسجماً مع ما تقدّم من الكلام أولاً ، وموجزاً للكلام ثانياً ، فلو قال : مثنى وثلاث ورباع فإنْ خفتم ألاّ تعدلوا فامرأة ، أو فامرأة واحدة ؛ لكان الكلام غير متناسق في الحالة الأولى ، وغير موجز في الحالة الثانية . فكان استعمال هذه المفردة مناسباً لما تقدّم ، إذ إنّه ((صرف مَن خاف من الجور في نكاح ما ذكر من العدد إلى نكاح واحدة)) [١٤].

تكرير اللفظ مع اختلاف المعنى : الملاحظ على هذا النوع من الاستبدال أنه جاء مُصاحباً لعنصر التكرار ، وهو أيضاً من عناصر التماسك النصّيّ ، هذا أوّلاً ، وثانياً أنّ هذا النوع من الاستبدال قد بيّنته خصيصة في اللغة العربيّة ، وهي خصيصة الموقع الإعرابيّ ، أو اختلاف الحركة الإعرابيّة بين اللفظين المُكرّرين ، وهو ما يدلّ على المُغايرة بينهما . وكثيراً ما كان اللفظ المُكرّر يُعطي معنًى (آخر) ومُشتقاته التي نظّر إليها علماء النصّ . ويلحظ أنّ هذا النوع من الاستبدال قد أشار إليه علماء العرب القدماء ، فالزركشيّ يقسّم المفردات المكرّرة ، وحالتها من حيث التعريف ، والتنكير ، فيرى أنّ الاسمين إذا جاءا معرفتين ، أو الأول نكرة ، والثاني معرفة ، فإنّ الثاني هو الأول غالباً ، فقد لا يكون بينهما اتحاد ، من ذلك قوله تعالى : **﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ ... ﴾**[١٥] ، أي القاتل ، والمقتول [١٦] ، وقوله تعالى : **﴿إِنِ امْرَأَةٌ**

---

[١] البحر المحيط : ٢ / ٧٣٤ . وينظر : مجمع البيان : ٢ / ٣٣٣ ، والجواهر الحسان : ١ / ٥٤٨ .

[٢] سورة النساء : ٢٠ .

[٣] ينظر : روح المعاني : ٤ / ٦١٤ .

[٤] سورة المائدة : ٢٧ .

[٥] سورة الأنفال : ٧ . ومثلها في سورة الحجرات : ٩ .

[٦] البحر المحيط : ٥ / ٢٧٧ .

[٧] سورة آل عمران : ٢٨ . ومثلها في الآية : ٣٠ من السورة نفسها .

[٨] البحر المحيط : ٣ / ٩٦ .

[٩] تفسير التحرير والتنوير : ٣ /٧٥ .

[١٠] مفردات ألفاظ القرآن : ٨١٨ (نفس).

[١١] ينظر : التبيان في تفسير القرآن : ٢ / ٤٢٩ ، ومجمع البيان : ٢ / ٤١٠ ، والبحر المحيط : ٣ / ٩٦ ، والإتقان في علوم القرآن : ٢ / ١٢ ، وروح المعاني : ٣ / ١٦٧ .

[١٢] روح المعاني : ٣ / ١٦٧ .

[١٣] سورة النساء : ٣ . ومثلها الآية : ١١ من السورة نفسها .

[١٤] البحر المحيط : ٣ / ٥٠٧ . وينظر : روح المعاني : ٤ / ٥٥١ .

[١٥] سورة المائدة : ٤٥ . ومثلها في سورة البقرة : ١٧٨ ، وسورة الرحمن : ٦٠ ، وسورة الإنسان : ١ -٢ ، وغيرها .

[١٦] البرهان في علوم القرآن : ٤ / ٦١ .

خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ...﴾[١]، ((فالأول داخل في الثاني ، وليس بجنسه))[٢] ، أو لعلّ (ال) – في الآية – للجنس ، وليس للعهد . أمّا إذا ذكر الاسم مرتين ، وكانا ((نكرتين ، فالثاني غير الأول ، وإلاّ لكان المناسب التعريف بناءً على كونه معهوداً سابقاً ... والمعنى في هذا ، وفي كونهما معرفتين ، أنّ النكرة تستغرق الجنس ، والمعرفة تتناول بعضه ، فيكون داخلاً في الكلّ ، سواء قُدّم ، أو أُخّر))[٣]. أمّا القسم الرابع ، وهو كون الأول معرفة ، والثاني نكرة ، فـ ((لا يطلق القول به ، بل يتوقف على القرائن ، فتارة تقوم القرينة على التغاير ... وتارة تقوم قرينة على الاتحاد))[٤] . ومن هذه الألفاظ التي استعملتْ مُكرّرةً مُستبدلةً :

أرض : جاءتْ كلمة (أرض) في الاستعمال القرآنيّ مُكرّرةً لفظاً مُتباينةً معنًى ، وذلك في قوله تعالى : ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ [٥]. فالتعبير بـ (أرضاً) النكرة يدلّ على مُغايرتها الأرض المُتقدّمة ، فـ ((هي أرض أخرى غير أرض قريظة))[٦]. وقد نُصبتْ (أرضاً) على تقدير فعل محذوف دلّ عليه الفعل الموجود ، إذ التقدير : ((وأورثكم أرضاً لم تطؤوها بعدُ))[٧] ، ولأنّ العطف بالفعل بصيغة الماضي ، ووطء الأرض لمّا يتحقّق بعدُ ، فقد ((استشكل بأنّ الإرث ماضٍ حقيقة بالنسبة إلى المعطوف عليه ، ومجازاً بالنسبة إلى هذا المعطوف . وأجيب بأنّه يراد بأورثكم : أورثكم في علمه ، وتقديره ... وقدّر بعضهم أورثكم في جانب المعطوف مراداً به : يورثكم ، إلاّ أنّه عبّر بالماضي ؛ لتحقّق الوقوع)) [٨].

إيمان : وذلك في قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [٩]. فقد جاء قوله (إيماناً) نكرةً ، وذكر بعدها – إذ الاستبدال بعديّ ، وهو قليل الوقوع – (إيمانهم) مضافاً إلى ضمير الجمع ، فكان ذلك دليلاً على المُغايرة بين الاثنين[١٠] . والإيمان أمر عقديّ لا يتغيّر مع الزمن ، فـ ((لمّا ثبت في الأزمنة نُزّل تجدّدُ أزمانه منزلة تجدّده ، وازدياده))[١١]، وأكد هذه المغايرة إذ ((علّق بالإيمان ظرف (مع) في قوله (مع إيمانهم)))[١٢]. ولعلّ في التعبير بقوله (ليزدادوا) دلالة على أنّ هذا الإيمان يجب أن يكون مصداقه العمل الصالح من أعمال تعبّديّة ، وغيرها ، لأنّ تتابع اللطف الإلهيّ يجب أن يتبعه الشكر من المؤمنين بما وهبه لهم من معارف أخرى تزيد في قوة إيمانهم .

جلود : وذلك في قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾[١٣]. فاستعمال (جلوداً) الثانية ليس للتأكيد ، بل للتغيير ، يدلّ على ذلك جعلها مفعولاً للفعل (بدّلناهم) ، وتوكيدها بالوصف بـ (غيرها) ، فالمعنى : ((جيء بجلد آخر مكانه ، ولهذا قال : جلوداً غيرها))[١٤]. ورأى الفيروز آبادي أنّ معنى بدّلنا : جدّدنا ، أي تجديد حالة الجلود [١٥].

رجس : وذلك في قوله تعالى : ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾[١٦]. فالرجس – كما يرى بعض العلماء –((في معنى العذاب ، والرجس أيضاً : القذر ، والنتن [الآية] أي نتناً إلى نتنهم ، أي كفراً إلى كفرهم ، والنتن كناية عن الكفر ، وعلى المعنى الآخر [الآية] أي فزادتهم عذاباً إلى عذابهم بما تجدّد من كفرهم))[١٧] . أمّا الراغب ، فقد عرّفه بـ : الشيء القذر ، وجعله ((على أربعة أوجه : إمّا من حيث الطبع ، وإمّا من جهة العقل ، وإمّا من جهة الشرع ، وإمّا من كلّ ذلك ... وجعل الكافرين رجساً من حيث إنّ الشرك بالعقل أقبح الأشياء))[١٨]. ويبدو أنّه سواء أكان الرجس نفاقاً ،أم كفراً ، أم عذاباً ، فلا تباين في المعنى ، إذ إنّ سببه تسميّة الشيء بمسبّبه ، فالعذاب سببه النفاق ، والكفر ، وزيادته ((عبارة عن تعمّقهم في الكفر ، وخبطهم في الضلال)) [١٩].

زوج : وذلك في قوله تعالى : ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾[٢٠]. فقد كُرّر قوله (زوج) في الآية الكريمة ، ولم يكن استعمالها تكراراً للتأكيد ، والذي يؤكد

---

(١) سورة النساء : ١٢٨ .
(٢) البرهان في علوم القرآن : ٤ /٦٥.
(٣) البرهان في علوم القرآن : ٤ / ٦٣ ،
(٤) البرهان في علوم القرآن : ٤ / ٦٥ .
(٥) سورة الأحزاب : ٢٧ .
(٦) تفسير التحرير والتنوير : ٢١ / ٢٣٢ .
(٧) مجمع البيان : ٨ / ٢١٤ – ٢١٥ . وينظر : التبيان في تفسير القرآن : ٨ / ٢٥٣ ، والبحر المحيط : ٨ / ٤٧٠.
(٨) روح المعاني : ٢١ / ٢٣٩ .
(٩) سورة الفتح : ٤ .
(١٠) ينظر : التبيان في تفسير القرآن : ٩ / ٢٥١ ، ومجمع البيان : ٩ / ٢٧٦ ، والبحر المحيط : ٩ / ٤٨٥ .
(١١) روح المعاني : ٢٦ / ٣٤٤ .
(١٢) تفسير التحرير والتنوير : ٢٦ / ١٢٦ – ١٢٧ .
(١٣) سورة النساء : ٥٦ .
(١٤) البحر المحيط : ٣ / ٦٨٠ .
(١٥) ينظر : بصائر ذوي التمييز : ٢ / ٢١٧ .
(١٦) سورة التوبة : ١٢٥ .
(١٧) نزهة القلوب : ٢٥١ .
(١٨) مفردات ألفاظ القرآن : ٣٤٢ (رجس).
(١٩) البحر المحيط : ٥ / ٥٢٩ . وينظر : التبيان في تفسير القرآن : ٥ / ٢٩٣ ، ومجمع البيان : ٥ / ٢٠٨
(٢٠) سورة النساء : ٢٠ .

ذلك أنه – سبحانه وتعالى – استعمل قبلهما ما يدلّ على اختلافهما ، وهو كلمة (استبدال) ، وهو ((بمعنى إقامة امرأة مقام أخرى بالاستبدال))[1].

سُنّة : من ذلك قوله تعالى : **﴿ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلا ﴾**[2]. فقد جاء الاستعمال للمفردة (سُنّة) ، ولم يكن استعمالها من باب التكرار ، بل كانت السُنّة الأولى متعلّقة بقوله تعالى : **﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا ﴾** [3] ، أي ((سنّ الله غلبة أنبيائه سُنّة قديمة فيمَن مضى من الأمم))[4] ، وأنتم داخلون في هذه السُنّة . ثمّ جاء قوله (ولن تجد لسُنّة الله تبديلاً) ليدلّ على أنّ هذه السُنة غير منقطعة ، بل ممتدّة على مدى الزمان . وقد زاد تفريقاً بين السُنتين ، إذ وصف الأولى بـ (قد خلت من قبل) ، فدلّ ذلك على المضيّ ، ونفى عن الثانية التبديل في المستقبل ، بقوله (ولن تجد) فكان هذا التغاير الزمنيّ بينهما دليلاً على عدم اتحادهما في المعنى [5].

طائفة : استعملت في أكثر من موضع دالّة ً على الاستبدال ، من ذلك قوله تعالى : **﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ ...﴾**[6]. فالذي يُلحظ اختلاف الطائفتين في الآية الكريمة بدليل تخصيص النعاس بالطائفة الأولى ، وهم ((أهل الإيمان والإخلاص ، فكان سبباً لأمنهم وثباتهم ، وعري منه أهل النفاق والشك ، فكان سبباً لجزعهم وانكشافهم))[7]. ومنها أيضاً قوله تعالى : **﴿ لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾**[8]. فالظاهر من صريح الآية الكريمة أنّ استعمال (طائفة) ليس تكراراً لفظيّاً ، بل هو استعمال على سبيل التغاير والاختلاف ، ولعلّ في جزاء كلّ منهما دليلاً على هذا التغاير ، فإنّ ((طائفة مرجوّة الإيمان ، فيغفر عمّا قدّمته من النفاق ، وأخرى تُصرّ على النفاق حتّى الموت ، فتصير إلى العذاب))[9] .

غضب : وذلك في قوله تعالى : **﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾** [10] ، فالغضب الأول غير الثاني ، إذ إنّ الأول ((حين عبدوا العجل ...[أو] حين غيّروا التوراة ...[أو] حين كفروا بعيسى ، والثاني حين كفروا بمحمد ρ))[11] . ولعلّ ممّا يؤكد تغاير الغضبين أنّ الغضب الأول ((قد باء به أسلافهم ، حظّ هؤلاء منه وافر ؛ بسبب رضاهم بتلك الأفعال ، وتصويبهم لها))[12] . وزيادة على ذلك ((لا يخفى أنّ فاء العطف يقتضي صيرورتهم أحقاء بترادف الغضب))[13] ، وترادف الغضب يدلّ على المغاير بينهما .

عام : وذلك في قوله تعالى : **﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾** [14]. استعمل هذا اللفظ مع الفعلين المُتغايرين (يحلّونه ، يُحرّمونه) ، فدلّ ذلك على التغاير فيه ، وذلك أنّ الضمير المنصوب في الفعلين يعود على الشهر الحرام ، الذي يدلّ سياق الآية أنّ إحلالهم له في عام ، وتحريمه في عامٍ آخر غير العام المتقدّم [15].

فريق : وردت أكثر من آية ٍ كريمةٍ ، كُرّرت فيها كلمة (فريق) ، ولم يكن التكرار فيها لاتحاد في اللفظ والمعنى ، وإنّما كان تكراراً مصاحباً لمُغايرة معنويّة ، من ذلك قوله تعالى : **﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾** [16] . فقد استعمل (فريقاً) مُكرّرة ً ، مُتغايرة المعنى ، ومعناه : ((مُبادرة فريق من الرسل بالتكذيب فقط ، حيث لا يقدرون على قتله ، وفريق بالقتل إذا قدروا على قتله))[17]. وقد أتى بفعل التكذيب ماضياً ؛ لكونه حاصلاً منهم ، وأمّا فعل القتل ، فقد جاء مضارعاً إمّا لكونه ((حكاية الحال الماضية استحضاراً لها في النفوس ، فإنّ الأمر فظيع . أو مراعاة للفواصل ، أو للدلالة على أنكم بعدُ فيه ، فإنّكم تحومون حول محمد))[18] .

ملك : من ذلك قوله تعالى : **﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ ﴾**[19]. فقد استعمل النصّ الكريم مفردة (المُلك) ثلاث مرّات ، ولم يكن ذلك من باب التكرار ، ((فالمُلك الذي يؤتيه الله للعبد لا يُمكن أن يكون

---

[1] الميزان في تفسير القرآن : ٤ / ٤٧٢ . وينظر : التبيان في تفسير القرآن : ٣ /١٤٥ – ١٤٦ ، ومجمع البيان : ٣ /٦٩ ، والبحر المحيط : ٣ / ٥٧١ ، وروح المعاني : ٤ / ٦١٤ .

[2] سورة الفتح : ٢٣ .

[3] سورة الفتح : ٢٢ .

[4] إرشاد العقل السليم : ٨ / ١١١ . وينظر : روح المعاني : ٢٦ / ٣٦٨ – ٣٦٩ .

[5] ينظر : البرهان في علوم القرآن : ٤ / ٦٢ .

[6] سورة آل عمران : ١٥٤ . ومثلها في السورة نفسها : ٦٩ – ٧٢ ، وسورة الصف : ١٤ .

[7] البحر المحيط : ٣ / ٣٩٢ . وينظر : التبيان في تفسير القرآن : ٣/ ٢٤ ، ومجمع البيان : ٢ / ٦٢٧ ، و تفسير شبّر : ٧٠ ، وروح المعاني : ٤ / ٤١٨ ، وتفسير التحرير والتنوير : ٣ / ٢٥٧ .

[8] سورة التوبة : ٦٦ .

[9] تفسير التحرير والتنوير : ١٠ / ١٤٣ .

[10] سورة البقرة : ٩٠ .

[11] التبيان في تفسير القرآن : ١ / ٤١٠ . وينظر : مجمع البيان : ١ / ٤٠٣ – ٤٠٤ ، والبحر المحيط : ١ / ٤٩١.

[12] الجواهر الحسان : ١ / ٢٨١ .

[13] روح المعاني : ١ / ٤٣٨ .

[14] سورة التوبة : ٣٧ .

[15] ينظر : إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم : ٤ / ٦٤ ، والبحر المحيط : ٥ / ٤١٦ – ٤١٧ .

[16] سورة البقرة : ٨٧ . ومثلها في سورة المائدة : ٧٠ ، وسورة الأحزاب : ٢٦ .

[17] البحر المحيط : ١ / ٤٨٣ .

[18] أنوار التنزيل وأسرار التأويل : ١ / ٣٥٨ . وينظر : البحر المحيط : ١ / ٤٨٣ ، وروح المعاني : ١ / ٤٣٢ .

[19] سورة آل عمران : ٢٦ .

نفسه ملكه))[١]، وقد عرّف الراغب المُلك ، بقوله : ((الحقّ الدائم لله ... فالمُلك ضبط الشيء المُتصرف فيه بالحُكم))[٢]. ويبدو أنّ العلاقة بينهما هي علاقة الكلّ – الجزء .

نفس : استعملتْ هذه المفردة مُكرّرة ً مع الدلالة على التغاير في المعنى ، وذلك في قوله تعالى : **﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾** [٣] . فالظاهر في الآية الكريمة أنّ (نفس) الأولى غير (نفس) الأخرى ، فمعنى قوله (نفسٌ عن نفسٍ) ، أي ((لا تكون مكانها))[٤] ، فهي لا تُجازى دونها ، ولا تحتمل شيئاً من عذابها . وقد نكرهما ؛ ((ليبيّن أنّ كلّ نفس فهذا حكمها))[٥] . وزيادة على ذلك ، فلو اُستُعمل الاستبدال الشائع بـ (أخرى) لما أعطى هذه الدلالة العامّة ، فلو قال : نفس عن أخرى ، لكانتْ دلالتها خاصّة بنفس واحدة ، فلمّا جعلهما بلفظ واحد ، نكرتين كانتْ دلالتها أنّ ((نفساً من الأنفس لا تجزي عن نفس من الأنفس))[٦] ، فصلح الحكم لكلّ زمانٍ ، ومكانٍ .

الناس : وذلك في قوله تعالى : **﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾** [٧] . فالظاهر من سياق الكلام أنّ (الناس) الأولى غير الثانية ، وهي مفردة تعطي الدلالة على الجنس ، ولكنّها استعملتْ للدلالة على بعض الناس ، قال الزركشيّ : ((لفظ عام أريد به خاص ؛ لأنّ (الناس) في اللفظ الأول لو كان المراد به الاستغراق لما انتظم قوله بعده (إنّ الناس)))[٨] . والمقصود بـ (الناس) الأولى هو نُعيم بن مسعود ، وبـ (الناس) الثانية أبو سفيان ، وأصحابه [٩].

وقد يدخل في الاستبدال الاسميّ ، نوع استُعمل في النصّ القرآنيّ الكريم، وهو يأتي مقترناً باستعمال الفعل (بدّل) ، ومشتقاته فهو يبيّن معنى الاستبدل في الآية الكريمة . ولعلّ ما يميّز هذا النوع من الاستبدال أنّه جاء مغايراً للاستبدال الاسميّ ، الذي نَظَر له علماء النصّ ، فهو أولاً يكثر فيه حذف أحد طرفي الاستبدال ، وثانياً يشفع الطرف المستبدِل بما يدلّ على مغايرته ، وذلك باستعمال ألفاظ ، مثل : غير ، أمثال ، من ذلك قوله تعالى : **﴿ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾** [١٠] . فمعنى قوله (يستبدل قوماً غيركم) :((يهلكهم ويستبدل قوماً آخرين خيراً منهم وأطوع))[١١] ، ومثله قوله تعالى : **﴿ ...وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾** [١٢] ، تعالى : **﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلا ﴾** [١٣] . فمعنى الآية : ((إذا شئنا أهلكنا هؤلاء ، وأمثالهم ، وجئنا بقوم آخرين بدلهم))[١٤] .

الاستبدال الفعليّ : استعمل النصّ القرآنيّ الكريم الاستبدال الفعليّ ، وذلك بصيغة الفعل العام (فَعَل) ومُشتقاته ، وكذلك بصيغة الفعل (عمل) ومشتقاته ، فحقق هذا الاستبدال تماسكاً نصّيّاً عن طريق هذا الاستعمال ، وذلك بالرجوع إلى المعنى المقصود من الصيغة العامّة فيما تقدّم من كلام . ومن الآيات الكريمة التي ورد فيها الاستبدال الفعليّ ، قوله تعالى : **﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾** [١٥] . فقد استعملتْ صيغة الفعل (تفعلوا) مرّتين مُستبدِلةً قوله في الآية السابقة لها ، وهو قوله (فاتوا) ، وذلك أنّ ((معنى (فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا) : فإنْ لم تأتوا ، وعبّر عن الإتيان بالفعل))[١٦] .. ومنه قوله تعالى : **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ ﴾** [١٧]. وقد استعمل الفعل (تفعلوا) مُستبدِلاً الفعل (ذروا) في الآية السابقة ،وذلك أنّ معنى الآية : ((فإنْ لم تتركوا ما بقي من الربا ، وسُمّي الترك فعلاً))[١٨] ورأى الآلوسيّ أنّ الصيغة المُستبدِلة جاءتْ تعويضاً للفعلين (اتقوا) ، و(ذروا) ، فقال : (((فإنْ لم تفعلوا) أي ما أمرتم به من الاتقاء ، وترك البقايا))[١٩].

---

(١) البرهان في علوم القرآن : ٤ / ٦٢ .
(٢) مفردات ألفاظ القرآن : ٧٧٥ (ملك).
(٣) سورة البقرة : ٤٨ ، ١٢٣ . مع بعض الاختلاف في بعض الألفاظ ، وتقديم وتأخير ألفاظ فيهما .
(٤) معاني القرآن ، الأخفش : ٧٣ .
(٥) مجمع البيان : ١ / ٢٥٤ .
(٦) البحر المحيط : ١ / ٣٠٨ . وينظر : روح المعاني : ١ / ٣٤٠ .
(٧) سورة آل عمران : ١٧٣ .
(٨) البرهان في علوم القرآن :
(٩) ينظر : التبيان في تفسير القرآن : ٣ / ٥١ – ٥٢ .
(١٠) سورة التوبة : ٣٩ .
(١١) البحر المحيط : ٥ / ٤٢٠ . وينظر : روح المعاني : ١٠ / ٤٠٢ .
(١٢) سورة محمّد : ٣٨ .
(١٣) سورة الإنسان : ٢٨ .
(١٤) التبيان في تفسير القرآن : ١٠ / ١٨١ . وينظر : مجمع البيان : ١٠ / ٣٢٩ .
(١٥) سورة البقرة : ٢٣ -٢٤ . ومثله في السورة نفسها : ٧١ ، وسورة النساء : ٦٦ ، وسورة المائدة : ٦٧ ، ٧٩ ، وسورة الحجرات : ٦
(١٦) البحر المحيط : ١ / ١٧٣ . وينظر : التبيان في تفسير القرآن : ١٧٥/١ ، وتفسير الكشاف : ١٠٧/١ ، ومجمع البيان : ١٤٩/١ ، وأنوار التنزيل : ٢٣٧/١ ، وروح المعاني : ٢٦٦/١ .
(١٧) سورة البقرة : ٢٧٨ – ٢٧٩ .
(١٨) البحر المحيط : ٢ / ٧١٣ . وينظر : التبيان في تفسير القرآن : ٣٦٥/٢ ، ومجمع البيان : ٣١٧/٢ .
(١٩) روح المعاني : ٣ / ٧٢ .

ومن الاستبدال بالفعل (عمل) ، قوله تعالى : ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (١) .

فقد استبدل بالفعل (تعملون) الأفعال المتقدّمة ، إذ إنّ المعنى : ((بما تعملون عام في جميع الأعمال ، فيدخل فيها كتمان الشهادة ، وأداؤها على وجهها))(٢). ومثله قوله تعالى : ﴿وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٣). فقوله (الله أعلم بما تعملون) جاء مستبدِلاً للكلام المتقدّم ، قال الآلوسيّ -مفسّراً المقصود بـ(تعملون) : ((من الأباطيل التي من جملتها المجادلة))(٤)، فقصد بالمجالة ما ورد بالفعل (جادلوك) ، فكان التعبير بقوله (تعملون) مستبدلاً له .

الاستبدال القوليّ : استعمل اسم الإشارة (ذلك) عنصر استبدال قوليّ ، وكذا استعمل ، وهو مسبوق بـ (كاف) التشبيه مُستبدِلاً كلاماً سابقاً عليه ، وكذا وهو متصل بميم الجمع (ذلكم) ، ومثله اسم الإشارة للمفرد المؤنث (تلك) ، وكذلك استعمل حرف الجواب (بلى) ، مستبدِلاً لعباراتٍ سابقة له ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٥). فقد استعمل اسم الإشارة(ذلك) مستبدِلاً الكلام المتقدّم ، فهو يشير : ((إلى الرجعة ، والتسهيل في الفعل من التحرير إلى الصوم ، والإطعام))(٦) وقوله تعالى : ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ﴾(٧)، إذ المعنى : ((يثبت الله الحقّ والباطل نظير ما فعل في السيل وزبده ، وما يوقدون عليه في النار وزبده))(٨). ومن الاستبدال بحرف الجواب (بلى) ، قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ...﴾ (٩). فالتعبير بـ (بلى) ((ردّ للنفي ... أو جواب لاستفهام مقترن بنفي))(١٠) ، والمحذوف مفهوم من الكلام المتقدّم ، قدّره بعض العلماء بـ ((بلى آمنت))(١١) ، وقدّره الطبرسيّ بـ ((بلى أنا مؤمن))(١٢) ، وتقديره المحذوف جملة اسميّة أبلغ من تقديره جملة فعليّة ؛ وذلك لأنّ التعبير بالجملة الاسميّة يدلّ على ثبوت الإيمان عنده ، وعدم تبدّله . أمّا لو استعمل الجملة الفعليّة التي استعملها غيره من المفسّرين ، فإنّ ذلك يدلّ على إيمانه في الماضي ، وهذا لا يعني – ضرورةً – امتداده إلى وقت التكلم . ومنه قوله تعالى : ﴿ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ (١٣). فالتعبير بالحرف (بلى) جاء مُستبدِلاً الجملة (نكن معكم) ، فالجواب هو : كنتم معنا (١٤)، وجاء حرف الجواب استبدالاً لهذا القول .

المبحث الثالث : الحذف :

الحذف لغةً : قطف الشيء من الطرف كما يُحذف طرف ذنب الشاة . والحذف : الإسقاط ، يقال : حذف شعره أي أسقط (١٥). وحذّف الصانع الشيء : سوّاه تسويةً حسنةً ، كأنّه حذف كلّ ما يجب حذفه حتّى خلا من كلّ عيب وتهذّب ، ومنه محذوف الكلام ، وحذّفه تحذيفاً : هيّأه وصنعه (١٦).

الحذف اصطلاحاً : لم يذكر الشريف الجرجانيّ(١٧) إلا تعريف الحذف في العروض الشعريّ . وعرّف الكفويّ الحذف ((إسقاط الشيء لفظاً ومعنًى ... والحذف ما ترك ذكره في اللفظ والنيّة ، كقولك : أعطيتُ زيداً))(١٨) . وذكر التهانويّ عند الصرفيين ، وعرّفه بأنّه ((إسقاط حرف أو أكثر ، أو حركة من كلمة ...))(١٩) . ونقل أنّ الحذف أربعة أنواع ، وذكر شروطاً ، وفوائد للحذف ، وهو في هذا مسبوق بابن جنّيّ(٢٠) [ت ٣٩٣ هـ] والزركشيّ(٢١) ، والسيوطيّ(٢٢) . فيلحظ أنّ الزركشيّ قد فصّل القول في الحذف ، وقسّم الكلام فيه على خمسة أوجه ، هي : فائدته ، وأسبابه ، وأدلّته ، وشروطه ، وأقسامه . لكنّ كلامه في بعض هذه الأوجه كان مُتداخِلاً ، فبعض الفوائد كانت عين الأسباب ، فالتفخيم ، والإعظام ، وطلب الإيجاز ، والاختصار كانت من المُشتركات بين الفوائد والأسباب . وعرّف بعض المُحدثين الحذف ، بقوله : ((إسقاط لصيغ

---

(١) سورة البقرة : ٢٨٣ .

(٢) البحر المحيط : ٢ / ٧٤٧ . وينظر : روح المعاني : ٣ / ٨٦ .

(٣) سورة الحجّ : ٦٨ . ومثلها في سورة الفتح : ٢٤ ، وسورة المنافقون : ٢ .

(٤) روح المعاني : ١٧ / ٢٥٥ .

(٥) سورة المجادلة : ٤ .

(٦) البحر المحيط : ١٠ / ١٢٤ . وينظر : روح المعاني : ٢٨ / ٣٠١ .

(٧) سورة الرعد : ١٧ . ومثلها في سورة محمّد : ٣ ، وسورة الفتح : ١٥ .

(٨) الميزان في تفسير القرآن : ١١ /٢٤٤ .

(٩) سورة البقرة : ٢٦٠ .

(١٠) بصائر ذوي التمييز : ٢ /٢٧٥ .

(١١) تفسير الكشاف : ١ / ٣٠٤ – ٣٠٥ ، أنوار التنزيل :١ / ٥٦٣ ، وروح المعاني : ٣ / ٣٧ .

(١٢) مجمع البيان في تفسير القرآن : ٢ / ٢٦٧ .

(١٣) سورة الحديد : ١٤ .

(١٤) ينظر : مجمع البيان : ٩ / ٥٨٠ ، وروح المعاني : ٢٧ / ٢٥١ .

(١٥) ينظر : العين : ٣ / ٢٠١ – ٢٠٢ ، وتاج اللغة وصحاح العربيّة : ٣ / ٨٢٠ ، ولسان العرب : ١ / ٧٧٤ .

(١٦) ينظر : أساس البلاغة : ١١٦ ، والقاموس المحيط : ٧٣٧ (حذف).

(١٧) ينظر : التعريفات : ٦٨ .

(١٨) الكلّيات : ٣٢٠ .

(١٩) كشّاف اصطلاحات الفنون : ١ / ٤٢٥ .

(٢٠) ينظر : الخصائص : ٢ /٣٦٠ – ٣٨١ .

(٢١) ينظر : البرهان في علوم القرآن : ٣ / ٦٧ – ١٤١ ، نحو النصّ نظرية وتطبيق ، سورة آل عمران أنموذجاً : ٥٧ .

(٢٢) ينظر : الإتقان في علوم القرآن : ٢ / ١١١ – ١٢٥ .

داخل النصّ التركيبيّ في بعض المواقف اللغويّة ، وهذه الصيغ يُفترض وجودها نحويّاً ؛ لسلامة التركيب وتطبيقاً للقواعد ، ثمّ هي موجودة ، أو يُمكن أنْ تُوجد في مواقف لغويّة مُختلفة))[1]. يتبيّن من ذلك أهميّة الحذف ، فـ ((لا تكاد تجد مؤلّفاً في النحو العربيّ ، وفي علم المعاني ، وفي إعجاز القرآن وتفسيره ، لم يتحدّث عن هذه الظاهرة))[2] .

الحذف في الدراسات النصّيّة الحديثة : اعتمد هاليداي ورقيّة حسن الحذف فصلاً من فصول كتابهما (الاتساق في الانكليزيّة) ، وعرّفاه بأنّه ((افتراض عنصر غير موجود في النصّ ؛ لدلالة عنصر سابق عليه))[3] . ومع ذلك فقد كان اهتمام الدراسات الغربيّة بالحذف ضئيل العناية ((يشهد على ذلك عدم اهتمام المؤلفات التي وضعوها في النحو بهذه الظاهرة ، واقتضاب الحديث عنها ... على أنّ بعض النظريات اللسانيّة التي أولت العمليات التحويليّة في نماذجها ومناهجها منزلة أساسيّة ... فاتّخذ الحذف مطيّةً لتفسير تولّد بعض الأشكال النظريّة ، واعتمد على الحذف لربط الصلة بين ما سُمّي بالبنى السطحيّة والبنى العميقة ، والانتقال من إحداها إلى الأخرى))[4] . وعرّف روبرت دي بوجراند الحذف بأنّه ((استبعاد العبارات السطحية التي يُمكن لمحتواها المفهوميّ أنْ يقوم في الذهن ، أو أنْ يُوسّع ، أو أنْ يُعدّل بواسطة [5] العبارات الناقصة))[6] . ويُحدّد هاليداي ورقيّة حسن الحذف بأنّه ((في مُعظم الأمثلة يُوجد العنصر المُفترض في النصّ السابق . وهذا يعني أنّ الحذف علاقة قبليّة))[7] . فالحذف عنصر من عناصر السبك لا يختلف عن الاستبدال إلاّ في كونه ((استبدالاً بالصفر))[8] ، أي أنّ علاقة الحذف لا تُخلّف أثراً ، ولهذا إنّ علاقة الاستبدال يُسترشد بالمُستبدِل لمعرفة المُستبدَل منه ، على حين الأمر على خلاف هذا في الحذف ، إذ إنّ العنصر المحذوف لا يحلّ محلّه شيء ، فيخلق ذلك فراغاً بنيويّاً يهتدي القارئ إلى ملئه بالاعتماد على ما ورد في الجملة ، أو الجمل السابقة في النصّ [9]. وقسّم الباحثان الحذف على ثلاثة أنواع [10]: اسميّ ، وفعليّ ، وقوليّ ، وهذا في ضوء دراستهما للغة الانكليزيّة . أمّا في اللغة العربيّة ، فعلى الرغم من أنّ المؤلفات العربيّة في النحو ، والصرف ، والمعاني ، والإعجاز ، وعلوم القرآن قد تناولت الحذف في مباحثها ، وقسّمته على أقسام أكثر شموليّةً وتفصيلاً من المؤلفات الغربيّة ، فإنّه يُلحظ أنّ مَنْ يكتب في نحو النصّ ، يلتزم بما جاء في كتب الغربيين الذين وضعوا المعايير النصّيّة في ضوء ما جاء في لغتهم من عبارات ، وتراكيب ، ونصوص . وليس خافياً على أحد أنّ لكلّ لغةٍ معاييرها ، وخصائصها التركيبيّة والبلاغيّة ، فكان الأجدر بهم أنْ يأخذوا المصطلح المعمول به في نحو النصّ ، ثمّ يبحثوا عن مظاهره التطبيقيّة في اللغة العربيّة ، والتراث اللغويّ العربيّ يزخر بالإشارات النصّيّة للحذف في العربيّة ، فأنماط الحذف ((تبدأ من حذف الحركة ، الصوت ، ثمّ الحرف ، ثمّ الكلمة ، ثمّ العبارة ، ثمّ الجملة ، ثمّ أكثر من جملة . والكلمة قد تكون اسماً ، وقد تكون فعلاً مفرداً))[11]. وقد ذكر ابن هشام [ت ٧٦١هـ] الحذف ، وتحدّث عن القضايا المُتعلّقة به ، وذكر أنماط الحذف بصورة تفصيليّة ، إذ جعل الحذف ستة أقسام ، هي[12] :

١ – حذف الاسم : وهو على أقسام كثيرة ، منها : حذف المضاف ، وحذف المضاف إليه ، وحذف الصفة ، وحذف الموصوف ، وغيرها .

٢ – حذف الفعل .

٣ – حذف الحرف أو الأداة ، كما في حذف : حرف العطف ، فاء الجواب ، الجارّ ... .

٤ – حذف الجملة ، كما في حذف : جملة القسم ، جواب القسم ، جملة الشرط ... .

٥ – حذف الكلام بجملته .

٦ – حذف أكثر من جملة .

وقد أشار الدكتور صبحي الفقيّ إلى أقسام الحذف عند علماء العربيّة القدماء ، على الرغم من أنّه لم يأخذ بها جميعاً ، فقد أسقط حذف الحرف من دراسته النصّيّة ، واقتصر على خمسة أنماط ، هي : (حذف الاسم – حذف الفعل – حذف العبارة – حذف الجملة – حذف أكثر من جملة) . وقد ألزم الدكتور نفسه أنْ يعتمد هذه الأنماط الخمسة في تحليله للسور المكيّة موضوع بحثه [13] . وممّا يُمكن أنْ يُزاد إلى ذلك ، أنّ الدكتور صبحي الفقي قد أشار إلى أنماط من الحذف ، منها ما اصطلح عليه (الحذف السببيّ)[14] ، ومثّل له ، بقوله تعالى : ﴿**وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ...**﴾ [15]، بمعنى : فضرب فانفجرتْ . إنّ تسمية هذا النوع من الاستعمال اللغويّ بالحذف السببيّ ، لا بالدقة ، وذلك لأنّه يجمع بين الحذف والاستبدال[16] ؛ ذلك لأنّ الفعل الموجود نتيجة للفعل المحذوف / السبب ، واستبدال له

---

(١) الحذف والتقدير في النحو العربيّ : ٢٠٠ .
(٢) علم اللغة النصّيّ بين النظريّة والتطبيق ، دراسة تطبيقيّة على السور المكيّة : ٢ / ١٩٢ .
(٣) نحو النصّ ، نقد النظريّة وبناء أخرى : ٨٢ .
(٤) أصول تحليل الخطاب : ٢ / ١١٣١ – ١١٣٢ .
(٥) كذا ، والصحيح : بوساطة .
(٦) النصّ والخطاب والإجراء : ٣٠١ . وينظر : نحو النصّ إطار نظريّ ودراسات تطبيقيّة : ١٢٧ .
(٧) لسانيّات النصّ : ٢١ .
(٨) لسانيات النص : ٢١ .
(٩) لسانيات النصّ : ٢١ .
(١٠) المصدر نفسه : ٢٢ .
(١١) علم اللغة النصّيّ بين النظريّة والتطبيق : ٢ / ١٩٣ .
(١٢) ينظر : مغني اللبيب عن كتب الأعاريب : ٢ / ٦٩٢ – ٧٤٧ .
(١٣) علم اللغة النصّيّ بين النظريّة والتطبيق : ٢/ ١٩٦ .
(١٤) ينظر : نفسه : ٢ / ١٩٥ .
(١٥) سورة البقرة : ٦٠ .
(١٦) ينظر : مدخل إلى علم النصّ ومجالات تطبيقه : ٩٢ . إذ عدّ التعبير في الآية الكريمة من الاستبدال .

بالنتيجة ؛ ولذا لا يكون الحذف هنا استبدالاً بالصفر، كما ذهب إلى ذلك هاليداي ورقيّة حسن ، ومَنْ أخذ برأيهما من دارسي النصّ [١] في العربيّة ، ذلك أنّهم رأوا أنّ ((الحذف لا أثر له إلاّ الدلالة ، فلا يحلّ شيء محلّ المحذوف ، أمّا الاستبدال فيترك أثراً يسترشد به المُتلـقّي))[٢] . والذي يُلحظ أنّ الآية السابقة تجمع بين الحذف والاستبدال ، وقد عبّر الشيخ الطوسيّ عن هذا المعنى في الآية ، بقوله : ((فاستغنى بدلالة الظاهر على المنزول منه ؛ لأنّ معنى الكلام : قلنا اضرب بعصاك الحجر فضربه فانفجرتْ منه))[٣]. ولحذف فعل الضرب من موسى ﷺ ، والاكتفاء بفعل الأمر من الله تعالى ، والاستجابة من الحجر بالانفجار دلالةً ، وذلك لأنَّ فيها إشارةً إلى إسناد الأمر كلّه إلى الله تعالى ، وأنّه ليس لموسى ﷺ إلاّ تنفيذه ، ((ويدلّ على هذا المحذوف وجود الانفجار ، ولو كان ينفجر دون ضرب لما كان للأمر فائدة ... المراد : فقد حكمنا بترتب الانفجار على ضربك))[٤]. ويرى صبحي الفقيّ أنّ الحذف الذي مرجعيته خارجية ، وليستْ نصيّة ، يكون تقدير المحذوف فيها معتمداً على السياق ، الذي يساهم في تفسيره ، وهذا النوع من الحذف ليس له علاقة بالتماسك النصيّ ، ويؤكد أنّ ((المرجعية الخارجيّة للحذف لا يتحقّق التماسك من خلالها ؛ لأنّ أكثر الأماكن التي تتوفر فيها تلك المرجعيّة تكون على مستوى الجملة الواحدة ... [و] التماسك من خلال الحذف في الجملة الواحدة لا يتحقّق ، بل لا بدّ من وجود أكثر من جملة . فالجملة الواحدة ليس فيها مذكور في الغالب ، يدلّ على المحذوف كي يمكن فيما بعد أن يتماسك المحذوف مع ما يدلّ عليه في الجملة))[٥] . وفي كلامه نظر ، فلا نصّ من دون سياق ، أو مقام يرد فيه ، هذا من جانب . ومن جانب آخر ، فالمحذوف المقدّر يجب أن يكون مفهوماً من جهة المتلقي، وهو الطرف الثاني في عملية التواصل ، وقد يكون في ذكره إخلال باتّساق النصّ، أو جماليته ، وبلاغته . وممّا يقرب من هذا الكلام هو أن يكون دليل الحذف تداوليّاً ، وليس نصيّاً ، من ذلك ما أشار إليه الزركشيّ ، إذ قال : ((أن تدلّ العادة على تعيين المحذوف ، كقوله تعالى : ﴿ **... لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا ...** ﴾ [٦]، أي : مكان قتال ، والمراد مكاناً صالحاً للقتال ؛ لأنّهم كانوا أخبر الناس بالقتال ، والعادة تمنع أن يريدوا : لو نعلم حقيقة القتال))[٧]. فمعرفتهم بالقتال أمر يحتّمه العرف بين المتكلّم ، والمتلقي . وقد ذهب بعض العلماء إلى أنّهم قصدوا عدم معرفتهم للقتال ، قال الطبرسيّ : ((قال المنافقون : لو علمنا قتالاً لقاتلناهم ، قالوا ذلك إبلاءً لعذرهم في ترك القتال ، والرجوع إلى المدينة))[٨] ، وقد قالوا ذلك ((دغلاً واستهزاءً))[٩]. وذهب آخرون إلى أنّهم لم يعنوا عدم معرفتهم للقتال ، وإنّما كان ذلك لأنّهم يرون عدم التكافؤ بين الطرفين ، إذ إنّ معنى قولهم : ((لو نعلم ما يصحّ أن يسمّى قتالاً (لاتبعناكم) ، يعنون أنّ ما أنتم فيه ؛ لخطأ رأيكم ، وزللكم عن الصواب ليس بشيء ، ولا يقال لمثله قتال ، إنّما هو إلقاء الأنفس إلى التهلكة))[١٠] . وقد كان جواب الشرط لقولهم (لو نعلم قتالاً) جملة (لاتبعناكم) ، ((وفي جعلهم التالي مجرد الاتباع دون القتال الذي هو المقصود بالدعوة دليل على كمال تثبطهم عن القتال))[١١] ، أو((؛ لأنّ ألسنتهم لكمال تثبط قلوبهم عنه لا تساعدهم على الإفصاح به))[١٢] .

مظاهر الحذف في السور المدنيّة : تعدّدتْ مظاهر الحذف في القرآن الكريم عامّةً ، وفي السور المدنيّة خاصّةً ، ولم يكن الهدف من الحذف تحقيق التماسك النصّيّ فقط ، بل كان للمسوّغ الدلاليّ والبلاغيّ أثر في ذلك الحذف ؛ لأنّ الحذف في النصّ القرآنيّ يُحقّق دلالات بلاغيّة يكون لها أثرها في إظهار الإعجاز القرآنيّ . فمن مظاهر هذا الحذف ما يأتي :

الحذف الحرفيّ : حُذفتْ بعض الحروف في النصّ القرآنيّ الكريم ، وكان لحذفها أثر في دلالة النصّ ، بحيث ألقتْ بظلالها على تماسك النصّ ، وانسجامه ، ومن أهمّ الحروف المحذوفة في السور المدنيّة ، الآتي :

أ - **حذف (ها) التنبيه** : يُستعمل هذا الحرف مع أسماء الإشارة في أغلب الأحيان ، وقد بيّن المالقيّ [ت ٧٠٢هـ] دلالته عند اتصالها بها ، فقال : ((وقوعها مع أسماء الإشارة ... ولا تلزم معها إلاّ إذا أُريد الحضور والقـرُب))[١٣] . يُستفاد من كلام المالقيّ المتقدم أنّ وجود (ها) التنبيه في أسماء الإشارة يدلّ على قرب المُشار إليه وحضوره ، والعكس صحيح ، فيدلّ حذف (ها) التنبيه من اسم الإشارة على الغيبة والبعد . ويبدو انّ الاستعمال القرآنيّ يؤيّد ذلك ، فمن الآيات القرآنيّة الكريمة التي جاءتْ (ها) التنبيه محذوفةً من اسم الإشارة ، قوله تعالى : ﴿ **مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾ [١٤]. فحذف (ها) التنبيه في الآية الكريمة يدلّ على أنّ المُشار إليه غير مُعين ، فـ ((كان استعمال (ذا) بعد اسم الإستفهام للإشارة المجازيّة بأنْ يتصوّر المُتكلّـم في ذهنه شخصاً موهوماً مجهولاً صدر منه فعل ، فهو يسأل عن تعيينه))[١٥] ، ففي السؤال حثّ على التصدّق ، ((فكأنّه قيل : أيقرض الله تعالى أحد فيضاعفه))[١٦] .

---

(١) ينظر : لسانيّات النصّ : ٢١ ، ونحو النصّ بين الأصالة والحداثة : ١٣٠ ،وإشكالات النصّ : ٣٥٦ .

(٢) نحو النصّ بين الأصالة والحداثة : ١٣٠ ــ ١٣١ .

(٣) التبيان في تفسير القرآن : ١ / ٣٣١ . وينظر : تفسير الكشاف : ١ / ١٤٧ ، مجمع البيان : ١ / ٢٩٩ ، وأنوار التنزيل : ١ / ٣٣٠ .

(٤) روح المعاني : ١ / ٣٦٧ .

(٥) علم اللغة النصيّ : ٢ / ٢٠١ ــ ٢٠٢ .

(٦) سورة آل عمران : ١٦٧ .

(٧) البرهان في علوم القرآن : ٧٢/٣ . وينظر : التبيان في تفسير القرآن : ٤٣/٣ .

(٨) مجمع البيان : ٦٥١/٢ .

(٩) إرشاد العقل السليم : ١١٠/٢. وينظر : أنوار التنزيل وأسرار التأويل : ١١٢/٢.

(١٠) تفسير الكشاف : ٤٢٨/١ . وينظر : البحر المحيط : ٤٢٤/٣ ، وأنوار التنزيل : ١١٢/٢ ، وروح المعاني : ٤٥٠/٤ .

(١١) إرشاد العقل السليم : ١١٠/٢ .

(١٢) روح المعاني : ٤٥٠/٤ .

(١٣) رصف المباني في شرح حروف المعاني : ٤٦٨ . وينظر : الجنى الداني في حروف المعاني : ٣٤٦ .

(١٤) سورة البقرة : ٢٤٥ .

(١٥) تفسير التحرير والتنوير : ٢ / ٤٥٩ .

(١٦) روح المعاني : ٢ / ٧٥٦ .

قوله تعالى : ﴿**اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلا بِإِذْنِهِ ...**﴾ (١). فليس في اسم الإشارة الوارد في الآية الكريمة مُشار مُعيّن ، بل الآية ((بيان لملكوته وكبريائه ، وأنّ أحداً لا يتمالك أنْ يتكلّم يوم القيامة إلاّ إذا أذن له في الكلام))(٢) . وقد كان بعض المفسّرين أكثر صراحةً في بيان دلالة الإشارة ، فقال : ((و(ذا) مزيدة للتأكيد ، إذ ليس ثـمّ مُشار إليه مُعيّن))(٣) . ومنه أيضاً قوله تعالى : ﴿**إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**﴾ (٤). فقد حُذفتْ (ها) التنبيه من اسم الإشارة ، و((معناه التقرير بالنفي في صورة الاستفهام ، أي لا ينصركم أحد من بعده))(٥)، فيدلّ ذلك على أنه لا وجود – أصلاً-لمن ينصرهم ، ((فهذا تنبيه على أنّ الأمر كلّه لله))(٦) . ومثله قوله تعالى : ﴿**قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا**﴾ (٧). فالآية الكريمة جاءتْ لنفي العاصم لهم من العذاب ، قيل : ((إنّ أحداً لا يقدر على منعه ممّا يريد الله فعله به))(٨). ومنه أيضاً قوله تعالى : ﴿ **مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ** ﴾ (٩). فدلالة الاستفهام والإشارة في الآية عامّة لكلّ مَنْ يكون مصداقاً لها ، إذ المعنى : ((أيُقرض الله أحد فيضاعفه له ، أي فيعطيه أجره أضعافاً))(١٠)، فدلّ حذف (ها) التنبيه على أنّ معنى السؤال بليغ من الله تعالى إلى الانفاق في سبيله ... فالاستفهام ليس على حقيقته ، بل للحثّ))(١١) .وهذا الرأي في دلالة حذف (ها) التنبيه من اسم الإشارة لا يُنقض بما جاء في قوله تعالى : ﴿**هَا أَنْتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** ﴾ (١٢) . فإنّ عدم إعادة (ها) التنبيه في اسم الإشارة بأنْ يكون الكلام (ها أنتم هؤلاء) ، الغرض منه إنزالهم منزلة البعد عن رضا الله تعالى في محبّة المنافقين من أهل الكتاب ، فالمعنى في الآية : ((أنتم أولاء الخاطئون في موالاة منافقي أهل الكتاب . وقوله :(تحبونهم ولا يحبونكم) بيان لخطئهم في موالاتهم حيث يبذلون محبّتهم لأهل البغضاء))(١٣). وكذلك قوله تعالى : ﴿ **قَالَ هُمْ أُولاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى** ﴾ (١٤). فالآية تتضمن خطاباً بين الله تعالى ، وموسى عليه السلام ، والكلام فيه صادر من موسى فكان حذف (ها) التنبيه من الكلام تأدّباً من موسى عليه السلام مع الله سبحانه ، إذ الله – تبارك اسمه – غير غافل عن شيء حتّى ينبـّهه عليه .

ب – حذف حرف الجرّ : حذف حرف الجرّ من الكلام في النصّ الكريم ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾(١٥). فقد حذف حرف الجرّ (الباء) من قوله (الصلاة) اكتفاءً بدلالة ذلك من المذكور قبله في قوله (بالصبر) . وقد حُذف الفعل(استعينوا) من الآية أيضاً ، إذ التقدير : واستعينوا بالصلاة . ويبدو أنّ لهذا الحذف – الفعل والحرف – دلالةً ؛ لأنّ الصلاة عبادة مفروضة على المسلم ، والاستعانة ندب إلى العمل ، فـ ((الاستعانة طلب العون))(١٦) ، أو ((الازدياد في القوة))(١٧)، ومعنى الاستعانة بالصبر : ((توطين النفس على الأمور تسهيلاً لها))(١٨) وليس في الندب وجوب . فكان قصر الاستعانة على الصبر ؛ لأنه في غير الفرائض . وممّا يؤكد ذلك أنه ذيّل الكلام بقوله (إنّ الله مع الصابرين) ، ولم يقل : ومع المُصلـّين ، فصرّح بأمر الاستعانة بالصبر لما فيه من الحثّ ، ولم يُصرّح في الصلاة ؛ لأنها فرض سواءٌ أكان المسلم صابراً أم لا . وزيادة على ذلك ، فالآية قد خاطبتهم بـ (يا أيّها الذين آمنوا) ، فكيف يأمرهم بالاستعانة بالصلاة ، وهم أصلاً مصلـّون ، ثمّ إنّه قدّم الصبر – مع أنّ الصلاة أهمّ منه - ؛ ((لأنه سبق ذكر تكاليف عظيمة شاق فراقها على مَن ألفها ، واعتادها))(١٩) . وقد تكرّر هذا الحذف في آيةٍ كريمةٍ أخرى ، وهي قوله تعالى : ﴿**وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلا عَلَى الْخَاشِعِينَ**﴾(٢٠). فقد أمر بالصبر لما فيه من القمع للنفس من الوقوع في المحرمات ، أمّا الصلاة ، فتأكيد الأمر بها ، بالتزام أوقاتها (٢١).

الحذف الاسميّ :تعدّدتْ مظاهر الحذف الاسميّ في النصّ القرآنيّ الكريم ، فقد حُذف (المبتدأ ، والخبر، والفاعل، والمفعول به ، والمجرور بحرف الجر، والمضاف إليه ، وغيرها) . ومن صور الحذف، قوله تعالى : ﴿**مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ**

---

(١) سورة البقرة : ٢٥٥ .

(٢) تفسير الكشّاف : ١ / ٢٩٦ . وينظر : مجمع البيان في تفسير القرآن : ٢ / ٢٤٠ – ٢٤١ ، أنوار التنزيل : ١ / ٥٥٤ ، وروح المعاني : ٣ / ١٤ .

(٣) تفسير التحرير والتنوير : ٢ / ٤٩٥ .

(٤) سورة آل عمران : ١٦٠ .

(٥) التبيان في تفسير القرآن : ٣ / ٣٣ . وينظر : مجمع البيان : ٢ / ٦٣٩ ، وتفسير التحرير والتنوير : ٣ / ٢٧٣ .

(٦) تفسير الكشاف : ١ / ٤٢٣ ، وينظر : أنوار التنزيل : ٢ / ١٠٩ ، وروح المعاني : ٤ / ٤٣٦ .

(٧) سورة الأحزاب : ١٧ .

(٨) التبيان في تفسير القرآن : ٨ / ٢٤٧ ، وينظر : روح المعاني : ٢١ / ٢١٧ .

(٩) سورة الحديد : ١١ .

(١٠) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم : ٨ / ٢٠٦ – ٢٠٧ .

(١١) روح المعاني : ٢٧ / ٢٤٦ .

(١٢) سورة آل عمران : ١١٩ .

(١٣) تفسير الكشّاف : ١ / ٣٩٨ .

(١٤) سورة طه : ٨٤ .

(١٥) سورة البقرة : ١٥٣ .

(١٦) مفردات ألفاظ القرآن : ٥٩٨ (عون).

(١٧) التبيان في تفسير القرآن : ٣٥/٢ .

(١٨) المصدر نفسه : ٣٤/٢ .

(١٩) البحر المحيط : ٢٩٨/١ .

(٢٠) سورة البقرة : ٤٥ .

(٢١) ينظر : تفسير التحرير والتنوير : ١ / ٤٦١ – ٤٦٤ .

﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [(1)]. فقد حذف المبتدأ من الآية الكريمة ، إذ التقدير : هو ، أو ذلك محمّد [(2)]، والذي سوّغ هذا التقدير تقدّم ذكره في قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾[(3)] ، فـ ((ليس المقصود إفادة أنّ محمّداً رسول الله ، وإنّما المقصود بيان رسول الله مَن هو ، بعد أنْ أجرى عليه من الإخبار))[(4)] . ومنه –أيضاً – قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[(5)]، فقد رأى كثير من المفسّرين أنّ في الآية حذفاً ، إذ تقدير الكلام : ((يخوفكم أولياءه ، أي من أوليائه))[(6)] ، والذي سوّغ هذا التقدير لديهم قوله (فلا تخافوهم) . وعلى هذا التقدير يكون هناك محذوفان ، الضمير المنصوب ، وحرف الجر ، والآية بحسب ظاهرها تدلّ على أنّ التخويف من الشيطان لأوليائه ، وبحسب التقدير يكون التخويف للمسلمين بأوليائه ، وهناك فرق بين المعنيين . ويبدو أنّ المعنى هو : أنّ مَن يستجيب للتخويف الشيطانيّ يكون من أوليائه ؛ لذا نهى الله – تبارك وتعالى- عن الخوف منهم كي لا يكونوا داخلين في زمرته ؛ لذا فقد عدّ الطبرسيّ مَن يخاف الشيطان من المنافقين ، فقال : ((الشيطان يخوّف المنافقين الذين هم أولياؤه ، وأنّهم هم الذين يخافون من ذلك التخويف بأن يوسوس إليهم ، ويرهبهم))[(7)]. ولعلّ ممّا يدخل في هذا الكلام ما ذهب إليه الزركشيّ ، فقد عدّ قسماً من أقسام الحذف سمّاه (الاكتفاء) ، وعرّفه بقوله : ((هو أن يقتضي المقام ذكر شيئين بينهما تلازم ، وارتباط ، فيُكتفى بأحدهما عن الآخر ، يُخصّ بالارتباط العطفيّ غالباً))[(8)] ، من ذلك قوله تعالى : ﴿... بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [(9)]، إذ تقدير الكلام : بيدك الخير ((والشرّ، إذ مصادر الأمور كلّها بيده جلّ جلاله ؛ وإنّما آثر ذكر الخير لأنّه مطلوب العباد ، ومرغوبهم إليه ، أو لأنّه أكثر وجوداً في العالم من الشرّ ، ولأنّه يجب في باب الأدب ألاّ يُضاف إلى الله تعالى))[(10)]. ولعلّ ممّا يعزّز هذا التقدير أنّه – تبارك وتعالى – ذيّله بقوله (إنّك على كلّ شيءٍ قدير) ، فدلّ على أنّ قدرته لا حدّ لها ، ولا مستعصي عليها . ولعلّ ممّا يقارب هذا القسم ما في قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[(11)]، فقد جاء قوله (فئة) مطلقاً من أيّ تخصيص ، و((المراد بها المشركة ، أو الباغية ؛ لأنّ الله لا يأمر المؤمنين بالثبوت لقتال أحد إلاّ مَن هو بهذه الصفة ، ولا يأمر بقتال المؤمنين))[(12)] .

الحذف الفعليّ :ورد في النصّ الكريم حذف الفعل ؛ لدلالة الفعل المذكور في الآية الكريمة عليه ، من ذلك قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾[(13)]. يُلحظ أنّ الفعل (يسجد) حُذف من الترتيب المتسلسل (مَنْ في الأرض – الشمس – القمر – النجوم – الجبال – الشجر – الدواب – كثير من الناس) ، وقد دلّ الفعل المتقدّم على الأفعال المحذوفة . وقد استُعمل الفعل يسجد في حقيقته ومجازه ، و((السجود ضربان : سجود باختيار ، وليس ذلك إلاّ للإنسان ، وبه يستحقّ الثواب ... ، وسجود بتسخير ، وهو للإنسان ، والحيوانات ، والنباتات))[(14)]، فـ ((سجود الموجودات غير الإنسانيّة ليس إلاّ دلالة تلك الموجودات على أنّها مُسخّرة بخلق الله ، فاستُعير السجود لحالة التسخير والانطياع))[(15)]. أمّا مع البشر ، فهم يخضعون للإرادة الإلهيّة ، والتسخير الإلهيّ ، الذي يدلّ عليه المعنى المجازي للفعل (يسجد) ، والسجود المذكور لـ (كثير من الناس) ((هو السجود الحقيقيّ ، ولولا إرادة ذلك لما احترس بإثباته لكثير من الناس لا لجميعهم))[(16)]. وفي الآية فعل آخر محذوف ؛ لأنّ قوله (وكثيرٌ حقّ عليه العذاب) غير داخل في السجود ، قال الفرّاء : ((كيف رُفع الكثير ، وهو لم يسجد ؟ فالجواب في ذلك أنّ قوله (حقّ عليه العذاب) يدلّ على أنّه : وكثير أبى السجود ؛ لأنّه لا يحقّ عليه العذاب إلاّ بترك السجود ، والطاعة))[(17)]. في حين رأى الآلوسيّ أنّ الفعل المحذوف مفهوم من الفعل الموجود، والجملة التي بعده ، فـ ((الظاهر أنّ (كثير) مبتدأ ، والجملة بعده خبره ، وقد أُقيمتْ مقام (لا يسجد) ، فكأنّه قيل : ويسجد كثير من الناس ، ولا يسجد كثير منهم))[(18)]. ومنه قوله تعالى : ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾[(19)]. ففي الآية حذف الفعل (يصطفي) من المعطوف (من الناس) ، إذ التقدير : ويصطفي من الناس ، قال بعض المفسّرين ((أي ويختار من الناس أيضاً مثل ذلك))[(20)]. وقد يكون سبب حذف الفعل في قوله (من الناس) أنّه مع الملائكة ، الذين

(1) سورة الفتح : ٢٩ .
(2) ينظر : تفسير الكشاف : ٣٣٧/٤ ، والبحر المحيط : ٥٠٠/٩ ، وروح المعاني : ٣٨٥/٢٦ .
(3) سورة الفتح : ٢٨ .
(4) تفسير التحرير والتنوير : ٢٦ / ١٧١ .
(5) سورة آل عمران : ١٧٥ .
(6) التبيان في تفسير القرآن : ٥٤/٣ . وينظر : تفسير الكشاف : ٤٣٣/١ ، والبرهان في علوم القرآن : ١٣٨ ، وروح المعاني : ٤٦٤/٤ .
(7) مجمع البيان : ٦٦٩/٢ .
(8) البرهان في علوم القرآن : ٧٨/٣ .
(9) سورة آل عمران : ٢٦ . ومنه أيضاً في سورة البقرة : ٣ ، ٢٠ .
(10) البرهان في علوم القرآن : ٧٨/٣ .
(11) سورة الأنفال : ٤٥ .
(12) التبيان في تفسير القرآن : ١١٩/٥ .
(13) سورة الحج : ١٨ .
(14) مفردات ألفاظ القرآن : ٣٩٦ (سجد). وينظر : بصائر ذوي التمييز : ٣ / ١٨٨ .
(15) تفسير التحرير والتنوير : ١٧ / ١٦٤ .
(16) نفسه : ١٧/ ١٦٤ .
(17) معاني القرآن ، الفرّاء : ١٢٧/٢ . وينظر : التبيان في تفسير القرآن : ٢٤٧/٧ ، ومجمع البيان : ٢٠٩/٧ .
(18) روح المعاني : ١٧٣/١٧ – ١٧٤ .
(19) سورة الحج : ٧٥ .
(20) التبيان في تفسير القرآن : ٧ / ٢٨٠ .

أخلصهم الله – تبارك وتعالى – لعبادته ، وتنفيذ أوامره يحتاج معهم – وهم متساوون أو متقاربون في الصفات – إلى اصطفاء بعضهم على بعض لأداء مهمة الرسالة . أمّا مع الناس ، الذين تختلف أخلاقهم ، وأعمالهم ، بل حتى السيرة الدينيّة للسلالة التي يحدرون منها ؛ لذا يكون الأتقياء ، وأصحاب النفوس الطاهرة أكثر ظهوراً ، وأشدّ تميّزاً من غيرهم من البشر ، فيكون اصطفاؤهم أكثر وضوحاً ، وأولى قبولاً ، ((واصطفاء الله بعض عباده قد يكون بإيجاده صافياً عن الشوب الموجود في غيره))[1] ، فلم يحتج معه إلى ذكر الفعل . ومثله قوله تعالى : **﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾** [2] ، فالتقدير : ((ويصلي عليكم الملائكة بالدعاء ، والاستغفار))[3] . ويبدو أنّ حذف الفعل من قوله (الملائكة) ؛ لبيان أنّ صلاة الملائكة – الدعاء والاستغفار- لا يكون لها شأن مع صلاة الله – سبحانه وتعالى – يدلّ على ذلك قوله بعده (ليخرجكم) ، إذ لو كان لصلاة الملائكة مشاركة مع صلاة الله تعالى (الرحمة) لأصبح التعبير بقوله (ليخرجوكم) ، فكانت نتيجة الصلاة متوقفة على المشيئة الإلهيّة التي تحكم بالإخراج ، أو بغيره . في حين يلحظ أنّ قوله تعالى : **﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾**[4]. يثبت ممّا تقدّم أنّ الآية الكريمة قد أشركت اسم الله – تعالى – مع الملائكة بضمير الجمع في قوله (يصلّون) ، وسبب هذا الإشراك أنه بيان للفعل من دون بيان نتيجته – بعكس ما كان في الآية السابقة – ، ثم أمر المؤمنين بالاقتداء به – عزّ وجلّ – وبملائكته في أدائهم للصلاة على نبيّه . ومنه – أيضاً – قوله تعالى : **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾** [5]، فقد رأى بعض العلماء أنّ في الآية حذفاً ، إذ إنّ ((أصله : لن يتوبوا ، فلن يكون لهم قبول توبة ، فأوثر الإلحاق ذهاباً إلى انتفاء الملزوم بانتفاء اللازم ، وهو قبول التوبة الواجب في حكمه تعالى ، وتقدّس))[6] . وقد كان سبّب هذا التقدير عندهم أنّ الله تعالى يقبل التوبة من عباده ، وإن كانت وهم يعانون سكرات الموت ، فلمّا قال (لن تُقبل توبتهم) ، دلّ على أنّهم لم يتوبوا . أمّا المفسّرون الآخرون ، فقد رأوا أنّه ((لم تُقبل توبتهم؛ لأنهم لم يكونوا فيها مخلصين))[7] ، أو ((لأنهم لا يتوبون إلاّ عند حضور الموت ، والمعاينة))[8]، وقد علّلوا ذلك بأنّه – تبارك وتعالى – ذكر بعدها قوله (وأولئك هم الضالّون) ، فدلّ على عدم إخلاصهم ، وكذلك فإنّ الله – عزّ وجلّ – نفى قبول التوبة عمّن يكون على فراش الموت ، قال تعالى : **﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾** [9]. فدلّ ذلك على أنّ توبتهم ((تكون في حال الإلجاء))[10] ، وليست توبة صادقة لمعرفتهم الحقّ ، وندمهم على ما فعلوا فيما مضى من حياتهم .

حذف الجملة : من ذلك حذف جملة الشرط ، من قوله تعالى : **﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾** [11] . فقد حُذفت أداة الشرط وفعله من الكلام ، إذ تقدير الكلام : إنْ قعدتم إنّكم مثلهم [12] ، وقد دلّ الفعل الموجود فعل الشرط المحذوف وقد يكون الفصل بين اسم (إنّ) ، وخبرها بالأداة (إذاً) ، وذلك في قوله (إنّكم إذاً مثلهم) دالاً على أنّ وصفهم بالكفر متوقف على مجالستهم لهم ، بمعنى أن تحقق الخبر للمبتدإ يتوقف على حصول جملة الشرط ، وقد أكد الكلام بقوله (إنّ الله جامع المنافقين والكافرين) ، والتعبير بـ (المنافقين) لمَنْ (يُستهزأ بها) ، و(الكافرين) لمَنْ (يُكفر بها) ، فكان القعود معهم يدخلهم في إحدى الطائفتين ، فيكونوا (إذاً مثلهم). ومن حذف جواب الشرط ، قوله تعالى : **﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾** [13]. فجواب (لو) الشرطيّة محذوف تقديره : لكان خيراً لهم .

حذف شبه الجملة : من ذلك قوله تعالى : **﴿إِلا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾** [14]. فقد حذف شبه الجملة (بكم) ، والتقدير : يستبدل بكم قوماً غيركم[15] ، ولعلّ الذي سوّغ تقدير المحذوف أنّ ((الاستبدال : جعل شيءٍ مكان آخر))[16] ، والله تعالى قد ذكر الضمير الدالّ على المحذوف ، إذ أنذرهم بقوله (يعذّبكم) ، وبالتغيير بـ (غيركم) . ومثله قوله تعالى : **﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ ... ﴾** [17] . فـ ((معنى يستفتونك : يسألونك يا محمّد أن تفتيهم في الكلالة ، وحذف اقتصاراً لما دلّ الجواب عليه))[18]. ويبدو أنّ في حذفها من الفعل

---

(1) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز : ٢ / ١٧٨ .
(2) سورة الأحزاب : ٤٣ .
(3) التبيان في تفسير القرآن : ٨ / ٢٦٤ .
(4) سورة الأحزاب : ٥٦ .
(5) سورة آل عمران : ٩٠ .
(6) البرهان في علوم القرآن : ٢٤٧/٣ . وينظر : البحر المحيط : ٢٥٤/٣ ، وروح المعاني : ٢٨٧/٣ .
(7) التبيان في تفسير القرآن : ٥١٦/٢ .
(8) مجمع البيان : ٥١٠/٢ .
(9) سورة النساء : ١٨ .
(10) مجمع البيان : ٥١٠/٢ .
(11) سورة النساء : ١٤٠ .
(12) ينظر : مجمع البيان : ٣ / ٣١٥ ، وتفسير التحرير والتنوير : ٤ / ٢٨٥ .
(13) سورة التوبة : ٥٩ .
(14) سورة التوبة : ٣٩ .
(15) ينظر : مجمع البيان : ٥ / ٧٨ ، وأنوار التنزيل : ٣ / ١٤٥ .
(16) مفردات ألفاظ القرآن : ١١١ (بدل). وينظر : بصائر ذوي التمييز : ٢١٦/٢ .
(17) سورة النساء : ١٧٦ .
(18) التبيان في تفسير القرآن : ٣٨٦/٣ . وينظر : مجمع البيان : ٣٦٦/٣ ، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل : ٢٨١/٢.

الأول ، وذكرها في الفعل الثاني دلالة ، فالفعل الأول يدلّ على طلب الاستفتاء ، والمقصود بمَنْ يجيب الطلب هو النبيّ ρ ، والفعل الثاني فاعله ضمير مستتر يعود على الله – تبارك وتعالى - ، فكان حذفها من الأول للدلالة على أنّ جواب الطلب/ الحكم لله تعالى ، وليس للنبيّ ρ ؛ لذا فقد قدّم لفظ الجلالة بأن جعل الجملة اسميّة ردّاً على جملتهم الفعليّة للدلالة على ثبوت الحكم الذي مصدره الوحي الإلهيّ .

المبحث الرابع : الاتساق المعجميّ :

الاتّساق لغةً : ((الوَسْق : ضمُّك الشيء إلى الشيء بعضهما إلى بعض . والاتساق : الانضمام والاستواء ، كاتّساق القمر إذا تمَّ وامتلأ فاستوى))[١] . ورأى ابن فارس[٢] أنّ الوَسْق يدلّ على الجمع والحمل . **الاتّساق اصطلاحاً** : عرّف الراغب الاتساق بـ ((الاجتماع والاطّراد))[٣] . والاتساق المعجميّ أحد العناصر الخمسة التي وضعها هاليداي ورقيّة حسن للاتساق في اللغة الانكليزيّة [٤] ، وينقسم في نظر الباحثَين إلى : التكرار ، والتضامّ .

التكرار في اللغة والاصطلاح :

التكرار لغةً[٥] : الكرُّ : الرجوع عليه ، ومنه التكرار ، وكرّرتُ الشيء تكريراً وتكراراً ، فهو يدلّ على جمعٍ وترديد ، ذلك رجوعك إليه بعد المرّة الأولى . **التكرار اصطلاحاً**: عرّف الراغب الكرّ ، بقوله : ((العطف على الشيء بالذات ، أو بالفعل))[٦]، وعرّفه الشريف الجرجانيّ بـ ((الإتيان بشيءٍ مرّةً بعد أخرى))[٧] ، وعرّفه الزركشيّ ، بقوله : ((إعادة اللفظ أو مرادفه لتقرير معنًى ؛ خشية تناسي الأوّل لطول العهد به))[٨] . وعرّفه الكفويّ [٩] والتهانويّ [١٠] تعريفاً قريباً من تعريف الشريف الجرجانيّ .وذكر التهانويّ نوعاً من التكرار ((يُسمّى الترديد : وهو ما كان لتعدّد المُتعلّق بأنْ يكون المُكرّر ثانياً مُتعلّقاً بغير ما تعلّق به الأوّل))[١١] . ومثّل له بقوله تعالى : **﴿ويلٌ يومئذٍ للمُكذّبين﴾**[١٢] . فقد اشترط انْ يكون اللفظ المُكرّر دالاً على المعنى نفسه ، فإنْ لم يدلّ ، فليس بتكرار [١٣]. وقد عرفت المؤلفات العربيّة التكرار ، وعدّته نوعاً من الفصاحة ، فقد أفرد له ابن رشيق القيروانيّ [ت ٤٥٦هـ] باباً في كتابه العمدة [١٤] ، وأفرد الكرمانيّ [١٥] [ت ٥٠٠هـ] له مؤلَّفاً خاصاً ، اعتنى فيه بالآيات المُكرّرة في القرآن الكريم .

التكرار في الدراسات النصّيّة الحديثة : ذهب علماء النصّ إلى أنّ التكرار عنصر من عناصر الاتّساق المعجميّ ، فقد قسّم هاليداي ورقيّة حسن الاتساق المعجمي على نوعين : التكرار ،والتضامّ . فالتكرار عندهما ((أية حالة تكرير يمكن أنْ تكون (أ) الكلمة نفسها ، (ب) مُرادفاً أو شبه مُرادف ، (ج) كلمة عامّة ، (د) أو اسماً عامّاً))[١٦] . ونقل محمد خطابيّ عنهما أنّ العنصر المُكرّر لا يُحيل دوماً على المُحال إليه نفسه ، بمعنى : ((أنه قد تكون بين العنصرين علاقة إحاليّة ، وقد لا تكون ، وفي الحالة الأخيرة نكون أمام علاقات أخرى فرعيّة ، في إطار علاقة التكرار نفسها))[١٧] . إنّ الحالة الأخيرة من التكرار ، أي عندما لا يكون بين العنصرين (المُكرّر ، والمُحال عليه) علاقة إحاليّة ، تنقل العنصر المُكرّر – كما يرى البحث – من جهة الاتّساق المعجميّ إلى جهة الاستبدال ، الذي يتحقق في قسمه الاسميّ حالة عدم التطابق الدلاليّ بين العنصر المُستبدِل والمُستبدَل . ورأى محمد الشاوش أنّ ((القصد بتكرير الاسم إنّما هو تكرير المعنى ، أي المُسمّى ، وليس تكرير اللفظ ، أي إنّها عمليّة تقوم على تكرير لفظ أو استبداله بآخر دون تجدّد في الخارج ، فيكون الأمر من قبيل تجدّد الدلالة على المعنى ، وتعطّل تجدّد الإحالة على الخارج))[١٨]. وقد حاول صُبحي الفقيّ أنْ يضع تعريفاً للتكرار ((يضمن وظيفته النصّيّة بالقول إنّ التكرار هو إعادة ذكر لفظ ، أو عبارة ، أو جملة ، أو فقرة ، وذلك باللفظ نفسه ، أو بالترادف ؛ وذلك لتحقيق أغراض كثيرة أهمّها تحقيق التماسك النصّيّ بين عناصر النصّ المُتباعدة))[١٩]. وهذا التعريف لم يُقدّم جديداً على ما جاء به القدماء ، أو علماء النصّ المُحدثون . ورأى روبرت دي بوجراند أنّ التكرار يُحقّق التماسك عندما ((تتطلّب إعادة اللفظ وحدة الإحالة بحسب مبدأي الثبات والاقتصاد))[٢٠] ، ثمّ استدرك قائلاً : ((ولكنّها قد تؤدّي إلى تضارب في

---

[١] كتاب العين : ٥ / ١٩١ . وينظر : لسان العرب : ٤ / ٤٢٨٤ . (وسق) .
[٢] معجم مقاييس اللغة : ٢ / ٦٣١ .(وسق)
[٣] مفردات ألفاظ القرآن : ٨٧١ (وسق) .
[٤] ينظر : لسانيات النصّ : ١١ .
[٥] ينظر : كتاب العين : ٥ / ٢٧٧ ، وتاج اللغة وصحاح العربيّة : ٢ / ٤٩٩ ،ومعجم مقاييس اللغة : ٢ / ٤١٩ ، وأساس البلاغة : ٥٤٢ ، ولسان العرب : ٤ / ٣٤٦٣ ، والقاموس المحيط : ٤٣٦ .(كرّ) .
[٦] مفردات ألفاظ القرآن : ٧٠٥ . (كرّ) .
[٧] التعريفات : ٥٢ .
[٨] البرهان في علوم القرآن : ٣ / ١٠ .
[٩] ينظر : الكُلّيّات : ٢٤٧ – ٢٤٨ .
[١٠] ينظر : كشّاف اصطلاحات الفنون : ٤ / ١١ .
[١١] كشّاف اصطلاحات الفنون : ٤ / ١١ .
[١٢] سورة المُرسلات : ١٥ . حيث كُرّرتْ الآية عشر مرّات في السورة الكريمة .
[١٣] كشّاف اصطلاحات الفنون : ٤ / ١١ – ١٢ .
[١٤] ينظر : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده : ٢ / ٩٢ .
[١٥] ينظر : أسرار التكرار في القرآن .
[١٦] لسانيّات النصّ : ٢٣٧ .
[١٧] لسانيّات النصّ : ٢٣٧ . وينظر : إشكالات النصّ : ٣٦٠ .
[١٨] أصول تحليل الخطاب : ٢ / ١١٠٨ . وينظر : أدعية الصحيفة السجّادية : ٨٨ .
[١٩] علم اللغة النصّيّ بين النظريّة والتطبيق : ٢ / ٢٠ .
[٢٠] النصّ والخطاب والإجراء : ٣٠٣ . وينظر : إشكالات النصّ : ٣٦٢ .

حين يتكرّر المُشترك اللفظيّ مع اختلاف المدلولات))[1] . وقد أشار أيضاً إلى أنّ إعادة اللفظ يمكن حصوله مع انتقال الوظيفة النحويّة لعبارة ما ، ولكنّ الإحالة بين الاثنين تبقى واضحة ، كأنْ ينتقل من الصفة إلى الاسم ، أو غيرها ، فيتخلّص من الرتابة التي يؤدّي إليها التكرار ، فضلاً عن أنّ إعادة اللفظ يُساعد مُنتج النصّ على خلق صورٍ لغويّة جديدة تُسهّل فهم العنصر المُكرّر [2]. وسيظهر البحث صحّة كلام دي بوجراند في الانتقال بالوظيفة النحويّة في الألفاظ المُكرّرة ، وإثرها في تماسك النصّ . ولم تُشر الدراسات النصّيّة الحديثة إلى أقسام التكرار ، ولكنّها حدّدت العلاقة بين العنصرين (المُكرَّر والمُكرِّر) ، من حيث التطابق ، أو الترادف ، أو الكلمة العامّة ، أو الاسم العامّ . أمّا التقسيمات التي وضعتها للحذف والاستبدال (اسم – فعل – قول) ، فلم تأخذ به في التكرار ، يُلحظ أنّ التكرار لا يكون دائماً اسميّاً ، فقد يكون حرفاً ، أو اسماً ، أو فعلاً ، أو تركيباً ، أو جملةً . وقد تنبّه القدماء إلى هذا التقسيم .فمن أمثلة التكرار الحرفيّ في السور المدنيّة ، قوله تعالى : **﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾**[3]. فقد كرّر حرف الجرّ (اللام) في البدل(لمَنْ) ، بعد أنْ ذكره في المُبدَل منه (لكم) ، والغرض من هذا التكرار للحرف ؛ ((لتأكيد أنّ الإيمان يستلزم ذلك))[4]. ومن أمثلة التكرار بالاسم ، قوله تعالى : **﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾** [5]. فقد كُرّرت كلمة (ويل) ثلاث مرّات في الآية الكريمة ، وهذان الويلان تشقيق لكلمة (ويل) الأولى ، إذ الويل في قوله (فويل لهم ممّا كسبت أيديهم) ؛ لأجل التحريف الذي وضعوه ، و(ويل) في قوله (وويل لهم ممّا يكسبون) ؛ لأجل الكسب من ذلك الوضع [6]. ورأى الفيروز آبادي أنّ (ويل) في قوله (فويل لهم ممّا كتبت أيديهم) ((لتبديل نعت النبيّ ρ ، وويل على المعاصي [أي في قوله] (وويل لهم ممّا يكسبون) أي من الذنوب))[7]. ومن ذلك قوله تعالى : **﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾**[8]. فقد تكرّر اسم (الكتاب) ثلاث مرّات ، ورأى الراغب أنّ ((الكتاب الأول : ما كتبوه بأيديهم المذكور في قوله : **﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ﴾**[9]. والكتاب الثاني : التوراة ، والثالث : لجنس كتب الله ، أي : ما هو من شيء من كتب الله - سبحانه وتعالى – وكلامه))[10]. ولعلّ بين الثاني والثالث نوع من التكرار ، فهو من باب التكرار بالاسم العامّ ، فالتوراة داخلة في جنس كتب الله تعالى . ورأى الفيروز آبادي أنّ الكتاب في المواضع الثلاثة التوراة[11]. ومن التكرار الاسميّ بشبه المُرادف ، قوله تعالى : **﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾** [12]. فالتكرار بشبه المُرادف بين (ربّكم) ، و (الله) ، وهذا التكرار قد جاء معكوساً ، فلفظ الجلالة أعمّ من كلمة (ربّ) ، وكأنّه من تكرار الخاصّ بالعامّ – وقد سبق أنْ ذُكر أنّ هذا النوع يمكن أنْ يكون استبدالاً بالوصف المناسب لسياق الكلام – ، وهذا ما ذهب إليه الآلوسيّ ، إذ قال : ((ووضع الاسم الجليل موضع الضمير للإشارة إلى جميع صفات الكمال ترقيّاً بعد صفة الربوبيّة ، فكأنّه قيل : اتقوه لربوبيّته ، وخلقه إياكم خلقاً بديعاً ، ولكونه مستحقاً لصفات الكمال كلّها))[13] . ويُلحظ في هذه الآية أمران : الأوّل : أنّه استعمل مع خطاب الناس ؛ لأنّه كان في مقام الترغيب لهم، فكونه الربّ يتطلّب منهم شكره والاعتراف بفضله . أمّا استعمال لفظ الجلالة ؛ فلأنّ المقام مقام تشريع ، فكان لفظ الجلالة أنسب للترهيب [14]. والآخر : هو أنّ في الآية تكراراً بالفعل (اتقوا) ، ولعلّ السياق يوضّح أنّ الفعل الأوّل ، أمر التقوى فيه يُفيد العموم ، وأنّ الفعل الثاني – وهو في سياق التشريع كما تقدّم – أمر التقوى للمسلمين دون غيرهم [15]. ومن التكرار بالاسم العامّ ، قوله تعالى : **﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾**[16]. فقد كرّر (القتال) بالاسم العامّ (الأمر) ، قال بعض المفسّرين : ((والتعريف في (الأمر) تعريف العهد ، أو اللام عن المضاف إليه ، أي أمر القتال المتقدّم آنفاً في قوله (وذكر فيها القتال)))[17] . ومن التكرار بالاسم العامّ قوله تعالى : **﴿ ... ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلا إِلا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ... ﴾**[18]. فقد كرّر بالاسم العام

---

(1) نفسه : ٣٠٣ .
(2) النص والخطاب والإجراء : ٣٠٥ – ٣٠٦ . أطلق سعد مصلوح على هذا النوع من التكرار اسم (التكرار الجزئيّ) ، ينظر : نحو أجروميّة للنصّ الشعريّ ، دراسة في قصيدة جاهليّة : ١٥٨ .
(3) سورة الممتحنة : ٦ .
(4) تفسير التحرير والتنوير : ٢٨ / ١٣٣ .
(5) سورة البقرة : ٧٩ .
(6) ينظر : البحر المحيط : ١ / ٤٤٨ ، تفسير التحرير والتنوير : ١ / ٥٥٩ .
(7) بصائر ذوي التمييز : ٥ / ٢٩٠ .
(8) سورة آل عمران : ٧٨ .
(9) سورة البقرة: ٧٩ .
(10) مفردات ألفاظ القرآن : ٧٠١ (كتب) .
(11) بصائر ذوي التمييز : ٣٣١/٤ .
(12) سورة النساء : ١ .
(13) روح المعاني : ٥٣٥/٤ .
(14) ينظر : البحر المحيط : ٩٦/٣ .
(15) ينظر : تفسير التحرير والتنوير : ٤ / ١٠ – ١١ .
(16) سورة محمد : ٢٠ – ٢١ .
(17) تفسير التحرير والتنوير: ٩٣/٢٦ .
(18) سورة التوبة : ١٢٠ . ومثله في سورة التحريم : ١١ .

(عَمَلٌ) الأعمال المتقدّمة ، قال أبو حيّان : ((كُتب لهم بذلك عملٌ صالح ، أي : بإصابة الظمأ ، والنصب ، والمخمصة ، والوطء ، والنَيل))[١] .

التكرار الفعليّ : ومن التكرار الفعليّ ، قوله تعالى : **﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾** [٢]. فقد كُرِّر الفعل (اصطفاك) في الآية الكريمة ((على سبيل التوكيد ، والمبالغة))[٣] ، أو على سبيل البيان فـ ((لمّا أطلق الاصطفاء الأول بيّن بالثاني أنّها مصطفاة على النساء دون الرجال))[٤] ، ورأى الزمخشريّ أنّ معنى الأول غير الثاني ، إذ إنّ الأوّل ((حين تقبّلك من أمّك وربّاك واختصّك بالكرامة ... (واصطفاك) آخراً (على نساء العالمين) بأن وهب لك عيسى من غير أب ، ولم يكن ذلك لأحد من النساء))[٥] . ويبدو أنّ معنى الاصطفاء الثاني – الذي ذهب إليه الزمخشريّ – غير دقيق ، إذ إنّها لم تكن ولدت عيسى A بعدُ ؛ بدليل البشارة به فيما يأتي من الآيات ، وقد فسّره الشيخ الطوسيّ ((بالاختيار لولادة نبيّه عيسى A))[٦] . ومن التكرار الفعليّ بشبه المُرادف ، قوله تعالى : **﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾**[٧]. فقد كرّر الفعل (فاعفوا) بفعل شبه مُرادف له ، هو (واصفحوا) ، وإنْ كان الطبرسيّ يرى أنّ ((الصفح ، والعفو ، والتجاوز عن الذنب بمعنًى))[٨] ، ويبدو أنّ هنالك فارقاً دلاليّاً بين العفو والصفح ، فالعفو ((ترك العقوبة))[٩] ، في حين أنّ الصفح ((ترك التثريب ، وهو أبلغ من العفو ... وقد يعفو الإنسان ولا يصفح))[١٠] . ولم يكتفِ بذكر(اصفحوا) ؛ ((لقصد التدريج في أمرهم بما قد يُخالف ما تميل إليه أنفسهم من الانتقام تلطّفاً من الله مع المسلمين في حملهم على مكارم الأخلاق))[١١]، وقد زاد الآلوسيّ المعنى جمالاً حين ذكر أنّه – تبارك وتعالى – قال : اعفوا ، ولم يقل : اصبروا ؛ ((إيذاناً بتمكين المؤمنين ترهيباً للكافرين))[١٢]. ومن ذلك قوله تعالى : **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾**[١٣] . فقد كرّر الفعل (أطيعوا) مع (الرسول) ، ولم يُكرّره مع (أولي الأمر) ؛ لينبّه على أنّ ((طاعة الرسول أيضاً هي طاعة الله ؛ لأنّه تعالى أمربطاعة رسوله))[١٤]. فأمر الرسول امتداد لأمر الله – سبحانه وتعالى - ، كلّ أمر لأولي الأمر كذلك .

التكرار التركيبيّ : من ذلك قوله تعالى : **﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾** [١٥]. فقد كرّر عبارة (الذين ظلموا) ، وسببه أنّ ((في تكرير (الذين ظلموا) زيادة في تقبيح ، وإيذان بأنّ إنزال الرجز عليهم لظلمهم))[١٦]، أو ((لئلا يتوهم أنّ الرجز عمّ جميع بني إسرائيل))[١٧]. ومنه أيضاً، قوله تعالى : **﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾**[١٨]. فقد كرّر النداء (يا أهل الكتاب) ؛ وذلك ((لقصد التوبيخ وتسجيل باطلهم عليهم))[١٩]، فوصفهم بأهل الكتاب يُوجب عليهم ، ويلزمهم الإيمان بآيات الله ، وإظهار الحقّ ، وعدم لبسه بالباطل .

التكرار بالجملة : من التكرار الوارد في النصّ الكريم قوله تعالى : **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ... فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ... ﴾** [٢٠] . فقد كُرِّرتْ جملة الشرط وجوابه (مَنْ كان منكم مريضاً أو على سفر فعدّة من أيّام أخر) ، مع حذف شبه الجملة (منكم) لتقدّمها في جملة الشرط الثانيّة ، وكان المُسوّغ لهذا التكرار ؛ دفع توهّم قد ينتج من إيجاب الصوم ورفع الرخصة في قوله (فمَنْ شهد منكم الشهر فليصمه) ، فأعيد الشرط وجوابه ؛ كي يكون ((مخصصاً له ؛ لأنّ المسافر ، والمريض ممّن شهد الشهر ، ولعلّ تكريره لذلك ، أو لئلاّ يتوهم نسخه))[٢١] . ومن أوضح الأمثلة على تكرار الجملة في النصّ القرآنيّ ، التكرار الواقع في سورة (الرحمن) ، وذلك في قوله : **﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾** ، فقد كُرِّرتْ إحدى وثلاثين مرّةً في السورة ؛ ((وذلك أنّه عدّد نعماءه ، وأنكرْ عباده آلاءه ،

---

[١] البحر المحيط : ٥/٥٢٤ .
[٢] سورة آل عمران : ٤٢ .
[٣] البحر المحيط : ١٤٦/٣ . وينظر : البرهان في علوم القرآن : ١١/٣ ، وروح المعاني : ٢٠٥/٣ .
[٤] البحر المحيط : ١٤٦/٣ .
[٥] تفسير الكشّاف : ١ / ٣٥٥ . وينظر : أنوار التنزيل وأسرار التأويل : ٣٨/٢ .
[٦] التبيان في تفسير القرآن : ٤٥٠/٢ .
[٧] سورة البقرة : ١٠٩ .
[٨] مجمع البيان : ٤٦٤/١ .
[٩] مفردات ألفاظ القرآن : ٥٧٤ (عفا) .
[١٠] نفسه : ٤٨٦ (صفح) .
[١١] تفسير التحرير والتنوير : ١ / ٦٥٢ – ٦٥٣ .
[١٢] روح المعاني : ٤٨٦/١ .
[١٣] سورة النساء : ٥٩ .
[١٤] التبيان في تفسير القرآن : ٢٢٦/٣ .
[١٥] سورة البقرة : ٥٩ .
[١٦] تفسير الكشّاف : ١٤٦/١ . وينظر : إرشاد العقل السليم : ١٠٥/١ ، وروح المعاني : ٣٦٢/١ .
[١٧] تفسير التحرير والتنوير : ١ / ٤٩٩ .
[١٨] سورة آل عمران : ٧٠ – ٧١ .
[١٩] تفسير التحرير والتنوير : ٣ / ١٢٦ .
[٢٠] سورة البقرة : ١٨٣ – ١٨٥ .
[٢١] أنوار التنزيل وأسرار التأويل : ٤٦٦/١ . وينظر : تفسير التحرير والتنوير : ٢ / ١٧٢ .

ونبّههم على قدْرها ، وقُدرته عليها ، ولُطفه فيها ، وجعلها فاصلة بين كلّ نعمة ليعرف موضع ما أسداه إليهم منها))[1] . ومن تكرار الجملة ، قوله تعالى : **﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾** [2]. وقد وجّه الكرمانيّ هذا التكرار بأنّه لمّا أتى على ذكر الخصمين في قوله تعالى : **﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴾** [3] ، ((لم يكن بدٌّ من ذكر الخصم الآخر))[4] . وهناك نوع من التكرار يحصل مع الانتقال بالوظيفة النحويّة – أشار إليه روبرت دي بوجراند بحسب ما تقدّم - ، وقد وجد البحث هذا النوع من التكرار في السور المدنيّة من النصّ الكريم ، من ذلك قوله تعالى : **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ...أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ... ﴾**[5]. فقد كرّر الفعل (خرج) بصيغة الفعل المُتعدّي بالهمزة (أخرج) . ويبدو أنّ استعمال الصيغتين المختلفتين للفعل للدلالة على اختلاف النظر إلى الحدث نفسه ، ففي قوله - وهو بصيغة الغائب - (خرجوا من ديارهم وهم ألوف) تقريع لهم وتبكيت من الله – عزّ وجلّ – وخاصّةً إذا أضيف إلى ذلك وصف حالهم بكثرة العدد (وهم ألوف) ، واستعمل في الفعل الثاني في قوله –بصيغة المُتكلّم –(أخرجنا) همزة التعدية الدالّة على أنّ إخراجهم كان قهراً بالقوّة . ومنه قوله تعالى : **﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾** [6]. فقد كرّر الفعل (يخرجوا) بالاسم (بخارجين) ، وجاء التكرار بصيغة الاسم للدلالة على أنّهم خالدون في النار ، فكان التكرار للفعل (المُتضمّن تجدّد المحاولة) بالصيغة الاسمية (المُتضمّنة الدوام والثبوت) ؛ لقطع أملهم في النجاة من النار. ومنه قوله تعالى : **﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾**[7] . فقد كرّر الفعل مرّتين ، مرّة بهمزة التعدية للدلالة على أنّ ضلالهم قد نقلوه إلى غيرهم ، وأعاد الفعل بلفظه للدلالة على تجدّد ضلالهم عن دعوة النبيّ ٦ ، وذلك حين كذّبوه وبغوا عليه[8]. ومنه قوله تعالى : **﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ ...﴾**[9] . فقد أعاد الفعل (يستفتونك) بصيغة الفعل (يفتيكم) وكان هذا التكرار رابطاً للكلام ، مع اختلاف المعنى في الفعلين ، إذ عبّرتْ صيغة الفعل الأوّل عن طلب الفتوى ، وعبّر الفعل الثاني عن جواب طلبهم . ومثله قوله تعالى : **﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ ... ﴾** [10]. إذ كرّر الفعل (فسالتْ) باستعمال الاسم (السيل) ، ويبدو أنّ هذا الانتقال من الفعل إلى الاسم ؛ للدلالة على أنّ الحدوث الذي حصل بالفعل (سالتْ) ، قد تحوّل إلى حالة من الثبوت والكثرة بدليل قوله (بقدرها) ، فاستعمل المصدر المأخوذ من لفظ الفعل ، والذي يناسب حالة التحوّل في كميّة الماء . ومنه قوله تعالى : **﴿ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً ﴾** [11] . فقد كرّر الفعل (عاهدوا) بالاسم (عهد) ، والظاهر أنّ سبب ذلك يوضّحه السياق ، فقد استعمل الفعل بصيغة المضيّ ، وأكد هذا المضيّ بـ (كانوا) المتقدّمة على الفعل ، وبالظرف (من قبلُ) بعده ، فلمّا تمّ حدوث الفعل ، اصبح العهد أمراً ثابتاً ، لا يتغيّر مع الزمن ، فاستعمل لذلك صيغة المصدر المأخوذ من لفظ الفعل لربط الكلام (عهد) . ومنه أيضاً قوله تعالى : **﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لا تُمَتَّعُونَ إِلا قَلِيلا ﴾** [12]. فقد استعمل الاسم (الفرار) في الكلام الدالّ على جواب الشرط المحذوف ، وربط به فعل الشرط (فررتم) ، فكان هذا التكرار رابطاً للجملتين أوّلاً ، ويدلّ على ثبوت عدم منفعة الفرار في المُستقبَل ، إنْ تحقّق منهم الآن . ومنه كذلك قوله تعالى : **﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ... وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا ﴾** [13]. فقد كرّر الفعل بالمعلوم (يطوف) ، بعد أنْ ذكره بالمجهول(يُطاف) ، ورأى بعض العلماء أنّه قصد عندما ذكر الفعل بالبناء المجهول الاهتمام بذكر ((ما يُطاف به لا الطائفون))[14] . ويبدو أنّه يقصد أنّ الاستعمال اللغويّ يفرض الابتداء بالبناء للمعلوم ، ثم التكرار بالبناء للمجهول ، وقد خالف الاستعمال القرآنيّ ذلك ؛ لأنّه بدأ بالشيء الذي تتوق النفس إلى معرفته ، وهو نوع الثواب المُعدّ لهم ، فلمّا عرفوه جاء على ذكر مَنْ يقوم لهم بتقديمه ، فكان أشبه ما يكون بالكمالات للأساسيّات .

---

(1) الصناعتين : ١٧٤ . وينظر : البرهان في علوم القرآن : ٣/١٤ -١٥ ، وأسرار التكرار : ١٩٨ .
(2) سورة الحجّ : ١٤ ، ٢٣ .
(3) سورة الحجّ : ١٩ .
(4) أسرار التكرار : ١٤٥ .
(5) سورة البقرة : ٢٤٣ ، ٢٤٦ .
(6) سورة المائدة : ٣٧ .
(7) سورة المائدة : ٧٧ .
(8) ينظر : تفسير الكشّاف : ١ / ٦٥٢ .
(9) سورة النساء : ١٧٦ .
(10) سورة الرعد : ١٧ .
(11) سورة الأحزاب : ١٥ .
(12) سورة الأحزاب : ١٦ .
(13) سورة الإنسان : ١٥ ، ١٩ .
(14) أسرار التكرار في القرآن : ٢١٢ .

التضامّ في اللغة الاصطلاح :

التضامّ لغةً [١]**:** الضمّ : هو ضمّك الشيء إلى الشيء ، وضاممتُ فلاناً أي قمتُ معه في أمرٍ واحدٍ . والضمام : كلّ شيءٍ يُضمّ به شيء إلى شيء ، وتضامّ القوم إذا انضمّ بعضهم إلى بعض . والضمّ يدلّ على ملاءمةٍ بين شيئين . **التضامّ اصطلاحاً** : عرّف الراغب الضمّ ، بقوله : ((الجمع بين شيئين فصاعداً))[٢] . ولم أجد للتضامّ ، ولا لمُشتقاته تعريفاً عند الشريف الجرجانيّ [٣] ، ولا الكفويّ [٤] ، ولا التهانويّ [٥] . وأطلق أحمد مختار عمر مصطلح (الرصف) على التضامّ ، ونقل لـه تعريفين ، إذ عرّفه بـ ((الارتباط الاعتياديّ لكلمةٍ ما في لغة ما بكلمات أخرى معيّنة ، أو استعمال وحدتين معجميتين منفصلتين استعمالهما عادةً مرتبطتين الواحدة بالأخرى))[٦] . وعرّف بعض علماء النصّ التضامّ بأنّه ((توارد زوج من الكلمات بالفعل ، أو بالقوّة نظراً لارتباطها بحكم هذه العلاقة أو تلك))[٧] .

وقد وردتْ إشارات في الدراسات العربيّة القديمة إلى مفهوم التضامّ في اللغة ، وكانتْ أغلب هذه الإشارات في الدراسات البلاغيّة[٨] . فقد استعملتْ مصطلحات (المطابقة – المقابلة – مراعاة النظير – السلب والإيجاب – المناسبة) ، وفيها قدر كبير من التوافق مع ما جاء في الدراسات الحديثة في مبحث التضامّ ، فعرّف بعض البلاغيين المطابقة ، بقوله : ((هي أنْ تجمع في كلام واحد بين متقابلين سواء كان التقابل صريحاً ، أم غير صريح ، وسواء كان التقابل بالضديّة ، أو بالسلب والإيجاب ، أو بغيرهما ، وسواء كان المتضادّان : اسمين ، أو فعلين ، أو حرفين ، أو مختلفين))[٩] . ومن الأمثلة التي استشهد بها ، قوله تعالى : **﴿... فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلا...﴾**[١٠]. ومن الأمثلة التي اتخذها أحد البلاغيين[١١] على المطابقة بالحروف ، قوله تعالى : **﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ...﴾**[١٢].ومن تعريفهم للمقابلة ، قول السكاكيّ [ت ٦٢٦هـ] : ((هي أنْ تجمع بين شيئين متوافقين أو أكثر ، وبين ضدّيهما))[١٣]. أمّا مراعاة النظير[١٤]، أو كما سمّاه بعضهم (المناسبة)[١٥] ، فقد عُرّف بـ ((أنْ يجمع في الكلام بين أمر ، وما يناسبه لا بالتضادّ))[١٦] . واختلف علماء النصّ المحدثون[١٧] في تقسيمهم لعلاقات التضامّ بين الكلمات ، فكانتْ تقسيماتهم متعددة ، ومتداخلة ، وأهمّ العلاقات التي وضعوها ، هي :

١- علاقة التضادّ بجميع درجاته : الحادّ : مثل (ذكر – أنثى) ، المُتدرّج ، مثل (حار – بارد) ، العكسيّ ، مثل (باع – اشترى) ، الاتجاهيّ ، مثل (أعلى – أسفل) .
٢- علاقة الدخول في سلسلة مُرتبة ، مثل : السبت ، الأحد ... .
٣- علاقة الكلّ – الجزء ، مثل : الجسم – اليد .
٤- علاقة الجزء – الجزء ، مثل (العين – الأذن) .
٥- علاقة الاندراج في قسم عامّ : ويعني به أنّ الكلمات المُتضامّة تجمعها كلمة عامّة تشملها جميعاً ، مثل (الطواف – الكعبة – السعي) ، تجمعها (الحجّ) .
٦- علاقة التلازم الذكريّ : وهو أنْ يجمع في الكلام بين أمرٍ وما يُناسبه .
٧- علاقة الترادف .
٨- علاقة الاختلاف : وهي أن تكون العلاقة بين الكلمتين لا على سبيل التضادّ .
٩- علاقة التدرّج التسلسليّ : وهي تقوم على ترابط الكلمات على أساس منطقيّ قائم على وجود أبعاد زمانيّة ، تدعم فكرة التعاقب بين الأحداث المتسلسلة .

وممّا يُمكن أنْ يُزاد على ما تقدّم ، أنّه قد ورد في الاستعمال القرآنيّ أنواع من هذه العلاقات ، غير ما تقدّم ، من ذلك أنّه استـُعمل في التضادّ صيغة الكلمة في حالتي الإيجاب والسلب ، فكان هذا الاستعمال من التضادّ – وقد أشار إليه علماء البلاغة القدماء – فضلاً عن استعماله بعض الأفعال في حالتي البناء (للمعلوم والمجهول) ، فوقع الضمير المُتّصل بالفعل مرّةً فاعلاً ، وأخرى نائب فاعل ، بمعنى : قام بالفعل مرّة ، ووقع عليه الفعل في الأخرى ، وهو ما يدخل في باب التضادّ .

---

[١] ينظر : كتاب العين : ٧ / ١٦ ، وتاج اللغة وصحاح العربيّة : ٤ / ١١٧٨ – ١١٧٩ ، ومعجم مقاييس اللغة : ٢ / ٤٥ ، وأساس البلاغة : ٣٨٠ ، ولسان العرب : ٣ / ٢٣٣٢ – ٢٣٣٣ ، والقاموس المحيط : ١٠٤٣ (ضمّ).

[٢] مفردات ألفاظ القرآن : ٥١٢ (ضمّ) .

[٣] ينظر : التعريفات .

[٤] ينظر : الكُلّيّات .

[٥] كشّاف اصطلاحات الفنون .

[٦] علم الدلالة : ٧٤ .

[٧] لسانيّات النصّ : ٢٥ .

[٨] ينظر مثلاً : الصناعتين : ٢٧٦ – ٢٧٧ ، العمدة : ٢ / ١٢ ، ١٩ ، ٢٣ – ٣٠ .

[٩] الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة : ٢٠٧ .

[١٠] سورة المائدة : ٤٤ .

[١١] ينظر : التبيان في المعاني والبديع والبيان : ٣٤٣ .

[١٢] سورة البقرة : ٢٨٦ .

[١٣] مفتاح العلوم : ٥٣٣ . وينظر : الإيضاح في علوم البلاغة : ٣٣٨

[١٤] ينظر : الإيضاح في علوم البلاغة : ٣٤٠ . وينظر : أدعية الصحيفة السجّادية : ٩٧ – ٩٨ ، والسبك النصّيّ في القرآن الكريم ، دراسة تطبيقيّة في سورة : ١١٠ – ١١٣ .

[١٥] ينظر : الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة : ٢١٠ .

[١٦] الإيضاح في علوم البلاغة : ٣٤٠ . وينظر : الإشارات والتنبيهات : ٢١٠ .

[١٧] ينظر : لسانيات النصّ : ٢٥ ، وعلم لغة النص النظريّة والتطبيق : ١١٠ ، نظرية علم النصّ ، رؤية منهجيّة في بناء النص النثريّ : ١١١ – ١١٦ ، إشكالات النصّ : ٣٦٦ ، السبك في القرآن الكريم : ١١٥ - ١١٦ .

فضلاً عن ذلك ، فهناك حالات أخرى ، ستـُذكر في أثناء البحث . تختلف العلاقة بين الكلمات من ناحية معناها المعجميّ ، عن العلاقة بين الكلمات في المستوى التركيبيّ ؛ وذلك لأنّ ((تميّز عمل الوحدات المعجميّة من عمل الوحدات النحويّة في تحقيق الترابط النصّيّ ، تتمثّل في أنّ كلّ وحدة معجميّة يُمكن أنْ تدخل في علاقةٍ اتّساقيّة ، لكنّها لا تحمل في ذاتها ما يدلّ على قيامها بهذا الدور ، أو عدم قيامها به ، وإنّما يكون ذلك بحسب موقعها من النصّ . وبخلاف ذلك الطرق النحويّة المُحقّقة للاتّساق ، فإنّ الأمر أكثر انتظاماً ، وأشدّ وضوحاً ، ويُمكن التكهّن مُسبقاً بدورها الرابطيّ ... وبالتالي [1] فلئن كان من الصحيح أنْ يُقال : إنّ اتّساق النصّ يحتاج إلى الروابط النحويّة لقيامه عليها ، فإنّه ليس أقلّ صحةٍ أنْ تقول : إنّ الوحدات المعجميّة في حاجة إلى النصّ ؛ ليتحدّد معناها السياقيّ النصّيّ فيه))[2] . إنّ محاولة إيجاد علاقة بين كلمات مُتضامّة في تركيب معيّن ، ليس أمراً هيّناً ، إذ قد تتضامّ أزواج من الكلمات ، أو أكثر في علاقةٍ تركيبيّة ، وتجد صعوبةً في تحديد العلاقة الرابطة بينهما ، أو أنْ تتنازعهما أكثر من علاقة تضامّيّة ، ولا يُمكن البتّ في الراجح من العلاقتين ، ((وهذا يعني أنّنا لا نتوفر على مقياسٍ آليّ صارم يجعلنا نعتبر[3]هذه الكلمة أقرب إلى هذه المجموعة ، أو تلك ، ومن ثـَمّ فكلّ ما نستطيع نستطيع قوله هو أنّ هذه الكلمة أشدّ ارتباطاً بهذه المجموعة من ارتباطها بمجموعةٍ أخرى))[4] . ولعلّ من المناسب أن يُذكر أنّه قد كثرتْ علاقة التضادّ في السور المدنيّة أكثر من غيرها من العلاقات ، ويبدو أنّ سبب ذلك هو الواقع الذي عاشه المسلمون ، وقد اختلفتْ عليهم الأطراف المعادية لهم ، إذ إنّ العداء في العهد المكيّ كان مع المشركين من أهل مكة فقط . أمّا في العهد المدنيّ ، فقد زاد على مشركي مكة ، أهل الكتاب ، والمنافقون من أهل المدينة ، فضلاً عن القبائل العربيّة التي كانتْ تتخوّف من الإسلام ، فتحالفتْ مع الأطراف المعادية له . وهذا جدول بأبرز العلاقات التضامّيّة الموجودة في السور المدنيّة :

علاقة التضادّ : ومن مظاهر التضاد في السور المدنيّة ، ما يأتي :

السلب والإيجاب : لا يؤاخذكم – يؤاخذكم (البقرة / ٢٢٥ ، المائدة / ٨٩) ، يؤدّه – لا يؤدّه (آل عمران / ٧٥) ، آمّنا – لم تؤمن (المائدة / ٤١) ، تحبّونهم – لا يحبّونكم (آل عمران / ١٩٩) ، يستحيي – لا يستحيي (الأحزاب / ٥٣)، لم يخرجوكم – أخرجوكم (الممتحنة / ٨-٩) ، يخادعون – ما يخدعون (البقرة / ٩٠) ، فلا تخشوهم – اخشون (المائدة / ٣ ، ٤٤) ، يخشونه – لا يخشون (الأحزاب / ٣٩) يستخفون – لا يستخفون (النساء / ١٠٨)،شرب منه – لم يطعمه (البقرة/٢٤٩) ، ما ظننتم – ظنّوا (الحشر / ٢) ، لا تعلمونهم – يعلمهم (الأنفال / ٦٠) ، تعاونوا – لا تعاونوا (المائدة / ٢) ، لا يغفر – يغفر (النساء / ٤٨ ، ١١٦) ، أستغفرت – لم تستغفر (المنافقون / ٦) ، لم يقاتلوكم – قاتلوكم (الممتحنة / ٨ -٩) ، قصصناهم – لم نقصصهم (النساء / ١٦٤) ، لا تكون – يكون (البقرة / ١٩٣) ، يمنون – لا تمنّوا (الحجرات / ١٧)، تمنَّوا – لن يتمنّوه (البقرة/٩٤-٩٥) ، لا تتناجوا – تناجوا (المجادلة / ٩) ، أنذرتهم – لم تنذرهم (البقرة/ ٦) ، لا تنفقوا – انفقوا (المنافقون / ٧ – ١٠) ، لا ينقضون – ينقضون (الرعد/ ٢٠ – ٢٥) ، لا ينهاكم – ينهاكم (الممتحنة / ٨ – ٩) . تحسبوه من الكتاب – ما هو من الكتاب (آل عمران/٧٨) ، هو ما الكتاب – ما هو من الكتاب (آل عمران/٧٨) .

التضادّ بالبناء للمعلوم والمجهول : تظلمون – تُظلمون (البقرة / ٢٧٩) .

التضادّ العامّ : فارض – بكر (البقرة /٦٨) ، الأبيض – الأسود(البقرة / ١٨٧)، تبيضّ – تسودّ (آل عمران/١٠٦)، ابيّضت – اسودّتْ (آل عمران/١٠٧) ، أثم – منافع(البقرة /٢١٩)، الموسع – المقتر (البقرة /٢٣٦) ، يقبض – يبسط (البقرة / ٢٤٥) ، يبسط – يقدر (الرعد/ ٢٦) ، قليلة ، قلّ – كثيرة ، كثر (البقرة / ٢٤٩ ؛ النساء/٧) ، للفقراء – أغنياء (البقرة / ٢٧٣) ، الغنيّ – الفقراء (البقرة / ٢٧٣، آل عمران / ١٨١ ، النساء/ ١٣٥ ، النور / ٣٢ ، محمّد / ٣٨) ، أعداء –أخواناً (آل عمران / ١٠٣) ، المهد – كهلاً (آل عمران/ ٤٦، المائدة / ١١٠) أوّلنا – آخرنا (المائدة /١١٤) ، الأوّل – الآخر (الحديد /٣) ، العدوة الدنيا – العدوة القصوى (الأنفال/ ٤٢) ، خفافاً – ثقالاً (التوبة/٤١) ، أدنى – أكثر (المجادلة/ ٧) ، صغيراً – كبيراً (البقرة/ ٢٨٢) ، من فوقهم – من تحت أرجلهم (المائدة/٦٦) ، السفلى – العليا (التوبة/٤٠) ، ما بين أيديهم – ما خلفهم (البقرة/٦٦ ، ٢٥٥ ؛ الرعد/١١ ؛ الحجّ / ٧٦) ، يستعجلونك – أمليت (الحجّ/٤٧-٤٨) ، فوقكم – أسفل منكم (الأحزاب/١٠) ، تقدّم – تأخر(الفتح/٢) ، يلج – يخرج (الحديد/٤) ، ينزل- يعرج (الحديد/٤) ، من قبل – من بعد (الحديد/١٠) ، اشتراه – شروا به أنفسهم (البقرة/١٠٢) ، يمحق – يربي (البقرة/ ٢٧٦) ، دخلوا – خرجوا (المائدة /٦١) ، مغلولة – مبسوطتان (المائدة/٦٤) ، أوقدوا – أطفأها (المائدة/٦٤) ، يحقّ الحقّ – يبطل الباطل (الأنفال/٨) ، الخبيث- الطيّب (النساء/٢ ؛ المائدة/١٠٠ ؛ الأنفال/٣٧) ، ضاقتْ – رحبتْ (التوبة/٢٥، ١١٨) ، الذين صدقوا – الكاذبين (التوبة/٤٣؛ النور/ ٦-٨،٧-٩) ، فليضحكوا قليلاً – فليبكوا كثيراً (التوبة/٨٢) ،السيئة – الحسنة (آل عمران/١٢٠ ؛النساء/٧٩؛ الرعد/٢٢،٦) ، تغيض – تزداد(الرعد/٨) ، أسرّ - جهر (الرعد/١٠) ، سرّاً – علانيّةً (البقرة/٧٧ ،٢٧٤ ؛الرعد/٢٢ ؛ التغابن/٤) ، مستخفٍ بالليل – سارب بالنهار(الرعد/١٠) ، طوعاً - كرهاً (آل عمران/٨٣؛ التوبة/ ٥٣ ؛الرعد/١٥) ، نفع - ضرّ (البقرة/١٠٢ ؛المائدة/٧٦؛ الرعد/١٦ ؛ الحجّ/١٢ ،١٣ ؛الفتح/١١) ، الأعمى – البصير (الرعد/١٦) ، يمحو – يثبت (الرعد/٣٩) ، شرّ – خير (آل عمران/١٨٠ ؛ النور/١١ ؛ البيّنة/ ٧،٨) ، تبدون – تكتمون (البقرة/٣٣ ؛ آل عمران/٢٩ ؛ المائدة/٩٩ ؛ النور/٢٩) ،تبدوا - تخفوه(البقرة/٢٧١ ،٢٨٤ ؛آل عمران/١١٨ ؛النساء/١٤٩ ؛الأحزاب/٣٧ ،٥٤) ،بكرة- أصيلا (الأحزاب/٤٢ ؛الفتح/٩ ؛الإنسان/٢٥) ،أشدّاء على الكفّار- رحماء بينهم (الفتح/٢٩) ،اقتتلوا- أصلحوا (الحجرات/٩) ، قوم من قوم – نساء من نساء(الحجرات/١١) ، رفعها –

---

(١) كذا ، والصحيح : ومن ثمّ .

(٢) أصول تحليل الخطاب : ١ / ١٤٢ – ١٤٣ .

(٣) كذا ، والصحيح : نعدّ .

(٤) لسانيّات النصّ : ٢٥ .

وضـع(الرحمن/٧) ، الظـاهر – الباطن(الحديـد/١٣ ،٥٧) ، جميعـاً – شتّى(النور/٦١ ؛ الحشـر/١٤) ، ثُبـات – جميعـاً (النسـاء/٧١) ، أصـحاب النـار – أصـحاب الجنّـة(البقرة/٨١-٨٢ ؛ الحشـر/٢٠) ، أخفيتم- أعلنتم(الممتحنـة/١) ، الغيـب – الشهادة(التوبة/٩٤ ،١٠٥ ؛الرعد/٩ ؛ الحشر/٢٢ ؛الجمعة/٨ ؛ التغابن/١٨) ، ثيّبات – أبكاراً (التحريم/٥) ، أمسكوهنّ – فارقوهنّ (الطلاق/٢) ، إمساك – تسريح (البقرة/ ٢٢٩) ، عُسراً – يُسراً (البقرة/١٨٥ ،٢٨٠ ؛الطلاق/٧) ، تكرهوا – تحبّوا (البقرة/٢١٦) ، الرشد – الغيّ (البقرة/٢٥٦) ، محكمات – متشابهات (آل عمران/٧) ، تؤتي – تنزع(آل عمران/٢٦) ، تُعزّ – تُذلّ (آل عمـران/٢٦ ؛ المائـدة/٥٤ ؛ المنـافقون/٨) ، خيـر – سـوء(آل عمـران/٣٠ ؛ النسـاء/١٤٩) ، سـوء – رحمـة(الأحزاب/١٧) ، أحـلّ – حُرّم(البقـرة/٢٧٥ ؛آل عمـران/٥٠ ،٩٣ ؛النسـاء/١٦٠ ؛المائـدة/٨٧ ،٩٦ ؛التوبـة/٣٧ ؛التحريم/١) ، رضوان من الله – سخط من الله (آل عمران/١٦٢ ؛التوبة/٥٨) ، شقاق – إصلاحاً(النساء/٣٥) ، القاعدون – المجاهدون(النساء/٩٥) ، الظنّ – يقيناً (النساء/١٥٧) ، يبيّن – تخفون (المائدة/١٥) ، نُعذّب – نغفر (البقرة/١٧٥ ،٢٨٤ ؛آل عمـران/١٢٩ ؛المائـدة/١٨ ،٤٠ ؛الأنفـال/٣٣ ؛الفـتح/١٤ ؛الحديـد/٢٠) ، نُعـذّب – نعفو(التوبـة/٦٦) ،العـذاب – الرحمة(الحديـد/١٣ ؛الإنسـان/٣١) ، الحـقّ – الباطـل (البقـرة/٤٢ ؛آل عمـران/٧١ ؛الرعـد/١٧ ؛الحـجّ/٦٢) ، الليـل – النهـار(البقرة/١٦٤ ،٢٧٤ ؛آل عمـران/٢٧ ،١٩٠ ؛الرعـد/٣ ،١٠ ؛الحـجّ/٦١ ؛النـور/٤٤ ؛الحديـد/٦) ، تفسـدوا – مصلحون(البقرة/١١) ،المفسد – المصلح (البقرة/٢٢٠) ، ذكر – أنثى (آل عمران/٣٦ ، ١٩٥ ؛ النساء/١١ ،١٢٤ ،١٧٦ ؛الحجـرات/١٣) ، خـوف – طمـع (الرعـد/١٢) ، ضـلّ – هـدى (البقرة/١٦ ،٢٦ ،١٧٥ ؛ النسـاء/٨٨ ؛ المائـدة/١٠٥ ؛ التوبـة/١١٥ ، الرعـد/٢٧ ،٣٣ ؛ الحجّ/٤) ، صـالحاً – سيّئاً (التوبـة/١٠٢) ، الـدنيا – الآخرة (البقرة / ٨٦ ،١١٤ ،١٣٠ ،٢٠٠ ،٢٠١ ،٢١٧ ،٢٢٠ ؛ آل عمـران/٢٢ ،٤٥ ،٥٦ ،١٤٥ ،١٤٨ ،١٥٢ ؛النسـاء/٧٤ ،٧٧ ،١٣٤ ؛المائـدة/٣٣ ،٤١ ؛الأنفـال/٦٧ ؛التوبـة/٣٨ ،٦٩ ،٧٤ ؛ الرعـد/٢٦ ،٣٤ ؛الحـجّ/١١ ،١٥ ؛ النـور/١٤ ،١٩ ،٢٣ ؛الأحـزاب/٢٨ ،٢٩ ،٥٧ ؛الحديـد/٢٠) ، حـيّ – مـات (البقـرة/ ٢٨(٢) ،٧٣ ،١٥٤ ،١٦٤ ،٢٤٣ ،٢٥٩ ،٢٦٠ ؛ آل عمـران/٢٧ ،٤٩ ،٦٩ ،١٥٦ ،١٦٩ ؛ التوبة/١١٦ ؛الحجّ/٦ ،٦٦ ؛الحديد/٢ ،١٧) ، حيّ – هلك (الأنفال/٤٢) ، أحيا – قتل (المائدة/٣٢) ، المشرق – المغرب (البقرة/١١٥ ،١٤٢ ،١٧٧ ،٢٥٨) ، المشرقين – المغربين (الرحمن/١٧) ، شرقيّة – غربيّة (النور/٣٥) ، شمساً – زمهريراً (الإنسان/١٣) ، أطفأ – نور (التوبة/٣٢ ؛الصفّ/٨) ، ظلمات – نور (البقرة/١٧ ، ٢٥٧ ؛ المائدة/١٦ ؛الرعد/١٦ ؛الأحزاب/٤٣ ؛الحديد/٩ ؛الطلاق/١١) ، عدوّ – أولياء (النساء/٤٥ ؛ الممتحنة/١) ، بعث – موت (البقرة/٢٥٩) ، تأسوا – تفرحوا (الحديد/٢٣) ، فاتكم – آتاكم، آتوا (الحديد/٢٣ ؛الممتحنة/١١) ، أخطأ – تعمّد (النساء/٩٢ ، ٩٣ ؛الأحزاب/٥) ، عباد – إماء (البقرة/٢٢١ ؛النور/٣٢) ، يصلون – يقطعون (النور/٢٠ ، ٢٥) ، يريدون – يأبى (التوبة/٣٢) ، ينكث – أوفى (الفتح /١٠) ، يصرف – يُصيب (النور/٤٣).

علاقة التلازم الذكريّ : تجارة – ربح (البقرة/١٦) ، تجارة – بيع (النور/٣٧) ، نار – ضوء (البقرة/١٧ ؛النور/٣٥) ، المـنّ – السـلوى(البقرة/٥٧) ، سـقي – شـرب(البقرة/٦٠ ؛الإنسـان/٢١) ،الذلّـة – المسـكنة(البقرة/٦١) ،نسـخ – نسـيان(البقرة/١٠٦) ،عـدل – شـفاعة(البقرة/٤٨ ،١٢٣) ،الـرزق – الثمرات(البقـرة/٢٢ ،٢٥ ، ١٢٦) ، ظلـل – الغمام(البقرة/٥٧ ،٢١٠) ،النساء – المحيض (البقرة/٢٢٢ ؛الطلاق/٤) ،الأمهات ، الوالـدات – رضـع (البقرة/٢٣٣ ؛ النساء/٢٣) ، وصيّة – موت ،وفاة (البقرة/١٣٢ ،٢٤٠ ؛المائدة/١٠٦) ، المطلّقات – متاع(البقرة/٢٤١) ، ثبّت – قدم(البقرة/٢٥٠ ؛آل عمران/١٤٧ ؛الأنفال/١١ ؛محمّد/٧) ، رفع – درجات (البقرة/٢٥٣ ؛المجادلة/١١) ، طعام – شراب (البقرة/٢٤٩ ، ٢٥٩) ،العظام – لحماً (البقرة/٢٥٩) ، نـار – حرق (البقرة/٢٦٦) ،رأي – العين (آل عمران/١٣ ؛المائدة/٨٣ ؛الأنفال/٤٤) ، سمع – الدعاء(البقرة/١٧١) ،آدم – تراب(آل عمران/٥٩) ، بكة – حجّ (آل عمران/٩٦) ، الحيّ – القيّوم (البقرة/٢٥٥ ؛ آل عمران/٢) ،الكاظمين – الغيظ (آل عمران/١٣٤) ،انقلب – عقبيه (البقرة/١٤٣ ؛ آل عمـران/١٤٤ (٢)) ، يـردّوكم – أعقـابكم (آل عمـران/١٤٩) ، نكـص – عقبيـه (الأنفـال/٤٨) ،رحمـة – لنـتَ (آل عمران/١٥٩) ، فظّاً – انفضّوا (آل عمران/١٥٩) ، النساء – صدُقاتهنّ (النساء/٤) ،أكل – بطن(البقرة/١٧٤ ؛النساء/١٠) ، حرّف – مواضع(النساء/٤٦ ؛المائدة/١٣ ،٤١) ، حكّم – شَجَرَ(النساء/٦٥) ،بروج – مشيّدة (النساء/٧٨) ،الجهر – القول (النساء/١٤٨ ؛الرعد/١٠ ؛الحجرات/٢) ،أوفى – عهد(البقرة/٤٠ ،١٧٧ ؛آل عمـران/٧٦ ؛التوبـة/١١١ ؛الرعـد/٢٠ ؛الفتح/١٠) ،أوفوا – العقود(المائدة/١) ، بهيمة – الأنعام(المائدة/١ ؛الحجّ/٢٨ ،٣٤) ،تيمّموا صعيداً (النساء/٤٣ ؛المائدة/٦) ،العـداوة – البغضـاء (المائـدة/١٤ ، ٦٤ ،٩١ ؛ الممتحنـة/٤) ، قفينـا – آثارهم(المائـدة/٤٦ ؛ الحديـد/٢٧) ،حبطـتْ – أعمالهم(البقرة/٢١٧ ؛آل عمران/٢٢ ؛المائدة/٥ ، ٥٣ ؛التوبة/١٧ ،٦٩ ؛الأحزاب/١٩ ؛محمّد/٩ ، ٢٨ ، ٣٢ ؛الحجرات/٢) ، هزواً – لعباً (المائدة/٥٧ ، ٥٨) ،مائدة – نأكل(المائدة/١١٢- ١١٣) ،الصمّ – البكم(الأنفال/٢٢) ،عموا ، أعمى – صمّوا ، أصمّهم (المائدة/٧١ (٢) ، محمّد/٢٣) ،إلاّ – ذمّة (التوبة/٨ ،١٠) ،اشتروا – ثمناً (البقرة/٤١ ،٧٩ ،١٧٤ ؛آل عمران/٧٧ ،١٨٧ ،١٩٩ ؛المائـدة/٤٤ ،١٠٦ ؛ التوبـة/٩) ،غيـظ – قلوب(التوبـة/١٥) ، أضـغان – قلوب(محمّـد/٢٩) ، مـات – قبـر (التوبـة/٨٤) ،أعين – الدمع(المائدة/٨٣ ؛التوبـة/٩٢) ، أسّس – بنيان (التوبـة/١٠٩) ، البـرق – الرعـد (البقرة/١٩ ؛ الرعد/١٢-١٣) ، أزواج – ذريّة (الرعد/٢٣ ، ٣٨) ،لحوم – دماء (البقرة/١٧٣ ؛المائدة/٣ ؛الحجّ /٣٧) ، الفلك – البحر (البقرة/١٦٤ ؛الحجّ/٦٥) ،سحاب – الوَدْق(النور/٤٣) ،سنا – برق(النور/٤٣) ،الظمآن – ماء(النور/٣٩) ،يوحي – ربّك(الأنفال/١٢ ؛الأحزاب/٢ ؛الزلزلة/٥) ، أسوة – حسنة(الأحزاب/٢١ ؛الممتحنة/ ٤ ،٦) ،الحياة الدنيا – لعب ولهو (محمّد/٣٦ ؛الحديد/٢٠) ، صراط – مستقيم(البقرة/١٤٢ ،٢١٣ ؛ آل عمران/٥١ ، ١٠١ ؛النساء /٦٨ ، ١٧٥ ؛المائدة/١٦ ؛الحجّ /٥٤ ؛النور/٤٦ ؛الفتح/٢ ، ٢٠) ، ركّع – سجّد(البقرة/١٢٥ ؛آل عمران/٤٣ ؛التوبة/١١٢ ؛الحجّ/٢٦ ،٧٧ ؛الفتح/٢٩) ،التـوراة – الإنجيـل(آل عمـران/٣ ، ٤٨ ، ٦٥ ؛ المائـدة/٦٦ ، ٦٨ ، ١١٠ ؛ التوبـة/١١١ ؛الفـتح/٢٩) ،سـميع – عليم(البقرة/١٢٧ ، ١٣٧ ، ١٨١ ، ٢٢٤ ، ٢٢٧ ، ٢٤٤ ، ٢٥٦ ؛ آل عمران/٣٤ ، ٣٥ ، ١٢١ ؛ النساء/ ١٤٨ ؛ المائدة/٧٦ ؛ الأنفـال/١٧ ،٤٢ ، ٥٣ ، ٦١ ؛ التوبـة/٩٨ ، ١٠٣ ؛ النـور/٢١ ، ٦٠ ؛ الحجـرات/١) ، الشـمس – القمر(الرعـد/٢ ؛

الحجّ/١٨ ؛ الرحمن/٥) ، آلاء – ربّكما (الرحمن/ ٣٠ مرّة) ، سميع – بصير(النساء/٥٨ ، ١٣٤ ؛ الحجّ/٦١ ، ٧٥ ؛ المجادلة/١ ؛ الإنسان/٢) ، آيات – بيّنات(البقرة/٩٩ ؛آل عمران/٩٧ ؛ الحجّ/١٦ ، ٧٢ ؛ النور/١ ؛ الحديد/٩ ؛ المجادلة/٥) ، آيات – بيّنا ، يُبيّن (البقرة/١١٨ ، ١٨٧ ،٢١٩ ،٢٢١ ،٢٤٢ ،٢٦٦ ؛ آل عمران/١٠٣ ، ١١٨ ؛ المائدة/٧٥ ، ٨٩ ، النور/١٨ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦١ ، آيات – مُبيّنات (النور ٣٤ ، ٤٦ ؛ الطلاق/١١) ، آية – بيّنة(البقرة/٢١١) ، البرّ – التقوى(البقرة/١٨٩ ، ٢٢٤ ؛ المائدة/٢ ؛ المجادلة/٩) ، عذاب – أليم (البقرة /١٠ ،١٠٤ ، ١٧٤ ،١٧٨ ؛آل عمران/٢١ ، ٧٧ ، ٩١ ،١٧٧ ، ١٨٨ ؛ النساء/ ١٨ ، ١٣٨ ، ١٦١ ،١٧٣ ؛المائدة/٣٦ ، ٧٣ ، ٩٤ ؛ الأنفال/٣٢ ؛ التوبة/٣ ، ٣٤ ، ٦١ ، ٧٩ ، ٩٠ ؛ الحجّ /٢٥ ؛ النور/١٩ ، ٦٣ ؛الأحزاب/٨ ؛الفتح/١٦ ، ١٧ ، ٢٥ ؛المجادلة/٤ ؛ الحشر/١٥ ؛ الصفّ/١٠ ؛التغابن/٥ ؛ الإنسان/٣١) ، غفور – رحيم(البقرة/١٧٣ ، ١٨٢ ، ١٩٢ ، ١٩٩ ، ٢١٨ ، ٢٢٦ ؛ آل عمران/٣١ ، ٨٩ ، ١٢٩ ؛النساء/٢٣ ، ٢٥ ، ٩٦ ،١٠٠ ، ١٠٦ ، ١١٠ ،١٢٩ ، ١٥٢ ؛ المائدة/٣ ، ٣٤ ، ٣٩ ، ٧٤ ، ٩٨ ؛ الأنفال/٦٩ ، ٧٠ ؛ التوبة/٥ ، ٢٧ ، ٩١ ، ٩٩ ، ١٠٢ ؛ النور/٥ ، ٢٢ ، ٣٣ ، ٦٢ ؛ الأحزاب/٥ ، ٢٤ ، ٥٠ ، ٥٩ ، ٧٣ ؛ الفتح/١٤ ؛ الحجرات/٥ ، ١٤ ؛ الحديد/٢٨ ؛ المجادلة/١٢ ؛ الممتحنة/٧ ، ١٢ ؛ التغابن/١٤ ؛ التحريم/١) ، أزواج –طلّق(التحريم/٥) ، سمع – قول (البقرة/٨٥ ، ١٠٤ ؛ آل عمران/١٨١ ؛ النساء/٤٦ ؛ المائدة/٧ ؛ الأنفال/٢١ ، ٣١ ؛ النور/١٦ ، ٥١ ، محمّد /١٦ ؛ المجادلة/١ ؛ المنافقون/٤) ، طلّقتم – النساء(البقرة/٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٦ ؛ الطلاق/١) ، طعام – أكل (المائدة/ ٧٥ ؛ الحجّ/٢٨، ٣٦).

علاقة الكلّ – بالجزء : تنبت الأرض (بقلها – قثّائها – فومها – عدسها – بصلها)(البقرة/٦١). لونها – صفراء (البقرة/٦٩) . بقرة (لا ذلول تثير الأرض – لا تسقي الحرث –مُسلّمة – لا شية فيها)(البقرة/٧١) . الحجّ (الصفا – المروة – الهَدي –يطّوّف – تحلقوا رؤوسكم)(البقرة/١٥٨) . الصيام(مريضاً – على سفر – فِدْية)(البقرة/١٨٣ -١٨٤) .الشهوات (النساء – البنين – القناطير المُقنطرة من الذهب والفضة – الخيل – الأنعام – الحرث)(آل عمران/١٤) . حفرة – شفا (آل عمران/١٠٣) . أولادكم (للذكر – الأنثيين)(النساء/١١) . اذكروا الله (قياماً – قعوداً – على جنوبكم) (آل عمران /١٩١ ، النساء/ ١٠٣) . اغسلوا (وجوهكم – أيديكم – المرافق) . امسحوا (رؤوسكم – أرجلكم – الكعبين).(المائدة/ ٦) . الذين يُحاربون الله ورسوله (يُقتّلوا –يُصلّبوا –تُقطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف – يُنفوا من الأرض)(المائدة/ ٣٣) . السارق والسارقة – أيديهما (المائدة / ٣٨) . الذين كفروا (الأعناق – بنان)(الأنفال /١٢) . الذين يكنزون (جباههم – جنوبهم – ظهورهم) (التوبة/ ٣٥) . جنّات (أعناب – زرع – نخيل) (الرعد / ٤) .الجنّة (أكلها –ظلّها) (الرعد / ٣٥) . الجنّة (ماء غير آسن – أنهار من لبن – أنهار من خمر - أنهار من عسل – من كلّ الثمرات) (محمّد / ١٥) . جنّتان (ذواتا أفنان – فيهما عينان – فاكهة – فرش – فيهنّ قاصرات الطرف) (الرحمن / ٤٦ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٤) . جنّتان (مُدهامّتان – فيهما عينان – فاكهة ونخل ورمّان) (الرحمن / ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٦، ٦٨) . لهم (قلوب – آذان – الأبصار – الصدور) (الحجّ / ٤٦) . بحر – موج (النور / ٤٠) . رجل (قلبين – جوفه) (الأحزاب / ٤) . النبيّين (نوح – إبراهيم – موسى – عيسى) (الأحزاب / ٧) .الأعراب (أموالنا – أهلونا - ألسنتهم – قلوبهم) (الفتح / ١١) . ميْت – لحم (الحجرات / ١٢) . المجرمون (النواصي – الأقدام) (الرحمن / ٤١) .أيديهم – أيمانهم (الحديد / ١٢) . الناس – أفواجاً (النصر / ٢) . الناس – أشتاتاً (الزلزلة / ٦) . الأرض – زلزالها (الزلزلة / ١) . الأرض – أثقالها (الزلزلة / ٢) . دَيْن (أجل – شهيد) (البقرة / ٢٨٢) . المستضعفين (الرجال – النساء – الولدان) (النساء / ٩٨) . النساء (مثْنى –ثُلاث – رُباع) (النساء / ٣) . منكم (الأبصار – القلوب – الحناجر) (الأحزاب / ١٠) . لتدخلنّ (مُحلّقين رؤوسكم – مُقصّرين) (الفتح / ٢٧) .

علاقة الجزء – الجزء : الذين آمنوا – الذين هادوا – النصارى – الصابئين (البقرة / ٦٢ ؛ المائدة / ٦٩ ؛ الحجّ / ١٧) . ديارنا – أبناءنا (البقرة / ٢٤٦) . سِنة – نوم (البقرة / ٢٥٥) . صفوان – تراب (البقرة / ٢٦٤) . أبناءنا – نساءنا – أنفسنا (آل عمران / ٦١) .ملجأ – مغارات – مُدّخلاً (التوبة / ٥٧) .ظمأ – مخمصة – نصب – ينالون من عدوّ نيلاً – يطؤون موطئاً يغيظ الكفّار – ينفقون نفقةً – يقطعون وادياً (التوبة / ١٢٠) . كفّيه – فاه (الرعد / ١٤) .الطائفين – القائمين –الركّع – السجود (الحجّ / ٢٦) . صوامع – بيع صلوات – مساجد (الحجّ / ٤٠) . الفجر – الظهيرة – العشاء (النور / ٥٨) . وجوههم – أدبارهم (النساء / ٤٧ ، الأنفال / ٥٠ ، محمّد / ٢٧) .الأعمى – الأعرج – المريض (النور / ٦١) . أيديهم – ألسنتهم – أرجلهم (النور / ٢٤ ، الممتحنة / ٢) . أرحامكم – أولادكم (الممتحنة / ٣) . أيديهنّ – أرجلهنّ (الممتحنة / ١٢) . أموالكم – أنفسكم (آل عمران / ١٨٦ ؛ النساء / ٩٥ (٢) ؛ الأنفال / ٧٢ ؛ التوبة / ٢٠ ،٤١ ، ٤٤ ، ٨١ ، ٨٨ ، ١١١ ؛ الحجرات / ١٥ ؛ الصف / ١١) . أموالكم – أولادكم (آل عمران / ١٠ ، ١١٦ ؛ الأنفال / ٢٨ ؛ التوبة / ٥٥ ، ٨٥ ؛ المجادلة / ١٧ ؛ المنافقون / ٩ ؛ التغابن / ١٥) . سلاسل – أغلالاً (الإنسان / ٤) . ألسنتكم – أفواهكم (النور / ١٥) .

علاقة الترادف : تولّيتم – معرضون (آل عمران / ٢٣ ، النساء / ٣٥ ، الأنفال / ٢٣ ، التوبة / ٧٦) . البأساء - الضرّاء (البقرة / ١٧٧ ، ٢١٤) .جنفاً – إثماً (البقرة / ١٨٢) . ألدّ – الخصام (البقرة / ٢٠٤) . الإسلام – ديناً (آل عمران / ١٩ ، ٨٥ ؛ المائدة / ٣) . تفرّقوا – اختلفوا (آل عمران / ١٠٥) . نصيب – كفل (النساء / ٨٥) . يستنكف – يستكبر (النساء / ١٧٢) . شرعة – منهاجاً (المائدة / ٤٨) . مُكاءً – تصديةً (الأنفال / ٣٥) . يكنزون – لا ينفقون (التوبة / ٣٤) . يوفون – لا ينقضون (الرعد / ٢٠) . يخشون – يخافون (الرعد / ٢١) . أعبد – لا أشرك (الرعد / ٣٦) . يعبدونني – لا يُشركون بي (النور / ٥٥) . وليّاً – نصيراً (البقرة / ١٠٧ ، ١٢٠ ؛ النساء / ٤٥ ، ٧٥ ، ٨٩ ، ١٢٣ ، ١٧٣ ؛ التوبة / ٧٤ ، ١١٦ ؛ الأحزاب / ١٧ ، ٦٥) . مولى – نصير (الأنفال / ٤٠ ، الحجّ / ٧٨) . لا ترفعوا – لا تجهروا (الحجرات / ٢) . أقيموا – لا تخسروا (الرحمن / ٩) . البيع – الربا (البقرة / ٢٧٥ (٢)) .

علاقة الاختلاف : البخل – الفضل (آل عمران / ١٨٠ ، النساء / ٣٧ ، التوبة / ٧٦) .أهواء – حُكماً (المائدة / ٤٩) . أهواء – علم (البقرة / ١٢٠ ، ١٤٥ ؛ الرعد / ٣٧ ؛ محمّد / ١٦) . أهواء – الحقّ (المائدة / ٧٧) .الإنسان ، الأنس – الجانّ ، الجنّ (الرحمن / ١٤ – ١٥ ، ٣٣ ، ٣٩ ، ٥٦ ، ٧٤) .رجالاً – على كلّ ضامر (الحجّ / ٢٧) . رجالاً – رُكباناً (البقرة / ٢٣٩) .

علاقة التدرج التسلسليّ : خلقناكم من (تراب – نطفة – علقة – مُضغة –طفلاً – لتبلغوا أشدّكم – أرذل العمر) [سورة الحجّ : ٥] . أخرج شطأه – لأزره – فاستغلظ – فاستوى [سورة الفتح:٢٩] . ننسخ – نأتِ [سورة البقرة:١٠٦] .

المبحث الخامس : الوصل في اللغة والاصطلاح :

الوصل لغةً [١] : وصلتُ الشيءَ وَصْلاً ، وصِلَةً ، ووصل إليه وصولاً ، أي بلغ ، وكلّ شيءٍ اتصل بشيءٍ فما بينهما وُصْلة ، والوصل : ضدّ الهجران ، والوصْل : وصل الثوب والخُف . والوصل ضمّ شيءٍ إلى شيءٍ حتّى يعلقه ، والوصل خلاف الفَصْل .**الوصل اصطلاحاً** : عرّف الراغب الاتصال ، بقوله : ((اتحاد الأشياء بعضها ببعض كاتحاد طرفي الدائرة ، ويُضادّ الانفصال ، ويستعمل الوصل في الأعيان ، وفي المعاني))[٢] . وعرّف الشريف الجرجانيّ الوصل بأنه ((عطف بعض الجمل على البعض))[٣] . وعرّف الكفويّ الاتصال ، بقوله : ((أنْ يكون لأجزاء شيءٍ حدٌّ مُشترك تتلاقى عنده))[٤]. ونقل التهانويّ تعريفين للوصل ، أحدهما عن القرّاء ، وهو ((عدم الفصل))[٥] ، والآخر عن أهل المعاني ، وهو ((عطف بعض الجمل على بعض ، ويُقابله الفصل)) [٦] . ورأى بعض المُحدثين أنّ الوصل ((ربط معنًى بمعنًى بأداة لغرضٍ بلاغيّ))[٧].

الوصل في الدراسات العربيّة القديمة : ارتبط موضوع الوصل والفصل في الدراسات العربيّة القديمة بموضوع العطف في النحو العربيّ ، ويُعرّف عبد القاهر الجرجانيّ [ت ٤٧١هـ] الفصل والوصل ، بقوله : ((العلم بما ينبغي أنْ يُصنع في الجمل من عطف بعضها على بعض ، أو ترك العطف فيها ، والمجيء بها منثورة تُستأنف واحدة منها بعد أخرى))[٨] . والعطف المقصود في التعريف ، هو عطف النسق ، وقد عرّفه ابن عصفور [ت ٦٦٩هـ] ، بقوله : ((هو حمل الاسم على الاسم ، أو الفعل على الفعل ، أو الجملة على الجملة بشرط توسّط حرفٍ بينهما من الحروف الموضوعة لذلك))[٩] ، فهو تابع لمتبوع بتوسّط حرف عطف بينهما [١٠] . وعدّ ابن السرّاج [١١] حروف العطف ، عشرة أحرف ، هي (الواو – الفاء – أو – إمّا – لا – لكنْ – أم – حتى) ،. والذي يُلحظ من تعريف ابن عصفور المُتقدّم لعطف النسق ، أنّ النحاة لم يُركزوا على العطف بين المفردات فقط ، بل كان لعطف الجمل حضور في أذهانهم ، قال المُبرّد : ((ولا يقع العطف على استواءٍ إلاّ أنْ تجعل الكلام الثاني على غير معنى الكلام الأوّل ، فذلك جائز متى أردته . وكلّ جملة بعدها جملة ، فعطفها عليها جائز ، وإنْ لم يكن منها ، نحو : جاءني زيد ، وانطلق عبد الله ، وأخوك قائم ، وإنْ تأتني آتك . فهذا على ذا))[١٢]. وكانوا يرون أنّ العطف يربط الجمل بعضها ببعض ، ويحقّق الوصل بينها ، قال ابن يعيش : ((عطف جملة على جملة ، نحو : قام زيد وقعد عمرو ، وزيد منطلق وبكر قائم ، ونحوها من الجمل ، والغرض من عطف الجمل ربط بعضها ببعض ، واتصالها ، والإيذان بأنّ لمُتكلـّم لم يُرد قطع الجملة الثانية عن الأولى ،والأخذ في جملة أخرى ليست من الأولى في شيء))[١٣] . وينطلق النحويون في بحثهم لعطف الجمل من مبدأ أنّ ((الجملة في الأصل كلام مُستقلّ ، فإذا قصدتَ جعلها جزء كلام ، فلا بدّ من رابطةٍ تربطها بالجزء الآخر))[١٤] .وقسّم القدماء العلاقة بين الجمل على ثلاثة أقسام [١٥] ، هي :

١- كمال الاتصال : وهو أنْ يكون بين مفهومي الجملتين اتحاد وارتباط .
٢- كمال الانقطاع : وهو أنْ يكون أحدهما مبايناً للآخر مُباينة الأجانب ؛ لانقطاع الروابط بينهما .
٣- التوسّط بينهما : وهو أنْ يكون بينهما بعض الارتباط ، فيتوسّط حالهما بين الأولى والثانية .

إنّ مصطلح الوصل أعمّ من مصطلح العطف ، وذلك لأنّ من علاقات الوصل ما يكون خارجاً عن العطف ، فالتعليل بـ (كي – للام) خارج عن العطف ، وعلاقة السبب والنتيجة ، وعلاقة الشرط وجوابه ، كلـّها علاقات خارج إطار العطف ؛ ولذا إنّ اختيار مصطلح الوصل ، أو الربط في نحو النصّ أكثر شموليّةً من مصطلح العطف .

---

[١] ينظر : كتاب العين : ٧ / ١٥٢ ، وتاج اللغة وصحاح العربيّة : ٤ / ١١٠٦ ، ومعجم مقاييس اللغة : ٢ / ٦٣٤ ، وأساس البلاغة : ٦٩٣ – ٦٩٤ ، ولسان العرب : ٤ / ٤٢٩٦ ، والقاموس المُحيط : ٩٨٦ (وصل).
[٢] مفردات ألفاظ القرآن : ٨٧٣ (وصل).
[٣] التعريفات : ٢٠٤ .
[٤] الكلّيّات : ٣٢ .
[٥] كشّاف اصطلاحات الفنون : ٤ / ٣٥٦ .
[٦] كشاف اصطلاحات الفنون : ٤ / ٣٥٦ .
[٧] الفصل والوصل في القرآن الكريم ، دراسة في الأسلوب : ٣١ .
[٨] دلائل الإعجاز : ٢٢٢ . وينظر : أصول المعايير النصّيّة في التراث النقديّ والبلاغيّ عند العرب : ٩٤ .
[٩] المُقرّب : ١ / ٢٥١ . وينظر : السبك النصّيّ في القرآن الكريم ، دراسة تطبيقيّة في سورة الأنعام : ١٥١ .
[١٠] ينظر : شرح الرضي على الكافية : ٢ / ٣٣١ – ٣٣٢ .
[١١] ينظر : الأصول في النحو : ٢ / ٥٥ – ٦١ .
[١٢] المقتضب : ٣ / ٢٧٩ . وينظر : السبك النصّيّ في القرآن الكريم : ١٥٢ .
[١٣] شرح المُفصّل : المجلّد الثاني / ٨ .
[١٤] شرح الرضي على الكافية : ١ / ٢٣٨ .
[١٥] ينظر : مفتاح العلوم : ٣٥٧ . وينظر : لسانيّات النصّ : ١١١ .

الوصل في الدراسات النَّصيّة الحديثة : هو أحد مظاهر الاتساق الخمسة التي وضعها هاليداي ورقيّة حسن في كتابهما (الاتساق في الانكليزيّة)(١) . فهو الطريقة التي ترتبط بها جملة من نصّ بالجملة السابقة لها ، أو بالتالية لها ، فالنصّ ليس جملاً مُتراصفةً بلا رابط لفظيّ ، أو معنويّ يُحدّد العلاقة بينها ، فالوصل ((تحديد للطريقة التي يترابط بها اللاحق مع السابق بشكلٍ منظّم))(٢) . وقد استعمل دي بوجراند مصطلح (الربط) ، ورأى أنّه ((يُشير إلى العلاقات التي بين المساحات أو بين الأشياء التي في هذه المساحات ... ويُشير الربط أيضاً إلى إمكان اجتماع العناصر والصور ، وتعلّق بعضها ببعض في عالم النصّ))(٣) . ولكي يحصل التماسك في النصّ ، فهو يحتاج إلى عناصر تربط أجزاءه ، وهذه العناصر الرابطة للنصّ ، فرّعها الباحثان إلى أربعة أنواع (٤):

١ – **الوصل الإضافيّ** : ويتمّ بوساطة الأداتين (الواو – أو) . وأضافا – هاليداي ورقيّة حسن – إليه علاقات أخرى ، مثل : التماثل الدلاليّ ، والذي يتحقق فيه الربط بين الجمل بتعبير ، مثل (بالمثل) ؛ وعلاقة الشرح المُتمثّلة بتعبيرات ، مثل : أعني ، بتعبير آخر ؛ وعلاقة التمثيل المُتجسّدة في تعبيرات مثل : مثلاً ، نحو . وأطلق عليه دي بوجراند مصطلح (مطلق الجمع) .

٢ – **الوصل العكسيّ** : ويتمّ ذلك عندما تكون الجملة الثانية مُخالفة للجملة الأولى في معناها ، بمعنى : على عكس ما هو مُتوقّع ، وتعبّر عنه أدوات مثل : لكن – بل – أمّا . فضلاً عن تعبيرات أخرى ، تدلّ عليه ، مثل : خلاف ذلك – على العكس – وفي المقابل . ورأى دي بوجراند أنّه في هذا النوع من الربط ((يربط الاستدراك على سبيل السلب صورتين من صور المعلومات بينهما علاقة تعارض ، إذ تكونان في بيئتهما مُتحدتين أو مُتشابهتين ؛ أو أنّ ذلك يكون بتناولهما لموضوعات بينها علاقة لكن من خلال تجمّع غير مُتوقع في التنشيط المُوسّع ، وقد يكون كلّ من صورتين صادقاً بالنسبة لعالم النصّ ، ولكن تعلّق كلّ منهما بالآخر غير واضح))(٥) .

٣ – **الوصل السببيّ** : ويُراد به وجود علاقة منطقيّة بين جملتين أو أكثر ، وذلك في علاقات ، مثل : السبب والنتيجة ، الشرط وجوابه . ويُعبّر عنه بالأدوات (لذلك – من أجل – لأن – اللام – كي – الفاء) . وقد أطلق عليه دي بوجراند اسم (التفريع) ، الذي يُشير ((إلى أنّ العلاقة بين صورتين من صور المعلومات هي علاقة التدرّج ، أي أنّ تحقق إحداهما يتوقف على حدوث الأخرى))(٦) .

٤ – **الوصل الزمنيّ** : ويتمّ هذا الوصل بأنْ تكون العلاقة بين الجملتين علاقة تتابع ، أي يحصل مضمون أحدهما زمنياً ، وبعد ذلك يحصل مضمون الأخرى ، ويُعبّر عنه بأدوات ، مثل : الفاء – ثُمّ .

ولم يكن النوع الرابع من ضمن الأقسام الأربعة التي وضعها دي بوجراند ، بل وضع بدلاً عنه قسم (التخيير) ، ورأى أنّه ((يربط صورتين أو أكثر من صور المعلومات على سبيل الاختيار ، إذ تكونان مُتحدتين من حيث البيئة ، أو مُتشابهتين . وإذا كانت المُحتويات جميعاً عن مطلق الجمع صادقة في عالم النص ، فإنّ الصدق لا يتناول إلاّ مُحتوًى واحداً في عالم التخيير))(٧). ويبدو أنّ التقسيم الذي وضعه هاليداي ورقيّة حسن كان أكثر شموليّةً لأنواع الوصل ، من تقسيم دي بوجراند ، فهو لم يُفرّق ين الوصل السببيّ والوصل العكسيّ ، إذ جعلهما نوعاً واحداً ، هو التفريع ، مع وجود الفارق الدلاليّ بين النوعين . زيادة على ذلك ، فقد وجد البحث أنّ بعض المُفسّرين قد أوجد نوعاً من الوصل ، أطلق عليه اصطلاح (الرُتبيّ) ، وهذا النوع من الوصل يلتفت إلى المعنى الموجود في الجملتين المُتعاطفتين ، ويوازن درجة تحقّقه فيهما . وقد وجد البحث أيضاً أنّ الاستعمال القرآنيّ قد جمع أكثر من نوع من أنواع الوصل في موضعٍ واحد ، وقد أشار العلماء القدماء إلى ذلك، فالزركشيّ يضع (قاعدةً تفسيريّة : حيث دخلتْ واو العاطف على لام التعليل ، فله وجهان : أحدهما : أن يكون تعليلاً معلّله محذوف ، كقوله تعالى : ﴿ **وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا** ﴾(٨)، فالمعنى : وللإحسان إلى المؤمنين فعل ذلك . الثاني : أن يكون معطوفاً على علّة أخرى مضمرة ؛ ليظهر صحة العطف ، كقوله تعالى : ﴿**وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى** ﴾(٩)، التقدير : ليستدلّ بها المكلّف على قدرته تعالى ولتجزى))(١٠). من ذلك قوله تعالى : ﴿ **... وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ...** ﴾(١١). فالذي يُلحظ على الآية الكريمة أنّ قوله (ولكنْ ليبلوَكم) اجتماع (الواو – لكنْ – اللام) في موضعٍ واحدٍ ، ممّا يعني أنّ علاقة الوصل هذه قد جمعتْ (الإضافيَ ، والعكسيّ ، والسببيّ) عند الربط بين الجملتين في الآية الكريمة . ومثلها قوله تعالى : ﴿ **وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ (١٢) . فقد جمع بين الوصل (الإضافيّ ، والسببيّ) ، في قوله (ولتطمئنّ) ، فالواو للجمع بين البشرى والاطمئنان ، واللام لبيان السببيّة . ومنه قوله تعالى : ﴿ **فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾(١٣). ففي موضعين من الآية الكريمة ، جمع بين

(١) ينظر : لسانيّات النصّ : ١١ .
(٢) لسانيّات النصّ : ٢٣ .
(٣) النصّ والخطاب والإجراء : ٣٤٦ .
(٤) ينظر : لسانيّات النصّ : ٢٣ – ٢٤ .
(٥) النصّ والخطاب والإجراء : ٣٤٦ – ٣٤٧ .
(٦) النص والخطاب والإجراء : ٣٤٧ . وينظر : أدعية الصحيفة السجاديّة : ٧٨ .
(٧) النصّ والخطاب والإجراء : ٣٤٦ .
(٨) سورة الأنفال : ١٧ .
(٩) سورة الجاثية : ٢٢ .
(١٠) البرهان في علوم القرآن : ٦١/٣ -٦٢ .
(١١) سورة المائدة : ٤٨ . ومثلها في سورة محمّد : ٤ ، قوله تعالى : ﴿ ... ولكنْ ليبلوَ بعضكم ببعض ... ﴾ ،
(١٢) سورة الأنفال : ١٠ .
(١٣) نفسها : ١٧ .

وصلين مختلفين ، فقد جمع بين الوصل (الإضافيّ ، والعكسيّ) في قوله (ولكنَّ) ، وبين الوصل (الإضافيّ ، والسببيّ) في قوله (وليُبليَ) . ومثلها قوله تعالى : **﴿ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾** [(١)] ، وقوله تعالى : **﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴾**[(٢)]. فقد جمع الوصلين (الإضافيّ ، والسببيّ) في الآيتين ، وذلك في قوليه (ولتكونَ) ، و(وليُخزيَ) . وممّا لوحظ في الاستعمال القرآنيّ أنّ الواو قد استعملتْ للدلالة على الترتيب الزمنيّ . فممّا جاءتْ فيه (الواو) تفيد الترتيب في السور المدنيّة في النصّ الكريم ، قوله تعالى : **﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ... ﴾**[(٣)] . فقد تكرّر استعمال (آمنوا وعملوا) ، ومشتقّات الفعلين في مواضع [(٤)] كثيرةٍ ، والتقديم للإيمان على العمل الصالح ؛ إذ لا قيمة لعملٍ صالحٍ مع الكفر بالله تعالى . ومثله قوله تعالى : **﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾**[(٥)] . فالتعبير بـ (ويطعمون) استعملتْ فيه (الواو) للترتيب ، إذ إنّ وفاءهم بالنذر ، وهو الصيام ، قد أعقبه الإطعام ، زيادة على ذلك ، فالتعبير بـ (مسكيناً ويتيماً وأسيراً) ، قد أفادت (الواو) فيها الترتيب ، فالأصناف الثلاثة من المحتاجين ، لم يكن إطعامهم في وقتٍ واحد ، بل كان في ثلاث ليالٍ متتالية ، فدلّ ذلك على إفادة (الواو) للترتيب في الآيات الكريمة . ومن ذلك أيضاً ، قوله تعالى : **﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ﴾** [(٦)]. فاستعمال (الواو) ، في الموضعين ، يدلّ على الترتيب ، فالزلزلة أوّلاً ، ثمّ إخراج الأثقال ، فالسؤال من الإنسان عن سبب الحال التي عليها الأرض . وعند استقراء الأدوات الرابطة في النص القرآنيّ الكريم ، يُلحظ أنّه قد كثر استعمال (الواو) فيه ، علماً أنّ البحث قد أخرج من الإحصاء (الواو) الحاليّة ، التي تُفيد الربط في النصّ ، ولكنْ ليس على المستوى الشكليّ ، بل على المستوى الدلاليّ ، وكذلك (الواو) الداخلة على جمل التذييل في أواخر الآيات الكريمة ، والتي تعمل على توكيد المعنى . كما أخرج البحث الفاء الواقعة في جواب الشرط ؛ لكون العلاقة بين الشرط وجوابه علاقة دلاليّة ، قد لا تحتاج إلى (الفاء) في بعض استعمالاته . وفيما يأتي إحصائيّة تبيّن عدد الأدوات الرابطة في السور المدنيّة : الواو / ٣٤٤٣ مرّة ، الفاء / ٥٤٧مرّة ، ثُمّ / ١٠٨ مرّة ، أو / ١٤٧ مرّة ، لكنْ ، ولكنّ / ٥٤ مرّة ، بل /١٦ مرّة ، لام التعليل / ١١٠ مرّة ، حتى التعليليّة / ٣ مرّات ، أم / ٢٠ مرّة ، إمّا / ٣مرّات ، لأن / مرّتان ، لكي / ٣مرّات ، من أجل / مرّة واحدة .

أدوات المقارنة :

المقارنة لغة :من قارن الشيء الشيء مُقارنةً ، وقراناً : اقترن به ، وصاحبه . وقرنتُ الشيء بالشيء : وصلته . فالمقارنة تدلّ على الجمع بين شيئين ، في صفة من الصفات[(٧)] . **المقارنة اصطلاحاً** :عرّف الراغب الاقتران ، بقوله : ((اجتماع شيئين ، أو أشياء في معنى من المعاني))[(٨)] . وقد استعمل علماء البلاغة القدماء مصطلح (التفريق) للدلالة على معنى المقارنة ، فقد عُرّف التفريق بـ ((هو أن يأتي المتكلم ، أو الناظم بشيئين من نوع واحد ، فيوقع بينهما تبايناً ، وتفريقاً ، يفيد زيادة تشريح فيما هو بصدده من مدح ، أو ذمّ ، أو نسيب ، أو غيره من الأغراض))[(٩)] ، كقول الشاعر[(١٠)] :

مَا نَوالُ الغَمَامِ وقتَ الرَّبيعِ   كَنَوالِ الأميرِ يومَ سَخَاءِ

فَنَوالُ الأمَيرِ بدرةُ عَينٍ   وَنَوالُ الغَمَامِ قَطْرةُ ماءِ

وعرّف بعض المحدثين المقارنة ، بأنّها : ((عمليّة ذهنيّة ، تقوم على ربط موضوع بآخر برابط واحد ؛ لاستخلاص أوجه الشبه ، والاختلاف بينهما . وقد يشمل هذا الربط موضوعين ، أو أكثر))[(١١)] . ويدخل في باب المقارنة التشبيه ، والتفضيل ، وعُرّف التشبيه بـ ((الدلالة على اشتراك شيئين في وصف من أوصاف الشيء الواحد في نفسه))[(١٢)] . وعُرّف التفضيل بأنّه ((ما اشتقّ لما زاد على غيره في الفعل))[(١٣)] . ومعنى ذلك أنّ التفضيل يحصل في معنًى مشترك بين اثنين ، أو أكثر . وقد يُستعمل لبيان الكمال ، والزيادة في وصفه الخاصّ ، وإنْ لم يكن الوصف الذي هو الأصل مشتركاً . وقد يُقصد به تجاوز صاحبه ، وتباعده عن غيره في الفعل ، لا بمعنى تفضيله عليه بعد المشاركة في أصل الفعل ، بل بمعنى أنّ صاحبه متباعد في أصل الفعل ، متزايد إلى كماله فيه على وجه الاختصار ، فيحصل كمال التفضيل ، نحو : الله أكبر [(١٤)].

المقارنة في الدراسات النصّيّة الحديثة : عدّ هاليداي ورقيّة حسن المقارنة عنصراً إحاليّاً ، وقد صنّفاها على صنفين : المقارنة العامّة ، وهي التي تنقسم إلى التطابق ، والتشابه ، والاختلاف ، وتكون في مفردات ، مثل (شبه مساوٍ – مطابق تقريباً – يشبه إلى حدّ ما – يشبه إلى حدّ كبير – مختلف إلى حدّ ما – مختلف إلى حدّ كبير) ؛ والمقارنة الخاصّة ، وقد قسّمها المؤلّفان على قسمين : الأوّل : كمّيّ ، ويكون في مفردات ، مثل : أقلّ ، أكثر ، متساوٍ ؛ وكيفيّ ، ويكون في مفردات

---

(١) سورة الفتح : ٢٠ .

(٢) سورة الحشر : ٥ .

(٣) سورة البقرة : ٢٥ .

(٤) مثلاً : سورة البقرة : ٦٢ ، ٨٢ ، ٢٧٧ ؛ سورة آل عمران : ٥٧ ؛ سورة النساء : ٣٤ ، ٥٧ ، ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٧٣ ، وغيرها .

(٥) سورة الإنسان : ٧ – ٨ .

(٦) سورة الزلزلة : ١ – ٣ .

(٧) ينظر : لسان العرب : ٣ / ٣٢٠٦ ، معجم مقاييس اللغة : ٢ / ٣٩٤ – ٣٩٥ (قرن) .

(٨) مفردات ألفاظ القرآن : ٦٦٧ (قرن) .

(٩) الكلّيّات : ٢٤٨ . وينظر : مفتاح العلوم : ٥٣٥ ، والإيضاح في علوم البلاغة : ٣٥٢ ، وأصول المعايير النصّيّة في التراث النقديّ والبلاغيّ عند العرب : ٥٥ .

(١٠) ينظر : مفتاح العلوم : ٥٣٥ ، والإيضاح في علوم البلاغة : ٣٥٢ . وقد نسبه محقق الإيضاح إلى الوطواط .

(١١) المعجم الفلسفيّ : ٢ / ٤٠٥ . وينظر : معجم مصطلحات المنطق : ٣٠١ .

(١٢) الكلّيّات : ٢٥٥ .

(١٣) نفسه : ٧٨ .

(١٤) الكلّيات : ٧٩ – ٨٠ .

، مثل : أجمل من ، جميل مثل [1]. ورأى محمّد الشاوش أنّ ما ذهب إليه هاليداي ورقيّة حسن من عدّ المقارنة من أنواع الإحالة غير صحيح ، و((أنّ وجوه المقارنة أقرب إلى السمات الدلاليّة منها إلى المبهمات ، والعناصر الإحاليّة ، وأنّ ما بدا للمؤلفين من اتصالها بالإحالة راجع إلى خصوصيّة في اللغة الانقليزيّة أوهمتْ بذلك ، وإذا تجاوزنا خصوصيّة هذه اللغة لاحظنا أنّ الإطار الأنسب لتناول مظاهر الربط هذه ليس عملية المقارنة في حدّ ذاتها ، وإنّما ما يصحبها من عمليّات أخرى ، تعود أساساً إلى الإضمار والحذف . ومتى تسنّى لك إرجاع نفس العدد من مظاهر الترابط إلى تفسير واحد (الحذف) بدل إرجاعها إلى تفسيرين(الحذف تارة والمقارنة تارة أخرى) لم تحتج إلى الاستدلال على تفضيل الحلّ الأوّل على الثاني))[2] .
وقد أيّد باحث آخر رأي محمد الشاوش ، ورأى أنّ التعامل مع الطرح الذي قدّمه الباحثان ((لا يستقيم في العربيّة ، فهي – المقارنة – تظهر عند استعمالها في الممايزة والتفضيل واحدة من مقتضيات البنية الدلاليّة للألفاظ والصيغ المستخدمة ؛ لأنّ المفردات من قبيل (مثل – شبه) ، وما جاء من الكلمات على صيغة التفضيل تقتضي دلاليّاً ، أو قلْ منطقيّاً بنية ثنائيّة ، وبالتالي [3] لا يجري استعمالها إلاّ في بنية تركيبيّة تتوفر فيها الثنائيّة بوجه من الوجوه))[4]. إنّ الأثر الذي تنتجه أدوات المقارنة أقرب إلى الوصل بين جمل النصّ وعباراته منه إلى الإحالة ؛ ولذا ((سمّيت بالمقارنة لإجراء عمليّة المقارنة بين الأشياء القابلة للزيادة ، والتفاضل ، وتكون وظيفة هذه المفردات المقارنة هي أداء عملية الربط ، وتحقيق التماسك النصيّ ... فتخلق ... ربطاً مفهوماً بين السابق ، واللاحق في النصّ))[5] . وإذا كان للحذف – في بعض الأحيان – وجود في جمل المقارنة ، فإنّ ذلك لا يعني أن تكون المقارنة في عنصر الحذف – كما ذهب إلى ذلك محمّد الشاوش ، وقد تقدّم ذكر رأيه - ، ولا ضمن عنصر الإحالة . فالذي يُلحظ أنّ أقسام المقارنة تجمع بين شيئين منفصلين ، وتعمل على إيجاد الأواصر التي تربطهما به ، ففي التشبيه مثلاً يُلحظ أنّ ((من خصائص التشبيه الدلاليّة زيادته المعنى وضوحاً ، وتوكيداً ، ومبالغةً ، فضلاً عمّا يُفيده من الإيجاز ، والاختصار في الكلام . وكي يؤدّي التشبيه تلك الأمور ، فلا بدّ من ملاحظة طرفين هما : المشبّه ، والمشبّه به اللذين يقوم عليهما التشبيه ؛ لتحقيق مستوى من الاتصال ، لا يبلغ درجة الالتحام ، والامتزاج بينهما))[6]. وإذا كان كذلك ، فكيف تكون – المقارنة – عنصراً إحاليّاً ، وعمل الإحالة قائم على التطابق الدلاليّ بين المُحيل ، والمُحال عليه . وقد يأتي الاستعمال لنفي المشابهة بين طرفي المقارنة ، والنفي مباين للمطابقة الدلاليّة ، التي تقوم الإحالة عليها . وزيادة على ذلك ، فقد يقلب التشبيه بإدخال أداة التشبيه على المشبّه ، وليس على المشبّه به ، خلافاً للأصل في استعمال التشبيه ، وقد سوّغ بعض العلماء ذلك ؛ ((لوضوح الحال ، كقوله تعالى : ﴿ **وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى** ﴾[7]. فإنّ الأصل : وليس الأنثى كالذكر ، وإنّما عدل عن الأصل ؛ لأنّ معنى (وليس الذكر) الذي طلبتْ (كالأنثى) التي وهبتْ لها ؛ لأنّ الأنثى أفضل منه))[8] . زيادة على ذلك ، قد لوحظ أنّ عناصر الإحالة الأخرى (الضمائر – أسماء الإشارة – الأسماء الموصولة) تكون حاضرةً في الجمل ، والعبارات التي تنتج المقارنة ، فإذا كانتْ وظيفة المقارنة الإحالة ، فما الوظيفة التي تؤدّيها باقي عناصر الإحالة ؟ . أمّا بالنسبة لعنصر الحذف ، فإنّ أدوات المقارنة تعمل على توجيه مُتلقي النصّ إلى العنصر المحذوف اعتماداً على الطرف الثاني ، من طرفي المقارنة ، أي العنصر المذكور ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ **كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾[9]. فالمقارنة في قوله (كمثل) دلّتْ على الطرف الآخر في المقارنة / التشبيه ، إذ إنّ قوله (كمثل) ((خبر لمبتدأ محذوف تقديره : مثلهم))[10]. ومثله قوله تعالى ، في الآية التالية لهذه الآية ، وهو قوله – عزّ وجلّ - : ﴿ **كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ** ﴾[11]. فالتقدير للمحذوف في التشبيه ، يكون بمثل ما تقدّم في الآية السابقة ، وقد ((أسند كلّ من الخبرين إلى ذلك المُقدّر المضاف إلى ضميرهما من غير تعيين ما أسند إليه بخصوصه ثقةً بأنّ السامع يردّ كلاً إلى ما يليق به ، ويماثله ، كأنّه قيل : مثل أولئك الذين كفروا من أهل الكتاب في حلول العذاب بهم كمثل الذين من قبلهم ، ومثل المنافقين في إغرائهم إياهم على القتال حسبما نُقل عنهم كمثل الشيطان))[12] . والمخطط الآتي يُبيّن الفارق بين عمل المقارنة، والإحالة :

---

(1) ينظر : لسانيات النصّ : ١٩ ، علم لغة النص النظرية والتطبيق : ١٢٤ ، السبك النصّيّ في القرآن الكريم : ٥٦، وأدعية الصحيفة السجّاديّة : ٤٢ .
(2) أصول تحليل الخطاب : ١ / ١٣٠ .
(3) كذا ، والصحيح : ومن ثَمّ .
(4) نحو النصّ ،إطار نظريّ ودراسة تطبيقيّة : ١٠٨ .
(5) التماسك النصيّ في المثل القرآنيّ : ٤٢ .
(6) اللغة في الدرس البلاغيّ : ١٠٦ – ١٠٧ .
(7) سورة آل عمران : ٣٦ .
(8) البرهان في علوم القرآن : ٣/٢٦٢ .
(9) سورة الحشر : ١٥ .
(10) روح المعاني : ٢٨ / ٣٥١ .
(11) سورة الحشر : ١٦ .
(12) روح المعاني : ٢٨ / ٣٥٢ .

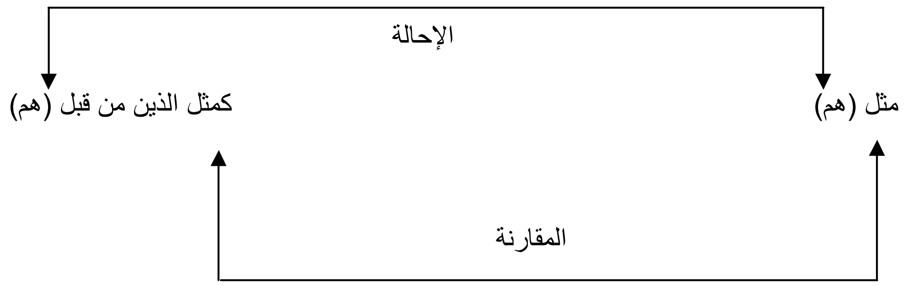

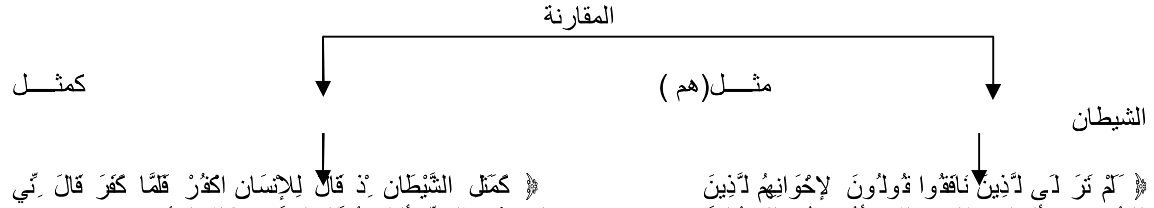

﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ ـِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ ـِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾

﴿ ـَلَمْ تَرَ ـَلَى ـلَّذِينَ نَافَقُوا ـَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ ـلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ـُمَّ لا يُنْصَرُونَ ﴾

ومثله قوله تعالى : **﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾** [1]. فهذا الربط بيّن الوظيفة النصّيّة التي يؤدّيهااسم التفضيل بالوصل بين (ينادونك من وراء الحجرات) ، و(لا يعقلون) ، إذ ((وصفهم الله سبحانه بالجهل ، وقلّة الفهم ، والعقل ، إذ لم يعرفوا مقدار النبيّ ρ ولا ما يستحقّه من التوقير ، فهم بمنزلة البهائم))[2]. وممّا يؤيّد كون المقارنة خارجة عن إطار الإحالة ، أنّ اسم التفضيل مضاف إلى الضمير (هم) ، الذي يُحيل على الاسم الموصول (الذين) ، وضمير الرفع في قوله (ينادونك). والرسم التخطيطيّ يُوضح ذلك :

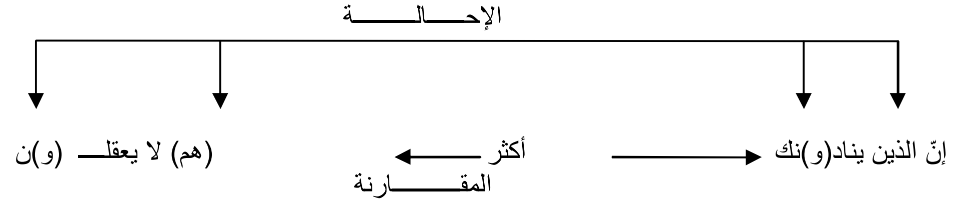

وهذه إحصائيّة بعلاقات المقارنة الموجودة في السور المدنيّة :

علاقة التشبيه : **كاف التشبيه** : سورة البقرة / ١٣ ، ١٧ ، ١٩ ، ٧٤ ، ١٠٨ ، ١٥١ ، ١٦٥ ، ١٧١ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢٣٩ ، ٢٦١ ، ٢٦٥ ، ٢٧٥ ، ٢٨٦ . سورة آل عمران / ١١ ، ٣٦ ، ٤٩ ، ٥٩ ، ١١٧ . سورة النساء / ٤٧ ، ٧٧ ، ٨٩ ، ١٠٤ . سورة المائدة / ١١٠ . سورة الأنفال / ٥ ، ٢١ ، ٥٢ ، ٥٤ . سورة التوبة / ١٩ ، ٦٩ . سورة الرعد / ١٤ ، ١٦ ، ١٩ . سورة النور / ٣٥ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٥٥ ، ٦٣ . سورة الأحزاب / ٣٢ ، ٦٩ . سورة محمّد / ١٢ ، ١٤ ، ١٥ . سورة الفتح / ١٦ . سورة الحجرات / ٢ . سورة الرحمن / ١٤ ، ٢٤ ، ٣٧ . سورة الحديد / ٢٠ ، ٢١ . سورة المجادلة / ٥ ، ١٨ . سورة الحشر / ١٥ ، ١٦ ، ١٩ . سورة الممتحنة / ١٣ . سورة الجمعة / ٥ .**التشبيه بـ (مثل)** : سورة البقرة / ١٠٦ ، ١١٣ ، ١١٨ ، ١٣٧ ، ٢٦٤ . سورة آل عمران / ١٣ ، ١٦٥ . سورة النساء / ١٤٠ . سورة الرعد / ١٧ . سورة النور / ١٧ . سورة محمّد / ٣٨ . سورة الطلاق / ١٢ . **التشبيه باستعمال الفعل** : سورة التوبة / ٣٠ .

علاقــة التفضـيل : سـورة البقـرة / ٤١ ، ٥٤ ، ٦١ ، ٧٤ ، ٨٥ ، ٩٦ ، ١٠٦ ، ١١٤ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٦٥ ، ١٩١ ، ٢٠٠ ، ٢٠٤ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٢١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٧ ، ٢٤٣ ، ٢٤٧ ، ٢٦٣ ، ٢٧١ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ . ســـــورة آل عمـران / ٣٦ ، ٥٤ ، ٦٨ ، ٩٦ ، ١١٠ ، ١١٨ ، ١٣٩ ، ١٥٠ ، ١٥٧ ، ١٦٧ ، ١٩٨ . سـورة النسـاء / ٣ ، ١١ ، ١٢ ،

---
(١) سورة الحجرات : ٤ .
(٢) مجمع البيان : ٩ / ٣٢١ ، وينظر : البحر المحيط : ٩ / ٥١١ .

٢٥ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٨ ن ٥١ ، ٥٩ ، ٦٧ ، ٧٧ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ١١٦ ، ١٢٢ ، ١٢٥ ، ١٣٥ ، ١٤٥ ، ١٥٣ ، ١٧١ . سورة المائدة / ٨ ، ٥٠ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٨٢ . سورة الأنفال / ٢٢ ، ٣٤ ، ٥٥ ، ٧٠ ، ٧٥ . سورة التوبة / ٣ ، ٨ ، ١٣ ، ٢٠ ، ٢٤ ، ٦٩ ، ٧٢ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٩٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ . سورة الرعد / ٣٤ . سورة الحجّ / ٥ ، ١٣ ، ٥٨ ، ٦٨ ، ٧٢ . سورة النور / ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣٨ . سورة الأحزاب / ٥ ، ٦ ، ٣٧ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٥٩ . سورة محمّد / ١٣ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٣٥ . سورة الفتح / ٢٦ . سورة الحجرات / ٤ ، ٥ ، ١١ ، ١٣ . سورة الحديد / ٣ . سورة المجادلة / ٧ ، ١٢ ، ٢٠ . سورة الحشر / ١٣ . سورة الممتحنة / ١ ، ١٠ . سورة الصفّ / ٧ ، ١١ . سورة الجمعة / ١١ . سورة المنافقون / ٨ . سورة التغابن / ١٦ . سورة التحريم / ٥ . سورة البيّنة / ٦ ، ٧ .

علاقة التطابق : : سواء : سورة البقرة/٦ . سورة آل عمران / ١١٣ . سورة النساء / ٨٩ . سورة الأنفال/٥٨ . سورة الرعد/١٠. سورة الحجّ/٢٥.سورة المنافقون/٦ . تستوي : سورة الرعد/١٦ . يستوي : سورة النساء/٩٥ . سورة المائدة/١٠٠ . سورة الرعد/١٦ . سورة الحديد/١٠ . سورة الحشر/٢٠ . يستوون : سورة التوبة/ ١٩ .

الفصل الثاني : الحبك

توطئة :

الحبك هو المعيار الثاني من المعايير السبعة التي وضعها (روبرت دي بوجراند)[١] للنصّ ، ويختصّ هذا المعيار بالبحث في تحقّق ((الاستمراريّة الدلاليّة التي تتجلّى في منظومة المفاهيم ، والعلاقات الرابطة بين هذه المفاهيم ، وكلا هذين الأمرينهو حاصل العمليات الإدراكيّة المصاحبة للنصّ ، إنتاجاً ، وإبداعاً ، وتلقياً ، واستيعاباً ، وبها يتمّ احتباك المفاهيم من خلال قيام العلاقات ، أو إضفائها عليها ، إنْ لم تكن واضحة مستعلنة على نحو يستدعي بعضها بعضاً ، ويتعلّق بواسطته[٢] بعضها ببعض))[٣] . إنّ الحكم على نصّ ما بأنّه منسجم ، أو مترابط ، لا يُمكن تحديده من الجانب الشكليّ فقط ، أو في مستوى التركيب ، فقد يكون النصّ متماسكاً ، ولا يكون فيه انسجام دلاليّ . لكنّ انسجام جمل النصّ لا يتحقّق من خلال عملية رصف لجمل صحيحة تركيبيّاً / نحويّاً ، وإنّما يتحقّق انسجامها من خلال معرفة العلاقة الدلاليّة التي تربط كلّ جملة بما قبلها ، وما بعدها . وإذا كان بعض الباحثين يرى أنّه ((ليس هناك نصّ منسجم في ذاته ، ونصّ غير منسجم في ذاته ، باستقلال عن الـ متلقي ، بل إنّ المتلقي هو الذي يحكم على نصّ بأنّه منسجم ، وعلى آخر بأنّه غير منسجم ... بتعبير آخر يستمدّ الخطاب انسجامه من فهم وتأويل المتلقي ليس غير))[٤] ، فقد يكون النصّ منسجماً مترابطاً ، ولكنّ قصور ثقافة المتلقي ، أو قصور فهمه هو الذي لا يوصله إلى معرفة وجه الترابط الدلاليّ المتحقّق في النصّ ، وقد يحكم على نصّ بأنّه فقرات في موضوعات شتّى ، إنْ لم يقل : إنّه جمل مرصوفة ، لا يجمعها أيُّ ترابط دلاليّ يحقّق لها صفة النصّيّة . ولعلّ غنى بعض النصوص المعرفيّ ، وعمقها الدلاليّ ، وقابليتها على التجدّد (المعنويّ) ، ومواكبتها لكلّ عصر في تطوره ، واختلاف مفاهيمه ، هو الذي يتطلّب من المتلقي أنْ يكون على قدر كبير من الثقافة ؛ كي يستطيع التوصّل إلى الدلالة التي يحتويها النصّ . فالحكم بنصّيّة النصّ يتجاوز حدود اللغة إلى ما هو غير قائم فيها ، أي الواقع الخارجيّ ، فـ ((تتحكم في إنتاج النصّ عدّة عمليات لغويّة ، ونفسيّة ، واجتماعيّة ، ومعرفيّة ، تشكل من الأجزاء وحدة منسجمة ، قائمة على قواعد تركيبيّة ، ودلاليّة ، وتداوليّة معاً))[٥] .

وفيما يأتي بحث تفصيليّ للسور المدنيّة في ضوء هذا المعيار :

الحبك لغةً[٦] :

الحِباك : هو رباط الحضيرة بقصبات ، واحتبكت إزاري : شددته . والحبيكة : كلّ طريقة في الشعر ، وحبكت الرياح الرمل، إذا جرتْ عليه . وحبك الثوب حبْكاً بمعنى: أجاد نسجه ، وكلّ ما أحكمته ، وأحسنت عمله ، فقد احتبكته . والحبك يدلّ على الشدّ ، والتوثيق ، والإحكام . الحبك اصطلاحاً : عرّف الكفويّ الاحتباك بقوله : ((هو من الحبك ، الذي معناه الشدّ ، والإحكام ، وتحسين الصنعة في الثوب . والاحتباك من ألطف أنواع البديع ، وأبدعها ، وقد يُسمّى حذف المقابل ، وهو : أنْ يُحذف من الأوّل ما أثبت نظيره في الثاني ، ومن الثاني ما أثبت نظيره في الأوّل ، كقوله تعالى : **﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾**[٧] ، وكقوله تعالى : **﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ ﴾**[٨]))[٩] . وعرّف التهانويّ الاحتباك ، وذكر أنّ الزركشيّ قد أورده في البرهان ، وسمّاه (الحذف المقابليّ) ، ومن أمثلته ، قوله تعالى : **﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ ﴾**[١٠] ، و((التقدير : ومثل الأنبياء ، والكفار ، كمثل الذي ينعق ، والذي يُنعق به ، فحذف من الأوّل الأنبياء ؛ لدلالة الذي ينعق عليه ، ومن الثاني الذي يُنعق به ؛ لدلالة

(١) ينظر : النصّ والخطاب والإجراء : ١٠٣ .
(٢) كذا ، والصحيح : بوساطته .
(٣) نحو النصّ بين الأصالة والحداثة : ١٠٩ .
(٤) لسانيات النصّ ، مدخل إلى انسجام الخطاب : ٥١ .
(٥) علم لغة النصّ ، المفاهيم والاتجاهات : ١٢٩ .
(٦) ينظر : كتاب العين : ٣ / ٦٦ ، تاج اللغة وصحاح العربيّة : ٤ / ٩٦٠ ، معجم مقاييس اللغة : ١ / ٣٣٢ ، أساس البلاغة : ١٠٨ ، ولسان العرب : ١ / ٧٢٦ – ٧٢٧ ، القاموس المحيط : ٨٦٢ (حبك).
(٧) سورة الأحزاب : ٢٤ .
(٨) سورة آل عمران : ١٣ .
(٩) الكلّيات : ٤٧ .
(١٠) سورة البقرة : ١٧١ .

الذين كفروا عليه))[1] ، وقوله تعالى : ﴿ خَلَطُوا عَمَلا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا ﴾ [2] ، أي : ((عملاً صالحاً بسيّء ، وآخر سيّئاً بصالح))[3] .إنّ الباحثين العرب لم يتّفقوا على ترجمة موحّدة للحبك ، فقد استعملت مصطلحات عدّة للدلالة عليه ، منها : الحبك[4] ، الانسجام[5] ، التماسك[6] ، الالتحام[7] ، الاتساق[8] ، التماسك الدلاليّ[9] ، الترابط الدلاليّ[10] ، الربط الموضوعيّ[11]، التماسك المعنويّ[12] . واختلف الباحثون في ترجمتهم للمصطلح ، فقد اختلفوا في كيفيّة تحقّق الحبك في النصوص ، زيادةً على اختلافهم في تسميّة تلك الكيفيّة ، فقد سمّاها محمّد خطابيّ[13]أوّلاً وسائل انسجام الخطاب ، ثمّ سمّاها مبادئ الانسجام ، وأفرد ترتيب الخطاب ، وموضوع الخطاب بمباحث منفصلة ، وسمّاها محمّد الأخضر الصبيحيّ[14] الاتساق ، وسمّتها عزّة شبل[15] وسائل التماسك المعنويّ .

الحبك في الدراسات العربيّة القديمة :

لم يكن مفهوم الحبك غائباً عن علماء اللغة القدماء ، فالملاحظ أنّه كانت لهم إشارات كثيرة فيه ، ففي الدراسات الأدبيّة والنقديّة يُلحظ قول ابن طباطبا العلويّ [ت ٣٢٢هـ] : ((إنّ للشعر فصولاً كفصول الرسائل ، فيحتاج الشاعر إلى أنْ يصل كلامه ، على تصرّفه في فنونه ، صلةً لطيفةً ، فيتخلص من الغزل إلى المديح ، ومن المديح إلى الشكوى ... بألطف تخلّصٍ وأحسن حكاية ، بلا انفصال للمعنى الثاني عمّا قبله))[16]. ومثله القرطاجنّيّ [ت ٦٨٤هـ] ، الذي قسّم القصيدة الشعريّة على فصول ، وطالب بالترابط في الفصل الواحد ، ومناسبة النظم للغرض ، وتقديم الأهمّ ، وأنْ تكون بين أبياته علاقات رابطة : كالسببيّة ، والمحاكاة ، والتفسير . أمّا بين فصول القصيدة ، فطالب بأنْ يختم الفصل بشيءٍ من أغراض الفصل الذي يتلوه ، إشارة إلى بعض معانيه ، فيكون بينهما ترابط بالعبارة والغرض ، أو بأحدهما ، وتكون العلاقة بين الفصول ، إمّا بالانتقال من الكلّ إلى الجزء ، أو على العكس من ذلك ، وأن يكون رأس الفصل دالاً على بقيته، فتكون الأبيات التي تليه مُنمِّية له ، وأنْ يكون آخر القصيدة استنتاجاً على ما تقدّم [17]. أمّا عند علماء التفسير ، وعلوم القرآن ، فيُلحظ وجود إشاراتٍ عن موضوع الخطاب / النصّ ، وتنظيمه، وترتيبه ، والعلاقات بين الآيات ، والعبارات في السورة ، والمناسبة في القرآن الكريم ، التي انقسمت إلى أقسام ، من أهمّهما : المناسبة بين آيات السورة ، ومناسبة خاتمة السورة لفاتحتها ، ومناسبة فاتحة السورة لخاتمة التي قبلها ، زيادة على المناسبة بين السورة ، واسمها . فموضوع الخطاب ، الذي عرّفه بعض المحدثين ، بأنّه : ((بنية دلاليّة تصبّ فيها مجموعة من الآيات بتضافرٍ مستمرّ عبر مُتواليّات قد تطول ، أو تقصر حسب ما يتطلّبه الخطاب من إيجازٍ ، أو إطنابٍ أو شرح ...))[18] ، يُلحظ أنّ بعض المفسّرين قد تناوله بالبحث في أثناء تفسيره للسور الكريمة ، من ذلك قول الفيروز آبادي [ت ٨١٧هـ] ، وهو يتحدّث عن موضوع سورة البقرة ، وقد سمّاه (المقصود) ، قال : ((مقصود هذه السورة مدح مؤمني أهل الكتاب ، وذمّ الكفّار كفّار مكة ، ومنافقي المدينة ، والردّ على منكري النبوّة ، وقصة التخليق ، والتعليم ، وتلقين آدم ، وملامة علماء اليهود في مواضع عدّة ، وقصة موسى واستسقائه ، ومواعدته ربّه ، ومنّته على بني إسرائيل ، وشكواه منهم ، وحديث البقرة ، وقصة سليمان ، وهاروت وماروت ، والسحرة ...))[19]. وكان سيّد قطب أكثر وضوحاً عند بيانه لموضوع السورة ، قال : ((هذه السورة تضمّ عدّة موضوعاتٍ ، ولكنّ المحور الذي يجمعها كلّها محور واحد مزدوج ، يترابط الخطّان الرئيسيان [20]فيه ترابطاً شديداً ، فهي من ناحية تدور موقف بني إسرائيل من الدعوة الإسلاميّة في المدينة ... وهي من الناحية الأخرى تدور حول موقف الجماعة المسلمة في أوّل نشأتها ، وإعدادها لحمل أمانة الدعوة والخلافة في الأرض ... وكلّ موضوعات السورة تدور حول هذا المحور المزدوج بخطّيه الرئيسيين[21]))[22] . ومن الإشارة إلى تغيير موضوع الخطاب ، قول الطبرسيّ عند الانتقال من قوله تعالى : ﴿ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [23] ، إلى قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ

---

(١) كشّاف اصطلاحات الفنون : ١ / ٤٦١ .
(٢) سورة التوبة : ١٠٢ .
(٣) كشّاف اصطلاحات الفنون : ١ / ٤٦٢ .
(٤) ينظر : نظريّة علم النصّ : ١٢٧ ، والنصّ والخطاب والاتّصال : ٨٧ .
(٥) ينظر : لسانيّات النصّ ، النظريّة والتطبيق مقامات الهمذانيّ أنموذجاً : ١٣٨ .
(٦) ينظر : علم لغة النصّ ، المفاهيم والاتّجاهات : ١٦٧ .
(٧) ينظر : النصّ والخطاب والإجراء : ١٠٣ . وينظر : نحو النصّ بين الأصالة والحداثة : ٨٣ .
(٨) ينظر : مدخل إلى علم النصّ ومجالات تطبيقه : ٨٢ .
(٩) ينظر : علم اللغة النصّيّ بين النظريّة والتطبيق : ١ / ٩٦ .
(١٠) ينظر : أسس لسانيّات النصّ : ١٥٢ .
(١١) ينظر : المعايير النصّيّة في القرآن الكريم : ٢٧ .
(١٢) ينظر : علم لغة النصّ ، النظريّة والتطبيق : ١٨٤ .
(١٣) ينظر : لسانيّات النصّ : ٣٤ – ٦١ .
(١٤) ينظر : مدخل إلى علم النصّ ومجالات تطبيقه : ٨٢ .
(١٥) ينظر : علم لغة النصّ ، النظريّة والتطبيق : ١٨٧ .
(١٦) عيار الشعر : ٦ . وينظر : لسانيّات النصّ : ١٤٤ .
(١٧) ينظر : منهاج البلغاء وسراج الأدباء : ٢٨٨ – ٣٠٢ . وينظر : لسانيّات النصّ : ١٤٩ – ١٦٣ .
(١٨) لسانيّات النصّ : ١٨٠ .
(١٩) بصائر ذوي التمييز : ١/١٣٤ – ١٣٥ . وينظر : الجواهر الحسان : ١/ ١٧٤ – ١٧٦ .
(٢٠) كذا ، والصحيح : الرئيسان .
(٢١) كذا ، والصحيح : الرئيسين .
(٢٢) في ظلال القرآن : ١ / ٢٨ .
(٢٣) سورة البقرة : ٥ .

يُؤْمِنُونَ ﴾[١] ، إذ قال : ((لمّا بيّن حال المؤمنين ، وصله بذكر الكافرين))[٢]. ومن الإشارة إلى ترتيب الخطاب ، ما يُلحظ في تفسير قوله تعالى : **﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾** [٣] ، وقوله تعالى : **﴿ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾** [٤]، وقال الزمخشريّ في توجيههما : ((وهاتان قصّتان كلّ واحدة منهما مستقلـّة بنوعٍ من التقريع ، وإنْ كانتا متّصلتين متّحدتين : فالأولى لتقريعهم على الاستهزاء ، وترك المُسارعة إلى الامتثال ، وما يتبع ذلك . والثانية للتقريع على قتل النفس المحرّمة ، وما يتبعه من الآية العظيمة ، وإنّما قدّمتْ قصة الأمر بذبح البقرة على ذكر القتيل ؛ لأنّه لو عمل على عكسه لكانتْ قصة واحدة ، ولذهب الغرض من تثنية التقريع ...))[٥]. ومن الإشارات التفسيريّة إلى العلاقات القائمة بين الآيات ، المتجاورة منها ، والمتباعدة ، الإشارة إلى علاقة البيان في النصّ ، كقول الزمخشريّ عند تفسيره لقوله تعالى : **﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾** [٦]، قال : ((و(يذبّحون) بيان لقوله (يسومونكم) ولذلك ترك العطف))[٧]. ومن الإشارة إلى علاقة التفصيل / الإجمال ، ما يُلحظ من قول ابن عاشور عند تفسيره لقوله تعالى : **﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴾**[٨] ، قال : ((أعقبتْ تفاصيل صفاتهم بتصوير مجموعها في صورةٍ واحدة ... ؛ لأنّ للإجمال بعد التفصيل وقعاً من نفوس السامعين))[٩]. ولم يختلف أصحاب علوم القرآن عن المفسّرين في اهتمامهم بالروابط المعنويّة ، التي تكون وسيلة إلى ترابط النصّ ، وتقوية أواصر العلاقة بين أجزائه ، قال الزركشيّ –معرّفاً المناسبة - : ((المناسبة علم شريف ، تُحرز به العقول ، ويُعرف به قدر القائل فيما يقول ... المناسبة في فواتح الآي ، وخواتمها، ومرجعها – والله أعلم – إلى معنًى رابط بينهما : عامّ ، أو خاص ، عقليّ أو حسيّ أو خيالي ، وغير ذلك من أنواع العلاقات . أو التلازم الذهنيّ كالسبب والمسبّب ، والعلّة والمعلول، والنظيرين ، والضدّين ، ونحوه . أو التلازم الخارجيّ ، كالمرتب على ترتيب الوجود الواقع في باب الخبر . وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض ، فيقوى بذلك الارتباط ، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء))[١٠]، وينقل عن ابن العربيّ تعريفه للمناسبة ، قائلاً : ((ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة منسّقة المعاني منتظمة المباني))[١١]. ونقل السيوطيّ قول بعض العلماء في المناسبة ، قائلاً : ((المناسبة علم حسن ، لكن يُشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع أمر متّحد مرتبط أوله بآخره ، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يقع فيه ارتباط . مَن ربط ذلك ، فهو متكلّف بما لا يقدر عليه إلاّ بربط ركيك ، يُصان عن مثله حسن الحديث ، فضلاً عن أحسنه ، فإنّ القرآن نزل في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة ، شرّعت لأسباب مختلفة ، وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض))[١٢] ، ويبدو أنّ هذا العالِم هو المقصود بقول الزركشيّ : ((قد وهم مَن قال : لا يُطلب للآي الكريمة مناسبة ؛ لأنّها على حسب الوقائع المتفرّقة . وفصل الخطاب أنّها على حسب الوقائع تنزيلاً ، وعلى حسب الحكمة ترتيباً . فالمصحف كالصحف الكريمة على وفق ما في الكتاب المكنون ، مرتبة سوره كلّها ، وآياته بالتوقيف . وحافظ القرآن العظيم لو استفتي في أحكام متعدّدة ، أو ناظر فيها ، أو أملاها ؛ لذكرَ آية كلّ حكم على ما سئل ، وإذا رجع إلى التلاوة لم يتلُ كما أفتى ، ولا كما نزل مفرّقاً ، بل كما أنزل جملة إلى بيت العزّة))[١٣]. ويُلحظ اهتمامهم بالمناسبة بين الآيات الكريمة ، فالزركشيّ يشير الترابط بين الآيات من جانب ، وبين السور من جانب آخر ، ويؤكد معرفة نوع العلاقة الربطة بين آية ، وأخرى ، قال : ((والذي ينبغي في كلّ آية أن يبحث أول كلّ شيء عن كونها مكمّلة لما قبلها ، أو مستقلة ، ثمّ المستقلّة ما وجه مناسبتها لما قبلها ؟ ففي ذلك علم جمّ ، وهكذا في السور يُطلب وجه اتصالها بما قبلها ، وما سيقت له))[١٤]. وقد أفرد أنواع ارتباط الآي بعضها ببعض بمبحث خاصّ ، قال فيه :((ذكر الآية بعد الأخرى ، إمّا أن يظهر الارتباط بينهما لتعلّق الكلام بعضه ببعض ، وعدم تمامه بالأولى فواضح . وكذلك إذا كانتْ الثانية للأولى على جهة التأكيد ، والتفسير ، أو الاعتراض والتشديد ، وهذا القسم لا كلام فيه . وإمّا ألاّ يظهر الارتباط ، بل يظهر أنّ كلّ جملة مستقلّة عن الأخرى ، وأنّها خلاف النوع المبدوء به ، فإمّا أن تكون معطوفة على ما قبلها بحرف من حروف العطف المشترك في الحكم ، أو لا))[١٥] . فالقسم الأوّل : تكون فيه الآية معطوفة على ما قبلها ، فيبحث المفسّر عن الجهة الجامعة بينهما . أمّا القسم الآخر : لا تكون فيه الآية معطوفة ، وإذ

---

(١) سورة البقرة : ٦ .

(٢) مجمع البيان : ١ / ٩٦ . وينظر : البحر المحيط : ١ / ٧٧ ، إذ قال : ((مناسبة اتّصال هذه الآية بما قبلها ظاهر، وهو أنّه لمّا ذكر صفة مَن الكتاب له هدًى ... ذكر صفة ضدّهم)) .

(٣) سورة البقرة : ٦٧ .

(٤) نفسها : ٧٣ .

(٥) تفسير الكشّاف : ١ / ١٥٦ . وينظر : لسانيّات النصّ : ١٨٣ .

(٦) سورة البقرة : ٤٩ .

(٧) تفسير الكشاف : ١ / ١٤١ . وينظر : لسانيّات النصّ : ١٨٧ .

(٨) سورة البقرة : ١٧ .

(٩) تفسير التحرير والتنوير : ١ / ٢٩٧ .

(١٠) البرهان في علوم القرآن : ٤١/١ . وينظر : معترك الأقران في إعجاز القرآن : ٤٤/١ – ٤٥ .

(١١) المصدر نفسه : ٤٢/١ .

(١٢) معترك الأقران : ٤٤/١ .

(١٣) البرهان في علوم القرآن : ٤٢/١ – ٤٣ .

(١٤) المصدر نفسه : ١/ ٤٣ .

(١٥) المصدر نفسه : ٤٤/١ . وينظر : معترك الأقران : ١/ ٤٥ .

ذاك ((فلا بدّ من دعامة تُؤذن باتّصال الكلام ، وهي قرائن معنويّة مُؤذنة بالربط))[١]. وجعل له أسباباً[٢]، لعلّ من أهمّها : التنظير ، والمُضادّة ، والاستطراد ، والانتقال من حديثٍ إلى آخر تنشيطاً للسامع . ومن الإشارات إلى المناسبة بين فاتحة السورة ، وخاتمتها ، مـاينقلـه الزركشيّ عن الزمخشريّ ، قـائلاً : ((وقد جعل الله فاتحـة السورة (قد أفلح المؤمنون) ، وأورد في خاتمتها (إنّه لا يُفلح الكافرون) ، فشتّان مـا بين الفاتحـة والخاتمـة))[٣].وقد ألّـف السيوطيّ في ذلك كتابـاً سمّاه (مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع ، بحث في العلاقات بين مطالع سور القرآن وخواتيمها) ، من ذلك قوله في سورة البقرة : ((وافق آخرها أولها من ذكر أوصاف المؤمنين ، ثمّ الإشارة إلى وصف الكافرين))[٤]، وقوله في سورة آل عمران : ((افتتحتْ بذكر إنزال القرآن ، والتوراة ، والإنجيل من قبل ، وختمتْ بذلك في قوله : **﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ﴾**[٥]، وفتحتْ بقوله : **﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾** [٦]، وختمتْ بقوله : **﴿إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾** [٧]))[٨] . أمّا مناسبة مطلع السورة اللاحقة لخاتمة السورة السابقة ، فقد بحث فيه معظم علماء التفسير ، وأصحاب علوم القرآن ، من ذلك قول الطبرسيّ، وهو يبيّن مناسبة افتتاح سورة التوبة لخاتمة الأنفال ، قائلاً : ((لمّا ختم الله سبحانه سورة الأنفال بإيجاب البراءة عن الكفّار ، افتتح هذه السورة بأنّه تعالى ورسوله بريئان منهم كما أمر المسلمين بالبراءة منهم))[٩] . ومثله قول أبي حيّان [ت ٧٤٥هـ] ، وهو يبيّن مناسبة افتتاح سورة آل عمران لخاتمة سورة البقرة ، قال : ((ومناسبة هذه السورة لما قبلها واضحة ؛ لأنه لمّا ذكر في آخر البقرة **﴿أَنْتَ مَوْلانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾** ، ناسب أن يذكر نصره تعالى على الكافرين ، حيث ناظرهم رسول الله ρ ، وردّ عليهم بالبراهين الساطعة ، والحجج القاطعة ، فقصّ تعالى أحوالهم ، وردّ عليهم في اعتقادهم ، وذكر تنزيهه تعالى عمّا يقولون ، وبداءة خلق مريم ، وابنها المسيح إلى آخر ما ردّ عليهم ، ولمّا كان مفتتح آية آخر البقرة **﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ﴾** ، فكأنّ في ذلك الإيمان بالله ، وبالكتب ، ناسب ذكر أوصاف الله تعالى ، وذكر ما أنزل على رسوله ، وذكر المنزل على غيره صلّى الله عليهم))[١٠]. قول الآلوسيّ ، وهو يبيّن مناسبة أول سورة الحشر لخاتمة سورة المجادلة ، قال : ((ومناسبتها لما قبلها أنّ في آخر تلك **﴿ كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ﴾** ، وفي أول هذه **﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾** . وفي آخر تلك ذكر مَن حادّ الله ورسوله ، وفي أول هذه ذكر ما حلّ باليهود ، وعدم إغناء تولي المنافقين إيّاهم شيئاً))[١١]. من هذا يتبيّن أنّ اهتمام أصحاب علوم القرآن ، والمفسّرين بإيجاد المناسبة بين فاتحة السورة ، وخاتمتها ، وفاتحتها ، وخاتمة ما قبلها ، وخاتمتها ، وفاتحة ما بعدها يدلّ على أنّهم ينظرون للسور القرآنيّة مجتمعة على أنّها نصّ واحد ؛ ولذا كانوا يبحثون عن الروابط الدلاليّة بين سورة ، وأخرى ، وبين آيات السورة الواحدة .

الحبك في الدراسات النصّيّة الحديثة :

الحبك هو المعيار الثاني الذي وضعه روبرت دي بوجراند للنصّ ، ورأى أنّه ((يتطلّب من الإجراءات ما تتنشط به عناصر المعرفة لإيجاد الترابط المفهوميّ ، واسترجاعه ، وتشتمل وسائل الالتحام على :

(١) العناصر المنطقيّة ، كالسببيّة ، والعموم والخصوص .

(٢) معلومات عن تنظيم الأحداث ، والأعمال ، والموضوعات ، والمواقف .

(٣) السعي إلى التماسك فيما يتّصل بالتجربة الإنسانيّة .

ويتدعّم الالتحام بتفاعل المعلومات التي يعرضها النصّ مع المعرفة السابقة بالعالم))[١٢] . ولا يقتصر تماسك النصّ على دراسة وسائل الربط الشكليّة /اللفظيّة ، فيُمكن أنْ يوجد نصّ متماسك شكليّاً ، ولكن لا يوجد رابط دلاليّ بين ألفاظه ، فيحتاج إلى توافر وسائل أخرى للتماسك غير الوسائل النحويّة والمعجميّة ، تكون في مستويات أعلى من التحليل ، كالمستوى الدلاليّ ، والبراجماتيّ[١٣]. فالنصّ يمكن أن يكون متماسكاً ((عندما يُمكن للقارئ أنْ يتحرّك بسهولة من جملة إلى أخرى ، ويقرأ النصّ كوحدة [١٤] واحدة ، وليس مجموعة من الجمل المنفصلة ، فالتماسك هو الكيفيّة التي تُمكن القارئ من إدراك تدفّق المعنى الناتج عن تنظيم النصّ ، ومعها يُصبح النصّ وحدةً اتصاليّة مُتجانسة))[١٥]. ولذا يرى فان دايك ((أنّ أيّ نحو أنْ يصف جملاً مثلما يصف تتابعات الجمل أيضاً ، إذا لزم أنْ يتّضح أنّه توجد بين جمل منطوق ما علاقات محدّدة ، كما توجد أيضاً علاقات بين الكلمات ، والمركّبات داخل الجملة . ويجب أنْ توصف هذه العلاقات بين الجمل على المستويات النحويّة ذاتها (الصوتيّة ، والصرفيّة ، والنحويّة ، والدلاليّة) كأبنية الجمل))[١٦] ، فالعلاقات بين جمل النصّ ليستْ علاقة

---

(١) المصدر نفسه : ١ / ٤٨ . وينظر : لسانيّات النصّ : ١٩٣ .
(٢) ينظر : المصدر نفسه : ١ / ٤٨ – ٥١ .
(٣) المصدر نفسه : ١ / ١٣٤ . وينظر : تفسير الكشاف : ٣ / ٢٠١ .
(٤) مراصد المطالع : ٤٧ – ٤٨ .
(٥) سورة آل عمران : ١٩٩ .
(٦) سورة آل عمران : ٩ .
(٧) سورة آل عمران : ١٩٤ .
(٨) مراصد المطالع : ٤٨ .
(٩) مجمع البيان : ٥ / ١٠ .
(١٠) البحر المحيط : ٣ / ٩ .
(١١) روح المعاني : ٢٨ / ٣٢٤ .
(١٢) النص والخطاب والإجراء : ١٠٣ .
(١٣) ينظر : علم لغة النصّ ، النظريّة والتطبيق : ١٨٤ .
(١٤) كذا ، والصحيح : وحدة واحدة .
(١٥) علم لغة النص ، النظريّة والتطبيق : ١٨٤ .
(١٦) علم النصّ ، مدخل متداخل الاختصاصات : ٤٥ .

رصف وتركيب ، لا علاقة بينها ، بل هي علاقات بين جمل ((ذات طبيعة دلاليّة في الغالب ، ومن ثم يُستند فيها إلى معنى الجمل والإحالة))[1]. ويتحقق هذا الربط الدلاليّ بين الجمل حين ترتبط معانيها الإحاليّة : أي أنّ الوقائع التي تُحيل عليها في تفسير ما مرتبطة بعضها ببعض[2]. إنّ قيود الترابط ليستْ دلاليّة فحسب ، فقد تكون الدلالة عاجزة عن تحديدها ، فيجب أنْ تُدرس في علم البراجماتيّة ، أو علم النفس ، ويمتدّ ذلك إلى العلاقة بين المشاركين في المحادثة ، وعلى تصوّرهم عن الوقائع أيضاً . ففيما يخصّ بعض المتحدّثين يُمكن أنْ ترتبط حقيقتان بعضهما ببعض ، وعند الآخرين لا يُمكن معرفة ذلك تبعاً لمعرفتهم عن العالم ، وآرائهم ، ورغباتهم[3].وقسّم محمّد خطابيّ – في دراسته التطبيقيّة لقصيدة أدونيس – وسائل الحبك (التي سمّاها المستوى الدلاليّ)[4] على :

١- مبدأ الإشراك : وقسّمه على : الإشراك بين العناصر ، والإشراك بين الجملتين .
٢- العلاقات : الإجمال/التفصيل ،العموم/الخصوص .
٣- موضوع الخطاب .
٤- البنية الكلـّيّة .
٥- التغريض .

في حين قسّمتْ عزّة شبل وسائل[5] التماسك المعنويّ على :

١- الربط بين القضايا ، أو العلاقات الدلاليّة بين تتابعات جمل النصّ .
٢- موضوع الخطاب .
٣- البنية الكبرى .
٤- البنية التنظيميّة للمعلومات في الخطاب ، أو ترتيب الخطاب .

وقسّم الأخضر الصبيحيّ[6] الحبك – الذي سمّاه الاتّساق – على :

١- الترابط الموضوعيّ .
٢- ضرورة أنْ يتوفـّر النصّ على نوع من التدرج .
٣- يتعيّن أنْ يتوفـّر في النصّ معيار الاختتام : إنّ التدرج المنطقيّ المُنظّم يقتضي الانتهاء بجملة ، أو فقرة ختاميّة ، ((فالخاصّيّة الأولى لتحديد النصّ هي الاكتمال ، وليس الطول ، أو الحجم المُعيّن))[7].
٤- أنْ يكون للنصّ هوية ، وانتماء ، ومعنى ذلك أنْ يكون له نوع . وهذا ما يقتضي ممـّن يُمارس الكتابة أنْ يحترم خصائص كلّ نوع ، إذا أراد أنْ يُحقق للنصّ المنجز اتساقه .

وقد ذهب روبرت ديبوجراند إلى أنّ تحديد نوع النصّ يُعدّ إطاراً محدّداً للغلبة النسبيّة للعلاقات القائمة بين عناصر النصّ . فلكلّ نوع من النصوص عناصره المميزة له ، ففي النصوص الوصفيّة ، يكون إثراؤها بكثرة الاتّجاهات إلى كشف الوصلات ، وتكرار وجود أنواع من الوصلات ، مثل : الحال ، والصفة ، والمثال ، والتخصيص . أمّا في النصوص القصصيّة ، فأغلبها تصورات للحدث ، والعمل ، حيث تنظم في توجّه مرتّب للوصلات ، ويتكرّر ورود العلـّة والسبب ، والغرض ، والمقاربة الزمنيّة وغيرها . ويُلحظ على النصوص الجدليّة قضايا ، تنسب إليها قيم الصدق ، وأسباب لاعتقاد كونها حقائق ، وتتكرّر فيها مصطلحات ، مثل : القيمة ، والإفادة ، والإدراك ، وغيرها . وفي النصوص الأدبيّة يبدو عالم النصّ في علاقة متبادلة مع الأنماط المناسبة من المعلومات حول تصويره العالم الواقعيّ المقبول ، حيث يريد المُنتج أنْ يصوّر الأحداث ، والمواقف بوصفها عناصر أنموذجيّة في نطاق البدائل الممكنة . وأمّا عالم النصّ في النصوص العلميّة ، فهو يتّفق اتفاقاً تامّاً مع عالمه الواقعيّ المقبول ، والمقصود هنا هو الوصول إلى نظرةٍ مفصّلة إلى النظام القائم في العالم الواقعيّ ، وإنشاء الوصلات للأحداث ، حيث يتخلـّص في النهاية من طابع المشكلة من خلال التعبير عنها بتنظيم ، وترتيب . وكذلك عالم النصّ في النصوص التعليميّة ، إذ يكون وصفه لنصّه من خلال عمليّة تدريجيّة من المزج ؛ لأنّه يفترض فيمن يتلقى النصّ أنْ تكون لديه معلومات كافية عن المعرفة التي يتطلـّبها النصّ العلميّ . أمّا في نصوص المُحاورة ، فهناك مجال مُتشعّب من الوقائع المعلوماتيّة المقبولة . ويتّخذ تنظيم المحادثة طابعاً خاصّاً بسبب التغيّر في نوبات التكلـّم . إنّ المسألة الأساسيّة هي كيفية استعمال أطراف الخطاب للقرائن من أجل نسبة النصوص المختلفة التكوين إلى نوعٍ ما . ويُمكن للقارئ أنْ يلتمس القرائن من خارج النصوص نفسها ، فبعض أنواع المواقف مُحدّد عُرفيّاً بالنسبة لنوع النصّ الذي يقع عليه الاختيار ، مثل الصلاة ،كما يُمكن لنصّ واحد أنْ ينتقل من نوعٍ إلى آخر ، حيث تتغيّر فيه المواقف ، وطرائق العرض[8] .

ويبدو أنّنا نحكم على النصّ القرآنيّ الكريم بأنّه قد تميّز بكونه نصّاً خطابيّاً نثريّاً مخالفاً لكلّ الأجناس الأدبيّة ، الشعريّة منها ، والنثريّة ، فأخذ بطرفٍ من كلّ نوع من هذه الأنواع ، ومزج بينها ، فأخرج نصّاً أدبيّاً علميّاً تعليميّاً وصفيّاً للماضي ، والحاضر، والمستقبل – بالنظر لوقت نزوله – فهيمن على كلّ الأنواع ، وأحاط بكلّ المعارف ، وتحدّى أن يُوجد فيه اختلاف على مدى الزمان زيادةً على ذلك ، فالنصّ الكريم لم يكن مقلّـداً ، أو مشابهاً لتلك الأجناس في خصائصها ، فبعض سوره ، وآياته لها إيقاع ، ولكنّه ليس إيقاع الوزن الشعريّ ، وفيه الفاصلة القرآنيّة ، ولكنّها ليستْ القافية الشعريّة في

---

(1) علم النصّ / مدخل متداخل الاختصاصات : ٤٦ .
(2) ينظر : علم النصّ ، مدخل متداخل الاختصاصات : ٥٣ .
(3) ينظر : المصدر نفسه : ٥٤ .
(4) ينظر : لسانيّات النصّ : ٢٥٩ – ٢٩٥ .
(5) ينظر : لسانيات النصّ ، مدخل إلى انسجام الخطاب : ١٨٧ – ١٩٩ .
(6) ينظر : مدخل إلى علم النصّ ومجالات تطبيقه : ٨٢ – ٨٦ .
(7) بلاغة الخطاب وعلم النصّ : ٢٩٨ .
(8) ينظر : النص والخطاب والإجراء : ٤١٤ – ٤١٨ .

نهايات القصائد ، وهكذا الأمر مع باقي الأجناس الأدبيّة . ولعلّ سائلاً يسأل ، ((ما هو النمط الذي ينتسب إليه القرآن الكريم ؟ هل هو تعبير علميّ ، أو بالأحرى تعبير واقعيّ ، أو تعبير فنّي ، أو جماليّ عن الحقائق المُشار إليها))[١]. فالنصّ الكريم يعتمد ثلاثة أنماط من التعبير ، هي : الواقعيّ من جانب ، والفنّي من جانب آخر ، والمشترك بينهما من جانب ثالث . والهدف الأساسيّ منه هو إيصال مبادئ الشارع الإلهيّ إلى الإنسان ، وعملية التوصيل المشار إليها ما زالت تتخذ قنوات عدّة ، والمطلوب هو اعقال القناة ، التي توصل الحقيقة إلى المتلقّي ، وعندها من الممكن أنْ نجد موقفاً ما يتطلّب تعبيراً ، أو توصيلاً حقيقيّاً ، أو علميّاً لهذه الظاهرة ، أو تلك ، وفي موقف آخر يتطلّب الموقف تعبيراً فنّياً ، وفي موقف ثالث ، يتطلّب تعبيراً مشتركاً، أي : إنّنا إذا قرأنا آيةً قرآنيّةً كريمة ، سنجدها تُعبّر عن الحقيقة تعبيراً واقعيّاً ، وحين نقرأ سواها نجدها تُعبّر تعبيراً فنّياً ، وحين نطالع آية ثالثة ، يلحظ أنّها تجمع بين التعبير العلميّ ، والتعبير الفنّيّ [٢] . وإذا كان ((لا مفرّ لنا عند تحليل النصوص من توظيف معرفتنا الأدبيّة بخواص الأجناس التي تنتمي إليها هذه النصوص . غير أنّنا بالقدر الذي نرتضي فيه من النصّ الذي نقرؤه إشباع النموذج النوعيّ ، نتوقع منه –أيضاً – أنْ يبتكر بعض الشفرات الجماليّة الخاصّة به ، أو أنْ يقوم بتوظيف ماهر جديد لبعض الشفرات المعروفة من قبل ، ومن ثَمّ فإنّنا نبحث عن خصوصيّته في الإطار العامّ المرن للجنس الأدبيّ ، أو النوعيّ المكتوب فيه))[٣] . أمّا تقسيمات الباحثين لوسائل /مظاهر الحبك ، فيبدو أنّ هنالك اتفاقاً على أغلبها ، فالعلاقات الدلاليّة ، وترتيب الخطاب ، وموضوع الخطاب من المشتركات عندهم مع اختلافهم في المصطلحات الدالّة عليها . أمّا البنية الكليّة / الكبرى ، فيرى محمّد خطابي أنّه لا فارق حقيقيّ بينها وموضوع الخطاب ، لذا ذهب إلى ((أنّ كلاً من موضوع الخطاب ، والبنية الكلّيّة تمثيل دلاليّ إمّا لقضية ما ، أو لمجموعة من القضايا ، أو الخطاب بأكمله))[٤]. وحاول إيجاد الفارق بين الاثنين ، ثم عاد إلى جعلهما شيئاً واحداً ، قال : ((على أنّ الفرق الوحيد بين الاثنين هو أنّ تأسيس البنية الكلّيّة يتمّ عبر عمليات أساسها الحذف والاختزال ، بينما موضوع الخطاب يستخلص عن طريق رصد مجموعة من الجمل التي تخصّ هذا الموضوع . لكن – في اعتقادنا – أنّ نفس العمليّات [٥] يُمكن أنْ تُتقذ للوصول إلى موضوع الخطاب ما دامت النتيجة التي نصل إليها هي هي))[٦].

المبحث الأوّل : العلاقات الدلاليّة

هي الروابط المعنويّة بين جمل النصّ ، فاستمراريّة النصّ وانسجامه يتطلّب وجود علاقات رابطة بين جمله ، ويوضّح علماء النصّ ((الشروط التي تتيح لنا أنْ نعرف ما إذا كانت المتوالية النصّية متماسكة أم لا ، إذ إنّ هذه الشروط التي يتوقّف عليها وجود النصّ ، أو الاعتداد به ، فيرون أنّ التماسك اللازم للنصّ ذو طبيعة دلاليّة ، مهما تدخلت فيه العمليات التداوليّة . وهذا التماسك – بالإضافة إلى ذلك – يتميّز بخاصّية (خطّية) أي أنّه يتّصل بالعلاقات بين الوحدات التعبيريّة المتجاورة داخل المتتالية النصّيّة . فالتماسك يتحدّد على مستوى الدلالات عندما تكون العلاقات قائمة بين المفاهيم ، والذوات ، والمشابهات ، والمفارقات في المجال التصوريّ ، كما يتحدّد على مستوى المدلولات ، أو ما تُشير إليه النصوص من وقائع وحالات))[٧] ، وهذه العلاقات تتّضح في أغلب الأحيان من خلال أدوات الوصل الموجودة بين الجمل ، أو من خلال عناصر الإحالة الرابطة بين الجمل ، فـ ((العلاقات التي تقوم بين الجمل ، أو العبارات في متتالية نصّية يُمكن أنْ ترتكز على الدلالات ، وهي العلاقات الداخليّة ، أو على الروابط بين العناصر المُشار إليها ، أو المدلول عليها في الخارج ، وهي علاقات الامتداد الخارجيّة . فإذا لاحظنا الروابط التي تقوم بين العبارات باعتبارها[٨](كلاً موحّداً) أمكننا أنْ نصوغ لترابطها المبدأ التالي [٩] : ترتبط العبارتان فيما بينهما إذا كان مدلولهما ، أي الظروف المنسوبة إليهما في التأويل مترابطة فيما بينهما))[١٠]. وقد الباحثون[١١] –أيضاً – في تقسيمهم للعلاقات الدلاليّة ، ولعلّ أوسع التقسيمات ، وأكثرها شمولاً ما نقله جميل عبدالمجيد عن أحد الباحثين الغربيّين ، والذي رأى أنّ تقسيمه [أي الباحث الغربيّ] ينماز بـ :

١- أنّ العلاقات قابلة للدراسة التطبيقيّة على مختلف اللغات .
٢- قد يتعدّد الأسلوب المستعمل للتعبير عن علاقة دلاليّة ، أو أخرى ، فمثلاً علاقة الموازنة يُمكن التعبير عنها بفعل يدلّ على المفاضلة ، بدلاً من استعمال عبارة (أفضل من) .
٣- درجة وضوح العلاقات تختلف من لغة إلى أخرى .
٤- قد تدخل البنية الواحدة في أكثر من علاقة مع بنيات عدّة .
٥- هذه لعلاقات قابلة للتطبيق على مستويات متعدّدة من النصوص : الجمل ، والفقرات ، والأجزاء ، صعوداً إلى المجلدات .

وقد صُنّفت العلاقات الدلاليّة في هذا التقسيم على صنفين :

١- علاقات الربط : وهي تنقسم إلى علاقات إضافة ، وعلاقات ثنائيّة .

---

(١) دراسات في علوم القرآن : ٢٠٢ .
(٢) ينظر : دراسات في علوم القرآن : ٢٠٢ – ٢٠٣ .
(٣) بلاغة الخطاب وعلم النصّ : ٣٢٨ .
(٤) لسانيّات النصّ : ٤٤ .
(٥) كذا ، والصحيح : العمليات نفسها .
(٦) نفسه : ٢٧٧ .
(٧) بلاغة الخطاب وعلم النصّ : ٣٢٨ – ٣٢٩ .
(٨) كذا ، والصحيح : بعدّها .
(٩) كذا ، والصحيح : الآتي .
(١٠) بلاغة الخطاب وعلم النصّ : ٣٣٧ .
(١١) ينظر مثلاً : البديع بين البلاغة العربيّة واللسانيّات النصّيّة : ١٤٢ – ١٤٨، وعلم لغة النصّ ، النظريّة والتطبيق : ١٨٧ – ١٨٨ ، ونظريّة علم النصّ ، رؤية منهجيّة في بناء النصّ النثريّ : ١٣٢ .

٢- علاقات التبعيّة : وهي تنقسم إلى : علاقات مؤهّلة ، وعلاقات منطقيّة .
وداخل هذا التصنيف ، والتقسيم تندرج تسع عشرة علاقة دلاليّة ، وهي كالآتي[١] :
الأولى : العلاقات الرابطة : وتُقسّم على :
أ- العلاقات الإضافيّة : وتنقسم إلى :
١- متكافئة : وتربط بين مفهومين تجمعهما دلالة واحدة ، غير أنّهما في شكل سطحيّ مختلف ، مثل : هو لم يمكث ، هو قد غادَرَ .
٢- مختلفة : تربط بين قضيّتين مُتماثلتي المفهوم ، إلاّ أنّه في القضية الثانية إضافة دلاليّة غير التي في القضية الأولى ، ويكون حدوثهما في بنيات متوازية ، أو معكوسة ، مثل : رمى المجلة جانباً ، وأخذ كتاباً ، أو مثل : قد كانت تثرثر داخل الغرفة ، وهو يعمل في المرآب .
ب- العلاقات الثنائيّة : وتنقسم إلى :
١- إبداليّة : وتكون في قضيّتين ، إحداهما تكون بديلة عن الأخرى ، وتتمّ بأدوات ، كـ (أو) ، مثل : أنا سوف آتي ، أو سيأتي محمّد ؛ أو مثل : أتحدّث معه ، أو سأكتب له رسالة .
٢- تقابليّة : وتكون بين قضيّتين بينهما تقابل ، أو تضادّ، ومن أدواتها (لكن – على النقيض – مع ذلك – مع أنّ) ، مثل : كانت الطرق مزدحمة ، ولكنْ وصلتُ في اللحظة الأخيرة. ولعلّ هذه العلاقة تتداخل مع علاقة دلاليّة شائعة في اللغة العربيّة ، وهي علاقة الاستدراك ، التي تؤدى غالباً بالأداة (لكنَّ) .
٣- مقارنة : ويُقارن فيها بين شيئين ، أو حدثين ، ومن أدواتها (أفضل من – كـ -مثل) ، مثل : هو أكثر حذراً من زيد .
الثانية : العلاقات التبعيّة : وتُقسّم على :
أ- العلاقات المؤهّلة : وتنقسم إلى :
١- الجوهر: ويُقسّم على :
أ- المحتوى : وهو ما يُمكن إيضاحه بوصفه خبراً مكمّلاً لخبر آخر ، مثل : هو أراد أنْ يذهب .
ب- الإجمال والتفصيل : وذلك بأن تكون القضيّة الأولى تحمل صفة العموم ، فتتطرق القضيّة الثانيّة إلى تفصيلها ، أو تفسيرها ، أو تخصيصها .
٢- الوصف : ويُقسّم على :
أ- وصف الكلّ أو الجزء : مثل أن تُجسّد القضيّة الثانية وصفاً جزئيّاً للقضيّة الأولى ، مثل : أطلقنا النار على الدب الذي قتل الولد .
ب- الكيفيّة : وتتمّ عن طريق وصف الحدث من خلال حاله ، مثل : أتى زيد إلى المدينة راكباً فرساً.
ت- المحيط أو الإطار : تهتمّ بوصف عنصر الزمان ، والمكان ، وظروف حصول الحدث ، ولذا فهي تنقسم إلى :
١- الزمان : مثل : أمس عمل محمّد بجهدٍ كبير .
٢- المكان : مثل : في الملعب ركض زيد .
٣- الظرف : مثل : عندما سمع أحمد صوت سيّارة الإطفاء تنّحى جانباً .
ب- العلاقات المنطقيّة : وتجسّها العلاقات السببيّة باختلاف أشكالها ، وهي :
١- المسبّب – الأثر : مثل : ذهاب محمّد إلى بغداد تسبّب في مقابلة زيد .
٢- السبب –النتيجة : مثل : لأنّ محمّداً أراد مقابلة زيد ، فقد ذهب إلى بغداد .
٣- الوسيلة –النتيجة : مثل : بالذهاب إلى بغداد قابل محمّد زيداً .
٤- الوسيلة – الغرض : مثل : قرّر محمّد الذهاب إلى بغداد ، كان يريد مقابلة زيد .
٥- الشرط –الجواب : مثل : لو ذهب محمّد إلى بغداد ، لكان قابل زيداً .
٦- الأساس – التحقّق : مثل : زيد يسكن في بغداد ، قابله محمّد في مكان ما فيها .
٧- المفترض –النتيجة : مثل : بما أنّ محمّداً ذهب إلى بغداد ، فمن المؤكد أنّه يُقابل زيداً .
وهذا التقسيم على الرغم من تشعّب علاقاته ، إلاّ أنّه أغفل كثيراً من العلاقات الدلاليّة. ونقلتْ عزّة شبل عن إحدى الباحثات الغربيّات تقسيمها العلاقات الدلاليّة على أساسٍ يقوم على التمييز بين علاقات الاتّصال ، وعلاقات الانفصال بين الجمل ، فكان تقسيمها كالآتي[٢] :
١- علاقات الاتّصال : وهي تُقسّم على :
أ- علاقة الإضافة : بمثل : الواو –أيضاً .
ب- علاقة التشابه : بمثل : على نحو مشابه – بالمثل .
ت- علاقة الاستنتاج : بمثل : لهذا – ومن ثَمّ .
ث- علاقة مقدّمة منطقيّة : بمثل : بسبب – لأنّ .
ج- علاقة التمثيل : بمثل : على سبيل المثال – بالمثل .
ح- علاقة التقرير : بمثل : بمعنى أنّ – باختصار .

---

[١] ينظر : البديع بين البلاغة العربيّة واللسانيّات النصّيّة : ١٤٢ – ١٤٧ ، آليّات الانسجام النصّيّ في خطب مختارة من مستدرك نهج البلاغة للهادي كاشف الغطاء : ٨٨ – ٨٩ .
[٢] ينظر : علم لغة النصّ ، النظريّة والتطبيق : ١٨٩ . وينظر : نظريّة علم النصّ ، رؤية منهجيّة في بناء النصّ النثريّ : ١٣٢ .

خ- علاقة التتابع : بمثل : التالي – وبعد .
٢- علاقات الانفصال : وتُقسّم على :
أ- علاقة البديل : بمثل : أو – الآخر .
ب- علاقة التقابل : بمثل : من ناحية أخرى – على العكس .
ت- علاقة التضمين الممتنع : بمثل : ما زال – على الرغم من .
ث- علاقة المسلّم به : بمثل : بالطبع –تماماً .
ج- علاقة الاستثناء : بمثل : فيما عدا –إلاّ .
ح- علاقة الإحلال : بمثل : بدلاً من –مفضّلاً عن .
خ- علاقة التتابع الشاذ : بمثل : في أثناء ذلك – فجأة .

ولم يذكر علماء النصّ المحدثون علاقة الطلب – الجواب ، وعلاقة السؤال – الجواب ، وغيرها من العلاقات الدلاليّة الرابطة للنصّ ، مع أنّها متوافرة في اللغة العربيّة عامّة ، والقرآن الكريم خاصّة ، فضلاً عن معرفتها ، والإشارة إليها من النحويين ، والبلاغيين القدماء .ولم يكن مفهوم البدليّة المذكور في تقسيماتهم موافقاً لما موجود في اللغة العربية ، فالمفهوم الذي ذكروه يشير إلى العطف القائم على التخيير بين شيئين بوساطة حرف العطف (أو) ، أمّا علاقة البدليّة في اللغة العربيّة ، التي سيقوم البحث باعتمادها ، فهي جملة البدل بحسب مفهومها في النحو العربيّ . وكذلك لم يذكروا الجملة المعترضة ، فهي وإنْ كانت معترضةبين تتابعات الجمل المترابطة ، إلاّ أنها تحقق أثراً دلاليّاً في توضيح غامض ، أو استدراك على معنًى ، قد يُساء فهمه ، أو أنْ يتبادر إلى الذهن إمكان نقضه ، وهو ما سيظهر في البحث . وممّا يُمكن أنْ يُزاد إلى ذلك ، أنّ كلّ لفظٍ ، أو عبارةٍ ، أوجملةٍ ، تحقّق أثراً دلاليّاً في النصّ يجب أنْ يدخل في هذا المبحث ، ولذا سيقوم البحث بالأخذ بكلّ العلاقات المتقدّمة الذكر، زيادة على ما لم يكن للباحثين ذكر له ، ويظهر في أثناء الدراسة. من ذلك دلالة لفظ (مظلماً) في قوله تعالى : **﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَاوَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍكَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾**[1]، فقد نُصب قوله (مظلماً) ((على أنه حال من الليل ، وفيه زيادة معنًى ؛ لأنّ الليل قد سُمّي ليلاً ، وإنْ كان مقمراً ، فإنّما قال سبحانه : مظلماً ، على أنّ التشبيه إنّما وقع به أسود ما يكون جلباباً ، وأبهم أثواباً))[2] . فموقع قوله (مظلماً) في الآية كان لتأدية معنًى إضافيّ لوصف الليل ، وهو أنّه خالٍ من أيّ مقدار من الإضاءة ، التي قد يتبادر إلى الذهن وجودها من خلال ضوء للقمر في الليالي المقمرة ، فكان موقعه احتراساً من اعتراض قد يرد بهذا الخصوص ، وليس لبيان حال الليل . وفيما يأتي عرض أمثلة تطبيقيّة لتلك العلاقات الدلاليّة الموجودة في السور المدنيّة الكريمة :

١- علاقة الإضافة المتكافئة / المترادفة : من ذلك قوله تعالى : **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾**[3]، فالنار في الآية قد تكون بمعنى : جهنّم ، ويكون إطلاقها ((مجازاً مرسلاً بعلاقة الأول ، أو السببيّة ، أي ما يفضي بهم إلى عذاب جهنّم ... وعلى هذا فعطف جملة (وسيصلون سعيراً) عطف مرادف لمعنى جملة (يأكلون في بطونهم ناراً) . ويجوزأن يكون اسم النار مستعاراً للألم ، بمعنى: أسباب الألم ، فيكون تهديداً بعذابدنيويّ ... ويكون عطف جملة (وسيصلون سعيراً) جارياً على ظاهر العطف من اقتضاء المغايرة بين المتعاطفين ، فالجملة الأولى تهديد بعذاب الدنيا ، والجملة الثانية وعيد بعذاب الآخرة))[4] . ولعلّ الرأي الأول هو الأقرب ، إذ إنّ تهديد آكل أموال اليتامى بالعقوبة الآخرويّة أكبر من الدنيويّة ، فمعنى قوله (يأكلون في بطونهم ناراً) : ((إنّ فعل ذلك يصير إلى جهنّم ، فتمتلئ بالنار أجوافهم عقاباً على ذلك الأكل منهم))[5] .

٢- علاقة الإضافة المختلفة : من ذلك قوله تعالى : **﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلا قَلِيلٌ إِلا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًاوَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾**[6]، فقوله (ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم) يعاتب به الله ((سبحانه المؤمنين في التثاقل عن الجهاد [ثم استفهم منهم بقوله] (أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة) هذا استفهام يراد به الإنكار ... ثم عقبه سبحانه بالتهديد ، والوعيد ، فقال (إلاّ تنفروا يعذّبكم الله عذاباً أليماً)))[7] .

٣- علاقة البدليّة : من ذلك قوله تعالى : **﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾**[8]، فجملة (ليهلك مَنْ هلك عن بيّنة) بدل [9]من جملة (ليقضي الله أمراً كان مفعولاً) .

٤- علاقة التقابل : من ذلك قوله تعالى : **﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾**[10]،

---

(1) سورة يونس : ٢٧ .
(2) تلخيص البيان في مجازات القرآن : ١٥٥ .
(3) سورة النساء : ١٠ .
(4) ينظر : تفسير التحرير والتنوير : ٤ / ٤٣ .
(5) التبيان في تفسير القرآن : ٣ / ١٢١ .
(6) سورة التوبة : ٣٨ – ٣٩ .
(7) مجمع البيان : ٥ / ٧٧ – ٧٨ .
(8) سورة الأنفال : ٤٢ .
(9) ينظر : البحر المحيط : ٥ / ٣٢٩ ، وروح المعاني : ١٠ / ٢٨٦ .
(10) سورة النساء : ١٣ – ١٤ .

قابل في الآيتين بين جملة (مَنْ يطع الله ورسوله) ، و(مَنْ يعصِ الله ورسوله) ، فـ ((لمّا ذكر ثواب مراعي الحدود ذكر عقاب مَن يتعدّاها ، وغلظ في قسم المعاصي ، ولم يكتفِ بالعصيان ، بل أكد ذلك بقوله : ويتعدّ حدوده))[١] . وقد جمع الحال من قوله (ومن يطع) بـ (خالدين) ، وأفرده من قوله (من يعصِ) بـ (خالداً) ؛ ((لأنّ أهل الطاعة أهل الشفاعة ، وإذا شفع أحدهم في غيره دخلها معه ، وأهل المعاصي لا يشفعون ، فلا يدخل بهم غيرهم ، فيبقون فرادى . أو للإيذان بأنّ الخلود في دار الثواب بصفة الاجتماع الذي هو أجلب للأنس ، والخلود في دار العقاب بصفة الانفراد الذي هو أشدّ في استجلاب الوحشة))[٢]، وقد ناسب في العقوبة بين العصيان ، ووصف العذاب ، فوصفه بـ (المهين) ؛ ((لأنّ العاصي المتعدّي للحدود برز في صورة مَن اغترّ ، وتجاسر على معصية الله ، وقد تقلّ المبالاة بالشدائد ما لم ينضمّ إليها الهوان))[٣] .

٥- علاقة المقارنة : من ذلك قوله تعالى : ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾[٤] ، فالعلاقة بين قوله (مَن كان على بيّنة) ، وقوله (مَن زُيّن له سوء عمله) علاقة موازنة ، وحرف الاستفهام (الهمزة) ((مستعمل في إنكار المماثلة التي يقتضيها حرف التشبيه. والمقصود من إنكار المشابهة بين هؤلاء ، وهؤلاء هو تفضيل الفريق الأول))[٥]. ويظهر التفضيل في كون الطرف الأول (على بيّنة) ، و((البيّنة : الدلالة الواضحة عقليّة كانتْ أو محسوسة))[٦] ، وقد نسبها إلى الله تعالى ، ووصفه بـ (من ربّه) ، والربّ لا يريد لمربوبه السوء ، وقد أفاد حرف الجرّ (على) الاستعلاء المجازيّ [٧]، فدلّ أنه ((على يقين من دينه ، وعلى حجّة واضحة من اعتقاده في التوحيد والشرائع))[٨]. أمّا الطرف الآخر ، فقد (زُيّن له سوء عمله) ، فدلّ الفعل المبني للمجهول على عدم التكافؤ بين طرفي المقارنة ، وعدم صلاحه ليكون مقارناً لـ (من ربّه) في الطرف الأول ، والمقصود به – أي المُزيِّن المحذوف – الشيطان [٩] ، وتكتمل صورة المقارنة بكونهم (اتبعوا أهواءهم) في مقابل (على بيّنة) ، إذ إنهم ((شغفهم أعمالهم السيّئة التي زيّنها لهم الشيطان ، وتعلّقتْ بها أهواؤهم ، وعملوا السيّئات ، فكم بين الفريقين من فرق))[١٠] .

٦- علاقة المحتوى : من ذلك قوله تعالى : ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ...﴾[١١]، فجملة (إلاّ تنصروه فقد نصره الله) جاءتْ مكمّلة لجملة (لا تضرّوه شيئاً) ، إذ أكمل خبر عدم الضرر بخبر نصر الله - تعالى –له . وجواب الشرط لقوله (إلاّ تنصروه) ((محذوف تفسيره ، فسينصره ، ويدلّ عليه (فقد نصره الله) ، أي : ينصره في المستقبل كما نصره في الماضي))[١٢]. فدلّهم بما حصل في الماضي من عدم إصابته بالضرر على الرغم من ((قلّة ناصريه حين كان بمكة ، وهمّ به الكفّار ، فتولّى الله نصره))[١٣] ، على أنّ نصر الله تعالى له غير منقطع عن النبيّ ρ .

٧- علاقة العام – الخاصّ : من ذلك قوله تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[١٤] ، فقوله (لمَن كان يرجو الله) ((بدل من قوله (لكم) ، وهو تخصيص بعد العموم للمؤمنين ، يعني أنّ الأسوة برسول الله إنّما تكون (لمَن كان يرجو الله) ، أي يرجو ما عند الله من الثواب ، والنعيم))[١٥] .

٨- علاقة الإجمال – التفصيل : من ذلك قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾[١٦]، فقوله (لئن أخرجوا لا يخرجون معهم) ، وما بعده ((تكذيب تفصيليّ لوعدهم بعد تكذيبه الإجماليّ بقوله (والله يشهد إنهم لكاذبون)))[١٧] .

٩- علاقة الكلّ – الجزء : من ذلك قوله تعالى : ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[١٨]،فـ ((لمّا بيّن تعالى أحكام القتل ، وأنواعه ، عقّب ذلك بالأمر بالتثبّت ، والتأني حتى لا يفعل ما يعقب

---

(١) البحر المحيط : ٣ / ٥٥١ .
(٢) روح المعاني : ٤ / ٦٠١ .
(٣) البحر المحيط : ٣ / ٥٥١ .
(٤) سورة محمّد : ١٤ .
(٥) تفسير التحرير والتنوير : ٢٦ / ٧٨ .
(٦) مفردات ألفاظ القرآن : ١٥٧ (بان).
(٧) تفسير التحرير والتنوير : ٢٦ / ٧٨ .
(٨) مجمع البيان : ٩ / ٢٤٦ – ٢٤٧ .
(٩) ينظر : التبيان : ٩ / ٢٣٥ ، والميزان في تفسير القرآن : ١٨ / ٤٥٢ .
(١٠) الميزان في تفسير القرآن : ١٨ / ٤٥٢ .
(١١) سورة التوبة : ٣٩ – ٤٠ .
(١٢) البحر المحيط : ٥ /٤٢٠ .
(١٣) مجمع البيان : ٥ /٧٩ .
(١٤) سورة الأحزاب : ٢١ .
(١٥) مجمع البيان : ٨ / ٢١٠ . وينظر : تفسير الكشاف : ٣ /٥١٥ .
(١٦) سورة الحشر : ١١ – ١٢ .
(١٧) الميزان في تفسير القرآن : ١٩ /١٦٣ . وينظر : إرشاد العقل السليم : ٨ / ٢٣١ ، وروح المعاني : ٢٨ / ٣٤٩.
(١٨) سورة النساء : ٩٣ – ٩٤ .

الندامة))[1] فجملة (ولا تقولوا لمَنْ ألقى إليكم السلام لستَ مؤمناً) ترتبط بعلاقة الجزئيّة مع الأحكام المتقدّمة عليها ، وفيها ((تعيين لمادة مهمة من الموادّ التي يجب فيها التبيين))[2] ؛ ولذا فقد جاء بها مستأنفة بعد أن ذكر الأحكام الخاصّة بالقتل العمد للمؤمنين ((؛ استقصاءً للتحذير من قتل المؤمن بذكر أحوال قد يُتساهل فيها ، وتعرض فيها شبه))[3].

١٠- علاقة الكيفيّة : من ذلك قوله تعالى : ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ**﴾[4] ، فقوله (وهم راكعون) حال من الضمير في قوله (يؤتون)[5] ، وجوّز الزمخشريّ أن تكون (الواو) حاليّة من قوله (يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة) ، ((أي يعملون ذلك في حال الركوع ، وهو الخشوع ، والإخبات ، والتواضع لله إذا صلّوا ، وإذا زكوا))[6] ، ويبدو أنّ هذا الرأي فيه نظر ، لأنّ ذلك يتعارض من حيث المعنى مع قوله (يقيمون الصلاة) ، والركوع جزء منها ، فلا يكون مبيّناً لكيفيّتها ، وقد نصّتْ الروايات على أنّها نزلتْ في حالة خاصّة لمَن قام بأداء الزكاة ، وهو راكع ، وذلك الشخص هو الإمام عليّ A ، إذ ((تصدّق بخاتمه ، وهو راكع في الصلاة))[7] . وفي ذلك دلالة على أنّه لا يترك عملاً فيه الخير للمسلمين إلاّ ويشارك به ، فـ ((المراد بيان كمال رغبتهم في الإحسان ، ومسارعتهم إليه))[8] .

١١- علاقة المحيط أو الإطار : وتُقسّم على :

أ- الزمان : من ذلك قوله تعالى : ﴿ **... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ...** ﴾[9] ، فظرف الزمان (اليوم) يدلّ على زمان معيّن ، يتناسب مع تشريع إلهيّ ، قد بلّغه النبيّ ٦، وبه كان إكمال الدين ، وإتمام النعمة . ورأى بعض المفسّرين أنّه ((لم يرد به يوماً بعينه ، وإنّما أراد به الزمن الحاضر ، وما يتّصل به ، ويدانيه))[10] ، في حين رأى آخرون أنّ فيه ((أكملتُ لكم فرائضي ، وحدودي ، وحلالي ، وحرامي بتنزيلي ما أنزلت ، وبياني ما بيّنت لكم ، فلا زيادة في ذلك ، ولا نقصان منه بالنسخ بعد هذا اليوم ، وكان ذلك يوم عرفة عام حجّة الوداع))[11] . وفي تقديم الجار والمجرور في موضعين من قوله (أكملتُ لكم دينكم وأتممتُ عليكم نعمتي) ((إيذان من أول الأمر بأنّ الإكمال لمنفعتهم ، ومصلحتهم))[12] .

ب- المكان : من ذلك قوله تعالى : ﴿**إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ...**﴾[13] ، فالتعبير بـ (العدوة الدنيا) ، و(العدوة القصوى) ، و(أسفل منكم) ، ظروف مكانيّة ترتبط بالحدث الرئيس ، وهو يوم بدر[14] ، فـ (((الدنيا) بمعنى الأدنى إلى المدينة ، و(القصوى) بمعنى الأقصى منها جهة مكة ... فنزلا الوادي بهذه الصفة ... وقوله (والركب أسفل منكم) ، يعني أبا سفيان ، وأصحابه في موضع أسفل منكم إلى ساحل البحر ، وإنّما نُصب (أسفل) ؛ لأنّ تقديره : بمكان أسفل))[15] .

ت- علاقة الظرف : من ذلك قوله تعالى : ﴿**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ**﴾[16]، فالظرف (إذ) يربط جملة (تستغيثون ربّكم) ، بجملة (فاستجاب لكم) . و(إذ) ظرف لما مضى ، وهي بمعنى : حين [17] ، و((الاستغاثة : طلب المعونة ، والغوث ... والاستجابة : هي العطية على موافقة المسألة ، فمعناه : فأغاثكم ، وأجاب دعاءكم))[18] . وعلى الرغم من أنّ (إذ) داخلة على صيغة استقبال في قوله (تستغيثون) إلاّ أنّها ((لحكاية الحال المضية ؛ لاستحضار صورتها العجيبة))[19] . وجاءت دلالة (السين و التاء) في قوله (فاستجاب) مقابلة لنظيرتهما في قوله (تستغيثون) الدالّة على الطلب ، أي تدلّ ((على قبول الطلب ، والسين والتاء للمبالغة ، أي تحقيق المطلوب))[20] .

١٢- العلاقات المنطقيّة : وتنقسم إلى :

أ- علاقة المسبّب – الأثر : من ذلك قوله تعالى : ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا**

---

(1) مجمع البيان : ٣ / ٢٣٨ .

(2) إرشاد العقل السليم : ٢ / ٢١٨ .

(3) تفسير التحرير والتنوير : ٤ / ٢٢٥ .

(4) سورة المائدة : ٥٥ .

(5) ينظر : البيان في غريب إعراب القرآن : ١ / ٢٩٧ . وينظر : أوار التنزيل زأسرار التأويل : ٢ / ٣٣٩ ، وإرشاد العقل السليم : ٣ / ٥٢ .

(6) تفسير الكشاف : ١ / ٦٣٥ .

(7) البحر المحيط : ٤ / ٣٠١ . وينظر : الكشاف : ١ / ٦٣٥ ، و أنوار التنزيل وأسرار التأويل : ٢ / ٣٣٩ ، وإرشاد العقل السليم : ٣ / ٥٢ ، وروح المعاني : ٦ / ٤٥٨ .

(8) روح المعاني : ٦ / ٤٥٨ . وينظر : إرشاد العقل السليم : ٣ /٥٢ .

(9) سورة المائدة : ٣ .

(10) تفسير الكشاف : ١ / ٥٩٢ . وينظر : أنوار التنزيل وأسرار التأويل : ٢ / ٢٩٣ ، وروح المعاني : ٦ /٣١٨ .

(11) مجمع البيان : ٣ / ٣٩٤ . وينظر : التبيان في تفسير القرآن : ٣ / ٤١٠ ، وأسباب النزول : ٩٨ – ٩٩ ، وروح المعاني : ٦ / ٣١٩ .

(12) أرشاد العقل السليم : ٣ / ٧ .

(13) سورة الأنفال : ٤٢

(14) ينظر : التبيان في تفسير القرآن : ٥ / ١١٤ ، وتفسير الكشّاف : ٢ / ٢١٦ ،وروح المعاني : ١٠ / ٢٨٤ .

(15) التبيان في تفسير القرآن : ٥ / ١١٤ . وينظر : تفسير الكشاف : ٢ / ٢١٦ .

(16) سورة الأنفال : ٩ .

(17) ينظر : رصف المباني : ١٤٨ ، والجنى الداني : ١٨٥ – ١٨٦ ، ومغني اللبيب : ١ / ٩٤ – ٩٥ .

(18) مجمع البيان : ٤ / ٦٢١ – ٦٢٢ .

(19) روح المعاني : ٩ / ٢٢٧ – ٢٢٨ .

(20) تفسير التحرير والتنوير : ٩ / ٣٣ .

﴾[1] ، فجملة (يصدّون عنك صدوداً) جاءتْ مسبّبةً لأثر ، وهو جملة (فكيف إذا أصابتهم مصيبة) ؛ ولأنّ الصدود عمّا أنزل الله يُوجب غضبه – عزّ وجلّ – عليهم ، فيكون ذلك سبباً في أن يصيبهم بمصيبة [2] ، وذلك ((بافتضاحهم بظهور نفاقهم (بما قدّمت أيديهم) ؛ بسبب ما عملوا من الجنايات التي من جملتها التحاكم إلى الطاغوت ، والإعراض عن حكمك))[3].

ب- علاقة السبب – النتيجة : من ذلك قوله تعالى : ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾[4] ، فقوله (وإذا ضربتم في الأرض) سبب ، نتيجته جملة (تقصروا من الصلاة). ومعنى قوله (ضربتم في الأرض) : ((أي سرتم فيها))[5] . إنّ تقصير الصلاة في الآية مقيّد بقوله (إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا) ، فـ ((ظاهر الآية يقتضي أنّ القصر لا يجوز إلاّ عند الخوف ، لكنّا علمنا جواز القصر عند الأمن ببيان النبيّ ρ))[6] . ويبدو أنّ التشريع بدأ بتقصير الصلاة في السفر ، مع تقييد السفر بالخوف من العدوّ ، ثمّ اقتصرتْ على السفر فقط ، ورأى العلاّمة الطباطبائيّ : أنّ قوله (إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا) ((قيد لقوله (فليس عليكم جناح) ، وتفيد أنّ بدء تشريع القصر في الصلاة إنّما كان عند خوف الفتنة ، ولا ينافي ذلك أن يعمّ التشريع ثانياً جميع صور السفر الشرعيّ ، وإن لم يجامع الخوف ، فإنّما بيّن قسماً منه ، والسنّة بيّنتْ شموله لجميع الصور))[7] . وقد جاء التعبير عن هذا الحكم الشرعي بتعبير يوهم عدم الوجوب فيه ، إذ قال (فليس عليكم جناح أن تقصروا) ، ((ونفي الجناح الظاهر وحده في الجواز لا ينافي وروده في السياق للوجوب كما في قوله تعالى ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [8] ، مع كون الطواف واجباً ، وذلك أنّ المقام مقام تشريع))[9] .

ت- علاقة الوسيلة – النتيجة : من ذلك قوله تعالى : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ ...﴾[10] ، إذ جعل جملة (فلِمَ يُعذّبكم بذنوبكم) وسيلة لبناء نتيجةٍ عليها ، وهي جملة أنتم بشر ممّن خلق) ، فمعنى الجملتين : ((فلأيّ شيءٍ يعذّبكم بذنوبكم إن كان الأمر على ما زعمتم ، فإنّ الأب يشفق على ولده ، والحبيب على حبيبه ، فلا يعذّبه ... ليس الأمر على ما قلتم : إنّكم أبناء الله وأحباؤه ، بل أنتم خلق من بني آدم ، إن أحسنتم جوزيتم على إحسانكم ، وإنْ أسأتم جوزيتم على إساءتكم كما يُجازى غيركم))[11] .

ث- علاقة الشرط – الجواب : من ذلك قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾[12] ، فقد رتّب الجواب في جملة (فما بلّغتَ رسالته) على الشرط في جملة (إنْ لم تفعل)[13] ، بمعنى : ((إنْ لم تُبلّغ منها أدنى شيء ، وإنْ كان كلمةً واحدةً ، فأنت كمَن ركب الأمر الشنيع الذي هو كتمان كلّها))[14].

ج- علاقة الأساس – التحقّق : من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ... لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾[15] ، فقوله – عزّ وجلّ – (وآتوا اليتامى أموالهم) جاء تأسيساً لحكم تحقّق في جملة (للرجال نصيب ممّا ترك الوالدان ...) ، فالرابط الدلاليّ بين الآيتين أنّه شرع ((في بيان أحكام المواريث بعد بيان أحكام أموال اليتامى المنتقلة إليهم بالإرث))[16]. وقد أفرد المرأة بالذكر ، فلم يقل : للرجال والنساء ، وإنّما خصّها بالذكر ؛ لأنّه ((كانت العرب لا يعطون البنات))[17] ، أو ((للإعتناء بأمرهنّ ، والإيذان بأصالتهنّ في استحقاق الإرث))[18].

ح- علاقة المفترض – النتيجة : من ذلك قوله تعالى : ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾[19] ، فجملة (تخافنّ من قوم خيانة) ، المفترضة الوقوع ، كانتْ نتيجتها جملة (فانبذ إليهم على سواء) ،

---

(1) سورة النساء : ٦١ – ٦٢ .

(2) ينظر : تفسير التحرير والتنوير : ٤ / ١٧٣ .

(3) إرشاد العقل السليم : ٢ / ١٩٥ . وينظر : أنوار التنزيل وأسرار التأويل : ٢ / ٢٠٨ .

(4) سورة النساء : ١٠١ .

(5) نزهة القلوب : ٣٠٧ . وينظر : مفردات ألفاظ القرآن : ٥٠٥ (ضرب). وينظر : بصائر ذوي التمييز : ٣ / ٤٦٥ ، إذ نقل أنّ معناها : الإسراع في السير .

(6) مجمع البيان : ٣ / ٢٥٢ . وينظر : تفسير الكشاف : ١ / ٥٤٦ – ٤٥٧ ، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل : ٢ / ٢٤٥ – ٢٤٦ ، وإرشاد العقل السليم : ٢ / ٢٢٥ .

(7) الميزان في تفسير القرآن : ٥ / ٤٥ .

(8) سورة البقرة : ١٥٨ .

(9) الميزان في تفسير القرآن : ٥ / ٤٥ .

(10) سورة المائدة : ١٨ .

(11) مجمع البيان : ٣ / ٤٣٦ – ٤٣٧ . وينظر : البحر المحيط : ٤ / ٢١٣ ، والميزان في تفسير القرآن : ٥ / ١٧٩.

(12) سورة المائدة : ٦٧ .

(13) ينظر : إعراب القرآن : ٣٩١ – ٣٩٢ .

(14) تفسير الكشاف : ١ / ٦٤٦ . وينظر : البحر المحيط : ٤ / ٣٢١ – ٣٢٢ ، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل : ٢ / ٣٤٧ – ٣٤٨ ، وإرشاد العقل السليم : ٣ / – ٦١ ، والتحرير والتنوير : ٥ / ١٥٦

(15) سورة النساء : ٢ ، ٧ .

(16) روح المعاني : ٤ / ٥٧٠ .

(17) البحر المحيط : ٣ / ٥٢٤ .

(18) إرشاد العقل السليم : ٢ / ١٤٦ .

(19) سورة الأنفال : ٥٨ .

فمعنى الآية : ((إن خفتَ – يا محمّد – من قوم ، بينك وبينهم عهد ، خيانة فيهم ؛ لأنّ الخيانة إنّما تكون بعد تقدّم العهد ، ولم يظهر نقض العهد بعد))[١] . والخوف في اللغة : ((توقع مكروه عن إمارةٍ مظنونة ، أو معلومة))[٢] . ورأى الآلوسيّ أنّ الخوف في الآية ((مستعار للعلم ، أي : وإمّا تعلمنَّ من قومٍ معاهدين لك نقض عهد فيما سيأتي بما يلوح لك منهم من الدلائل))[٣] .

١٣- علاقة التشابه : من ذلك قوله تعالى : ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾[٤]. فقد جاء التشبيه في الآية الكريمة لتقريب حال اليهود ، وهم قد حفظوا ا لتوراة ، ولم يعملوا بها ، إذ إنّها شبّهتْ ((حملة التوراة ، وقرّاؤها ، وحفاظ ما فيها ، ثمّ إنّهم غير عاملين بها ، ولا منتفعين بآياتها بالحمار حمل أسفاراً ، أي كتباً كباراً من كتب العلم ، فهو يمشي بها ، ولا يدري منها إلاّ ما يمرّ بجنبيه ، وظهره من الكدّ ، والتعب . وكلّ مَن علم ، ولم يعمل بعلمه فهذا مثله))[٥]. ويبدو أنّ استعمال الفعل المضعّف (حُمّلوا) ، وهو فعل متعدٍ أصلاً ، ليتعدى إلى مفعولين ، أضاف معنًى آخر ، وهو أنهم قد حُمّلوا غير راغبين ، ولا مؤمنين بما حمّلوا ، وكأنّ الأمر قد فُرض عليهم ؛ ولذا قال (ثمّ لم يحملوها) ((حقّ حملها من أداء حقّها ، والعمل بموجبها ؛ لأنهم حفظوها ، ودوّنوها كتبهم ، ثمّ لم يعملوا بما فيها))[٦]. وقد استعمل لفظ (الأسفار) بدل الكتب ؛ لأنّ السفر هو ((الكتاب الذي يسفر عن الحقائق ... وخصّ لفظ الأسفار في هذا المكان تنبيهاً أنّ التوراة – وإن كانت تحقّق ما فيها – فالجاهل لا يكاد يستبينها كالحمار الحامل لها))[٧] .

١٤- علاقة التمثيل : من ذلك قوله تعالى : ﴿ **لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ** ﴾[٨] ، فقوله (ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم) ، جاءتْ تمثيلاً ((بشواهد ما سبق من نصر الله المسلمين))[٩] ، التي أشار إليها في جملة (لقد نصركم الله في مواطن كثيرةٍ) ، والمواطن جمع ، مفرده : موطن ، وهو ((الموضع الذي يقيم فيه صاحبه ، وإنّما قد أقاموا في هذه المواطن للقتال))[١٠]. ورأى الزمخشريّ أنّ قوله (يومَ حنين) منصوب ((بفعل مضمر لا بهذا الظاهر))[١١] ، والتقدير : ونصركم يوم حنين ، ويبدو أنّ هذا التقدير يدلّ على تخصيصه ، والاهتمام به ؛ وذلك لـ ((كون شأنه عجيباً ، وما وقع فيه غريباً للظفر بعد اليأس ، والفرج بعد الشدّة))[١٢]. وقد استشكل المفسّرون التغاير بين المتعاطفين ؛ لدلالة الأول على المكان ، والثاني على الزمان ، ولذا فقد حاولوا أن يقدّروا محذوفاً يجمعهما ، والتقدير : ((وموطن يوم حنين ، ويجوز أن يقدّر في أيام مواطن))[١٣]. وقد يكون في هذا التغاير بعداً إعلاميّاً للحدث، إذ إنّ هذا ((التغيير للإيماء إلى ما وقع فيه من قلـّة الثبات من أول الأمر))[١٤]؛ فهم قد أعجبتهم كثرتهم أولاً ، وظنّوا أنّ النصر حليفهم في ذلك اليوم ؛ لأنهم قد انتصروا ، وهم قلـّة فانتصارهم مع الكثرة أولى ، فحصل ما لم يتوقعوا ، فانهزموا بادئ الأمر ، ثمّ عادتْ الكفّة إلى صالحهم بنصر من الله تعالى ، لا بسبب كثرتهم .

١٥- علاقة الاستثناء : من ذلك قوله تعالى : ﴿ **... فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا إِلا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ ...** ﴾[١٥]، فجملة (إلاّ الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق ...) ((استثناء متّصل من مفعول (فخذوهم واقتلوهم)))[١٦]. ورأى أبو عبيدة أنّ معنى (يصلون) : ينتسبون ، إذ إنّ معنى الآية : ((فإذا كانوا من أولئك القوم الذين بينكم ، وبينهم ميثاق ، فلا تقتلوهم))[١٧]. ونقل أبو حيّان عن النحاس ، قوله : ((هذا غلط عظيم ؛ لأنه ذهب إلى أنه تعالى حظر أن يُقاتل أحد ، بينه وبين المسلمين نسب ، والمشركون قد كان بينهم وبين المسلمين السابقين أنساب))[١٨]. وذهب أكثر المفسّرين إلى أنّ معنى (يصلون) هو الوجود المكانيّ ، فمعنى الآية : ((مَن وصل من هؤلاء إلى قوم بينكم ، وبينهم موادعة ، وعهد ، فدخلوا فيهم بالحلف ، أو الجوار ، فحكمهم حكم أولئك في حقن دمائهم))[١٩]. ويبدو أنّ المعنيين مطلوبان في النصّ ، فالذي ينتسب إلى القوم الذين لهم ميثاق مع النبيّ ρ ،

---

(١) مجمع البيان : ٤ / ٦٨٨ . وينظر : البحر المحيط : ٥ / ٣٤٠ .
(٢) مفردات ألفاظ القرآن : ٣٠٣ ، وينظر : بصائر ذوي التمييز : ٢ / ٥٧٦ (خوف) .
(٣) روح المعاني : ١٠ / ٣٠٦ .
(٤) سورة الجمعة : ٥ .
(٥) تفسير الكشاف : ٤ / ٥١٨ . وينظر : التبيان في تفسير القرآن : ١٠ / ٦ ، ومجمع البيان : ١٠ / ١٢ .
(٦) مجمع البيان : ١٠ / ١٢ .
(٧) مفردات ألفاظ القرآن : ٤١٢ (سفر). وينظر : بصائر ذوي التمييز : ٣ / ٢٢٥ .
(٨) سورة التوبة : ٢٥ .
(٩) تفسير التحرير والتنوير : ١٠ / ٥٧ .
(١٠) التبيان في تفسير القرآن : ٥ / ١٧٧ .
(١١) تفسير الكشاف : ٢ / ٢٥١ .
(١٢) روح المعاني : ١٠ / ٣٧٢ .
(١٣) تفسير الكشاف : ٢ / ٢٥١ ، وينظر : البحر المحيط : ٥ / ٣٩٢ ، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل : ٣ / ١٣٧ ، وإرشاد العقل السليم : ٢ / ٥٥ ، وروح المعاني : ١٠ / ٣٧٢ .
(١٤) إرشاد العقل السليم : ٤ / ٥٥ .
(١٥) سورة النساء : ٨٩ – ٩٠ .
(١٦) الجواهر الحسان : ٢ / ٢٧٥ . وينظر : البحر المحيط : ٤ / ١١ .
(١٧) مجاز القرآن : ١ / ١٣٦ . وينظر : مفردات ألفاظ القرآن : ٨٧٣ ، وبصائر ذوي التمييز : ٥ / ٢٢٥ ، إذ إنهما قد ذهبا إلى أنّ هذا هو معنى المفردة .
(١٨) البحر المحيط : ٤ / ١١ .
(١٩) مجمع البيان : ٣ / ٢٢٢ . وينظر : البحر المحيط : ٤ / ١١ ، والجواهر الحسان : ٢ / ٢٧٥ .

من الأصل في ذلك العهد . ومَن يصل إليهم بالمكان ، فداخل في الميثاق ، إذ إنّهم قالوا في موادعتهم النبيّ ρ : ((على أن لا تحيف – يا محمّد – مَن أتانا ، ولا نحيف مَن أتاك))[١] .

١٦- علاقة الترتيب / التتابع : من ذلك قوله تعالى : ﴿ **الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا** ﴾ [٢] ، فالعلاقة بين الجمل (فعظوهنّ) ، و(واهجروهنّ) ،و(واضربوهنّ) علاقة ترتيب ، وليستْ علاقة جمع ، قال الزمخشريّ : ((أمر بوعظهنّ أولاً ، ثمّ هجرانهنّ في المضاجع ، ثمّ بالضرب إنْ لم ينجح فيهنّ الوعظ ، والهجران))[٣] . وممّا له صلةً بهذه العلاقة ، ما سمّاه بعض المفسّرين[٤] بـ (الترتيب الرتبيّ) ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ **فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ** ﴾ [٥] ، قال أبو السعود [ت ٩٥١هـ] : ((وثمّ للتراخي الرتبيّ ، فإنّ نسبة المحرّف والتأويل الزائغ إلى الله سبحانه صريحاً أشدّ شناعة من نفس التحريف والتأويل))[٦] ، ومثله قوله تعالى : ﴿ **إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ** ﴾ [٧]. قال الآلوسيّ : ((يُحمل معنى (ثمّ) [الآية] على التراخي الرتبيّ ، والترقي من كلام إلى آخر ، لا على التراخي في الزمان))[٨]. وقوله تعالى : ﴿ **... وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ** ﴾[٩] ، فجملة (ثمّ إنّ كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون) ، أفادتْ ترتيباً رتبياً فضلاً عن الترتيب الزمني ؛ ((لأنّ مجيء الرسل بالبيّنات شأن عجيب ، والإسراف في الأرض بعد تلك البيّنات أعجب))[١٠] .

١٧- علاقة الاستدراك : من ذلك قوله تعالى : ﴿ **إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** ﴾[١١] ، فجملة (ولكنّ الله سلـّم) جاءتْ مُستدركة للجملة الشرطيّة (ولو أراكهم كثيراً لفشلتم)، إذ إنّ المعنى : ((ولكنّ الله سلـّم من الفشل ، والتنازع ، والاختلاف بإرايته له ρ الكفار قليلاً))[١٢]. وقد ذكر الله – تبارك وتعالى – وكانتْ القاعدة اللغويّة تقتضي وضع الضمير العائد عليه موضعه ؛ وذلك ((لقصد زيادة إسناد ذلك إلى الله ، وأنّه بعنايته ، واهتماماً بهذا الحادث))[١٣] .

١٨- علاقة التقييد – الإطلاق : من ذلك قوله تعالى : ﴿ **كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلا وَلا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ... لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلا وَلا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ** ﴾ [١٤]، فجملة (لا يرقبوا فيكم إلاً ولا ذمة) مقيّدة بالمخاطبين من المسلمين ، وجاءتْ جملة (لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمّة) مُطلقةً لهذا التقييد بدلالة لفظة (مؤمن) النكرة ، التي تُفيد معنى التعميم [١٥] ؛ وذلك للدلالة على ((أنّ عدم مراعاتهم حقّ الحلف ، والعهد خُلق متأصل فيهم))[١٦]. وزيادة على ذلك ، فقوله (فيكم) عائدة على المخاطبين من المؤمنين في عصر النبيّ ρ ، وإطلاقها بـ (مؤمن) العامّة لـ ((تنبيه على الوصف الموجب للعداوة ، وهو الإيمان ، ولمّا كان قوله (لا يرقبوا فيكم) يتوهّم أنّ ذلك مخصوص بالمخاطبين ، نبّه على علّة ذلك ، وأنّ سبب المنافاة هو الإيمان))[١٧] .

١٩- علاقة الاستبدال / النسخ : من ذلك قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾ [١٨] ، ولعلّ هذه العلاقة ممّا امتازتْ به الشريعة الإسلاميّة ، التي راعت النفس الإنسانيّة ، التي تربّتْ على أخلاق معيّنة ، وأعراف متوارثة ، كان أغلبها لا ينسجم مع مبادئ الدين الحنيف ؛ لذا جاءتْ أحكام الشريعة متدرّجةً على وجه العموم في القضايا الشرعيّة ، العباديّة منها ، والتعامليّة ، بل وفي مجال القضيّة الواحدة ، التي من مصداقها هاتان الآيتان اللتان تُحدّدان تعداد الجيش المسلم المحارب ، إذ جاء الحكم المنسوخ في جملة (إنْ يكن منكم عشرون

---

(١) مجمع البيان : ٣ / ٢٢٣ .
(٢) سورة النساء : ٣٤ .
(٣) تفسير الكشاف: ١ / ٤٩٦ . وينظر : التبيان في تفسير القرآن : ٣ / ١٨٣ ، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل : ٢ / ١٨٥ ، وإرشاد العقل السليم : ٢ / ١٧٤ ، وروح المعاني : ٥ / ٣٤ – ٣٥ .
(٤) ورد هذا المصطلح عند أبي السعود ، والآلوسيّ ، والطاهر بن عاشور .
(٥) سورة البقرة : ٧٩ .
(٦) إرشاد العقل السليم : ١ / ١٢٠ . ومثله في : ١ / ٨٨ ، ١٠١ ، ١٠٦ ، ١٠٦ ،
(٧) سورة آل عمران : ٥٥ .
(٨) روح المعاني : ٣ / ٢٤٣ .
(٩) سورة المائدة : ٣٢ .
(١٠) تفسير التحرير والتنوير : ٥ / ٩٠ .
(١١) سورة الأنفال : ٤٣ .
(١٢) البحر المحيط : ٥ / ٣٣٠ . وينظر : مجمع البيان : ٤ / ٦٧٣ ، وإرشاد العقل السليم : ٤ / ٢٤ ، وروح المعاني : ١٠ / ٢٨٨ ، وتفسير التحرير والتنوير : ٩ / ١١٧ .
(١٣) تفسير التحرير والتنوير : ٩ / ١١٧ .
(١٤) سورة التوبة : ٨ ، ١٠ .
(١٥) ينظر : البحر المحيط : ٥ / ٣٧٨ ، وروح المعاني : ١٠ / ٣٥١ .
(١٦) تفسير التحرير والتنوير : ١٠ / ٣٢ .
(١٧) البحر المحيط : ٥ / ٣٧٨ .
(١٨) سورة الأنفال : ٦٥ – ٦٦ .

صابرون يغلبوا مئتين) ، ثمّ نُسخ بقوله : (فإنْ يكن منكم مئة صابرة يغلبوا مئتين) ؛ ((لأنّ في الأولى كان وجوب ثبات الواحد للعشرة ، والعشرة للمئة ، فلمّا علم الله تعالى أنّ ذلك يشقّ عليهم ، وتغيّرت المصلحة في ذلك نقلهم إلى ثبات الواحد للاثنين ، والمئة للمئتين))[١]. ومعنى قوله (علم فيكم ضعفاً) : ((ضعف البصيرة ، والعزيمة ، ولم يرد ضعف البدن ، فإنّ الذين أسلموا في الابتداء لم يكونوا كلّهم أقوياء البدن))[٢]. وجاء هذا التشريع في عدد المقاتلين بصيغة الجملة الخبريّة المتمثّلة بجملة الشرط في المنسوخ ، والناسخ ، فـ ((هاتان الجملتان الشرطيتان في ضمنهما الأمر بصبر عشرين لمئتين ، وبصبر مئة لألف ؛ولذلك دخلها النسخ ، إذ لو كان خبراً محضاً لم يكن فيه النسخ ، لكن الشرط إذا كان فيه معنى التكليف جاز فيه النسخ ، وهذا من ذلك))[٣] .

٢٠- علاقة الطلب – الجواب : من ذلك قوله تعالى : ﴿ **قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ** ﴾[٤] ، فالطلب في قوله (قاتلوهم) ، جاء جوابه في جملة (يُعذّبْهم الله بأيديكم)[٥]. وقد جاء جواب الطلب دالاً على الوعد للمسلمين بالنصر ، وأنّ الله يعذّب المشركين ((بأيديهم قتلاً ، ويخزيهم أسراً ، ويوليهم النصر ، والغلبة عليهم))[٦]. وقد أسند التعذيب للكفار إلى الله – عزّ وجلّ- للدلالة على أنّ ذلك لا يكون إلاّ بالمشيئة ، والأمر الإلهيّ ، وهم ليسوا سوى الأداة المنجزة لهذا الأمر. وممّا يدخل في هذه العلاقة ، علاقة (السؤال – الجواب) ، وقد ورد هذا النوع من العلاقة كثيراً في النصّ القرآنيّ الكريم ؛ وذلك لكثرة الأسئلة التي كان يتعرّض لها النبيّ ρ من قِبَل المسلمين والمشركين ، وأهل الكتاب ، من ذلك قوله تعالى : ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [٧].

٢١- علاقة الاعتراض : من ذلك قوله تعالى : ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ** ﴾[٨]، فالجملة (وكثير حقّ عليه العذاب) جاءت في سياق الكلام عمّن يسجد ، فـ ((كيف رُفع الكثير ، وهو لم يسجد ؟ فالجواب في ذلك أنّ قوله :(حقّ عليه العذاب) يدلّ على أنّه : وكثير أبى السجود))[٩] ، فقد ((انقطع ذكر الساجدين ، ثمّ ابتدأ فقال : (وكثير حقّ عليه العذاب) ، أي : ممّن أبى السجود))[١٠] ، فتكون الجملة معترضة ، وجملة (إنّ الله يفعل ما يشاء) في محل العلة لها ؛ ((لأنّ وجود حرف التوكيد في أوّل الجملة مع عدم المنكر يُمحّض حرف التوكيد إلى إفادة الاهتمام ، فنشأ من ذلك معنى السببيّة والتعليل))[١١] .

٢٢- علاقة التمهيد : من ذلك قوله تعالى : ﴿ **لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً** ﴾[١٢] ،فقوله (منفكين حتى تأتيهم البيّنة) جاء تمهيداً [١٣] لقوله (رسول من الله يتلو صحفاً مطهّرة)، إذ إنّ الإتيان على ذكر البيّنة ، ثمّ التصريح بعدها بـ (رسول من الله) للدلالة على أنّ ((المراد هو الإشارة إلى أنّ الرسول ρ من مصاديق الحجّة البيّنة القائمة على الناس ، التي تقتضي قيامها السنّة الإلهيّة الجارية في عباده))[١٤] .

المبحث الثاني : موضوع الخطاب

يُعدّ موضوع الخطاب بنية دلاليّة ، بوساطتها يُوصف الخطاب بأنّه منسجم ، فـ ((موضوعات الخطاب ترد المعلومات السيمانطيقيّة ، وتنظّمها ، وترتبها تراكيب متوالية ككلّ شامل))[١٥] ، فهو((بؤرة الخطاب التي تُوحّده ، وتكوّن الفكرة العامّة ، أو هو ما يدور حوله الخطاب ، أو ما يقوله ، أو ما يُقدّمه ... على أنّ ما نحمله في رؤوسنا بعد قراءة النصّ ، هي تلك العناصر التي تُمثّل موضوع الخطاب))[١٦] . إنّ النصّ يتناول قضية ، أو مجموعة قضايا تجمعها وحدة موضوعيّة ؛ وذلك لأنّ ((مجموعة من الجمل لا تدور حول موضوع موحّد يصعب إيجاد روابط بينها ، ومن ثمّ لا تكون نصّاً . ومن مقتضيات الوحدة الموضوعيّة اجتناب التناقض ، والانتقال غير المبرّر[١٧] من فكرة إلى أخرى ، لا تربطها بها أية صلة منطقيّة)) [١٨].

((في سورة البقرة ، التي تنتظمها عشرات الموضوعات كما هو واضح ، نجد أنّ هذه الموضوعات تتناغم فيما بينها من

---

(١) التبيان في تفسير القرآن : ٥ / ١٣٩ . وينظر : تفسير الكشاف : ٢ / ٢٢٧ ، ومجمع البيان : ٤ / ٦٩٨ ، والبحر المحيط : ٥ / ٣٤٩ .
(٢) مجمع البيان : ٤ / ٦٩٨ .
(٣) البحر المحيط : ٥ / ٣٤٩ .
(٤) سورة التوبة : ١٤ .
(٥) ينظر : إعراب القرآن : ٣٨٣ .
(٦) تفسير الكشاف : ٢ / ٢٤٤ .
(٧) سورة البقرة : ١٨٩ .
(٨) سورة الحج : ١٨ .
(٩) معاني القرآن ، الفرّاء : ٢ /١٢٧ .
(١٠) مجمع البيان : ٧ / ٢٠٩ .
(١١) تفسير التحرير والتنوير : ١٧ / ١٦٥ .
(١٢) سورة البيّنة : ١ – ٢ .
(١٣) ينظر : تفسير التحرير والتنوير : ٣٠ / ٤١٧ .
(١٤) الميزان في تفسير القرآن : ٢٠ / ٥٩١ .
(١٥) النصّ والسياق : ١٨٥ .
(١٦) علم لغة النصّ ، النظريّة والتطبيق : ١٩١ .
(١٧) كذا ، والصحيح : المسوّغ .
(١٨) مدخل إلى علم النصّ ، ومجالات تطبيقه : ١٢٩ .

جانب ، ويربطها خيط فكريّ من جانب ثانٍ ، أنّ كلّ موضوع أمّا يتسبّب عن سابقه ، وأمّا أنْ يُسبّب في لاحقه)) [١]. ويؤدّي موضوع الخطاب – عند بعض الباحثين في علم النصّ - أثرين مهمّين[٢] ، هما:

١- أنّه يُساهم في ترتيب أفكار الخطاب ؛ لكونه البؤرة الرئيسة لها .

٢- أنّه يُعدّ مؤشّراً على معرفة الموضوع المتّصلة بالقارئ ، أو السامع .

ولعلّ من الأصحّ أنْ يُقال : إنّه مؤشّر على المعرفة المتّصلة بالموضوع عند منتج النصّ ، فالمعرفة بالموضوع تتولّد من معرفة مرسل النصّ ، لا من متلقيه . فإنْ كانتْ المعلومات متصلة بالمتلقّي ،فإنّ ذلك يُلغي ، أو – في الأقلّ – يحدّ من معيار الإعلاميّة التي يجب أنْ توجد في النصّ . إنّ النصّ – أيّ نصّ – لا يُمكن أنْ يكون إنتاجه وليد الصدفة ،فقد تساهم في وجوده مجموعة من العوامل ، وهذه العوامل تنتمي إلى عالم ((خارج النصّ ، يُشير إليه النصّ ، وعادة ما نشير إلى هذا العالم باعتباره[٣]عالماً فعليّاً ، ولهذا[٤] فعندما نقرأ نصّاً ، أو ندخل في عالم النص ، فإنّنا نتخيّل هذا العالم الفعليّ ، أو إنّنا نفهم عالم النصّ بناءً على فهمنا للعالم الخارجيّ))[٥] . أمّا أنْ نقول : إنّ ((الترجمة وإعادة الصياغة من أفضل الوسائل لرؤية مدى العلاقة بين الخطاب والعالم))[٦] ، فهذا أمر لا يُمكن قبوله – في النصّ القرآنيّ خاصّة – ؛ وذلك لأنّ ((كلّ اختيار لغويّ على مستوى الخطاب هو اختيار متميّز لرؤية العالم . وبالطبع تشمل عمليّة الاختيار ما يقع داخل النصّ ، فضلاً عن المسكوت عنه))[٧] . فإذا كان المقصود من الترجمة (التفسير) ،فإنّ التفسير يخضع لقدرات المفسّر ، وتحصيله العلميّ ، زيادة على ميوله المذهبيّة ، والكلاميّة ، بل وحتّى شعوره القوميّ . أمّا إذا كان المقصود من الترجمة (النقل إلى لغة أخرى) ، فذلك ما لا يُمكن أنْ يُحافظ على دقّة المعنى ، وشموليّته ، بل ومواكبته للتطور والتغيير . أمّا إعادة الصياغة ، فهي تؤدّي إلى توجيه النصّ باتّجاه البناء القواعديّ للغة ، وليس إلى الفهم المعنويّ للمسة البلاغيّة ، التي يضفيها التركيب على الصياغة ، زيادة على استمراريّة النصّ – القرآنيّ – ؛ لأن يقبل المزيد من التفسيرات بحسب اجتهاد المفسّر ، ومبلغه العلميّ . زيادة على ذلك ، للنصّ القرآنيّ كثيراً ما يتناول في سوره ، وآياته أموراً خاصّة بيوم القيامة ، والحياة الآخرة ، وهو ما لا يُمكن أنْ يكون معها رابط علائقيّ بين الخطاب ، وواقعه ، بل إنّ ما لا يدخل مضمونه فيما تقدّم من موضوعات ، لا يُمكن أيضاً ربطه بالواقع الآتي ، وذلك لا يعني التوقّف عن تحليل النصّ ، فالاستعانة بالنقل التأريخيّ للأحداث ، وأسباب النزول ، مع ما نُقل من تفسير للنصّ عن الأئمة والصحابة، والتابعين ، والمفسّرين ، مع ما نُقل عن اللغويين من تفسير للمفردات المعجميّة ، وشواهدهم فيها ، كلّها وسائل معرفيّة مساعدة في تحليل النص ، والبحث عن دلالاته . وإذا كان للافتراضات المسبقة – المأخوذة من المنطق والفلسفة – المستعملة ((في تحليل الخطاب ، للإشارة إلى المعلومات المشتقّة من النصّ ، سواء كانتْ معلومات ضمنيّة ، أو معلومات صريحة))[٨]، فإنّ هنالك علوماً أخرى ، لا يُمكن غضّ النظر عنها ، تدخل في تحليل النصّ القرآنيّ ، وفهمه ، فالأحكام العقائديّة ، والبلاغيّة ، والنحويّة ، وخصوصيّات الاستعمال في اللغة العربيّة ، زيادةً على الأعراف الاجتماعيّة ، كلّ تلك العوامل تعمل متضافرة على توجيه عمليّة فهم النصّ القرآنيّ . وتعدّ عمليّة الاستنتاج ، وهي ((العمليّة التي يقوم بها القارئ (السامع) للانتقال من المعنى الحرفيّ لما هو مكتوب (أو مقول) إلى قصد الكاتب (أو المتكلّم) من وراء الخطاب من خلال تحديد الاستنتاجات اللازمة التي ينبغي القيام بها ، واكتشاف الحلقات المفقودة ، أو العلاقات غير التلقائيّة ، أو سدّ الفراغات في النصّ من أجل التوصّل إلى فهم معيّن))[٩]، مصطلحاً يجمع المعلومات الضمنيّة التي يُمكن استنباطها من النصّ ؛ وذلك باستعمال المعرفة المسبقة ، أو الاستلزام ، أو التضمين ، أو غيرها . وإذ كان العنوان في النصوص يقوم بـ ((وظيفة إدراكيّة هامّة [١٠] ، تهيئ القارئ ، أو السامع لبناء تفسير للنصّ أو ما يتحدّث عنه النصّ))[١١] ، فإنّ عناوين / أسماء السور في النصّ القرآنيّ ليستْ نازلة بوحي إلهيّ ؛ بدليل تعدّد الأسماء للسورة الواحدة عند المفسرين ، وليستْ توقيفاً إلهيّاً ، وإنْ كان بعض العلماء يرى أنّه ((قد ثبت أسماء السور بالتوقيف من الأحاديث والآثار ، ولولا خشية الإطالة لبيّنتْ ذلك))[١٢] ، وإذا كان العنوان ليس بمعزلٍ عن مضمون السورة المُشار إليها ، فقد اختير إمّا من أكثر الموضوعات الموجودة في السورة أهمّية ، وإمّا من مجموع موضوعات ثانوية ، حاول العلماء – قدر الإمكان – جمعها في إطار / عنوان واحد شامل لها . ويُبين الزركشيّ سبب اختصاص كلّ سورة بما سمّيتْ به ، فيقول : ((ينبغي النظر في وجه اختصاص كلّ سورة بما سُمّيتْ به ، ولا شكّ في أنّ العرب تراعي في الكثير من المسميات أخذ أسمائها من نادر ، أو مستغرَب يكون في الشيء من خَلْق ، أو صفة تخصّه ، أو تكون معه أحكم ، أو أكثر ، أو أسبق لإدراك الرائي للمُسمّى . ويُسمّون الجملة من الكلام ، أو القصيدة الطويلة بما هو أشهر فيها ، وعلى ذلك جرتْ أسماء سور الكتاب العزيز ، كتسمية البقرة بهذا الاسم لقرينة ذكر قصّة البقرة المذكورة فيها ، وعجيب الحكمة فيها . وسُمّيتْ سورة النساء بهذا الاسم لما تردّد فيها من كثير من أحكام النساء ... كما ورد ذكر النساء في سور ، إلاّ أنّ ما تكرّر ، وبُسط من أحكامهنّ لم

---

(١) دراسات في علوم القرآن : ١٩٧ .

(٢) علم لغة النصّ ، النظريّة والتطبيق : ١٩١ – ١٩٢ .

(٣) كذا ، والصحيح : بعدّه .

(٤) كذا ، والصحيح : ولذا .

(٥) علم لغة النصّ ، النظريّة والتطبيق : ١٩٢ .

(٦) علم لغة النصّ ، النظريّة والتطبيق : ١٩٢ .

(٧) المصدر نفسه : ١٩٢ .

(٨) علم لغة النصّ ، النظريّة والتطبيق : ١٩٢ .

(٩) علم لغة النصّ ، النظريّة والتطبيق : ١٩٢ – ١٩٣ .

(١٠) كذا ، والصحيح : مهمّة .

(١١) علم لغة النصّ ، النظريّة والتطبيق : ١٩٣ .

(١٢) الإتقان في علوم القرآن : ١ / ١٠٦ .

يرد في غير سورة النساء . وكذا سورة المائدة لم يرد ذكر المائدة في غيرها ، فسُمّيتْ بما يخصّها))[1] . ولعلّ ممّا يُمكن أن يكون مؤدّياً وظيفة عنوان السورة ، الآية الأولى فيها ،فهي في الأغلب تدلّ على الموضوع الذي تتناوله السورة الكريمة ، أو إنّه الموضوع الرئيس في السورة ، والموضوعات الأخرى مرتبطة به بطريقة ، أو بأخرى . إنّ الإلحاح على عنوان النصّ ، أو معرفة موضوع النصّ يُساهم في ((بناء هيكل المعلومات لدى القارئ أثناء[2] عمليّة القراءة ، إذ يلجأ القارئ إلى تخمين هيكل المعلومات من خلال المحتوى . ولذلك فوجود العنوان المناسب يُسهّل الفهم ، وتذكر موضوع الخطاب))[3] . ومحاولة لمّ السور المدنيّة في موضوع واحد ليس أمراً سهلاً ؛ وذلك لكثرة الموضوعات الواردة في هذه السور ، وكثرة الأحداث التي حصلت في العهد المدنيّ ، وتشعّبها ، زيادةً على الموضوعات التي سبق ونزلت فيها السور ، والآيات الكريمة ، التي لم يُحسم الأمر في الإيمان بها ، وبصدق الرسول ، والرسالة أصلاً . وممّا يُمكن التوصّل إليه أنّ الموضوع الرئيس في هذه السور ، هو (الإيمان بوحدانيّة الله تعالى ، وعبادته ، واتّباع أوامره ، والعمل بالأحكام الشرعيّة الملقاة إليهم على لسان نبيه الكريم ٦، ودعوة أهل الديانات الأخرى ، السماويّة ، والمشركة إلى الإقرار بهذه الرسالة ، واعتناق هذا الدين الخاتم ، الذي بشّر به الأنبياء السابقين) ، وعند محاولة رسم مخطط لهذه الموضوعات الواردة في السور المدنيّة ، يظهر الآتي :

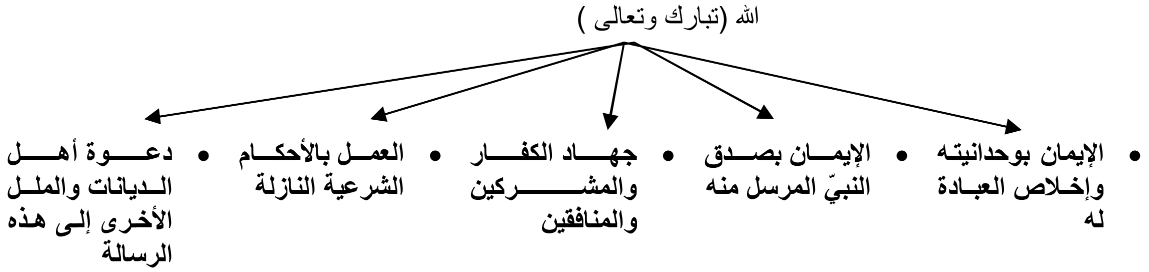

ولو استقريت السور المدنيّة مفصّلةً ؛ لمعرفة موضوعاتها [4] ، يتبيّن الآتي ، وسأرتبها بحسب ترتيب نزولها المشهور : :

١- سورة البقرة : بيان أنّ من حقّ الله تعالى أنْ يؤمن عباده بكلّ ما أنزله على لسان رسله ، وإثبات أنّ هذا الدين يسمو على غيره ممّا سبقه ، وتشريع بعض الأحكام التي فيها صلاح المجتمع .
٢- سورة الأنفال : ذكر أحكام تتعلق بالجهاد ، وبيان حكم الأنفال ، وقسمتها ، وطاعة الرسول في أمر الغنائم .
٣- سورة آل عمران : دعوة المؤمنين إلى توحيد الكلمة في الدين ، والصبر ، والثبات عند مواجهة أعداء الدين من اليهود ، والنصارى ، والمشركين ممّن يحاول بثّ الفتنة في آيات القرآن ، وقد بيّن الله - سبحانه – أنّ آياته تنقسم إلى محكمة ومتشابهة .
٤- سورة الأحزاب : تتضمّن مجموعة من الأحكام الدنيويّة ، وتذكر جهاد المسلمين في معركة الخندق ، وفتح حصون بني قريظة ، والردّ على المنافقين الذين أذاعوا أقوالاً قصدوا بها أذى النبيّ ٦ ، وخاصّة في زواجه من زوجة دعيّه زيد بن حارثة .
٥- سورة الممتحنة : تذكر السورة موالاة المؤمنين لأعداء الله من الكفار ، وموادتهم ، وتشدّد النهي عن ذلك ، وفيها بعض الأحكام المتعلقة بالمؤمنات المهاجرات ، واختبار صدق إيمانهنّ .
٦- سورة النساء : بيان أحكام الزواج ، كتعدّد الزوجات ، ومحرّمات النكاح ، وأحكام المواريث ، وفيها أحكام أخرى في الصلاة ، والجهاد ، والشهادات ، وفيها تعرّض لحال أهل الكتاب .
٧- سورة الزلزلة : إثبات البعث ، وذكر أشراطه ، وما يعتري الناس عند حدوثه من الفزع .
٨- سورة الحديد : التذكير بجلال الله تعالى ، وصفاته العظيمة ، والتنبيه لما في القرآن من الهداية ، والحثّ على الإنفاق في سبيل الله .
٩- سورة محمّد : سيتمّ تناولها بشيء من التفصيل فيما بعد .
١٠ – سورة الرعد : بيان صدق الرسول ٦ فيما أوحي إليه من وحدانية الله - تبارك وتعالى - ، والردّ على أقوال المكذبين .
١١ – سورة الرحمن : التذكير بدلائل القدرة الإلهيّة ، وتعداد النعم التي سخّرها الله تعالى لتسهيل حياة الإنسان ، والتذكير بالحياة الأخرة .
١٢ –سورة الإنسان : إثبات خلق الإنسان بعد ما لم يكن مذكوراً ، وهدايته ، وذكر عقاب الكفار ، وثواب الأبرار .

---

(١) البرهان في علوم القرآن : ١ / ١٩٠ .
(٢) كذا ، والصحيح : في أثناء .
(٣) علم لغة النصّ : ١٩٣ .
(٤) اعتمدتُ في التعرّف على موضوعات السور على تفسيرين ، هما : الميزان في تفسير القرآن ، وتفسير التحرير والتنوير .

١٣ – سورة الطلاق : تحديد أحكام الطلاق ، وما يعقبه من العدّة والإرضاع ، والإنفاق تتميماً للأحكام المذكورة سورة البقرة والنساء ، وتعقب ذلك عظة ، وإنذار من عدم اتباع الأوامر ، وتبشير للمطيع.
١٤ – سورة البيّنة : تسجّل السورة أنّ رسالة محمّد ٦ لعامّة الناس ، وفيها تعريض بأهل الكتاب والمشركين ، الذين كفروا بها ، وتناقض حالهم بين طلب البيّنة ، والكفربها .
١٥ – سورة الحشر : تشير السورة إلى قصة إجلاء بني النضير من اليهود لمّا نقضوا عهدهم مع النبيّ ، ونعمة الله – جلّ وعزّ – بالنصر عليهم .
١٦ – سورة النصر : وعد بالنصر ، والفتح للنبيّ ٦ ، وأنّه سيرى الناس يدخلون في الإسلام أفواجاً .
١٧ – سورة النور : تذكرة بنبذة من الأحكام الشرعيّة ، وجملة من المعارف الإلهيّة تناسبها ، ويتذكر بها المؤمنون .
١٨ – سورة الحجّ : بيان أصول الدين بياناً تفصيليّاً ، ينتفع بها المشرك ، والموحّد ، وفروعها بياناً إجماليّاً ، ينتفع بها الموحّدون .
١٩ – سورة المنافقون : تصف السورة المنافقين ، وتسمهم بشدّة العداوة ، وتأمر النبيّ ٦ أنْ يحذرهم ، وتعظ المؤمنين أنْ يتحرّزوا من النفاق ، فلا يقعوا فيه ، فيجرّهم إلى المهلكة في النار .
٢٠ – سورة المجادلة : إبطال بعض الأحكام الجاهليّة ، مثل المظاهرة . وتشريع صدقة النجوى ، ونسخها ، وذكر موالاة المنافقين لأهل الكتاب ، وذكر بعض آداب المجالس .
٢١ – سورة الحجرات : تتضمّن مسائل من شرائع الدين ، التي بها تتمّ الحياة السعيدة للفرد ، منها ما هو أدب جميل للعبد مع الله – تبارك وتعالى - ، ومنها ما هو مع رسوله الكريم ، والإشارة إلى امتنان الله تعالى على المؤمنين بفيض الإيمان .
٢٢ – سورة التحريم : مخاطبة النبيّ ٦ في تحريمه بعض ما أحلّ الله – جلّ اسمه – له ، وإفشاء بعض نسائه السرّ الذي استودعها ، والتهديد لهنّ بالطلاق والاستبدال بخير منهنّ .
٢٣ – سورة الصف : تحذير من إخلاف الوعد ، والالتزام بواجبات الدين ، والتحريض على الجهاد في سبيل الله تعالى ، والتحذير من أذى النبيّ ٦ .
٢٤ – سورة الجمعة : الحثّ البالغ على الاهتمام بصلاة الجمعة ، والتحذير من التخلّف عنها ، والتنويه للمسلمين بأنّ بعث النبيّ ليعلمهم الكتاب ، والحكمة
٢٥ – سورة التغابن : التذكير بأنّ ما في السموات والأرض تسبّح لله – تبارك وتعالى - ، وتحريض المؤمنين ، وترغيبهم في الإنفاق في سبيل الله تعالى
٢٦ – سورة الفتح : بيان ما امتنّ الله تعالى على نبيّه بما رزقه من الفتح المبين .
٢٧ – سورة التوبة : تتضمّن البراءة من المشركين ، وتحديد مدّة عهودهم ، وقتال المشركين ، وأهل الكتاب عند انقضاء المدّة ، وفيها شطر كبير في أمر المنافقين ، فضلاً عن بعض الآيات في حكم الزكاة .
٢٨ – سورة المائدة : الدعوة إلى الوفاء بالعهود ، وحفظ المواثيق ، وقد احتوت تشريعات كثيرة تنبئ بأنّها نزلت لاستكمال شرائع الإسلام .

وعند بحث موضوع الخطاب في إحدى السور المدنيّة ، وقد رُشحتْ سورة (محمّد) لذلك ، فعند قراءة السورة الكريمة يظهر أنّها تصف ((الذين كفروا بما يخصّهم من الأوصاف الخبيثة ، والأعمال السيّئة ، وتصف الذين آمنوا بصفاتهم الطيّبة ، وأعمالهم الحسنة ، ثمّ تذكر ما يعقب صفات هؤلاء من النعمة ، والكرامة ، وصفات أولئك من النقمة ، والهوان ، وعلى الجملة ، فيها المقايسة بين الفريقين في صفاتهم ، وأعمالهم في الدنيا ، وما يترتّب عليها في الأخرى ، وفيها بعض ما يتعلّق بالقتال من أحكام))[1] ، ويمكن القول : إنّ موضوع السورة الكريمة هو (موقف الناس من الرسالة المحمّدية ، والجزاء عليه في الآخرة) ، فالسورة الكريمة تبدأ بذكر الطرف الكافر بالرسالة ، والصادّ عن سبيل الله ، وعاقبته ، ثمّ تذكر الطرف المقابل له / المؤمن بالله تعالى ، وبالرسالة المُنزّلة على محمّد ٦ ، وعاقبته ، وفي أثناء المقابلة بين الطرفين ، يظهر الطرف الثالث / الذين في قلوبهم مرض ، وهم المتردّدون في أمر الدين ، وضعاف الإيمان ، ولا ريب أنّ هذا التقابل بين المؤمنين ، والكافرين ، والإصرار على الموقف منهما ، يؤدّي إلى القتال ، ويكون الطرف الثالث ممّن يخشون الأمر بالقتال ؛ وذلك لكونهم مُتحيّرين في أمر الدين ، فلم يكونوا مؤمنين بالحياة الآخرة ، ولا بالثواب الذي أعدّه الله تعالى لمَنْ يُقتل في سبيله .
وعند استقراء الآيات المتعلّقة بكلّ طرف ، يبدو واضحاً صلاح العنوان الذي اصطلح له ، وفيما يأتي بيان ذلك : تبدأ السورة بوصف الذين كفروا : **الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله**

- **أضلّ أعمالهم**
- **ذلك بأنّ الذين كفروا اتبعوا الباطل**
- **فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب**
- **والذين كفروا فتعساً لهم وأضلّ أعمالهم**
- **ذلك بأنّهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم**
- **أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمّر الله عليهم وللكافرين أمثالها**
- **ذلك بأنّ الله مولى الذين آمنوا وأنّ الكافرين لا مولى لهم**
- **والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم**

[1] الميزان في تفسير القرآن : ١٨ / ٤٤٥ . وينظر : بصائر ذوي التمييز : ١ / ٤٣٠ ، وتفسير التحرير والتنوير : ٢٦ / ٦١ ،والتفسير الواضح : ٢ / ٤٠٨ .

- **كمَن زُيّن له سوء عمله واتبعوا أهواءهم**
- **كمَن هو خالد في النار وسُقوا ماءً حميماً فقطّع أمعاءهم**
- **ومنهم مَن يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفاً أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم**
- **للذين كرهوا ما نزّل الله**
- **إنّ الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله وشاقّوا الرسول من بعد ما تبيّن لهم الهدى لن يضرّوا الله شيئاً وسيحبط أعمالهم**
- **إنّ الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله ثمّ ماتوا وهم كفّار فلن يغفر الله لهم**

وتقابل السورة الكريمة أحوال الكفّار بأحوال المؤمنين : **الذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزّل على محمّد :**

- **كفّر عنهم سيّئاتهم وأصلح بالهم**
- **وأنّ الذين آمنوا اتبعوا الحقّ من ربّهم**
- **فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدّوا الوثاق**
- **والذين قُتلوا في سبيل الله فلن يُضلّ أعمالهم**
- **سيهديهم ويُصلح بالهم**
- **ويدخلهم الجنّة عرّفها لهم**
- **يا أيّها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويُثبّت أقدامكم**
- **ذلك بأنّ الله مولى الذين آمنوا**
- **إنّ الله يُدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنّات**
- **أفمَن كان على بيّنة من ربّه**
- **ولهم فيها من كلّ الثمرات ومغفرة من ربّهم**
- **والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم**
- **والله يعلم متقلبكم ومثواكم**
- **ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم**
- **يا أيّها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم**
- **فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم**
- **وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم**
- **إن يسألكموها فيُحفكم تبخلوا ويُخرج أضغانكم**
- **ها أنتم هؤلاء تُدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم مَن يبخل ومَن يبخل فإنّما يبخل عن نفسه والله الغني وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثمّ لا يكونوا أمثالكم**

ويظهر الطرف الثالث ، وهو صاحب الموقف المُتردّد من أمر الدعوة ، وأكثر ما يكون حضوره في المواقف الحرجة . وهذا الطرف ليس المنافقين ، بل الذين في قلوبهم مرض ، فهم غيرهم بدليل قوله تعالى : **﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلا غُرُورًا ﴾** [(1)] ، فلو كان (المنافقون) هم (الذين في قلوبهم مرض) ، لما عطف بينهما ، والسورة الكريمة تذكر الطرف الثالث في أثناء الأمر بالقتال بين الطرفين الآخرين ، وتأتي على ذكر أحوالهم وأوصافهم كما يُوضّحه الاستقراء الآتي : **الذين في قلوبهم مرض**

- **ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت فأولى لهم**
- **فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم**
- **فهل سيتم إن توليتم أن تُفسدوا في الأرض وتُقطّعوا أرحامكم**
- **أولئك الذين لعنهم الله فأصمّهم وأعمى أبصارهم**
- **أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوبٍ أقفالها**
- **إنّ الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبيّن لهم الهدى الشيطان سوّل لهم وأملى لهم**
- **ذلك بأنّهم قالوا للذين كرهوا ما نزّل الله سنُطيعكم في بعض الأمر والله يعلم إسرارهم**
- **فكيف إذا توفّتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم**
- **ذلك بأنّهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم**
- **أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يُخرج الله أضغانهم**
- **ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنّهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم**

---

(1) سورة الأحزاب : ١٢ .

وعند محاولة إيجاد العلاقات الدلاليّة الرابطة بين جزئيّات السورة ، وموضوعها ، يظهر ما يأتي : عند البحث عن المناسبة بين فاتحة السورة ، وخاتمتها ، يلحظ أنّها ((بدئتْ بالأمر بالقتال ، وختمتْ به))[١]. أمّا مناسبة فاتحتها لخاتمة السورة التي قبلها / سورة الأحقاف ، يلحظ قول الآلوسيّ : ((ولا يخفى قوة ارتباط أولها بآخر السورة قبلها ، واتصاله ، وتلاحمه بحيْث لو سقطتْ من البين البسملة ، لكانا متصلاً واحداً ، لا تنافر فيه ، كالآية الواحدة آخذاً بعضه بعنق بعض))[٢]. أمّا مناسبة خاتمتها لفاتحة السورة التي بعدها /سورة الفتح ، فيظهر أنّ ((الفتح بمعنى : النصر ، مرتّب على القتال . وفي كلّ من ذكر المؤمنين المخلصين ، والمنافقين ، والمشركين ما فيه . وقد ذكر –أيضاً – في الأولى الأمر بالاستغفار ، وذكر هنا وقوع المغفرة))[٣]. وتبدأ السورة الكريمة بذكر الفريقين المتقابلين ، فقال تعالى : **﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾**[٤]. وعلى الرغم من أنّ السورة في شأن خاصّ بالمشركين والمؤمنين بدعوة النبيّ ρ ، إلاّ أنّ ((اللفظ عامّ يتناول كلّ كافر ، وكلّ مؤمن))[٥] . وأمّا ذكر قوله (وآمنوا بما نُزّل على محمّد) ؛ فلأجل ((تخصيصه من بين ما يجب الإيمان به ، تعظيم لشأن الرسول ، وإعلام بأنّه لا يصحّ الإيمان ، ولا يتمّ إلاّ به ، وأكد ذلك بالجملة الاعتراضيّة التي هي (وهو الحقّ من ربّهم)))[٦]. وبدأ قوله تعالى : **﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾**[٧] . فربط باسم الإشارة (ذلك) ، الذي يشير إلى فعل الكفار ، وفعل المؤمنين المتقدّمين ، ثمّ بيّن سبب ذلك بقوله (بأنّ الذين كفروا اتبعوا الباطل) ، وكذلك قوله (وأنّ الذين آمنوا اتّبعوا الحقّ من ربّهم) ، وزيادة على ذلك ، فقوله (الحقّ من ربّهم) يحيل على الجملة الاعتراضيّة المتقدّمة في الآية الثانية (وهو الحقّ من ربّهم)، وهذا الكلام ((يسمّيه علماء البيان : التفسير))[٨]. وأشار بقوله (كذلك يضرب الله للناس أمثالهم) إلى الاتباعين المذكورين للفريقين. وجاء قوله تعالى: **﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾**[٩]. والربط ظاهر في كون كفرهم ، ومعاداتهم للمؤمنين سيؤدّي حتماً إلى القتال ، فأمرهم تعالى به ، وربط الكلام بالفاء في قوله (فإذا لقيتم) ؛ ((لترتيب ما في حيزها من الأمر على ما قبلها))[١٠] ، وقد عبّر عنه بقوله (فضرب الرقاب) ، ولا يخفى ما ((في هذه العبارة من الشدّة ما ليس في لفظ القتل ، لما فيه من تصوير القتل بأشنع صورة))[١١]. وجاء قوله (ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم) ، فدلّ اسم الإشارة (ذلك) على الأمر المتقدّم بقتل الكفار ، ودلّت الجملة الشرطيّة بعده على أنّ الله قادر على الانتقام منهم بهلاك ما ، فبيّن سبب عدم إهلاكهم المباشر من عنده ، بقوله (ولكن ليبلو بعضكم ببعض) ، أي ((ولكن أمركم بالقتال ليبلو بعضكم ، وهم المؤمنون ، أي يختبرهم ببعض ، وهم الكافرون بأن يجاهدوا ، ويصبروا ، والكافرين بالمؤمنين بأن يعاجلهم على أيديهم ببعض ما وجب لهم من العذاب))[١٢]. وفرّع على قوله (والذين قُتلوا في سبيل الله ، فلن يُضلّ أعمالهم)، بقوله تعالى : **﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾**[١٣] ، فمن لوازم المواجهة ، والقتال أنّ يسقط القتلى من الطرفين ، فلمّا أمرهم بالقتال ، بشّر قتلى المؤمنين بأنّه – تبارك وتعالى – لن يضيع عملهم ، وقد ربط بين قوله (والذين قُتلوا) ، وقوله (فلن يُضلّ) بالفاء الدالّة على السببيّة ؛ وذلك لكون الموصول يحمل معنى الشرط ، فكأنّه جعل قتلهم في سبيل الله جوابه / نتيجته عدم ضلال أعمالهم [١٤]، وتضحيتهم ، وجاء قوله (سيهديهم ويصلح بالهم ويدخلهم الجنّة عرّفها لهم) ((كالبيان لقوله سبحانه (فلن يُضلّ أعمالهم)))[١٥] . وجاء قوله تعالى : **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾** [١٦]، مرتبطاً بالكلام ، إذ قال (ولو يشاء الله لانتصر) ، بمعنى أنّ ((ما أمر به المسلمين من قتال الكفار إنّما أراد منه نصر الدين ... [فـ] أتبعه بالترغيب في نصر الله ، والوعد بتكفّل الله لهم بالنصر إنْ نصروه))[١٧]، ولمّا ذكر المؤمنين ، ذكر الطرف المقابل لهم ، : (والذين كفروا فتعساً لهم وأضلّ أعمالهم) ، فالاسم الموصول مبتدأ ، خبره ، الفعل المضمر ، والذي دلّ عليه مصدره (تعساً) ، أي : أتعسهم تعساً [١٨]؛ ولذا ساغ أن يعطف عليه الجملة الفعليّة (وأضلّ) . ويبدو أنّ في الإتيان بالاسم للتعاسة ، والفعل للضلال دلالةً على أنّ التعاسة محيطة بهم ، ملازمة لهم ، ولكون أعمالهم حادثة ، ومتجدّدة ، فقد استعمل الفعل للدلالة

---

(١) مراصد المطالع : ٦٥ .
(٢) روح المعاني : ٢٦ / ٢٦٩ . وينظر : البحر المحيط : ٩ / ٤٥٨ .
(٣) روح المعاني : ٢٦ / ٣٣٣ . وينظر : البحر المحيط : ٩ / ٤٨٢ .
(٤) سورة محمّد : ١ – ٢ .
(٥) البحر المحيط : ٩ / ٤٥٨ .
(٦) البحر المحيط : ٩ / ٤٥٨ .
(٧) سورة محمّد : ٣ .
(٨) روح المعاني : ٢٦ / ٢٧٢ . وينظر : البحر المحيط : ٩ / ٤٥٩ .
(٩) سورة محمّد : ٤ .
(١٠) روح المعاني : ٢٦ / ٢٧٢ .
(١١) تفسير الكشاف : ٤ / ٣٠٩ .
(١٢) البحر المحيط : ٩ / ٤٦٢ .
(١٣) سورة محمّد : ٥ – ٦ .
(١٤) تفسير التحرير والتنوير : ٢٦ / ٧١ .
(١٥) روح المعاني : ٢٦ / ٢٧٨ .
(١٦) سورة محمّد : ٧ – ٩ .
(١٧) تفسير التحرير والتنوير : ٢٦ / ٧١ .
(١٨) ينظر : التبيان في تفسير القرآن : ٩ / ٢٣٣ ، والبحر المحيط : ٩ / ٤٦٣ .

على تجدّد الضلال مع حدوث الأعمال . واسم الإشارة في قوله (ذلك بأنّهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم) إلى ((ما ذكر من التعس ، والإضلال))[١]. ثمّ احتجّ على الكافرين ، بقوله تعالى : ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا** ﴾[٢]، فقد ربط جمل الخطاب دلاليّاً بالضمائر العائدة عليهم في (يسيروا) ، و(فينظروا) ، (قبلهم) ، ثمّ أنذرهم بقوله (وللكافرين أمثالها) ، وجاء الإنذار بالجملة الاسميّة للدلالة على أنّ عقاب الكافرين سنة إلهيّة ثابتة . ليأتي قوله تعالى : ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ** ﴾[٣]. فاسم الإشارة (ذلك) يربط الكلام الذي بعده بالذي قبله ، إذ إنّه يشير ((إلى ثبوت أمثال عاقبة ، أو عقوبة الأمم السالفة لهؤلاء ... [أو] إشارة إلى النصر))[٤]، الذي وعد الله به المؤمنين ، ولعلّه جامع للاثنين معاً . ثم قال تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ** ﴾[٥]. فأكّد – تبارك وتعالى – ثواب الامتثال للأمر الإلهيّ ، إذ إنّ هذا التبشير بالجنات ((بيان لحكم ولايته تعالى لهم ، وثمرتها الأخرويّة))[٦] . أمّا قوله (وكأين من قرية هي أشدّ من قريتك) ، فقد جاء للمقابلة مع حال المؤمنين أولاً ، وللوعيد [٧] لهم بالعذاب بعد أن احتجّ عليهم بهلاك مَن قبلهم في قوله (أفلم يسيروا في الأرض).ثمّ فرّع عليه بقوله تعالى : ﴿ **أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ** ﴾ [٨]. فالاستفهام الإنكاريّ جاء لنفي المشابهة بين الفريقين ، المؤمنين (كان على بيّنة من ربّه) ، والكافرين (كمَن زُيّن له سوء عمله). ثمّ قال تعالى : ﴿ **مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ** ﴾[٩] ، إذ إنّه – عزّ وجلّ – ((لمّا بيّن الفرق بين الفريقين في الاهتداء ، والضلال ، بيّن الفرق بينهما فيما يؤولان إليه . وكما قدّم مَن كان على بيّنة على مَن اتبع هواه ، قدّم حاله على حاله))[١٠]. وهذه الموازنة بين الفريقين صيغتها الإثبات ، ومعناها النفي للمشابهة ، قال الزمخشريّ : ((هو كلام في صورة الإثبات ، ومعناه النفي ، والإنكار ؛ لانطوائه تحت حكم كلام مصدّر بحرف الإنكار ، ودخوله في حيزه ، وانخراطه في سلكه))[١١]. وجاء قوله تعالى : ﴿ **وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ** ﴾[١٢] ؛ ليصف حال طائفة من الكفار بدليل المجيء بالضمير العائد عليهم في قوله (منهم) ؛ لذا يجب أن يكون عائده على متقدّم في الكلام ، فـ((الضمير للذين كفروا ، والمراد باستماعهم إلى النبيّ ρ إصغاؤهم إلى ما يتلوه من القرآن ، وما يبيّن لهم من أصول المعارف ، وشرائع الدين))[١٣]. ورأى بعض المفسّرين أنّ المقصود بقوله (ومنهم مَن يستمع) هو المنافقون ، إذ إنّهم كانوا ((يحضرون عند الرسول ، ويستمعون كلامه ، ويبدو أنّ الرأي الأول هو الأقرب عند توجيهه نصيّاً ، وذلك لأنّ الضمير يحتاج إلى عائد مذكور قبله ، فدلّ ذلك على أنّهم ((صنف آخر من الكافرين ، أسرّوا الكفر ، وتظاهروا بالإيمان))[١٥]. والمراد بـ (الذين أوتوا العلم) المؤمنون الذين وصفهم فيما سبق . وكان قول الكافرين (ماذا قال آنفاً)((على سبيل الهزء، والاستخفاف ، أي لم نفهم ما يقول ، ولم ندر ما نفع ذلك))[١٦]. ثمّ قابل ذلك بقوله تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ** ﴾[١٧] ، إذ إنّه يعود على قوله (الذين أوتوا العلم) ، فهذه المقارنة في استماعهم للنبيّ ρ فيما يتلو من القرآن بيّنتْ أثر القرآن في كلّ من الفريقين موضوع السورة . ثمّ أوعد طرف الكفر ، بقوله تعالى : ﴿ **فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ** ﴾[١٨] . فالضمير في قوله (ينظرون) عائد على الكافرين المستهزئين ، والكلام ((تفريع على ما مضى من وصف أحوال الكافرين))[١٩]، وربط الكلام في قوله (فقد جاء أشراطها) بالفاء لاتّصال أشراط الساعة : أي علاماتها بها ((اتّصال العلّة بالمعلول))[٢٠]، ثمّ فرّع على مجيء الساعة بقوله (فأنّى لهم إذا جاءتهم ذكراهم) ، والاستفهام الوارد فيه جاء منكراً لمنفعة التذكر عند مجيئها [٢١]. ثمّ فرّع الكلام بقوله تعالى : ﴿ **فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ**

---

(١) روح المعاني : ٢٦ / ٢٨٠ .
(٢) سورة محمّد : ١٠ .
(٣) سورة محمّد : ١١ .
(٤) روح المعاني : ٢٦ / ٢٨١ .
(٥) سورة محمّد : ١٢ – ١٣ .
(٦) روح المعاني : ٢٦ / ٢٨١ .
(٧) ينظر : تفسير التحرير والتنوير : ٢٦ / ٧٦ .
(٨) سورة محمّد : ١٤ .
(٩) سورة محمّد : ١٥ .
(١٠) البحر المحيط : ٩ / ٤٦٧ .
(١١) تفسير الكشاف : ٤ / ٣١٣ .
(١٢) سورة محمّد : ١٦ .
(١٣) الميزان في تفسير القرآن : ١٨ / ٤٥٤ . وينظر : تفسير التحرير والتنوير : ٢٦ / ٨٣ .
(١٤) البحر المحيط : ٩ / ٤٦٧ . وينظر : روح المعاني : ٢٦ / ٢٨٧
(١٥) تفسير التحرير والتنوير : ٢٦ / ٨٣ .
(١٦) البحر المحيط : ٩ / ٤٦٧ . وينظر : روح المعاني : ٢٦ / ٢٨٧ ، والميزان في تفسير القرآن : ١٨ / ٤٥٤ ، وتفسير التحرير والتنوير : ٢٦ / ٨٥
(١٧) سورة محمّد : ١٧ .
(١٨) سورة محمّد : ١٨ .
(١٩) تفسير التحرير والتنوير : ٢٦ / ٨٦ .
(٢٠) تفسير الكشاف : ٤ / ٣١٥ .
(٢١) ينظر : روح المعاني : ٢٦ / ٢٩٠ ، وتفسير التحرير والتنوير : ٢٦ / ٨٧ – ٨٨ .

يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴾[1] . فالأمر في قوله (اعلم) ((مسبّب عن مجموع القصة من مفتتح السورة))[2] ، أي : إذ إنّك علمتَ ((أنّ الأمر كما ذكر من سعادة هؤلاء ، وشقاوة أولئك ، فاثبت على ما أنت عليه من العلم بوحدانيّة الله سبحانه ، فمعنى الأمر بالعلم على هذا هو الأمر بالثبات على العلم))[3] ، ثمّ ذيّل الكلام بقوله (والله يعلم متقلبكم ومثواكم) ، ومعنى (((متقلّبكم) : متصرّفكم في حياتكم الدنيا ، و(مثواكم) : إقامتكم في قبوركم ، وفي الآخرة))[4] ، وفي الإتيان به جملة اسميّة دلالة على أنّ هذا العلم ثابت ، غير حادث ، ((والمراد من علمه تعالى بذلك تحذيرهم من جزائه ، وعقابه سبحانه ، أو الترغيب في امتثال ما يأمرهم – جلّ شأنه – به ، والترهيب عمّا ينهاهم – عزّ وجلّ – عنه ، عن طريق الكناية))[5]. ثمّ قال تعالى : ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ ﴾ [6] ، فذكرث طلب الفريق المؤمن أن ينزّل الله – عزّ وجلّ – سورة من القرآن ، وليس طلبهم هذا إلاّ أن تكون متضمّنة ((أمرنا بمجاهدة العدوّ ، وفضح المنافقين))[7] . وفي هذه الآية يظهر الفريق الثالث (الذين في قلوبهم مرض) ، وقد سبقت الإشارة إلى أنّهم ليسوا المنافقين ، والمقصود بهم ((الضعفاء الإيمان من المؤمنين دون المنافقين ، فإنّ الآية صريحة في أنّ الذين أظهروا الرغبة في نزولها هم الذين آمنوا ، ولا يعمّ الذين آمنوا المنافقين))[8] ، وقد شبّه حالهم ، وهم (ينظرون إليك) ، كالناظر وهو يعاني سكرات الموت ، وقد حذف حرف التشبيه من الكلام ، إذ إنّ المعنى : كنظر المغشيّ . ويبدو أنّ حذف الأداة ؛ لإظهار كمال المشابهة بينهما ، مبالغة في ذمّهم . ثم واصل كلامه في شأن الفريق الثالث ، بقوله تعالى : ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾[9]. فقد بيّن – سبحانه وتعالى – أنّ الأمر منه يوجب الطاعة من عباده ، فقوله (طاعة) خبر لمبتدإٍ محذوف ، تقديره : أمري طاعة وقول معروف ، أو أن يكون مبتدأ ، خبره محذوف ، والتقدير : طاعة وقول معروف أمثل [10]. ووجه ارتباطه بما قبله أنّه بمعنى : طاعة وقول معروف ((أولى بهم من النظر إليك نظر المغشيّ عليه))[11] ؛ ولذا جاقوله (فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم) متصلاً ((اتصالاً بيّناً ، والمعنى : أنّ الأمر هو ما واثقوا الله عليه من قولهم : سمعنا وأطعنا ، فلو أنّهم حين عزم الأمر صدقوا الله فيما قالوا ، وأطاعوه فيما يأمر به ، ومنه أمر القتال ، لكان خيراً لهم))[12]. ثمّ خاطب (الذين في قلوبهم مرض) بطريق الالتفات ((على سبيل التوبيخ ، وتوقيفهم على سوء مرتكبهم))[13] ، وذلك في قوله (فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطّعوا أرحامكم) . وقوله (إنْ توليتم) بين عسيتم ، وخبرها (أن تفسدوا) ، والمعنى : أنّكم بإعراضكم عن أمر الله تعالى سوف تفسدون في الأرض ، وتقطّعوا أرحامكم بأن يسفك بعضكم دماء بعض [14]. فهذه الآية كالتعليل لقوله (لكان خيراً لهم) المتقدّم [15]. وجاء قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ ﴾ [16] مبدوءاً باسم الإشارة الدالّ على البعد ، والمقصود به المخاطبين في الآية السابقة ؛ ((إيذاناً بأنّ ذكر هناتهم أوجب إسقاطهم عن درجة الخطاب ، وحكاية أحوالهم الفظيعة لغيرهم))[17]. وقد ذكر – وجلّ – أنّه لعنهم : أي طردهم من رحمته أولاً ، ورتّب عليه (فأصمّهم وأعمى أبصارهم) ، وأشار إلى إصابتهم بالصمم من دون ذكر الأذن ، على عكس ذكر العمى ، الذي شفعه بذكر الأبصار ؛ ((لأنّ الأذن لو أصيب ، أو قلع لسمع الكلام ، فلم يحتج إلى ذكر الأذن . والبصر – وهو العين – لو أصيب لامتنع الإبصار ، فالعين لها مدخل في الرؤية))[18]. وزاد تقريعهم ، بقوله تعالى : ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾[19]، بهذا الاستفهام الإنكاريّ الموبّخ لهم في قوله (أفلا القرآن) ؛ لعدم تدبّرهم ما في القرآن من مواعظ ، وزواجر[20]. وجاء قوله (أم على قلوب أقفالها) ، متمّماً التوبيخ في الآية . ويجوز في (أم) الواردة فيه أن تكون متّصلة ، أي : إنّها المعادلة ، والهمزة في أول الآية للاستفهام ، والكلام ((تمثيل لعدم وصول الذكر إليها / وانكشاف الأمر لها ، فكأنّه قيل : أفلا يتدبّرون القرآن إذا وصل إلى قلوبهم أم لم يصل إليها ؟))[21] . ورأى أبو حيّان [22] أنّ (أم) هنا منقطعة ، والهمزة جاءت لمعنى التقرير ، فيكون معناها على ذلك ((للانتقال من التوبيخ

---

(1) سورة محمّد : ١٩ .
(2) روح المعاني : ٢٦ / ٢٩٣ . وينظر : تفسير التحرير والتنوير : ٢٦ / ٨٨ .
(3) الميزان في تفسير القرآن : ١٨ / ٤٥٦ . وينظر : روح المعاني : ٢٦ / ٢٩٣ ، وتفسير التحرير والتنوير : ٢٦ / ٨٨ .
(4) البحر المحيط : ٩ / ٤٦٩ . وينظر : روح المعاني : ٢٦ / ٣٠٨ ، وتفسير التحرير والتنوير : ٢٦ / ٨٩ .
(5) روح المعاني : ٢٦ / ٣٠٨ .
(6) سورة محمّد : ٢٠ .
(7) البحر المحيط : ٩ / ٤٦٩ – ٤٧٠ . وينظر : روح المعاني : ٢٦ / ٣٠٨ ، تفسير التحرير والتنوير : ٢٦ / ٩٠.
(8) الميزان في تفسير القرآن : ١٨ / ٤٥٧ .
(9) سورة محمّد : ٢١ – ٢٢ .
(10) الكتاب : ١ / ١٤١ ، ٢ / ١٣٦
(11) روح المعاني : ٢٦ / ٣١٠ .
(12) الميزان في تفسير القرآن : ١٨ / ٤٥٧ .
(13) البحر المحيط : ٩ / ٤٧١ . وينظر : روح المعاني : ٢٦ / ٣١١ ، الميزان في تفسير القرآن : ١٨ / ٤٥٨ ، وتفسير التحرير والتنوير : ٢٦ / ٩٤ .
(14) ينظر : روح المعاني : ٢٦ / ٣١٢ . وينظر : الميزان في تفسير القرآن : ١٨ / ٤٥٨ .
(15) ينظر : الميزان في تفسير القرآن : ١٨ / ٤٥٨ .
(16) سورة محمّد : ٢٣ .
(17) إرشاد العقل السليم : ٨ / ٩٩ . وينظر : روح المعاني : ٢٦ / ٣١٢ .
(18) روح المعاني : ٢٦ / ٣١٣ .
(19) سورة محمّد : ٢٤ .
(20) ينظر : البحر المحيط : ٩ / ٤٧٣ ، وإرشاد العقل السليم : ٨ / ٩٩ ، وروح المعاني : ٢٦ / ٣١٨ ، والميزان في تفسير القرآن : ١٨ / ٤٥٨ .
(21) روح المعاني : ٢٦ / ٣١٨ .
(22) ينظر: البحر المحيط : ٩ / ٤٧٣ .

التدبّر إلى التوبيخ بكون قلوبهم مقفلة لا تقبل التدبّر، والتفكر))[1]. ثمّ قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴾[2] ، وهو –أيضاً – في شأن الفريق الثالث (الذين في قلوبهم مرض) ، فهم ((كانوا قد آمنوا حقّاً ، ثم رجعوا إلى الكفر ؛ لأنّهم كانوا ضعفاء الإيمان ، قليلي الإطمئنان))[3] ، وقد أكّد ضلالهم بـ (إنّ) ، والخبر الجملة الاسميّة (الشيطان سوّل لهم) ، وبتكرار شبه الجملة (لهم). ثمّ بيّن سبب الكلام المتقدّم ، بقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾[4]. فالإشارة بقوله (ذلك) – على رأي بعض المفسّرين- إلى الارتداد [5] ، في حين رأى آخرون أنّ اسم الإشارة عائد على تسويل الشيطان ، ((إذ التقدير أن يسأل سائل عن مظهر تسويل الشيطان لهم بالارتداد بعد أن تبيّن لهم الهدى ، فأجيب بأنّ الشيطان استدرجهم إلى الضلال عندما تبيّن لهم الهدى ، فسوّل لهم أن يوافقوا أهل الشرك ، والكفر))[6] . والمقصود بـ (الذين كرهوا ما أنزل الله) هم الفريق الأول / الكافرون [7] . ثم رتّب عليه قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾[8]، فالفاء في قوله (فكيف) ؛ ((لترتيب ما بعدها على ما قبلها))[9]، ولعلّ الضمير المنصوب في قوله (توفّتهم) عائد على الفريقين ، الكافرين ، والذين في قلوبهم مرض ، إذ إنّ العذاب لا يقع على فئة من دون أخرى ممّن وافاه الأجل ، وهو غير تائب إلى الله – عزّ وجلّ – ، والعامل في (كيف) محذوف ، يُفهم من السياق ، إذ إنّ تقديرالكلام :((يفعلون في حياتهم ما يفعلون من الحيل ، فكيف يفعلون إذا توفّتهم الملائكة))[10]، ويبدو أنّ هذا الحذف لتيئيسهم من النجاة ، و((تعجيب المخاطب من حالهم عند الوفاة))[11] . ثمّ أتبعه ببيان سبب هذا العذاب ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾[12] ، فاسم الإشارة (ذلك) يحيل على الكيفيّة التي يُعذّب بها الفريقان في الآية السابقة ، ثمّ علّل سببه بقوله (اتبعوا أسخط الله وكرهوا رضوانه) ، وقد عبّر عن اتباعهم ما أسخط الله بالجملة الفعليّة الواقعة صلة للموصول؛ للدلالة على معرفة المخاطب بما أسخط الله ، وزيادة على ذلك فهي تفيد تجدّد هذا الفعل منهم ، وأمّا كراهيتهم ، فهي لـ (رضوانه) ، وقد عبّر عنه بالمصدر الصريح ؛ للدلالة على أنّه ثابتٌ لا يتغيّر ، وقد ناسب بين ضرب الوجوه في الآية السابقة ، واتباع ما أسخط الله ، الذي يقتضي المقابلة بالوجه ، وضرب الأدبار ، وكراهة رضوان الله – تبارك وتعالى - ، ((ففي الكلام مقابلة بما يشبه اللف ، والنشر))[13] ، ولا يخفى الطباق الموجود بين (اتبعوا ، وكرهوا) ، وبين (أسخط ، ورضوانه)[14] . ثمّ أردف تهديده ، بقوله تعالى : ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴾[15] . فقد انتقل من تهديدهم إلى إنذارهم ، أعاد استعمال اسمهم الصريح على الرغم من تقدّمه في الكلام ؛ لتخصيصهم بهذا الإنذار من دون الكافرين . وزاد في إنذارهم بقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴾[16]، إذ إنّه – عزّ وجلّ – ينذرهم بتعريفهم للنبيّ ρ ، ثمّ بيّن له علامة منهم ، وهي في قوله (ولتعرفنّهم في لحن القول) ، ومعنى لحن القول : ((صرف الكلام عن سَننه الجاري عليه ، إمّا بإزالة الإعراب ، أو التصحيف ، وهو المذموم ، وذلك أكثر استعمالاً ، وإمّا بإزالته عن التصريح ، وصرفه بمعناه إلى تعريض ، وفحوى))[17] ، ثمّ ذيّل الكلام بقوله (والله يعلم أعمالكم) ، فالضمير في (أعمالكم) للفرق الثلاثة / موضوع السورة ، فهو خطاب عامّ جاء ؛ بالوعد للمؤمنين ، والوعيد للكافرين ، والذين في قلوبهم مرض ، ويدلّ على عمومه ، قوله تعالى : ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾[18]، فالابتلاء ((بالأمر بالجهاد ، وسائر التكاليف الشاقة))[19]، أمّا قوله (أخباركم) ، فهي ((الأعمال من حيث إنّها تصدر عن العاملين ، فيكون إخباراً لهم ، يخبر بها عنهم))[20]. ثمّ جاء قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴾[21]، عائداً على الفريق الأول ((الكفار ، عاد الكلام إليهم بعد الفراغ من ذكر المنافقين ، الذين يخفون الكفر))[22]، ثم قابلهم بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

---

[1] إرشاد العقل السليم : ٨ / ٩٩ . وينظر : روح المعاني : ٢٦ / ٣١٨ .
[2] سورة محمّد : ٢٥ .
[3] تفسير التحرير والتنوير : ٢٦ / ٩٦ .
[4] سورة محمّد : ٢٦ .
[5] ينظر : إرشاد العقل السليم : ٨ / ٩٩ ، وروح المعاني : ٢٦ / ٣٢٠ .
[6] تفسير التحرير والتنوير : ٢٦ / ٩٨ . وينظر : الميزان في تفسير القرآن : ١٨ / ٤٥٨ .
[7] ينظر : الميزان في تفسير القرآن : ١٨ / ٤٥٨ .
[8] سورة محمّد : ٢٧ .
[9] إرشاد العقل السليم : ٨ / ١٠٠ ، وينظر : روح المعاني : ٢٦ / ٣٢١ ، والميزان في تفسير القرآن : ١٨ / ٤٥٩ ، وتفسير التحرير والتنوير : ٢٦ / ٩٩ .
[10] إرشاد العقل السليم : ٨ / ١٠٠ . وينظر : روح المعاني : ٢٦ / ٣٢١ .
[11] تفسير التحرير والتنوير : ٢٦ / ٩٩ .
[12] سورة محمّد : ٢٨ .
[13] روح المعاني : ٢٦ / ٣٢١ .
[14] ينظر : تفسير التحرير والتنوير : ٢٦ / ١٠٠ .
[15] سورة محمّد : ٢٩ .
[16] سورة محمّد : ٣٠ .
[17] مفردات ألفاظ القرآن : ٧٣٨ (لحن). وينظر : بصائر ذوي التمييز : ٤ / ٤٢٤ .
[18] سورة محمّد : ٣١ .
[19] أنوار التنزيل وأسرار التأويل : ٥ / ١٩٦ . وينظر : إرشاد العقل السليم : ٨ / ١٠١ ، وروح المعاني : ٢٦ / ٣٢٤ .
[20] الميزان في تفسير القرآن : ١٨ / ٤٦٠ .
[21] سورة محمّد : ٣٢ .
[22] تفسير التحرير والتنوير : ٢٦ / ١٠٥ .

أَطِيعُوااللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾[1]. ويلحظ التقابل بين حالي الفريقين في (كفروا – آمنوا) ، و(صدّوا – أطيعوا) ، و(شاقوا الرسول – أطيعوا الرسول) ، و(سيحبط أعمالهم – لا تبطلوا أعمالكم) ، والآية الأخيرة معترضة بين الآية التي قبلها ، والآية الآتية بعدها ، وسبب اعتراضها لتحذير ((المؤمنين أن يكونوا أمثالهم ، فيفاوضوا المشركين ، ويميلوا إليهم ، فيتّبعوا ما أسخط الله ويكرهوا رضوانه))[2]. وجاء قوله تعالى : **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾**[3] ، تكملة لما تقدّم في شأن الكفار ؛ ((لأنّ تلك مسوقة لعدم الاكتراث بمشاقهم ، ولبيان أنّ الله مبطل صنائعهم ، وهذه مسوقة لبيان عدم انتفاعهم لمغفرة الله ، إذ ماتوا على ما هم عليه من الكفر))[4]. ولعلّ في الآية ارتباطاً بالآية التي تخاطب المؤمنين –أيضاً - ، إذ هي ((تعليل لمضمون الآية السابقة ، فيفيد أنّكم لو لم تطيعوا الله ، ورسوله ، وأبطلتم أعمالكم باتباع ما أسخط الله ، وكراهة رضوانه أدّاكم ذلك إلى اللحوق بأهل الكفر))[5] . وأعقب ذلك بالخطاب للمؤمنين ، وذلك في قوله تعالى : **﴿ فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمْ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾**[6]، أي ((إذا علمتم أنّ الله تعالى مبطل أعمالهم ، ومعاقبهم ، فهو خاذلهم في الدنيا ، والآخرة ، فلا تبالوا بهم ، ولا تظهروا ضعفاً))[7]. ثمّ قال تعالى : **﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴾**[8]. فقوله (إنّما الحياة الدنيا لعب ولهو) ؛ ((ترغيب لهم في الآخرة))[9]، وفي الخطاب توجيه للمؤمنين بالأعمال التي تقرّبهم من الله – تبارك وتعالى – . ومعنى قوله (لا يسألكم أموالكم) ، أي ((لا يسألكم جميعها))[10] ، يدلّ على هذا المعنى ما جاء في الآية اللاحقة لها ، إذ المعنى : ((إن يسألكم جميع أموالكم فيجهدكم بطلب كلّها كففتم عن الإعطاء لحبّكم لها ، ويخرج أحقاد قلوبكم ، فضللتم))[11] . ثم أتمّ خطابه لهم في قوله تعالى : **﴿إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ هَاأَنْتُمْ هَؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾**[12] . فقوله (إن يسألكموها فيحفكم) ((تعليل لنفي سؤالهم أموالهم))[13]. وجاء قوله (ها هؤلاء تدعون) كالتمثيل على كفّهم عن الإعطاء ، الذي سبق . ومعنى قوله (لتنفقوا في سبيل الله) : ((يعمّ نفقة الغزو ، والزكاة ، وغيرهما))[14]. ولعلّ معنى الغزو هو الأقرب ؛ لتقدّم الأمر بالقتال فيما سبق من السورة أولاً ، ولأنّ الزكاة من الأمور الواجبة على الأغنياء ، ويبدو أنّ قوله (تدعون لتنفقوا في سبيل الله) ليس من الأمور الواجبة ، وإنّما من الأعمال التطوعيّة . وجاءقوله (وإن تتولّوا يستبدل قوماً غيركم) مقابلاً لقوله (إن تؤمنوا وتتقوا) ، ومعنى تتولوا : ((تعرضوا عن الإيمان والتقوى))[15] ، ويدلّ على هذا المعنى استبدال ((الإيمان بالكفر ؛ ولذلك جعل جزاؤه استبدال قومٍ غيرهم كما دين الله بدين الشرك))[16] .

المبحث الثالث : الخطط التنظيميّة للموضوع / ترتيب الخطاب، وخطط التأكيد

إنّ ثمرة النشاط اللغويّ للإنسان هي النصوص المنتجة ، وهي ((تتابعات منطوق مكوّنة من جمل ، أو تراكيب مكافئة للجمل (تكوينات مجتزأة [17]غير مكمّلة) تربط حالاً معينة ممثلة في وعي المتكلّم بمكونات . ولكن كما لا ينتج ربط للمفردات جملة صحيحة ، فإنّ تتابعاً للجمل مكوّناً بشكل عشوائيّ لا يُشكل نصّاً ، بل صقّاً لجمل مرتبطة بعضها ببعض بلا علاقة))[18] . فالمعلومات المقدّمة في النصّ يجب أنْ تنتظم ((بطريقة معيّنة ، بحيث تتلاءم مع غرض اتّصاليّ معيّن ... وتتحقّق الاستمراريّة في النصّ بواسطة[19] العناصر الناقلة ، إمّا داخل كلّ فقرة ، أو بين الفقرات المختلفة ، فتتحقّق استمراريّة ، ونمو الموضوع من خلال الانتقال بالمعنى على هيأة سلاسل من الأفكار الأساسيّة ... إنّ الخاصّية المميزة لتصوّر المعلومات هي أنّها منظمة بطريقة ثابتة كوحدة متكاملة من المعارف النموذجيّة الراسخة في الذاكرة . من هذا المنظور تُعدّ عمليّة فهم الخطاب أساساً عمليّة استرجاع المعلومات المُخزّنة في الذاكرة ، وربطها بالخطاب الذي نتعامل معه))[20] . وممّا يتّصل بهذا المبحث معرفة أيّ طريقة يُدرس بها النصّ القرآنيّ الكريم ، هل يُدرس بحسب ترتيب نزوله على النبيّ ٦ ، وفي ذلك يكون موضوع الدراسة (السور المدنيّة) غير ملزم بمراعاة موضع السورة من الكتاب الكريم ، بل يكون جُلّ اهتمامه بترتيب نزولها ، ومعرفة ما سبقها ، وما لحقها من السور ، وهذا بالطبع يتعارض مع ما تعارف عليه المفسّرون

---

(1) سورة محمّد : ٣٣ .
(2) الميزان في تفسير القرآن : ١٨ / ٤٦٢ . وينظر : تفسير التحرير والتنوير : ٢٦ / ١٠٦ .
(3) سورة محمّد : ٣٤ .
(4) تفسير التحرير والتنوير : ٢٦ / ١٠٨ .
(5) الميزان في تفسير القرآن : ١٨ / ٤٦٣ .
(6) سورة محمّد : ٣٥ .
(7) روح المعاني : ٢٦ / ٣٢٧ .
(8) سورة محمّد : ٣٦ .
(9) الميزان في تفسير القرآن : ١٨ / ٤٦٤ .
(10) تفسير الكشاف : ٤ / ٣٢١ . وينظر : البحر المحيط : ٩ / ٤٧٧ ، وإرشاد العقل السليم : ٨ / ١٠٢ .
(11) الميزان في تفسير القرآن : ١٨ / ٤٦٤ .
(12) سورة محمّد : ٣٧ – ٣٨ .
(13) تفسير التحرير والتنوير : ٢٦ / ١١٣ .
(14) أنوار التنزيل وأسرار التأويل : ٥ / ١٩٧ . وينظر : البحر المحيط : ٩ / ٤٧٨ ، وإرشاد العقل السليم : ٨ / ١٠٣ .
(15) روح المعاني : ٢٦ / ٣٣٠ .
(16) تفسير التحرير والتنوير : ٢٦ / ١١٦ – ١١٧ .
(17) كذا ، والصحيح : مجزّءة .
(18) سمات دلاليّة وبنية النصّ (ضمن كتاب : إسهامات أساسيّة في العلاقة بين النصّ والنحو والدلالة) : ٢٨٧ .
(19) كذا ، والصحيح : بوساطة .
(20) علم لغة النصّ ، النظريّة والتطبيق : ١٩٧ – ١٩٨ .

للنصّ الكريم ، والمؤلفون في علوم القرآن ، وهم قد رووا ((أنّ القرآن الكريم نزل بعض منه سوراً كاملة ، ونزل البعض الآخر منه آيات متفرّقة ، وأنّ النبيّ ٦ كان يأمر بأنْ توضع الآيات المتفرّقة في مواضعها من السور في سياق خاصّ ، كلاً بحسب ما يتطلّبه الموقف ، وهذا يعني أنّ للسورة المنتظمة في آيات : لها خصوصيتها ؛ ولذلك ينبغي البحث عن هذا الجانب أيضاً ، فالمطلوب ، أو المستهدف هو ملاحظة النصّ الكريم في صيغته النهائية المتمثّلة في عنصر السورة ، وهي الطابع الذي يسم القرآن الكريم ، ويخرجه عن سواه من الأشكال الفّنية))[١] . ويرى بعض الباحثين المحدثين أنّ مؤلـّفي النصّ يعرضون منظورهم عن الموضوع من خلال خططهم التنظيميّة، وقد اقترح محلـّلو الخطاب مجموعة من العلاقات المنطقيّة ، التي تعمل على مستوى النصّ ، يُمكن تحديدها في خمس علاقات أساسيّة ، هي[٢] :

١- علاقة الاتحاد / الجمع .
٢- علاقة السببيّة .
٣- علاقة الاستجابة ، مثل : (المشكلة والحلّ ، والسؤال والجواب ، والتعليق والردّ ...) .
٤- علاقة التقابل .
٥- علاقة الوصف .

ويستعمل محلـّلو النصوص هذه العلاقات للتفكير فيالموضوعات عند بنائهم التمثيل المعرفيّ للنصّ ، ويُوظـّفونها على المستوى الأعلى للنصّ كلـّه ، أو على المستوى الأدنى بين الجمل ، والفقرات. أمّا خطط التأكيد ، فهي ((معلومات مقدّمة في النصّ ، لا تُضيف محتوًى جديداً للفكرة الأساسيّة ، ولكنـّها تعطي تأكيداً على جانب مُعيّن للمحتوى الدلاليّ ، أو تُشير إلى بنية المحتوى))[٣]، وتشمل أنواع الإشارة[٤] :

١- التقرير الصريح لنوع العلاقات في محتوى البنية (ذكر نوع العلاقة) ، مثل : على العكس – على نحو مشابه ... .
٢- التقرير المسبق / التمهيديّ ، الذي يكشف عن المعلومات مجرّدة عن المحتوى ، الذي سيظهر فيما بعد في النصّ ، مثل : مشكلة – اعتقاد – اعتراض – نتيجة ... ، أو ما يُطلق عليه إشارة الاستهلال ، أو الجمل الاستهلاليّة .
٣- التقرير الملخـّص ، أو تكرار الإشارة ، باستعمال الجمل التلخيصيّة ، التي يُكرّر بها في الغالب العبارة الاستهلاليّة .
٤- استعمال وسائل الإشارة ، أو العلامات الصريحة ، مثل التعبير : النقطة المهمّة هي : أريد التأكيد على أنّ ... ، أو وضع خطّ أسفل الكتابة ، أو الكتابة المائلة ، أو التقنيات الأخرى المشابهة .

وعند محاولة تطبيق ما تقدّم على سورة الزلزلة (المدنيّة) ، يُلحظ أنّ السورة الكريمة تبدأ بقوله تعالى : **﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾**[٥] ، فالآية الكريمة تبدأ بتقرير تمهيديّ لموضوع السورة (يوم البعث والجزاء) ؛ ((مخوّفاً لعباده أهوال يوم القيامة ، ومنذراً لهم بالآيات الباهرة))[٦]. وكان ذلك باستعمال علاقة الاستجابة / الشرط والجواب ، وقد عبّر عن يوم البعث بإضافة ضمير الزلزلة إلى الأرض ، وذلك في قوله (زلزالها) ؛ ((لأنها تعمّ جميع الأرض بخلاف الزلازل المعهودة ، التي تختصّ ببعض الأرض))[٧]، ولم يتحقـّق معنى الشرط بهذه الآية فقط ، بل بمجموع الآيتين بعدها ، وهما قوله تعالى : **﴿وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا﴾**[٨] ، فجمعتْ علاقة الاتحاد / الجمع ، بين الآيات ؛ ليكون مضمون الآيات مجتمعةً هو جملة الشرط ، والجمع بين الآيات ليس جمعاً مطلقاً ، بل هو جمع ترتيبيّ ، إذ تحصل الزلزلة أولاً ، ثم إخراج الأثقال ، ثم السؤال. لأنّ معنى قوله (أثقالها) هو : الموتى[٩] ، ولعلّ ما يؤيّد هذا المعنى ، وورود قوله (الإنسان) في الآية الآتية بعدها ، إذ إنّ استعمال اسم الجنس فيه دلالة على العموم للبشر جميعاً ، وهو ما يناسب موضوع السورة (إثبات يوم القيامة) ، ((أي يقول الإنسان : ما لهذي الأرض قد زُلزلتْ ؟ وذلك لا يكون إلاّ بعد عمليّة الانبعاث التي ترتبط بالإنسان الذي يرقد تحت الأرض))[١٠]. وقد أعاد ذكر (الأرض) على الرغم من تقدّمها في الآية السابقة لها ؛ ((لزيادة التقرير ، أو للإيماء إلى تبدّل الأرض غير الأرض ، أو لأنّ إخراج الأثقال حال بعض أجزائها))[١١] ، أو ((لقصد التهويل))[١٢] . واحتمل قوله (أثقالها) أن يكون ما فيها من ((كنوزها ، ومعادنها ، فتلقيها على ظهرها ؛ ليراها أهل الموقف وتكون الفائدة في ذلك أن يتحسّر العصاة إذا نظروا إليها ؛ لأنهم عصوا الله فيها ، ثمّ تركوها لا تغني عنهم شيئاً . وأيضاً فإنّه تكوى بها جباههم ، وجنوبهم ، وظهورهم))[١٣]. وقد ذهب كثير من المفسّرين إلى أنّ المقصود بـ (الإنسان) المتقدّم هو ((الكافر ؛ لأنه كان لا يؤمن بالبعث))[١٤]. ويبدو أنّ المقصود به عموم البشر ، يؤيّد ذلك ما جاء في قوله تعالى : **﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا**

---

(١) دراسات في علوم القرآن : ٤١ – ٤٢ . وينظر : البرهان في علوم القرآن : ١ / ١٨٤ . إذ ذهب إلى أنّ ترتيب السور توقيفيّ .
(٢) علم لغة النصّ ، النظريّة والتطبيق : ١٩٣ – ١٩٤ .
(٣) علم لغة النصّ ، النظريّة والتطبيق : ١٩٤ .
(٤) المصدر نفسه : ١٩٤ .
(٥) سورة الزلزلة : ١ .
(٦) التبيان في تفسير القرآن : ١٠ / ٣٢٦ . وينظر : مجمع البيان : ١٠ / ٦١٦ .
(٧) مجمع البيان : ١ / ٦١٧ . وينظر : البحر المحيط : ١٠ / ٥٢١ – ٥٢٢ .
(٨) سورة الزلزلة : ٢ – ٣ .
(٩) الميزان في تفسير القرآن : ٢٠ / ٥٩٧ .
(١٠) التفسير البيانيّ للقرآن الكريم : ٥ / ٣٨٢ .
(١١) إرشاد العقل السليم : ٩ / ١٨٨ . وينظر : روح المعاني : ٣٠ / ٦٠٤ .
(١٢) تفسير التحرير والتنوير : ٣٠ / ٤٣٣ .
(١٣) مجمع البيان : ١٠ / ٦١٧ .
(١٤) تفسير الكشاف : ٤ / ٧٧٥ . وينظر : معاني القرآن ، الفرّاء : ٣ / ١٧٣ ، ومجمع البيان : ١٠ / ٦١٧ ، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل : ٥ / ٥١٨ .

وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾[١] . فقد خاطب الله – عزّ وجلّ – الناس جميعاً ، ووصف حالة الذهول ، والخوف لعامّتهم . فيأتي جواب الشرط في قوله تعالى : **﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾**[٢]، وهو تقرير مسبق / تمهيديّ ، إذ إنّ جواب الشرط تمهيد للجواب ، أو المقصود من الكلام ؛ لأنّ الكلام مسوق لإثبات الحشر ، والتذكير به . و(أخبارها) يقصد به ((شهادتها بما عُمل عليها من عمل صالح ، وفاسد))[٣]. ويأتي قوله تعالى : **﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴾**[٤]، تصريحاً بسبب الأحداث بالعلاقة السببيّة [٥]، التي تبيّن أنّ الأمر صادر من الله تعالى لها / الأرض . والمشهور في قوله (أوحى) أن يُعدّى بـ (إلى) ، ((وعدّي هنا باللام مراعاة للفواصل))[٦] ، أو لأنّ (اللام) تأتي – هنا – لمعنى التبليغ [٧] ، فيأتي قوله تعالى : **﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴾** [٨]، بياناً للسبب الرئيس لهذه الأحداث ، فيصف حالهم بقوله (يصدر الناس أشتاتاً) ،فيكون تفرّقهم الآخرويّ مُعلّلاً بالجزاء على الأعمال ، وذلك في قوله (ليروا أعمالهم) ، فيتفرّع [٩] عليه قوله تعالى : **﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾**[١٠] ؛ لتوضيح ما تقدّم من رؤية ، إذ إنّ ((الهدف إضاءة صورة الحكم والقرار في جملة واحدة يحسم بها الأمر))[١١] ، فجاءتْ علاقة المقابلة بين الفريقين العاملين . من ذلك يتبيّن أنّ آيات السورة مرتبطة فيما بينها بعلاقات دلاليّة تُبيّن ((مدى إحكام النص ، وجماليته من حيث صلة أقسامه بعضها مع الآخر))[١٢] .

المبحث الرابع : البنية الكبرى وقواعد البناء

يرى بعض الباحثين أنّ ((أوجه الترابط التي ترتكز على النصّ بوصفه كلاً ، أو على كلّ حال بالوحدات الكبرى للنصّ . ونطلق على هذه الأبنية النصّيّة العامّة الأبنية الكبرى))[١٣]. فالبنية الكبرى تمثيل دلاليّ لموضوع ما ، وقد يضمّ هذا الموضوع قضايا جزئيّة تأتلف ؛ لتكوّن الموضوع العام / البنية الكبرى[١٤] . فالبنية الكبرى الشاملة للنصّ مرتبطة بموضوعه الكلّيّ[١٥] ، أو هي مجموعة من البنيات الصغرى ، انسجمت فيما بينها مكوّنة القضيّة الأساسيّة التي يدور النصّ في فلكها ، وقيل هي : ((بنية تصوّريّة أو مفهوميّة (قضية ما) ، قد تصبح موضوع خطاب ، إذا نظمتْ بنية تصوّريّة (قضائيّة) متوالية تنظيماً تراتبياً))[١٦]. فالنصّ بعدّه منجزاً لغويّاً ((يحتوي على دلالة غير قابلة للتجزئة ، مثل (أنْ يكون قصة) ، أو (أنْ يكون وثيقة) ، أو (أنْ يكون قصيدة) ، ممّا يعني أنه يُحقّق وظيفة ثقافيّة مُحدّدة ، وينقل دلالتها الكاملة))[١٧]، ومن ذلك يتّضح أنّ ((البنية الكبرى للنصّ ترتبط بموضوعه الكلّيّ ، إذ تتجلّى في ضوئها تلك الكفاية الجوهريّة لمتكلّم ما ، التي تسمح له بأنْ يُجيب عن سؤال ، مثل : عمّ كان الكلام ؟ ، أو : ماذا كان هدف هذا الحوار؟))[١٨]. ومن خلال البنية الكبرى استطاع علماء النصّ إثبات أنّ التماسك النصّيّ لا يتحدّد على مستوى علاقات الترابط بين المتتاليات الجمليّة فحسب ؛ لأنّ هذا المستوى لا يُقدّم سوى الأبنية الصغرى ، أمّا التمثيل الدلاليّ الكلّيّ ، فتحدّده البنية الكبرى ، وتجعل من النصّ عملاً كلّيّاً فريداً [١٩]. ورأى فان دايك أنّه لكي يتوصّل إلى الأبنية الكبرى للنصوص ، يجب أنْ تطبّق فيها القواعد الكبرى على التتابعات الجمليّة / القضايا في النصّ ، وهذه القواعد هي[٢٠] :

١- الحذف : وهذه القاعدة ((تتضمّن أنّ كلّ معلومة غير مهمّة ، غير جوهريّة يُمكن أنْ تُحذف))[٢١]. فالمعلومات المحذوفة من النصّ غير أساسيّة ، أو أنّها غير لازمة في النصّ . وقد مثّل لذلك بالتتابعات الجمليّة (مرّ فتى – يحمل كتاباً - الكتاب كبير) ؛ فالجملتان الأخيرتان غير لازمتين في النصّ ؛ ولذا يُمكن حذفهما من دون التأثير على المعنى المطلوب . وقد أشار عبد القاهر الجرجانيّ إلى هذه القاعدة ، قبل المحدثين ، وذلك عند بحثه عن المفعول في قوله تعالى : **﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾** ، إذ قال : ((ففيها حذف مفعول في أربعة مواضع ، إذ المعنى : (وجد عليه أمّة من الناس يسقون) أغنامهم أو مواشيهم – وامرأتين تذودان غنمهما – وقالتا لا نسقي غنمنا – فسقى لهما غنمهما ... وما ذاك إلاّ أنّ الغرض في أنْ يُعلم أنّه كان

---

(١) سورة الحجّ : ١ – ٢ .
(٢) سورة الزلزلة : ٤ .
(٣) الجواهر الحسان : ٥ / ٦١٥ . وينظر : أنوار التنزيل وأسرار التأويل : ٥ / ٥١٨ ، وإرشاد العقل السليم : ٩ / ١٨٨ .
(٤) سورة الزلزلة : ٥ .
(٥) ينظر : تفسير الكشاف : ٤ / ٧٧٦ ، والجواهر الحسان : ٥ / ٦١٦ ، وإرشاد العقل السليم : ٩ / ١٨٩ .
(٦) الجواهر الحسان : ٥ / ٦١٦ . وينظر : معاني القرآن ، الأخفش : ٣١١ .
(٧) ينظر : الجنى الداني : ٩٩ .
(٨) سورة الزلزلة : ٦ .
(٩) ينظر : أنوار التنزيل وأسرار التأويل : ٥ / ٥١٩ ، وإرشاد العقل السليم : ٩ / ١٨٩ .
(١٠) سورة الزلزلة : ٧ – ٨ .
(١١) النسق القرآنيّ ، دراسة أسلوبيّة : ٥١٣ .
(١٢) التفسير البنائيّ للقرآن الكريم : ٥ / ٣٨٤ .
(١٣) علم النصّ ، مدخل متداخل الاختصاصات : ٧٤ .
(١٤) ينظر : لسانيات النصّ : ٤٤ .
(١٥) ينظر : بلاغة الخطاب وعلم النص : ٣١ ..
(١٦) النصّ والسياق : ١٨٨ .
(١٧) بلاغة الخطاب وعلم النصّ : ٣٠١ .
(١٨) بلاغة الخطاب وعلم النصّ : ٣٣٦ .
(١٩) نفسه : ٣٤٤ .
(٢٠) ينظر : علم النصّ ، مدخل متداخل الاختصاصات : ٨١ – ٨٥ .
(٢١) علم النصّ ، مدخل متداخل الاختصاصات : ٨١ .

من الناس في تلك الحال سقي ، ومن المرأتين ذود .. فأمّا ما كان المسقيّ ؟ أغنماً أم إبلاً أم غير ذلك ، فخارج عن الغرض))[1] .

٢- الاختيار : يُحذف في هذه القاعدة عدد محدّد من المعلومات ؛ لوجود علاقة واضحة بين المحذوف ، والباقي من المعلومات ، ومثّل لذلك بالجمل الآتية : عاد بيتر إلى سيارته – ركبها – سافر إلى فرانكفورت . فبالإمكان حذف الجملة الأولى ، والثانية ؛ لأنها –بدهيّاً – مفهومة من الجملة الثالثة . كما يُمكن استعادة المحذوف حين تكون لدينا معلومة أنّه سافر بالسيّارة ، أنّه ركبها .

٣- التعميم : تُحذف معلومات أساسيّة أيضاً إلى حدّ أنّها تضيع ، فتحذف المكوّنات الأساسيّة لتصوّر ما ، وتحلّ من خلال ذلك قضيّة جديدة محلّ قضيّة قديمة ، كما في المثال الآتي : على الأرض دميّة – على الأرض قطار خشبيّ – على الأرض مكعّبات . يُمكن أنْ تحلّ قضيّة جديدة محلّ هذه القضايا : على الأرض لُعَب ؛ لأنّ القضيّة الجديدة تتضمّن مفهوميّاً كلّ القضايا السابقة .

٤- الإدماج أو التركيب : تشبه القاعدة الثانية في الوظيفة ، غير أنّها تجري بحيث تحلّ معلومة جديدة محلّ معلومة قديمة ، ولا تُحذف ، ولا تُختار . ويوجد هنا ربط لزوميّ بين المفاهيم على نحو ما يقع في سلسلة القضايا التي تُشكّل المدخل للقاعدة . فالنصّ يُمكن أنْ يذكر سلسلة من هذه الجوانب ، بحيث تُشكّل معاً مفهوماً أعمّ ، أو أعلى ، كما في المثال : ذهبتُ إلى محطّة القطار – اشتريت تذكرة سفر – اقتربتُ من الرصيف – صعدت القطار – تحرّك القطار . يُحدّد هذه السلسلة التي يُمكن أنْ تتفرع أكثر من ذلك مجملة في المثال الآتي : ركبتُ القطار .

ويمكن إيجاد مقاربة بين القواعد التي مرّ ذكرها ، والسور المدنيّة ، ولتكن سورة (الصفّ) مثالاً لذلك ، فالسورة الكريمة تضمّنتْ مجموعة من القضايا الجزئيّة ، فهي ((تشتمل على تنبيه المؤمنين لبعض الواجب عليهم ، وتحذيرهم من أنْ يكونوا كقوم موسى وعيسى ، مع بيان أنّ الإسلام هو دين الله ، وأنّه غالب على الأديان ، ثمّ رسمتْ طريق الهدى الموصل إلى النجاة من العذاب))[2] فهذه القضايا الجزئيّة في السورة الكريمة ، ترتبط جميعاً في قضيّة كلّيّة ، هي طاعة الله واتباع أوامره الملقاة إليهم على لسان نبيّه محمّد ٦، وأن لا يكونوا كالأقوام السابقة في عصيانهم لأوامر أنبيائهم . وقد افتتح السورة بقوله تعالى : **﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾**[3]، فالله – تبارك وتعالى - تسبح له أصناف المخلوقات ، والكفار يعبدون ما هو دونه ، ((فلم يسبّحوا الله ، ولم يصفوه بصفات الكمال))[4] ، فهم مستحقّون للمقاتلة ؛ لأنّهم خالفوا غيرهم من المخلوقات وفيه توبيخ للمؤمنين على بعض أفعالهم ، التي سيأتي ذكرها ، فالآية تبيّن أنّه تعالى تسبّح له الموجودات ، وهو العزيز والحكيم ، سواءٌ جاهدوا في سبيله أم لم يجاهدوا ، وذلك أنّ ((متعلّق التوبيخ كان هو تخلّف بعضهم عمّا وعده من الثبات في القتال ، وعدم الإنهزام والفرار ، أو تثاقلهم ، أو تخلّفهم عن الخروج ، أو عدم الإنفاق في تجهّز أنفسهم ، أو تجهيز غيرهم))[5] ، يتّضح ذلك في قوله تعالى : **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾**[6]. وفي التعبير بقوله (كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) لبيان ((قبح ما فعلوه))[7] . ثم جاءتْ قاعدة التعميم في الآية الكريمة الآتية ، وأوضحتْ الحكم العامّ ، الذي يجمع تلك الجزئيّات ، التي وُبِّخوا عليها ، وما هو الذي يجب أن يتحلّوا به ، وذلك في قوله تعالى : **﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾**[8] ، فمعنى الآية يشير إلى أنّ النزول كان في مناسبة خاصّة ، إلاّ أنّه يصلح لكلّ زمان ، ومكان ، زيادة على ذلك ، فالآية تعلّل خصوص المورد ، وهو أنْ يعدوا الثبات في القتال ، ثمّ ينهزموا ، وتشير كذلك إلى ((أنّ الله سبحانه إذا أحبّ الذين يُقاتلون ، فيلزمون مكانهم ، ولا يزولون كان لازمه أنْ يبغض الذين يعدون أنْ يثبتوا ، ثمّ ينهزمون إذا حضروا معركة القتال))[9] . وجاءتْ الآية التي بعدها موضّحة لقاعدة الاختيار ، وذلك في قوله تعالى : **﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾**[10] ، فممّا ذُكر في الآية الكريمة نستنبط أنّ الله تعالى قد أرسل موسى إلى قومه ، وأنّهم قد عصوه ، وآذوه ، ولم يكونوا مطيعين له ، وقد وبّخهم موسى على أفعالهم . ووجه الربط بين توبيخ المؤمنين على الانهزام في المعركة ، والتذكير بما جرى بين موسى A ، وقومه هو أنّه ((كلام مستأنف مقرّر لما قبله من شناعة ترك القتال ... أي اذكر لهؤلاء المعرضين عن القتال وقت قول موسى A لبني إسرائيل حين ندبهم إلى قتال الجبابرة))[11]. فالآية تشير إلى امتناعهم عن القتال ، وعدم طاعة في أمر القتال ، ((فيكون المقصود الأهمّ من القصة هو ما تفرّع على ذكرها من قوله (فلمّا زاغوا أزاغ الله قلوبهم) . ويناسب أن تكون هذه الآية تحذيراً من مخالفة أمر الرسول ρ ، وعبرة بما عرض لهم من الهزيمة يوم (أحد) لمّا خالفوا أمره من عدم ثبات الرماة في مكانهم))[12] . وجاء قوله تعالى : **﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا**

---

(١) دلائل الإعجاز : ١٦١ .
(٢) التفسير الواضح : ٢ / ٤٩٩ .
(٣) سورة الصف : ١ .
(٤) تفسير التحرير والتنوير : ٢٨ / ١٥٥ .
(٥) الميزان في تفسير القرآن : ١٩ / ١٩٢ .
(٦) سورة الصف : ٢ – ٣ .
(٧) روح المعاني : ٢٨ / ٣٨٦ .
(٨) سورة الصف : ٤ .
(٩) الميزان في تفسير القرآن : ١٩ / ١٩٣ . وينظر : روح المعاني : ٣٨٧ ، والتفسير البنائيّ : ٥ /٧ .
(١٠) سورة الصف : ٥ .
(١١) روح المعاني : ٢٨ / ٣٨٨ .
(١٢) تفسير التحرير والتنوير : ٢٨ / ١٥٩ .

بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾[١] ، مكمّلاً لقاعدة الاختيار في الآية السابقة ، فالآية تدلّ على انقضاء رسالة موسى ٧، وبعث النبيّ عيسى ٧ بعده ، فرسالته مصدّقة لرسالة موسى ، ومبشّرة برسالة لاحقة. ويتبيّن من ذلك أنّ رسالة عيسى A مثبتة لهم على أحكام شريعتهم ، إلاّ ما دعتْ إليه طبيعة التغيرات الإنسانيّة من نسخ لبعض الأحكام المتوافقة مع هذه التغيرات ، كما أنّ الآية الكريمة تشير إلى أنّ الرسالة المبشّر بها متممة للرسالتين السابقتين أولاً ، وأفضل منهما ثانياً ؛ ولذا استعمل تعبير (مبشّراً) ، والبشارة إنّما تكون بما هو أفضل للإنسان من الحال التي هو عليها ، فهي تفيد ((كون ما أتى به النبيّ أحمد ρ أرقى ، وأكمل ممّا تضمّنته التوراة ، وبعث به عيسى A ، وهو A متوسط رابط بين الدعوتين))[٢] . وجاءتْ قاعدة الإدماج أو التركيب ؛ لتبيّن بعث النبيّ المبشّر به ، بالبيّنات الدالّة على صدق نبوّته ، ورميهم له بالسحر المبين ، ((وذكر القرآن تبشير عيسى بمحمّد عليهما الصلاة والسلام إماج في خلال المقصود ، الذي هو تنظير ما أوذي به موسى من قومه ، وما أوذي به عيسى من قومه إدماجاً يؤيّد به النبيّ ρ ، ويُثبّت فؤاده ، ويزيده تسلية ، فيها تخلص إلى أنّ ما لقيه من قومه نظير ما لقيه عيسى من بني إسرائيل))[٣]. ثمّ جاء التعميم بالحكم في قوله تعالى : ﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الإِسْلامِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾** [٤] . قد أشار في الآية السابقة إلى الرسول الموعود ، الذي سيأتي بعده ، فجاء قوله هذا رابطاً له بحاضر الدعوة الإسلاميّة ، إذ إنّه ((لمّا أدمج في حكاية دعوة عيسى بشارته برسول يأتي بعده ، ناسب أن ينتقل الكلام إلى ما قابل به قوم الرسول الموعود دعوة رسولهم ؛ فلذلك ذكر في دعوة هذا الرسول دين الإسلام ، فوصفوا بأنّهم أظلم الناس تشنيعاً لحالهم))[٥]. وقد أشارت الآية إلى معاداتهم للنبيّ ، وتكذيبه في قوله (افترى على الله الكذب) ، وعلّل ذلك بقوله تعالى : ﴿ **يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾**[٦] ، فهم يريدون أن يمنعوا الرسول من نشر دعوته ؛ كي يمنعوا ((ظهوره بكلامهم ، وأكاذيبهم))[٧]. وجاءقوله تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾**[٨]مراعياً لقاعدة الاختيار، إذ إنّ قوله (ليظهره على الدين كلّه ولو كره المشركون) يحمل كثيراً من الأحداثالغائبة في النصّ ، فالمنافسة بين إظهار الدين ، وكره المشركين تتطلّب كثيراً من المواجهة ، والصعوبات ، والشدائد ، فحذفتْ من النصّ إمعاناً في تيئيس الكفار ، وتقوية لعزيمة المؤمنين بأنّ الغلبة ستكون لهم مع الصبر. وجاءتْ الآيات الأخيرة من السورة خاتمة للموضوع الذي بدأتْ به ، وهو الجهاد في سبيل الله ، فقال – تبارك وتعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾**[٩] . فالآيات الكريمة – بحسب قاعدة الإدماج – تحثّ المؤمنين على الإيمان بالله ، والجهاد في سبيله ، وتتخذ من مصطلح التجارة عنواناً جديداً للجهاد ، فكأنّهم بطاعتهم لله – تبارك وتعالى – وجهادهم في سبيله يعملون بمتاجرة ينتظرون الربح منها (يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنّات تجري من تحتها الأنهار) ، ولم يقصر الأمر على الآخرة ، بل بشّرهم بربح دنيويّ (نصر من الله وفتح قريب) . وضرب لهم مثلاً من الحواريين الذين أخلصوا في دينهم لله تعالى ، وأطاعوا رسوله ، فكانت النتيجة (فأيّدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين) .

المبحث الخامس : التغريض

إنّ مفهوم التغريض ذو علاقة وثيقة بموضوع الخطاب ، وعنوان النص ؛ وذلك لأنّ ((الخطاب ينتظم على شكل متتاليات من الجمل متدرّجة ، لها بداية ونهاية ، فإنّ هذا التنظيم يعني الخطّيّة ، سيتحكم في تأويل الخطاب ، بناءً على أنّ ما يبدأ به المتكلّم ، أو الكاتب سيؤثّر في تأويل ما يليه))[١٠] . ويتمّ التغريض بوسائل عدّة ، لعلّ من أهمّها : تكرير اسم ، واستعمال ضمير محيل إليه ، وتكرير جزء من اسمه ، واستعمال ظرف زمان يخدم خصيصة من خصائصه . وهذا النوع من التغريض يُستعمل حين يدور موضوع الخطاب عن شخص ما ، و ((أهميّة مبدأ الإعادة بالنسبة لتماسك النصّ تكمن أساساً في أنّه في أوجه الإعادة المختلفة للنصّ يعبّر لغويّاً عن توحّد موضوع النصّ ... ولذلك ما يجعل تتابع [١١] من جمل تتابعاً جمليّاً متماسكاً ، أي يجعله نصّاً أساساً ليس مبدأ الإعادة ، بل آخر الأمر التوجيه الموضوعيّ ، أي التركيز الاتّصاليّ على موضوع موحّد))[١٢]. وهناك إجراء آخر يُستعمل في تغريض الخطاب ، وهو (العنوان) ، فهو يثير لدى القارئ توقّعات قويّة حول ما يُمكن أنْ يكون موضوع الخطاب [١٣]. وممّا يُلحظ على هذا الإجراء أنّ السور القرآنيّة الكريمة جميعها

---

(١) سورة الصف : ٦ .
(٢) الميزان في تفسير القرآن : ١٩ / ١٩٥ .
(٣) تفسير التحرير والتنوير : ٢٨ / ١٦٦ – ١٦٧ .
(٤) سورة الصف : ٧ .
(٥) تفسير التحرير والتنوير : ٢٨ / ١٦٧ – ١٦٨ .
(٦) سورة الصف : ٨ .
(٧) روح المعاني : ٢٨ / ٣٩٢ .
(٨) سورة الصف : ٩ .
(٩) سورة الصف : ١٠ – ١٤ .
(١٠) لسانيات النصّ ، مدخل إلى انسجام الخطاب : ٥٩ .
(١١) كذا ، والصحيح : تتابعاً .
(١٢) التحليل اللغويّ للنصّ ، مدخل إلى المفاهيم الأساسيّة والمناهج : ٧٢ .
(١٣) ينظر : لسانيات النص ، مدخل إلى انسجام الخطاب : ٦٠ .

لم يكن لها عنوان صريح ، تُعنون به ، وإنْ كان السيوطيّ يرى أنه ((قد ثبت أسماء السور بالتوقيف من الأحاديث والآثار))[1] ، وعنوان السورة لم يكن بمعزلٍ عن مضمونها ، فقد اختير أمّا من أكثر الموضوعات الموجودة في السورة أهمّية ، وأمّا من مجموع موضوعات ثانوية ، حاول العلماء – قدر الإمكان – جمعها في إطار / عنوان واحد شامل لها .
وممّا يُمكن أنْ يُعدّ نائباً عن عنوان السورة ، الآية الأولى فيها ،فهي في الأغلب تدلّ على الموضوع الذي ستتناوله السورة الكريمة ،وقد يكون الموضوع الرئيس فيها، والموضوعات الأخرى مرتبطة به بطريقة، أو بأخرى ، وستكون سورة (الطلاق) مثالاً على كيفيّة تغريض الموضوع الذي تدور عليه السورة الكريمة ، فالسورة تبدأ بقوله تعالى : **﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إِلا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴾**[2] ، فهذه الآية الكريمة بحثتْ موضوعاً اجتماعيّاً يخصّ المسلمين ، وهو (الطلاق) ؛ ولذا فقد كان اسم السورة كذلك ، كما سُمّيتْ (سورة النساء القصرى)[3] ، ولعلّ وجه هذه التسمية لا يبتعد كثيراً عن التسمية الأولى ؛ لما بينهما من الترابط ،إذ الطلاق شأن خاصّ بالنساء . وقد بدأ السورة بخطاب النبيّ ρ ، ((وعمّ بالخطاب ؛ لأنّ النبيّ إمام أمته ، وقدوتهم))[4] . ويُلحظ أنّ الآيات اللاحقة لهذه الآية الكريمة تدور في فلك هذا الموضوع إلى الآية السابعة ، إذ يتغير موضوع (الطلاق أو النساء) إلى موضوع آخر له معه رابط دلاليّ . فالآيات التي تستكمل أحكام الطلاق هي قوله تعالى : **﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا وَاللائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾**[5]. إنّ ذكر الأحكام الشرعيّة الخاصّة بالطلاق قد جاء معه في خطّ موازٍ الأمر بتقوى الله – عزّ وجلّ – والتوكل عليه ، ((أي (ومَن يتّق الله) ، ويتورّع عن محارمه ، ولم يتعدّ حدوده ، واحترم لشرائعه ، فعمل بها (يجعل له مخرجاً) من مضائق مشكلات الحياة ، فإنّ شريعته فطريّة ، يهدي بها الله الإنسان إلى ما تستدعيه فطرته ، وتقضي به حاجته ، وتضمن سعادته في الدنيا ، والآخرة (ويرزقه) من الزوج، والمال ، وكلّ ما يفتقر إليه في طيب عيشه ، وزكاة حياته (من حيث لا يحتسب) ولا يتوقّع ... (ومَن يتوكل على الله) باعتزاله عن نفسه فيما تهواه ، وتأمر به ، وإيثاره إرادة الله على إرادة نفسه ... (فهو حسبه) أي كافيه فيما يريده من طيب العيش))[6] . ثمّ انتقل الكلام إلى التذكير بالأمم السابقة ، والعذاب المنزّل عليها ، وذلك في قوله تعالى : **﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَاأُولِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا رَسُولا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴾**[7] . والإتيان على ذكر عقوبات الأمم السابقة في سياق هذه الأحكام الشرعيّة ؛ سببه ((أنه – سبحانه – بيّن أنّ الخوف في مقابلة الرجاء ، وسبيل العاقل أن يحترز من المخوّف ، ويقدّم الاحتراز عن الخوف على الرجاء . والذي يقوّي جانب الخوف أنه أهلك الأمم الماضية بسبب عصيانها ، وتمرّدها عن أمر ربّها))[8] ، فهذا التذكير جاء موجّهاً للمسلمين للعمل بالأحكام الإلهيّة النازلة إليهم ؛ لأنه ((لمّا شُرعتْ للمسلمين أحكامكثيرة من الطلاق ، ولواحقه ، وكانتْ كلّها تكاليف قد تحجم بعض النفوس عن إيفاء الامتثال لها تكاسلاً ، أو تقصيراً ... أعقبها بتحذير عظيم من الوقوع في مخالفة أحكام الله ورسله ؛ لقلّة العناية بمراقبتهم لأنّ الصغير يثير الجليل ، فذكر المسلمين ... بما حلّ بأقوام من عقاب عظيم على قلّة اكتراثهم بأمر الله ورسله ؛ لئلاّ يسلكوا سبيل التهاون بإقامة الشريعة ، فيلقي بهم ذلك في مهواة الضلال))[9] ، ثمّ جاء قوله تعالى : **﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾**[10] ، لـ ((يتأكد به ما تقدّم في الآيات ، من حديث ربوبيته تعالى ، وبعثة الرسول ، وإنزاله الذكر ؛ ليطيعوه فيه ، وأنّ في تمرّده ومخالفته الحساب الشديد ، والعذاب الأليم ، وفي طاعته الجنة الخالدة ، كلّ ذلك لأنه قدير عليم))[11]. إنّ هذا التكرار للأمر بالتقوى في السورة الكريمة من خلال هذه الأحكام الشرعيّة الخاصّة بأمر الطلاق يدلّ على أهميّة هذا الأمر ، وأثره في استمراريّة الحياة الإنسانيّة ، إذ إنّ المرونة ، واللين هو ما يبقي أواصر العلاقات الاجتماعيّة ، ويحفظها ، فـ ((النصّ قد طرح من خلال ما هو خاصّ

---

(1) الإتقان في علوم القرآن : ١ / ١٠٦ .
(2) سورة الطلاق : ١ .
(3) ينظر : روح المعاني : ٢٨ / ٤٤٨ .
(4) تفسير الكشاف : ٤ / ٥٣٩ . وينظر : البحر المحيط : ١٠ / ١٩٦ .
(5) سورة الطلاق : ٢ – ٧ .
(6) الميزان في تفسير القرآن : ١٩ / ٢٤٤ .
(7) سورة الطلاق : ٨ – ١١ .
(8) مجمع البيان : ١٠ / ٧٢ .
(9) تفسير التحرير والتنوير : ٢٨ / ٢٩٨ – ٢٩٩ .
(10) سورة الطلاق : ١٢ .
(11) الميزان في تفسير القرآن : ١٩ / ٢٥٢ .

(قضيّة الطلاق) قضيّة (عامّة) ترتبط بمجمل سلوك الإنسان ، وهي : التقوى ، ثمّ التوكل ... [فـ] التقوى تفضي إلى تفريج الشدائد ... وأمّا من حيث (التوكل) فقد عقّب النصّ بقوله (فهو حسبه) هذه الفقرة –أيضاً –تحقّق قمة ما يتطلّع إليه الإنسان من إشباع لحاجاته الدنيويّة ، والأخرويّة ، فإذا كان الله تعالى يكفي الإنسان حاجاته حينئذٍ ، فإنّ الإشباع يتحقّق بما لا مزيد عليه))[1] .

الفصل الثالث : السياق والتناص

المبحث الأوّل : السياق

السياق في اللغة والاصطلاح :

السياق لغةً :ساق الماشية سوْقاً وسياقاً ، والسوْق : حدو الشيء . وتساوقتْ الإبل : تتابعتْ ، وهو يسوق الحديث أحسن سياق . وجئتك بالحديث على سوقه : أي على سرده[2]. **السياق اصطلاحاً :** لم يذكر أصحاب معاجم المصطلحات [3]تعريفاً للسياق . في حين عرّفه بعض المحدثين بقوله : ((سياق الكلام : أسلوبه ومجراه ، تقول : وقعتْ هذه العبارة في سياق الكلام ، أي جاءتْ متّفقة مع مجمل النصّ . وللتقييد بسياق الكلام في تفسير النصوص ، وتأويلها فائدة منهجيّة ؛ لأنّ معنى العبارة يختلف باختلاف مجرى الكلام ، فإذا شئتَ أنْ تفسّر عبارة من نصّ ، وجب عليك أنْ تفسّرها بحسب موقعها في سياق ذلك النصّ))[4] . وعرّفه آخر بقوله : ((تسلسل المعاني التي ينطوي عليها نصّ من النصوص))[5]. وعرّفه أحد الغربيين بقوله : ((هو أصوات، أو كلمات ، أو عبارات تسبق ، وتتبع مفردة ، أو هي عنصر لغويّ في لفظة ، أو معنى . وتتأثر أصوات الكلام غالباً بالأصوات المجاورة لها ، وكذلك البيئة اللغويّة المحيطة بها . علاقة سمات العالم الخارجيّ بمعنى اللفظة ، أو النصّ ، تُعدّ مفاهيم لنصّ ، أو الحالة للمحور المركزيّ من فروع علم الدلالة جميعاً ؛ لكون جميع الرموز الكتابيّة ، والفعليّة تمثّل العالم المحيط بالمتحدّث))[6]. وأمّا تحليل السياق ، فقد عرّفه بقوله : ((هو نمط من التحليل اللغويّ الذي يعترف بأنّ معاني الوحدات اللغويّة هي محدّدة بالنصّ الذي توجد فيه ، وتحدث القيود السياقيّة على المستوى الفونولوجيّ لمستوى الاستبدال الخطّيّ ، والمستوى النحويّ ، والمعجميّ))[7].

السياق عند القدماء :

عرف علماء اللغة القدماء السياق ، وأثره في بيان المعنى المطلوب ، واستعملوا هذا المصطلح حرفيّاً ، كما استعملوا مصطلحاتٍ [8] تكاد تكون مرادفةً له ، منها : الحال ، والمقام ، والموقف ، وغيرها. وقد استعمل البلاغيّون مصطلحي (الحال ، والمقام) للدلالة على الظروف الخارجيّة المحيطة بالمتكلم ، والمخاطب ، دليل ذلك قول الجاحظ : ((والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصّة ، وكذلك ليس يتّضع بأنْ يكون من معاني العامّة ، وإنّما مدار الشرف على الصواب ، وإحراز المنفعة مع موافقة الحال ، وما يجب لكلّ مقام من المقال))[9]. ويجمع الباقلانيّ [ت ٤٠٣هـ] في معرض دفاعه عن وقوع الشبهة في القرآن الكريم بين السياقين ، اللغويّ وغير اللغويّ ، بقوله : ((لا يأتيه ما يبطله من شبهة سابقة تقدح في معجزته ، أو تعارضه في طريقه ، وكذلك لا يأتيه من بعده قطّ أمر يشكك في وجه دلالته ، وهذا أشبه **بسياق** الكلام ونظامه))[10] . ومثله قول عبد القاهر الجرجانيّ ، وهو يبيّن وجوه إعجاز القرآن ، قائلاً : ((أعجزتهم مزايا ظهرتْ لهم في نظمه ، وخصائص صادفوها في **سياق** لفظه))[11] . إنّ فكرتي الحال ، والمقام – في مفهوم البلاغيين – مرتبطتان بالبعدين الزمانيّ ، والمكانيّ ؛ وذلك ((أنّ الأمر الذي يدعو المتكلّم إلى تقديم صياغته على وجه معين ، إمّا أنْ يتّصل بزمن هذه الصياغة ، فيُسمّى (الحال) ، وإمّا أنْ يتّصل بمحلّها ، فيُسمّى (المقام) ؛ لأنّ الكلام لا بدّ له من بُعدٍ زمانيّ ، وبُعد مكانيّ يقع فيه ، ومن هنا ارتبطتْ فكرة الحال ، والمقام بالمقال ، واختلاف صور هذا المقال يعود – بالضرورة – إلى اختلاف الحال ، والمقام . وتمتدّ فكرة المقام إلى علاقة المجاورة التي تكون بين كلمتين متتابعتين ، فقالوا : إنّ (لكلّ كلمة مع صاحبتها مقام)))[12] . ويُفصّل ابن الأثير[ت ٦٣٧هـ] في أنواع السياقات التي تتّصل بالمقام ، فيرى أنّ ((صاحب الصناعة اللفظيّة يحتاج في تأليفه إلى ثلاثة أشياء : الأول : اختيار الألفاظ المفردة ، وحُكم ذلك حُكم اللآلئ المبدّدة ، فإنّها تُتخيّر ، وتُنتقى قبل النظم . الثاني : نظم كلّ كلمة مع أختها المشاكلة لها ؛ لئلا يجيء الكلام قلقاً نافراً عن مواضعه ، وحُكم ذلك حُكم العقد المنظوم في اقتران كلّ لؤلؤة منه بأختها المشاكلة لها . الثالث : الغرض المقصود من ذلك الكلام على اختلاف أنواعه ، وحُكم ذلك حُكم الموضع الذي يُوضع فيه العقد المنظوم ، فتارة يُجعل إكليلاً على الرأس ، وتارة يُجعل قلادة في العنق ، وتارة يُجعل شنفاً في الأذن ، ولكلّ موضع من هذه المواضع هيأة من الحسن تخصّه))[13] . وقد كان السياق حاضراً في أذهان اللغويين عند

---

[1] التفسير البنائيّ : ٥ / ٣٧ .

[2] ينظر : تاج اللغة وصحاح العربيّة : ٣ / ٩١١ ، ومعجم مقاييس اللغة : ١ / ٥٧٨ ، وأساس البلاغة : ٣١٥ – ٣١٦ ، ولسان العرب : ٢ / ١٩٤١ – ١٩٤٤ ، والقاموس المحيط : ٨٢٥ – ٨٢٦ (سوق).

[3] ينظر : التعريفات ، والكلّيات ، وكشاف اصطلاحات الفنون .

[4] المعجم الفلسفيّ : ١ / ٦٨١ .

[5] معجم مصطلحات المنطق : ١٥٨ .

[6] معجم اللغة واللسانيّات : ١٠٧ .

[7] المصدر نفسه : ١٠٨ .

[8] ينظر : دلالة السياق : ٤٢ ، تفسير من وحي القرآن ، دراسة في ضوء علم اللغة النصّيّ : ٧٨ .

[9] البيان والتبيين : ١ / ١٣٦ . وينظر : الدلالة السياقيّة : ٧٧ .

[10] إعجاز القرآن : ٦٥ .

[11] دلائل الإعجاز : ٣٩ .

[12] البلاغة والأسلوبيّة : ٣٠٦ – ٣٠٧ .

[13] المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر : ١ / ١٤٩ . وينظر : البلاغة والأسلوبيّة : ٣٠٨ – ٣٠٩ .

دراستهم لمفردات اللغة ، ومحاولة التعرّف على معنى المفردة من خلال وضعها في سياقات متعدّدة ، أو الاستشهاد بالنصوص الدالّة على المعاني التي تحملها تلك المفردة [١] ، من ذلك قول الخليل [ت ١٧٥هـ] ، وهو يبين معاني (شجع) ، فقال : ((الشَّجع في الإبل : سُرعة نقل القوائم ... والشّجعة من النساء : الجريئة الجسورة على الرجال في كلامها ... والأشجع في اليد والرجل : العصب الممدود فوق السلامَى ما بين الرسغ إلى أصول الأصابع))[٢]. ويشير سيبويه إلى السياق غير اللغويّ ، بقوله : ((فإنْ كان عربيّاً نعرفه ولا نعرف الذي اشتقّ منه فإنّما ذاك لأنّا جهلنا ما علم غيرنا ، أو يكون الآخر لم يصل إليه علم وصل إلى الأول المسمِّي))[٣]. ويشير أبو عبيدة إلى كيفيّة التوصل إلى المعاني القرآنيّة ، وفهم معناها بمعرفة السياق الذي تقع فيه ، فأراد بكتابه (مجاز القرآن) ((الطرق التي يسلكها القرآن في تعبيراته))[٤]. ونقل السيوطيّ عن ابن الأعرابيّ قوله ، الذي يشير فيه إلى السياق الاجتماعيّ ، فقال : ((كلّ حرفين أوقعتهما العرب على معنى واحد ، في كلّ منهما معنى ليس في صاحبه ، ربّما عرفناه فأخبرنا به ، وربّما غمض علينا ، فلم نلزم العرب جهله))[٥] . ويهتمّ ابن قتيبة بمراعاة مقتضى الحال في الألفاظ والمعاني عند الكاتب ، فيقول : ((نستحبّ له [أي مَن يحترف التأليف] ... أنْ يُنزّل ألفاظه في كتبه فيجعلها على قدر الكاتب والمكتوب إليه ، وأنْ لا يعطي خسيس الناس رفيع الكلام ، ولا رفيع الناس وضيع الكلام))[٦]. أمّا المفسّرون ، فقد كانوا من أسبق العلماء الذين اهتمّوا بالسياق بعدّه وسيلةً من وسائل الكشف عن المعنى المطلوب للشارع المقدّس ، إذ تحتاج النصوص التشريعيّة ، ومنها القرآن الكريم ، إلى بيان مُراد الشارع الحكيم من النصّ . وكان تفسير القرآن بالمأثور يتمّ بطرق ثلاث ، هي : تفسير القرآن بالقرآن ، والتفسير بالسُنّة ، والتفسير بأقوال الصحابة . وهذه الطرق الثلاث تعتمد السياق بنوعيه (اللغويّ ، وغير اللغويّ) ، فتفسير القرآن بالقرآن يعتمد السياق اللغويّ في التفسير ، وكان ((وضوح مبدإ وحدة النصّ عند العلماء العرب يجد تعبيره الصريح في اشتراطهم استحضار النصّ القرآنيّ جميعه عند تفسير بعضه))[٧] ؛ لذا قد قرّر الزركشيّ أنّ ((أحسن طريق التفسير أنْ يُفسّر القرآن بالقرآن ، فما أجمل في مكان فقد فُصّل في موضع آخر ، وما اختصر في مكان ، فإنّه بُسط في آخر))[٨] . أمّا التفسير بالسُنّة ، فهو إنْ لم يكن قولاً / لغويّاً ، فهو فعل ، أو تقرير / غير لغويّ . ويبدو السياق غير اللغويّ في تفسير الصحابة ، إذ إنّهم شاهدوا القرائن ، والأحوال التي نزل بها الذكر الحكيم ، التي عُرفتْ فيما بعد بـ (أسباب النزول)[٩]. وقد كان للمفسرين طريقان في معرفتهم للسور المكيّة ، والمدنيّة ، هما : سماعيّ ، ومعرفته كمعرفة أسباب النزول ، والآخر قياسيّ ، وهو مبني على دراسة نصّيّة موضوعيّة لما ضمّه المسموع من المكيّ ، والمدنيّ [١٠]. ويشير علماء التفسير ، وأصحاب علوم القرآن إلى بعض الضوابط القياسيّة لكلّ المكيّ ، والمدنيّ ، وهي مُنصبّة على الأسلوب ، والمضمون الذي تتناوله آيات الصنفين . فهي تبين أثر السياق ، والمقام (من زمان ومكان) ، وصنف المخاطَب في النصّ ، وهذه كلّها عناصر سياقيّة كانتْ معياراً ينماز به المكيّ عن المدنيّ . بل يلحظ أنّ بعض المفسّرين يتخذ من سياق الكلام ، وموضوعه أداةً يُرجّح بها مكيّة النصّ ، أو مدنيته ، مثاله العلاّمة الطباطبائيّ ، إذ ذهب في ترجيحه نزول (سورة الرحمن) في مكة ، معتمداً سياقها ، قال : ((والسورة يحتمل كونها مكيّة ، أو مدنيّة ، وإنْ كان سياقها بالسياق المكيّ أشبه))[١١]. ويُلحظ أنّ الضوابط [١٢] التي وضعوها للمدنيّ موضوعيّة صرفة ، مثل :

١- كلّ سورة فيها فريضة ، أو حدّ .
٢- كلّ سوة فيها ذكر المنافقين ، سوى سورة العنكبوت .
٣- كلّ سورة فيها مجادلة أهل الكتاب .
٤- كلّ سورة فيها عبارة (يا أيّها الناس) ، سوى البقرة ، والحج . ويرى الدكتور محمود البستانيّ أنّ وجود هذه العبارة ليس له علاقة بمكيّة السورة، أو مدنيّتها ، بل إنّ السياق هو الذي يُحدّد ذلك ، ففي قوله تعالى : **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ... فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾**[١٣]، يقول : ((الحديث هنا ينصبّ جميعاً على الكافرين ، وعلى تشكيكهم بما أنزل الله سبحانه وتعالى على نبيّه ρ ، ويتحدّاهم بالإتيان بسورة قرآنيّة ... إذن السياق هو الذي فرض هنا عبارة (يا أيّها الناس) ، وليس كون السورة مدنيّة ، أو مكيّة))[١٤] . إنّ سياق الحال بين مكة ، والمدينة مختلف ؛ لأنّ المجتمع المكيّ مجتمع كافر بالله ، وبنبوة الرسول . أمّا أهل المدينة ، فأغلبهم مؤمنون مصدّقون بالرسالة ، فلذا كان حال الدعوة – في مكة – يقتضي تثبيت النبيّ ، وتسليته ، ومجادلة المشركين في أمور الوحدانيّة ، والبعث ، والتحدي بأنْ يأتوا بمثل القرآن الكريم ، في حين كان حال أهل المدينة – وكان أغلبهم من المؤمنين - يقتضي قبول أمور التشريع في العبادات ، والمعاملات . والأمر المهم –

---

(١) ينظر : الدلالة السياقية عند اللغويين : ٩٤ .
(٢) كتاب العين : ١ / ٢١١ (شجع) .
(٣) الكتاب : ٢ / ١٠٢ – ١٠٣ . وينظر : الدلالة السياقية : ٩٤ .
(٤) مجاز القرآن ، مقدمة المحقق : ١ / ١٩ . وينظر : الدلالة السياقية : ٩٥ .
(٥) المزهر في علوم اللغة وأنواعها : ١ / ٣٩٩ – ٤٠٠ . وينظر : الدلالة السياقية : ٩٥ .
(٦) أدب الكاتب : ٢٦ . وينظر : الدلالة السياقية : ٩٥ .
(٧) السياق في الفكر اللغويّ عند العرب : ١١٧ .
(٨) البرهان في علوم القرآن : ٢ / ١١٣ .
(٩) ينظر : دلالة السياق : ١٠٣ – ١١٣ .
(١٠) ينظر : الإتقان في علوم القرآن : ١ / ٢٤ – ٣٥ .
(١١) الميزان في تفسير القرآن : ١٩ / ٧٣ .
(١٢) ينظر : البرهان في علوم القرآن : ١ / ١٣٦ ، ومباحث في علوم القرآن : ١٨٣ ، وعلوم القرآن : ٨٥ – ٨٦ ، وموجز علوم القرآن : ١٤٨ ، ودراسات في علوم القرآن الكريم : ١٢٩ .
(١٣) سورة البقرة : ٢١ ، ٢٤ .
(١٤) دراسات في علوم القرآن الكريم : ١٢٩ .

في المدينة المنوّرة – هو وجود فريقين من غير المؤمنين بالرسالة ، وهم المنافقون ، وأهل الكتاب ، وكان من الأمور الحتميّة أنْ يكون في النصّ الكريم ذكر لمواقفهم المعادية ، وإنكارهم الرسالة ، وتجنّيهم على النبيّ [1] .

السياق في علم اللغة الحديث :

يُستعمل لفظ (السياق) مقابلاً للمصطلح الانكليزيّ (context)، الذي يُطلق ويراد به : المحيط اللغويّ الذي تقع فيه الوحدة اللغويّة سواءٌ أكانتْ كلمةً أم جملة في إطار العناصر اللغويّة أو غير اللغويّة . ويرى (هاليداي) أنّ السياق هو : النصّ الآخر ، أو النصّ المصاحب للنصّ . ويُقسّم (بروس أنغام) السياق على اثنين : ((أولاً : السياق اللغويّ ، وهو ما يسبق الكلمة ، وما يليها من كلمات أخرى ، وثانياً : السياق غير اللغويّ : أي الظروف الخارجيّة عن اللغة التي يرد فيها الكلام))[2] . ويؤكد (روبرت دي بوجراند) على أنّه ((ينبغي للنصّ أنْ يتّصل بموقف يكون فيه ، تتفاعل فيه مجموعة من المرتكزات ، والتوقّعات ، والمعارف ، وهذه البيئة الشاسعة تُسمّى سياق الموقف . أمّا التركيب الداخليّ للنصّ ، فهو سياق البنية))[3]. والاهتمام بالسياق اللغويّ في العصر الحديث يرجع إلى (دسوسير) ، الذي أشار إلى أثر المنطوق الكلاميّ في معرفة معنى المفردة اللغويّة ، فقال : ((ويكتسب العنصر قيمته في السنتاكم لأنّه يتقابل مع كلّ ما يسبقه ، أو يأتي بعده ، أو معهما في آن واحد))[4] .

علم اللغة النصّيّ والسياق :

من أهمّ ما يُميّز نظرية النصّ إطّراحها الجملة وحدة تحليل بعدّها نظاماً افتراضيّاً ، واتّخاذها النصّ بعدّه نظاماً فعّالاً ، إذينظر إلى النصّ في هذه النظرية بوصفه تجلّياً ((لعمل إنسانيّ ينوي به شخص أنْ ينتج نصّاً ، ويوجّه السامعين به إلى أنْ يبنوا عليه علاقات من أنواع مختلفة))[5]. وينظر إلى النصوص في هذه النظرية على أنّها تراقب المواقف ، وتوجّهها ، في حين ينظر إلى الجملة على أنّها ليستْ ((عملاً ؛ ولهذا كانتْ ذات أثر محدود في المواقف الإنسانيّة ؛ لأنّها تستعمل لتعريف الناس كيفيّة بناء العلاقات النحويّة فحسب))[6] . إنّ اللغة في المقام الأوّل جزء من نشاط تواصليّ / اجتماعيّ ، ومن ثمّ إنّ معرفة السياق الذي تستعمل فيه توضّح المعنى الوظيفيّ للغة ، ويفرض عليها قيمة حضوريّة معيّنة . وتبدو أهميّة السياق في الكشف عن عمليّة إنتاج النصّ واضحة ، وتؤدّي إلى عمليّة فهم النصّ ، وتفسيره بعدّ النصّ واقعةً اتصاليّة يشارك فيها المتكلّم / الكاتب ، والمستمع / القارئ في زمان ، ومكان معينين ؛ لذا يكون معنى النصّ متميّزاً سياقيّاً ، فما يعنيه النصّ يعتمد على (مَنْ) يتلفظ به ، ولماذا ، ومتى ، و(مَنْ) هو المستمع ، وما موضوع التواصل ، وبأيّة وسيلة تمّ التواصل (مكتوبة / منطوقة) ، وما وظيفة التواصل (الإخبار / التعليم / الإقناع) ، فالعلاقة متبادلة بين النصّ ، والسياق ، إذ يكوّنان معاً وحدة عمل . فالنصّ هو اللغة الفعالة في سياق الموقف . ووصف ، أو تفسير سياق الموقف يساعد – إلى حدّ ما – على التعامل مع المعلومات (في النصّ المكتوب) ، وفهم المعاني المتبادلة (في الحديث) ، والقدرة على التنبّؤ بالمعاني التي ستقال ، ممّا يُسهم في شرح كيفيّة التفاعل اللغويّ بين الناس . ويظهر أثر سياق الموقف في تحقيق الترابط النصّيّ عندما تكون هناك تتابعات ليستْ مقبولة منطقيّاً ، ولكنّها مقبولة ومترابطة بالنظر إلى السياق الفعليّ والبنية الكبرى . فالسياق تجريد لما نعني به الموقف الاتصاليّ ، وعناصر الموقف الاتصاليّ هي التي تحدّد قبول الكلام المنطوق ، أو عدم قبوله ، وكفايته ، أو عدم كفايته [7]. إنّ السياق يتضمّن أحداثاً تعيّن مناسبة العبارات المتعارف عليها . وجزء من هذه السياقات قد يكون اعتقادات المشاركين ، وثقافتهم ،ومقاصدهم ، وأغراضهم ، والظروف الزمانيّة ، والمكانيّة للسياق حتى يُمكن قبول تحقّقها [8]. وتوجد مجموعة غير متناهية من السياقات الممكنة ، التي يستطيع أحدنا أنْ يكون له فيها أوضاع مخصوصة ، أي يكون السياق فيها واقعيّاً ، ويتحدّد السياق الواقعيّ بمدّة من الزمان ، والمكان ، وتتحقق النشاطات المشتركة لكلّ من المتكلّم ، والمخاطب ، إذ تستوفي خواص (الآن) ، (هنا) من الوجهة المنطقيّة والفيزيائيّة ، والمعرفيّة . إنّ العبارة قد تكون مناسبة لائقة في سياق محدّد ، وتكون غير لائقة ، ولا ملائمة في سياق آخر . ولعلّ ما قاله (براون) ، و(يول) يشير إلى ذلك بشكل مباشر ، وصريح ، قالا : ((ومن الوحدات اللغويّة التي تتطلّب أكثر من غيرها معلومات عن السياق لتيسير فهمها نورد الأدوات الإشاريّة مثل : هنا ، الآن ، أنا ، أنت ،هذا ، ذلك ... وغيرها فإذا أردنا أنْ نفهم مدلول هذه الوحدات إذا ما وردتْ في مقطع خطابيّ ، استوجب ذلك منّا – على الأقلّ- معرفة هوية المتكلّم ، والمتلقي، والإطار الزمانيّ ، والمكانيّ للحدث اللغويّ)) [9]. إنّ الذي اختارته نظرية النصّ هو هو عدّ النصّ منجزاً قوليّاً حقيقيّاًللمتكلّم ، وبهذا تواءمت مع نظرية السياق ، التي تعوّل على استكناه المعنى من السياق . فالنصّيون يرون أنّ واحداً من المعايير التي يهدفون في دراساتهم إلى تطبيقها بما يقود إلى القول بنصّيّة النصّ هو رعاية الموقف ، إذ تتضمّن هذه الرعاية العوامل التي تجعل النصّ مرتبطاً بموقف سائد يُمكن استرجاعه . ويرى هاليداي أنّ مفهوم السياق مع النصّ يكوّنان وجهين لعملة واحدة على النحو الذي يكون فيه السياق هو ((النصّ الآخر ، أو النصّ المصاحب للنصّ الظاهر ، والنصّ الآخر لا يشترط أنْ يكون قوليّاً ، إذ هو يُمثّل البيئة الخارجيّة للبيئة اللغويّة بأسرها ، وهو بمثابة

---

[1] ينظر : دلالة السياق : ١١٤ – ١١٥ .
[2] دلالة السياق : ٥١ .
[3] النصّ والخطاب والإجراء : ٩١ . وينظر : دلالة السياق : ٥١ .
[4] علم اللغة العام : ١٤٢ ، محاضرات في علم اللسان العام : ١٨٢ ، وينظر : سورة البقرة دراسة في ضوء علم لغة النصّ :٤٦ .
[5] النصّ والخطاب والإجراء : ٩٢ . وينظر : دلالة السياق : ٢٣٧ .
[6] النص والخطاب والإجراء : نفسها .
[7] ينظر :علم النص ، مدخل متداخل الاختصاصات : ١١٦ ، وعلم لغة النص، النظرية والتطبيق : ١ .
[8] ينظر : النصّ والسياق : ٢٥٧ .
[9] نحو النصّ ، اتّجاه جديد في الدرس النحويّ : ٥٠ .

الجسر الذي يربط التمثيل اللغويّ ببيئته الخارجيّة))[١]. ويرى أحد الباحثين الغربيين أنّ للسياق دوراً مزدوجاً ((إذ يحصر مجال التأويلات ... ويدعم التأويل المقصود))[٢] ، ولهذا السياق - عنده – خصائص ، يُمكن تصنيفها على[٣] :

١- المرسل : هو المتكلّم ، أو الكاتب الذي ينتج القول .
٢- المتلقي : هو المستمع ، أو القارئ الذي يتلقى القول .
٣- الحضور : هم مستمعون آخرون حاضرون يُساهم وجودهم في تخصيص الحدث الكلاميّ .
٤- الموضوع : هو مدار الحدث الكلاميّ .
٥- المقام : هو زمان ، ومكان الحدث التواصليّ .
٦- القناة : كيف يتمّ التواصل بين المشاركين في الحدث الكلاميّ : كلام – كتابة – إشارة .
٧- النظام : اللغة ، أو اللهجة ، أو الأسلوب اللغويّ المستعمل .
٨- شكل الرسالة : ما هو الشكل المقصود : دردشة – جدال – عظة ... .
٩- المفتاح : يتضمّن التقويم : هل كانت الرسالة موعظة حسنة –شرحاً مثيراً للعواطف .
١٠ – الغرض : أي أنّ ما يقصده المشاركون ينبغي أنْ يكون نتيجةً للحدث التواصليّ .

هذه الخصائص هي جملة الأركان للحدث الاتّصاليّ ، وعلاقته الخارجيّة / المقام ، مع الاهتمام بالموضوع ، والشكل ، وهو ما لم يغفل في الدراسات اللغويّة [٤].ويجعل محمد خطابي السياق واحداً من مبادئ انسجام النصّ ، وهو مبدأ لا يقوم إلاّ بما في النصّ ممّا يُحيل على خارجه في عملية الاتّصال من علامات لغويّة للزمان ، والمكان ، والتكلّم ، والحضور ، وغيرها . ويظهر من ذلك أنّ دراسة النصّ تستلزم النظر في سياق الموقف بطريقة مزدوجة الاتّجاه ، فهي تُقدّم للنصّ مسوّغ وجوده ، وقصديته ؛ لكونه سابقاً له، ونزوع المتكلّم منه ، وهي في الوقت نفسه تكون المسوّغ الدلاليّ للنصّ ، وفهمه واستجابة المخاطب له [٥].

أنواع السياق :

اختلف علماء اللغة المحدثون في تقسيم السياق ، ولكنّهم جميعاً لا يخرجون عن قسمين ، وجميع التقسيمات التي وضعوها ترجع إليهما بطريقة أو بأخرى ، وهذان القسمان هما : السياق اللغويّ ، والسياق غير اللغويّ . أمّا الأنواع التي قسّموا عليها قسمي السياق ، فهي :

السياق اللغويّ:هو تجسيد للتتابعات اللغويّة في الخطاب،من الوحدات الصوتيّة،والصرفيّة ،والمعجميّة ، وما بينها من علاقات في التركيب ، والترتيب [٦] . فالعنصر اللغويّ هو ما يبيّن نوع السياق . والسياق الصوتيّ أقلّ حدود السياق في النصّ، وحين تكون الكلمة هي العنصر المطلوب تحليله ، فإنّ حدود السياق تمتدّ إلى ما هو أكبر منها ، وهي الجملة ، وهكذا [٧] ؛ ولذا قد قسّموه على أقسام ، هي :السياق الصوتيّ ، والسياق الصرفيّ ، والسياق التركيبيّ / النحويّ ، و السياق المعجميّ .

السياق غير اللغويّ : هو ((مجموع الظروف الاجتماعيّة ، أو العلاقات الاجتماعيّة التي يُمكن أنْ تُؤخذ بنظر الاعتبار لدراسة العلاقات الموجودة بين السلوك الاجتماعيّ ، والسلوك اللغويّ ، وهو الجوّ العام الذي يتمّ فيه الحدث الكلاميّ ، فهو يشمل الزمان ، والمكان ، والمتكلّم ، والسامع ، والأفعال التي يقومون بها ، ومختلف الأشياء ، والحوادث التي لها صلة بالحدث الكلاميّ ، ويتّسع السياق ليشمل المعرفة المشتركة بين المتكلّم ، والسامع لكلّ ما له علاقة بفهم المنطوق ، كما يتّسع ليشمل القبول الضمنيّ من قبل المتكلّم ، والسامع لكلّ الأعراف التي لها علاقة بالموضوع ، والاعتقادات ، والمسلمات السابقة المعتدّ بها من قبل الجماعة اللغويّة التي ينتمي إليها المتكلّم ، والسامع . فالسياق هو كلّ عامل يُؤثّر في تفسير التعبير ، أو هو الأجزاء المحذوفة من السياق اللغويّ))[٨] ، وقد قسّموه على :

السياق العاطفيّ / النفسيّ : ويُحدّد هذا السياق الأثر النفسيّ في الحدث الكلاميّ ، ممّا يقتضي تأكيداً، أو اعتدالاً ، أو مبالغةً ، من ذلك استعمال كلمة (يكره أو يبغض) في سياقات معيّنة ، فتعبّر كلّ منهما عن الحالة العاطفيّة ، أو النفسيّة للشخص في حال استعماله لأيّ منهما ؛ لأنّ الأداء اللغويّ قصد من المرسل ، فهو يُعبّر عن الحالات الذهنيّة ، والنفسيّة ، وهذه الحالات مناط اهتمام الوصف ، والتفسير التداوليّ ، بوصفها السياق النفسيّ لإنتاج اللغة ، وفهمها .

سياق الموقف / المقام : يوفّر سياق الموقف ، أو المقام جزئياً بعض العوامل ، أو المحدّدات التي تُسهم في تحديد معاني التعبيرات اللغويّة . فمعرفة الظروف الخارجيّة التي أنجز الفعل اللغويّ تساعد في تنوير القارئ / الباحث في توجيه المعنى ، وتحديده . فألفاظ الزمان ، والمكان لا يُمكن لأحد أنْ يتعرّف إلى معناها ما لم يكن محيطاً بظروف الموقف الذي حدث فيه الفعل اللغويّ .

السياق الثقافيّ / الوجوديّ : إنّ التتابعات اللغويّة ، أو الدلاليّة تكتسب معانيها من علاقاتها بمراجعها ، ويتمّ الانتقال من الدلالة إلى التداوليّة عندما يُدرَك أنْ المرسل ، والمرسَل إليه ، وكذلك موقعهم الزمانيّ ، والمكانيّ هي مؤشرات للسياق الوجوديّ ، وعندما تُوضع هذه الاشاريّات في

---

[١] دلالة السياق : ٢٤٠ .
[٢] لسانيات الخطاب : ٥٢ .
[٣] ينظر : المصدر نفسه : ٥٣ .
[٤] دلالة السياق : ٢٤٢ .
[٥] المصدر نفسه : ٢٤٤ .
[٦] ينظر : استراتيجيات الخطاب : ٤٠ – ٤١ .
[٧] ينظر : دلالة السياق : ٥٣ .
[٨] نظرية المقام عند العرب في ضوء البراغماتيّة : ٢٠ .

الحسبان ، فإنّه يُمكن وصف معنى التعبيرات اللغويّة إشاريّاً . فمثلاً كلمة (جذر) يتمّ التعرّف على معناها المقصود إذا عرفنا أنّ مستعملها هو (عالم لغة ، أو عالم رياضيّات ، أو مزارع) . فكلّ واحد منهم قد استعملها بمعنى يختلف عن الآخر لاختلاف المرجعيّة الثقافيّة لكلّ واحد منهم [١] .

عناصر السياق :

يقتضي السياق عناصر عدّة منها ما هو ذاتي ، يتعلّق بمعتقدات المتكلّم ، واهتماماته ، ورغباته ، ومقاصده ، ومنها ما هو موضوعيّ ، يتعلّق بالوقائع الخارجيّة التي تمّ القول فيها ، وهي الظروف الزمانيّة والمكانيّة . أمّا العنصر الشخصيّ الآخر ، فهو المخاطب . والمعرفة المشتركة بين المتخاطبين لها أثر كبير في تحليل النصّ ، ومعرفة المعنى المطلوب . ومن ذلك يتبيّن أنّ السياق يتمثّل فيما يُمكن أنْ يُسمّى الجوّ الخارجيّ الذي يحيط بإنتاج الخطاب ، من ظروف ، وملابسات . أمّا العنصر الشخصيّ ، فيُعدّ من أهمّ عناصر السياق ، ويُمثّله طرفا الخطاب : المرسِل ، والمرسَل إليه ، وما بينهما من علاقة ، زيادةً على مكان الحدث الكلاميّ ، وزمانه ، وما فيه من شخوص ، وأشياء ، وما يُحيط بهما من عوامل حياتيّة : اجتماعيّة ، وسياسيّة ، وثقافيّة ، وأثر التفاعل الخطابيّ في أطراف الخطاب الأخرى. ولا يقتصر أثر عناصر السياق على لحظة التلفّظ فقط ، بل يمتدّ إلى ما سبق الخطاب ، وكذلك ما لحقه [٢].

المُرسِل : الخطاب نتاج المتكلّم ، فهو يعبّر عن مقاصده ، ويُجسّد ذاته فيه ، ولا يُمكن للغة الطبعيّة أنْ تنتج ، وتُمارس دورها الحقيقيّ إلاّ بالاستعمال ، الذي تُصبح به اللغة موجودة بالفعل بعد أنْ كان وجودها بالقوّة فقط ، ويكون وجودها ذا فعل مناسب للسياق . فالمُرسِل هو الذي وظّف مستويات اللغة المتمايزة بتفعيلها في نسيج خطابه ، إذ لا يكون هذا الخطاب ذا معنى إلاّ إذا نطقه ، وتواصل به مع الناس . وبهذا التلفّظ ينقل المُرسِل اللغة من المستوى التنظيريّ إلى المستوى التطبيقيّ . ولا يقتصر حضور ذات المُرسِل على لحظة الفعل الخطابيّ ، فقد يرتبط بقاؤه ببقاء الخطاب [٣].

المُرسَل إليه : يوجّه المرسل خطابه إلى طرف آخر ، وهو المرسل إليه ، عمداً . وقد أشار البلاغيّون القدماء إلى تأثّر المُرسِل بالمُرسَل إليه عند إنتاج الخطاب . فبناء الخطاب مرهون إلى حدّ كبير بمعرفة مقامه ، أو بافتراض ذلك المقام . فالعناية بدءاً موجّهة إلى المُرسَل إليه ، وكذلك فيما يُعرف بالمحسّنات البديعيّة بوصفها تحقّق هدف مُرسِل الخطاب ، وذلك بالتأثير من خلاله . وعند إنتاج الخطاب يكون المُرسَل إليه حاضراً في ذهن المُرسِل ، سواء أكان ذلك الحضور عينيّاً أم ذهنيّاً ، وهذا الحضور هو ما يُسهم في فاعليّة الخطاب ، ويمنحه أفقاً لممارسة أسلوب خطابه [٤].

العناصر المشتركة : ولا يقتصر السياق على أحد طرفي الخطاب بمعزلٍ عن الطرف الآخر ، أو بمعزلٍ عن محيطهما ، فالعلاقة بينهما ، والمعرفة المشتركة من أهمّ العناصر السياقيّة التي تؤثّر في تحديد أسلوب الخطاب المناسب ، الذي يجب أن يراعيه المُرسِل دوماً عند إنتاجه للخطاب ، وذلك بوصفه مُحدّداً سياقيّاً ،وله دوره الكبير في إنجاح عمليّة التواصل . وتُعدّ المعرفة المشتركة الأرضيّة التي يعتمدها المُرسِل عند إنتاج خطابه ، إذ ينطلق منها في عملية الإنجاز اللغويّ ، ويُعوّل عليها المُرسَل إليه في تفسير الخطاب . ويُمكن أنْ تنقسم هذه المعرفة إلى :

أ- معرفة عامّة بالعالم ، ومعرفة كيف يتواصل الناس مع بعضهم ، وكيف يفكرون ، وكيف ينجزون أفعالهم اللغويّة .

ب- المعرفة بنظام اللغة في كلّ مستوياتها ، وبالأخصّ دلالاتها ، وعلاقتها بثقافتهما .

ت- حضور المعرفة التداوليّة للغة ، التي يكون لها أثر في التفاعل الاجتماعيّ [٥].

السياق اللغويّ في السور المدنيّة :

السياق الصوتيّ :

إنّ هدف السياق الصوتيّ هو الوصول إلى المعنى المطلوب من الصوت في النصّ [٦]. وهناك قرائن صوتيّة كثيرة تساعد على توضيح المعنى ، لعلّ من أهمّها : التنغيم ، والنبر ، والفصل والوصل والحركات[٧]. إنّ السياق الصوتيّ المطلوب في هذا المبحث ، ليس السياق الذي يُحدّد طريقة نطق صوت معيّن في بناءٍ معيّن لكلمة ، مع موازنة اختلافه في النطق مع الصوت نفسه في بناءٍ آخر، مثل أنْ نقول :((النون في (نَهر) من الناحية الصوتيّة الخالصة ، أي من حيث تكوينها الفسيولوجيّ غير النون في (مُنك) ، و(عَنك)))[٨] . بل يبحث في السياق الصوتيّ الذي يؤثّر البناء الصوتيّ للكلمة فيه في المعنى المطلوب من النصّ ، والبحث عن الفارق المعنويّ الذي يُستنبط من النصّ عند نطق الصوت بطريقة ، أو تغيّر نطقه إلى أخرى .

التكرار الصوتيّ للحرف في النصّ : للصوت علاقة قوية بالمعنى ، وتكرار بعض الأصوات في سياقات معيّنة يوحي بمعانٍ معيّنة ، توضّح الدلالة المراد إظهارها ، وتنبّه المتلقي إليها . ويظهر ذلك بوضوح في آيات الجهاد من السور المدنيّة ، المبيّنة لاحتدام المعارك؛ لذلك يكثر تكرار حرف (القاف) ، ليشكّل مظهراً أسلوبيّاً [٩] ، لا تكاد تخلو آية تُصوّر المعركة منه ، كقوله تعالى : **﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلا تَتَّخِذُوا**

(١) ينظر : علم الدلالة : ٧١ .
(٢) ينظر : استراتيجيات الخطاب : ٤٤ – ٤٥ .
(٣) ينظر : استراتيجيات الخطاب : ٤٥ – ٤٧ .
(٤) ينظر : المصدر نفسه : ٤٧ – ٤٨ .
(٥) ينظر : استراتيجيات الخطاب : ٤٨ – ٥١ .
(٦) ينظر : الدلالة السياقيّة عند اللغويين : ٥٤ .
(٧) ينظر : المصدر نفسه : الصحيفة نفسها .
(٨) علم اللغة ، مقدمة للقارئ العربيّ : ١٩٤ .
(٩) ينظر : السور المدنيّة ، دراسة أسلوبيّة : ١٣٣ – ١٣٤ .

مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا إِلا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلا ﴾ [1]، فصوت (القاف) ينماز بالجهر ، والشدّة ، وهو من الحروف المانعة لإمالة الألف ، أي الحروف المستعلية ، أو المفخمة [2] ، وهذه الصفة تناسب جوّ المعركة ذي الوطأة الشديدة ، وقراع السيوف [3] ، ومثله صوت الراء في نحو قوله تعالى : **﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾**[4] ، إذ تكرّر صوت (الراء) ثلاث مرات ، وصفة هذا الصوت أنّه مجهور ((مكرّر بضرب اللسان معه ضربات متتالية))[5]، وهي صفة توحي بهيأة الرمي شدّته ، وكثافته ، وتكراره ، كما يتكرّر الصوت المنطوق به [6].

جرس الألفاظ : تعرّف المحاكاة الصوتيّة بأنّها ((عملية تجسيد الصوت للمعنى ، فيكون الشكل بذاته دالاً على مضمونه))[7]. ولجرس الألفاظ دلالة توحي بمعناه الذي تحمله ، وهذا الجرس يتناغم مع السياق الكلاميّ الذي تقع فيه ، من ذلك قوله تعالى : **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلا قَلِيلٌ ﴾**[8]. فقد أوحى التعبير (اثّاقلتم إلى الأرض) بمعنى ثقل الأرض ، ومطامعها ، وطلب الحياة ، والمال ، واللذائذ ، وألقى - بجرس ألفاظه – كلّ هذه الظلال ، التي تمثّل الجسم الثقيل المسترخي ، الذي يزيد حبّه للحياة من ثقل وزنه ، وإخلاده إلى الأرض كي لا يترك هذا المكان ، الذي فيه مأمنه ، ونجاته [9]. ومثله قوله تعالى : **﴿ وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴾**[10]، ففي الآية الكريمة يُظهر الفعل (ليُبطّئنّ) سعي المنافقين لتعويق مسيرة المجاهدين ، فاللفظة تشعر بما فيها من ثقل ، وتعثّر يحاكي تباطؤ هؤلاء المعوِّقين عن اللحاق بالمحاربين ، وإنّها لتصوّر تصويراً فنيّاً الحركة الجسديّة المصاحبة بهذا التعثّر ، والتثاقل في نطقها [11]. ومنها أيضاً قوله تعالى : **﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾**[12] . فقد استعمل (النضخ) ، ولم يستعمل (النضح) ؛ وذلك للدلالة على قوة الماء المندفع من العين ، قال ابن جنّي : ((فجعلوا الحاء لرقّتها للماء الضعيف ، والخاء لغلظها لما هو أقوى منه))[13] ، وفي استعمالها ما يدلّ على قوّة الماء ، وهذه القوّة مناسبة للسياق الذي وردتْ فيه هذه المفردة ، وهو سياق وصف الجنّة التي وُعِد بها المؤمنون ، فـ ((النفس إذا رأتْ الماء يفور كان أمتع))[14] ، فوعدهم بكلّ ما يبعث على السرور لنفوسهم. ومنه قوله تعالى : **﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴾**[15] . إذ استعمل لفظ الفعل المشدّد (لوّوا) ، فتشديد صوت (الواو) مع تكراره يحكي الصورة التي كانوا عليها ، وهم يحرّكون رؤوسهم في حركة دائريّة تعبّر عن تمنّعهم عن الحضور أمام الرسول ٦ من دون أنْ يبيّنوا ردّهم في كلام منطوق يفضح سرائرهم المريضة بالكبرياء ، والصدود عن طاعة الأمر الإلهيّ . وقد فسّر بعض العلماء هذا الفعل بأنّه ((استهزاء بدعائهم إلى ذلك))[16]، وفسّره آخرون بأنّهم ((عطفوها ، وأمالوها إعراضاً عن ذلك ، واستكباراً))[17]. ويُلحظ أنّه قد جرس الكلمة ثقيل النطق على اللسان ، فيستعمل ما يؤدّي معناه من دون إخلال بالفصاحة ، والبيان ، من ذلك قوله تعالى : **﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾** [18]، فقد وردتْ كلمة (السماء) في النصّ القرآنيّ مفردة ، وجمعاً ، ولم تجمع كلمة (الأرض) في القرآن مطلقاً ، ويبيّن الرافعيّ سبب ذلك ، بقوله : ((عكس ذلك لفظة (الأرض) فإنّها لم ترد فيه إلاّ مفردة ، فإذا ذكرت السماء مجموعةً جيء بها مفردة في كلّ موضع منه ، ولمّا احتاج إلى جمعها أخرجها على هذه الصورة التي ذهبتْ بسرّ الفصاحة ، وذهب بها ، حتى خرجتْ من الروعة بحيث يسجد لها كلّ فكر سجدة طويلة ... ولم يقل : سبع أرضين لهذه الجسأة التي تدخل اللفظ ، ويختلّ بها النظم اختلالاً))[19].

تغيّر حركة آخر الكلمة : جاءتْ القراءات القرآنيّة في النص الكريم موافقةً لقواعد العربيّة ، فجاءتْ أواخر الكلمات منتهيةً بالحركة الإعرابيّة التي تعارف عليها العرب في كلامهم ، ولم يشذّ منها إلاّ القليل من القراءات الموثوقة ، وكان لشذوذها أثر معنويّ تركه السياق في تلك الحركة ، فجعل لفظها مخالفاً للقاعدة النحويّة التي وضعها علماء العربيّة وفقاً لمسموعهم من كلام العرب . من ذلك تحريك (هاء) الضمير المذكر بعكس القاعدة النحويّة المعمول بها ، فالقاعدة تقتضي أن

---

(1) سورة النساء : ٨٩ – ٩٠ .
(2) ينظر : الكتاب : ٤ / ٤٣٤ .
(3) ينظر : السور المدنيّة ، دراسة أسلوبيّة : ١٣٤ .
(4) سورة الأنفال : ١٧ .
(5) دراسة الصوت اللغويّ : ٣٤٠ .
(6) ينظر : السور المدنيّة : ١٣٤ .
(7) جماليات المفردة القرآنيّة : ٢٢٢ .
(8) سورة التوبة : ٣٨ .
(9) ينظر : في ظلال القرآن : ٣ / ١٦٥٥ . وينظر : السور المدنيّة ، دراسة أسلوبيّة : ١٢٦ .
(10) سورة النساء : ٧٢ .
(11) ينظر : في ظلال القرآن : ٢ / ٧٠٥ . وينظر : التطور الدلاليّ بين لغة الشعر ولغة القرآن : ٨٣ – ٨٤ ، والسور المدنيّة ، دراسة أسلوبيّة : ١٢٧ .
(12) سورة الرحمن : ٦٦ .
(13) ينظر : الخصائص : ٢ / ١٥٨ .
(14) التبيان في تفسير القرآن : ٩ / ٣٨٧ .
(15) سورة المنافقون : ٥ .
(16) التبيان في تفسير القرآن : ١٠ / ١٢ .
(17) تفسير الكشاف : ٤ / ٥٢٩ .
(18) سورة الطلاق : ١٢ .
(19) إعجاز القرآن والبلاغة النبويّة : ١٦٥ .

تكون ((حركة هاء المذكر ضمّة إلاّ أنْ يكون قبلها ياءٌ ، أو كسرة . فإنْ كان قبلها أحدهما ، فأهل الحجاز يُبقون ضمّتها ، ويقولون : بهو ، ولديهو ، وغيرهم يكسرونها))[١]. وقد وردتْ بعض القراءات موافقة للهجة أهل الحجاز ، من ذلك قراءة قوله تعالى : **﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾**[٢]، قرأ حفص (عليهُ) بالضمّ ، وقرأ باقي القرّاء بالكسر [٣]. ورأى الدكتور فاضل السامرّائيّ أنّ في هذه القراءة دلالة تعبير ، جاءتْ متناسبةً مع سياق الكلام الواردة فيه ، فقد استعمل القارئ حركة ((الضمّة التي هي أثقل الحركات للدلالة على ثقل هذا العهد وعظمته ، وذلك من جملة نواحٍ منها :

١- أنّه قال : (إنّ الذين يبايعونك) ، وهذه البيعة كانتْ يوم الحديبيّة ، وكانتْ بيعة على الموت في نصرة الرسول ٦ ونصرة دينه . والبيعة على الموت أشدّ أنواع البيعات وأقواها .

٢- وقال : (إنّما يبايعون الله) ، وهذا تعظيم لهذه البيعة التي يكون فيها الله هو الطرف المُبايع .

٣- وقال : (يد الله فوق أيديهم) ، وهذا توكيد لما قبله ، وتوثيق لأمر هذه البيعة العظيمة .

٤- حذّر من نكث هذه البيعة ، ونقض هذا العهد ، وقال : إنّ ضرر نكثه يعود على الناكث نفسه .

٥- وذكر أنّ مَن أوفى بهذا العهد سيؤتيه الله أجراً عظيماً . فهو كما ترى عهد عظيم ثقيل ، فناسب أنْ يأتي بأثقل الحركات ، وهي الضمّة المجانسة لثقل هذا العهد . ثمّ إنّ الضمّة يُنطق معها لفظ الجلالة بتفخيم اللاّم ، بخلاف الكسرة ، فإنّها يُنطق معها لفظ الجلالة بترقيق اللاّم ، فجاء بالضمّ ليتفخّم النطق بلفظ الجلالة إشارةً إلى تفخيم العهد ، فناسب بين تفخيم الصوت ، وتفخيم العهد))[٤].

الفاصلة القرآنيّة :عرّف الرمانيّ [ت ٣٨٦هـ] الفواصل بأنّها ((حروف متشابكة في المقاطع ، توجب حسن الإفهام))[٥]، أو هي : ((كلمة آخر الآية ، كقافية الشعر ، وقرينة السجع))[٦]. ولها قيمة موسيقيّة عالية ، فهي تعطي الآية جرساً موسيقيّاً مناسباً ، وقد أخذ اسمها من عملها ؛ ((لأنّه ينفصل عندها الكلامان ، وذلك أنّ آخر الآية فصل بينها ، وبين ما بعدها))[٧]. ونوع الفاصلة في السور المكيّة مختلف عمّا كان في السور المدنيّة تبعاً لطبيعة النوعين ، لذا كانت الفواصل أحد الفروق الأسلوبيّة بين العهدين (المكيّ ، والمدنيّ)[٨]. وهذا الاختلاف يعود إلى اختلاف الموضوعات التي تناولتها السور المدنيّة ، والتي يغلب عليها طابع التشريع ، والجهاد ، والقوانين التي تنظّم حياة المجتمع المسلم ، زيادة على ذلك فهناك مجادلة أهل الكتاب ، وفضح أحوال المنافقين ، كلّ هذه الأمور مجتمعة أدّتْ إلى أنْ لا تكون ((العناية بالفاصلة كالعناية بها في نظيرتها))[٩] المكيّة نظراً لطول الآيات المدنيّة ، فقد كانتْ الفواصل متباعدة ، وتغلب فاصلتا النون ، والميم على فواصلها[١٠]. إنّ بحث الفاصلة القرآنيّة يُعدّ بحثاً في البلاغة ، أو الإعجاز أكثر من كونه تفسيراً مباشراً لمفاهيم الآية . وأهمّ يميّز الفاصلة القرآنيّة المناسبة بينها ، وبين موضوعها [١١]. فقد أفضى البحث في الفاصلة القرآنيّة إلى الكشف عن السمات البلاغيّة فيها ، من ذلك العلاقة النصيّة / المعجميّة بين الفاصلة ، والآية السابقة لها ، تتمثّل فيما سمّوه : التمكين ، والتوشيح ، والإيغال ، والتصدير ، وكلّها تبحث في الترابط بين معنى الآية ، وتوافقه مع خاتمتها . وعند البحث في هذه الوجوه ، والتعريف بها ، يُلحظ ما يأتي :

١- **التمكين** : ((وهو أنْ تمهّد قبلها تمهيداً تأتي به الفاصلة ممكنة في مكانها ، مستقرّة في قرارها ، مطمئنّة في موضعها غير نافذة ، ولا قلقة ، متعلّقاً معناها بمعنى الكلام تعلّقاً تاماً بحيث لو طرحتْ لاختلّ المعنى ، واضطرب الفهم))[١٢] . منه قوله تعالى : **﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾**[١٣]. يُلحظ أنّ ((الكلام لو اقتصر فيه على قوله (وكفى الله المؤمنين القتال) لأوهم ذلك بعض الضعفاء موافقة الكفّار في اعتقادهم أنّ الريح التي حدثتْ كانتْ سبب رجوعهم ، ولم يبلغوا ما أرادوا ، وأنّ ذلك أمر اتفاقيّ ، فأخبر سبحانه في فاصلةالآية عن نفسه بالقوة ، والعزّة ؛ ليعلم المؤمنين ، ويزيدهم يقيناً ، وإيماناً على أنّه الغالب الممتنع))[١٤].

٢- **التوشيح** : وهو ((كون نفس الكلام يدلّ على آخره ... وتعلم الفاصلة فيه قبل ذكرها))[١٥]. من ذلك قوله تعالى : **﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾** [١٦]، ((فإنّ معنى اصطفاء المذكورين يعلم منه الفاصلة ، إذ المذكورون نوع من جنس العالمين))[١٧] .

---

(١) شرح الرضي على الكافية :٢ / ٤٢١ ، وينظر: همع الهوامع :١ / ١٩٦ ، وبلاغة الكلمة في التعبير القرآنيّ : ١١٤ .
(٢) سورة الفتح : ١٠ .
(٣) ينظر : السبعة في القراءات : ٦٠٣ ، التذكرة في القراءات : ٤٧٥ .
(٤) بلاغة الكلمة في التعبير القرآنيّ : ١١٦ .
(٥) النكت في إعجاز القرآن : ٨٩ .
(٦) البرهان في علوم القرآن : ١ / ٥٢ .
(٧) البرهان في علوم القرآن : ١ / ٥٢ .
(٨) السور المدنيّة ، دراسة أسلوبيّة : ١٣٦ .
(٩) المصدر نفسه : ١٣٦ .
(١٠) المصدر نفسه : الصحيفة نفسها .
(١١) ينظر : دلالة السياق : ١١٧ – ١١٨ .
(١٢) البرهان في علوم القرآن : ١ / ٧٠ . وينظر : دلالة السياق : ١١٨ .
(١٣) سورة الأحزاب : ٢٥ .
(١٤) البرهان في علوم القرآن : ١ / ٧٠ . وينظر : دلالة السياق : ١١٨ .
(١٥) البرهان في علوم القرآن : ١ / ٨٤ .
(١٦) سورة آل عمران : ٣٣ .
(١٧) البرهان في علوم القرآن : ١ / ٨٤ . وينظر : دلالة السياق : ١١٩ .

٣- **الإيغال**: ((سُمّي به لأنّ المتكلّم قد تجاوز حدّ المعنى الذي هو آخذ فيه ، وبلغ إلى زيادة على الحدّ))[١]. نحو قوله تعالى : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[٢] ، قال الزركشيّ : ((فإنّ الكلام تمّ بقوله (ومَن أحسن من الله حكماً) ، ثمّ احتاج فاصلة تناسب القرينة الأولى ، فلمّا أتى بها أفاد معنًى زائداً))[٣].

٤- **التصدير** : وهو((ما توافق فيه صدر الآية ، والفاصلة لفظاً))[٤]. وقد ضرب الزركشيّ مثالاً له ، قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى ﴾[٥].

وإذا كان الأمر كذلك من الربط بين الصدور ، والفواصل في الآيات ، فإنّ ذلك لا يكون إلا من خلال دراسة نصيّة لسياق الآية ، وعلاقة أوّلها بآخرها ، أو بعبارة أكثر وضوحاً العلاقة بين المفاهيم المصدّرة بها الآية مع الفاصلة ممّا هو من باب المناسبة .هذه المناسبة السياقيّة ذات المنحى الدلاليّ بين أوّل الآية ، وآخرها بلغ بها بعض المفسّرين مبلغاً تجاوز علاقة التناسب بين الآية ، وخاتمتها إلى العلاقة بين الآيات ، وبين السور . وفائدة علم المناسبات – كما يشير إليها الزركشيّ – ((جعل أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض ، فيقوى بذلك الارتباط ، ويصير حاله حال (الأكيد) البناء المحكم المتلائم))[٦].

ولعلّ ممّا يتعلّق بمبحث الفاصلة ، ما يُلحظ من تعطيلٍ – إنّ صحّ التعبير – للقاعدة النحويّة ؛ من أجل الحفاظ على وحدة الفاصلة القرآنيّة في موضع ، والأخذ بالقاعدة النحويّة في موضع آخر، من ذلك قوله تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾[٧] ، مقارنةً مع قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا ﴾[٨] . فقد جاءت كلمة (السبيل) بغير مدّ في الآية الأولى ، وجاءت في الآية الأخرى (السبيلا) بالمدّ . وهذا المدّ في أصله يلحق الأسماء النكرة حين تكون منصوبةً ، فيلحقها تنوين الفتح على الألف ، ثمّ تُقرأ بإطلاق اللفظ بمدّ الألف من دون التنوين . قال ابن يعيش : إنّ ((الألف قد تلحق المنصوب مع الألف واللام في القوافي ، ورؤوس الآي))[٩]. واللافت هنا أنّ الكلمة نفسها ، قد جاءت ممدودة في موضع ، وغير ممدودة في موضع آخر ، وقد أرجع الدكتور فاضل السامرّائيّ السبب إلى مقام كلّ منهما ، فالآية الأولى ((إنّما هي قول الله مقرّراً حقيقةً عقليّة معلومة ... فالمقام لا يقتضي المدّ ههنا))[١٠]. في حين أنّ الآية الثانية ((من قول أهل النار ، وهم يصطرخون فيها ، ويمدّون أصواتهم بالبكاء ... فالمقام هنا مقام صراخ ومدّ صوتٍ فناسب المدّ))[١١] . ومثلها قوله تعالى : ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾[١٢]. فقد مدّ (الظنون) وأطلقها ؛ ((لأنهم ظنّوا ظنوناً كثيرةً مختلفة، فأطلقها في الصوت مناسبةً لتعدّدها وإطلاقها ... والمؤمنون ههنا في موقف ضيْقٍ وخوفٍ شديدين ، وزلزلة عظيمة ، كما أخبر عنهم ربّنا ، فغرّتهم الظنون ، وشرّقوا ، وغرّبوا فيها ، فأطلق الصوت مناسبةً لإطلاق الظنون ، وتعدّدها))[١٣].

ومن تعطيل القاعدة النحويّة – أيضاً – ما جاء في النصّ الكريم من تقديم المفعول به ، وهو الضمير المتّصل (ياء المتكلّم)، وهو ما استدعى قبل تقديمه نون الوقاية فاصلاً بين الضمير ، والفعل كي تقي الفعل من الكسر[١٤] ، لكنّه أصبح ضميراً منفصلاً عند تقدّمه على فعله ، وكان ذلك يوجب حذف (نون الوقاية) ؛ لانتفاء الحاجة إليها بعد تقدّم الضمير ، ولكن الاستعمال القرآنيّ أبقى هذه النون ؛ رعاية للفاصلة القرآنيّة ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾[١٥] . فالفعل (فارهبون) نصب الضمير المتّصل (الياء) التي حُذفت ؛ ((لأنها في رأس آية ، ورؤوس الآيات يُنوى الوقف عليها ، والوقوف على الياء يُستثقل ، فاستغنوا عنها بالكسرة))[١٦]. ويُلحظ اختلاف العلماء في الضمير المقدّم ، هل هو الضمير نفسه الذي تدلّ عليه حركة الكسر في الفاصلة ؟ أو إنّه ضمير آخر . فالزمخشريّ يرى أنّه عين الضمير المتأخر ، وقد جاء بهذا الاستعمال ؛ لأنه ((أوكد في إفادة الاختصاص من (إيّاك نعبد)))[١٧]. وردّ أبو حيّان قول الزمخشريّ ، بقوله : ((أنّ الكلام جملتان في التقدير ، و(إيّاك نعبد)جملة واحدة ، والاختصاص مستفاد عنده من تقديم المعمول على العامل ... وإنّا لا نذهب إلى ما ذهب إليه من ذلك))[١٨] . وقد وجّه الآية وجهين : أحدهما : أنْ يكون التقدير : وإياي ارهبوا ، تنبّهوا فارهبون ، فتكون الفاء دخلتْ في جواب الأمر ، وليستْ مؤخّرة

---

(١) البرهان في علوم القرآن : ١ / ٨٥ .
(٢) سورة المائدة : ٥٠ .
(٣) البرهان في علوم القرآن : ١ / ٨٥ .
(٤) البرهان في علوم القرآن : ١ / ٧٠ .
(٥) سورة طه : ٦١ .
(٦) البرهان في علوم القرآن : ١/ ٤١ . وينظر : دلالة السياق : ١٢٠ .
(٧) سورة الأحزاب : ٤ .
(٨) سورة الأحزاب : ٦٧ .
(٩) شرح المفصّل : مج ٢ / ٣٧٠ .
(١٠) بلاغة الكلمة في التعبير القرآنيّ : ٣٨ .
(١١) المصدر نفسه : الصفحة نفسها .
(١٢) سورة الأحزاب : ١٠ .
(١٣) بلاغة الكلمة في التعبير القرآنيّ : ٣٨ .
(١٤) ينظر : شرح المفصّل : مج ٢ / ٧٧ .
(١٥) سورة البقرة : ٤٠ . ومثلها الآية (٤١) من السورة نفسها .
(١٦) نزهة القلوب : ١٢٠ . وينظر : إعراب القرآن ، النحاس : ١١٨ .
(١٧) تفسير الكشّاف : ١ / ١٣٤ . وينظر : التبيان في المعاني والبديع والبيان : ٩٨ .
(١٨) البحر المحيط : ١ / ٢٨٤ .

من تقديم . والوجه الثاني : أنْ يكون التقدير : وتنبّهوا فارهبون ، ثمّ قدّم المفعول فانفصل ، وأخّرت الفاء حين قدّم المفعول ، وفعل الأمر الذي هو تنبّهوا محذوف ، فالتقى بعد حذفه حرفان : الواو العاطفة ، والفاء ، التي هي جواب الأمر ، فتصدّرت الفاء ، فقدّم المفعول ، وأخّرت الفاء إصلاحاً للفظ ، ثمّ أعيد المفعول على سبيل التأكيد ، ولتكميل الفاصلة ، وعلى هذا التقدير الأخير لا يكون (إيّاي) معمولاً لفعلٍ محذوف ، بل معمولاً لهذا الفعل الملفوظ به ، ولا يبعد تأكيد الضمير المنفصل بالضمير المتّصل ، كما أكّد المتّصل بالمنفصل في نحو : ضربتك إيّاك))[1]. ورأى أبو البركات الأنباريّ أنّ الضمير (((إيّاي) ضمير منصوب منفصل ، وهو منصوب بفعل مقدّر ، وتقديره : إيّاي ارهبوا فارهبوني . وإنّما وجب تقدير (ارهبوا) ، ولم يعمل فيه (فارهبون) الملفوظ به لأنّه مشغول بالضمير المحذوف ، وهو الياء ، ووجب أنْ يكون هذا الفعل المقدّر بعد (إيّاي) لأنّه ضمير منفصل ، والضمير المنفصل إنّما يعمل فيه على هذا الحدّ ما بعده لا ما قبله ؛ لأنّه لو كان قبله لصار متّصلاً لا منفصلاً ، ولم يأتِ ذلك إلاّ في ضرورة الشعر))[2] . ورأى بعض المفسّرين المحدثين أنّ ((التقديم إذا اقترن بالفاء كان فيه مبالغة لأنّ الفاء ، كذفي هذه الآية مؤذنة بشرط مقدّر ، ولمّا كان هذا الشرط لا دليل عليه إلاّ الفاء تعيّن تقديره عامّاً ، نحو : إنْ يكن شيء ، أو مهما يكن شيء ... فالمعنى هنا : وأوفوا بعهدي أوفِ بعهدكم ، ومهما يكن شيء فإيّاي ارهبون ، فلمّا حُذفتْ جملة الشرط بعد (واو) العطف بقيت (فاء) الجواب موالية لواو العطف ، فزحلقت إلى أثناء الجواب كراهية توالي حرفين ، فقيل : وإيّاي فارهبون ، بدلاً عن أنْ يقال : فارهبون))[3]. وممّا يدخل في هذا المبحث مجيء الفاصلة بحرف معيّن ، وكان من الممكن مجيؤها في كلمة أخرى ، منتهية بحرف الفاصلة نفسه ، ولكنّه اختار إحداهما لدلالة خاصّة ، من ذلك قولهتعالى : **﴿جَزَاؤُهُ مْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَ بَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾** [4] . فقد جاءتْ الفاصلة في الآية بكلمة (ربّه) منتهيةً بحرف (الهاء) ، ولو جاء بلفظ الجلالة الصريح لكان منتهياً بالحرف نفسه ، وفي الإتيان بلفظ (ربّه) بدلاً من (الله) ؛ ((تعريض بأنّ الكفّار لم يرعوا حقّ الربوبيّة إذ لم يخشوا ربّهم ، فهم عبيد سوء))[5].

السياق الصرفيّ :

هو السياق الذي يبحث ((دراسة المفردات لا بوصفها صيغاً ، وألفاظاً فقط ، وإنّما بحسب ما فيها من خواص تفيد في خدمة الجملة ، أو العبارة ، فالسياق الصرفيّ لا يدرس الصيغ ، والعلامات منفردة ، بل لاحقة في الكلمات من خلال سياق معيّن ، يؤدّي إلى دلالة معيّنة ... وهذا النوع من السياق يتابع التغيّرات التي تعتري صيغ الكلمات ، فتحدث معنًى جديداً في الجملة ، أو التركيب ، يبرزه السياق الصرفيّ))[6] . وقد يكون للسياق النحويّ أثر في السياق الصرفيّ ، فيتفاعل السياقان في إنتاج المعنى ، فيؤدّي ((تشابك العلاقات بين المعطيات الصرفيّة ، والنحويّة لتجسّد بشكلٍ بارز أهميّة القرائن اللفظيّة ، والمعنويّة ، والحاليّة في إعطاء الدلالة ، ويُعتبر[7] هذا التعدّد من مستلزمات الفهم الكامل لمدلول الكلمة من واقع استعمالها (سياقها) مع احتفاظها أصلاً بالانتماء إلى أيّ من أقسام الكلام))[8]. وقداستعمل النصّ القرآنيّ صيغاً ، وأوزاناً صرفيّة تلائم مع السياق / المقام ، الذي وردتْ فيه ، وقد يستعمل صيغة في مقام ، أو موقف ، أو موضوع ، ولم يستعمل مرادفتها ، أو وزناً آخر يحمل المعنى نفسه ، ويمكن أنْ يُلحظ ذلك في مواضع كثيرة ، منها :

الجمع على (فُعلاء ، وفِعال) : يطّرد جمع (فعيل) بمعنى (فاعل) ، أو (مُفعِل) على وزن (فُعلاء) ، مثل : كريم – كرماء . فإنْ كان (فعيل) مضاعفاً ، أو منقوصاً جُمع على (أفعلاء) ، مثل : شديد – أشدّاء ، وتقي – أتقياء . وقد يُجمع (فعيل) غير المنقوص ، صحيح العين ، أو معتلها على (فِعال) ، مثل : كريم – كِرام ، وطويل – طوال . وأكثر ما يجيء وزن (فعلاء) دالاً على سجية مدح ، أو ذمّ[9] ، أو للدلالة على الغرائز[10] . والفرق بين الجمعين ((أنّ (فُعلاء) يكاد يختصّ بالأمور المعنويّة ، و(فِعالاً) بالأمور الماديّة))[11] . من ذلك قوله تعالى : **﴿ أَيَوَدُّ أَ حَدُكُمْ أَ نْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَ عْنَابٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَ صَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَ صَابَهَا إِ عْصَا رٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾** [12]، وقوله تعالى : **﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾**[13] ، إذ استعمل وزن(ضعفاء) للدلالة على الضعف المعنويّ ، في حين يُلحظ أنّ قوله تعالى : **﴿ وَلْ يَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلا سَدِيدًا ﴾**[14] ، قد استعمل وزن (ضعاف) الذي ((يعني الضعف الماديّ ، أي محتاجين إلى المال ، فقراء. وأمّا الثانية [أي في آيتي سورة البقرة وسورة التوبة] ، فليس المقصود بها الضعف الماديّ ، بل الضعف المعنويّ ، أي : عدم

---

(1) البحر المحيط : ١ / ٢٨٥ .
(2) البيان في غريب إعراب القرآن : ١ / ٧٧ .
(3) تفسير التحرير والتنوير : ١ / ٤٤٠ – ٤٤١ .
(4) سورة البيّنة : ٨ .
(5) تفسير التحرير والتنوير : ٣٠ / ٤٣٠ .
(6) الدلالة السياقيّة عند اللغويين : ٥٨ – ٥٩ .
(7) كذا ، والصحيح : يُعدّ .
(8) أقسام الكلام العربيّ من حيث الشكل والوظيفة : ٢٧٣ . وينظر : الدلالة السياقيّة : ٦٠ .
(9) ينظر : الخصائص : ٢ / ١٥٨ ، وشرح شافية ابن الحاجب : ٢ / ٣٠٥ .
(10) شرح الألفية ، ابن الناظم : ٢٠٧
(11) إعجاز القرآن والدلالات الصرفيّة : ١٤٣ ، ١٤٥ .
(12) سورة البقرة : ٢٦٦ .
(13) سورة التوبة : ٩١ .
(14) سورة النساء : ٩ .

القيام بالأمر ، بدليل أنّ أباهم له جنّة ، فيها من كلّ الثمرات ، وإنّما هم ضعفاء إلى مَن يقوم بأمرهم))[1]. ومثله قوله تعالى : **﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ... ﴾**[2] ، فقابل بين الشدّة والرحمة ، وهما أمران معنويان ، في حين وصف ملائكة العذاب بصيغة (فِعال) ، وذلك في قوله تعالى : **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾**[3] ، فقد استعمل (شداد) بدل (أشدّاء) التي استعملها في الأمور المعنويّة ، وكان استعمال هذه الصيغة هنا ؛ ((للدلالة على شدّة الأجسام وضخامتها))[4].

جمع (فاعلة) على (فواعل) : تُجمع (فاعلة) على فُعّل ، وعلى (فواعل) ، مثل : ضاربة – ضُرّب ، ضوارب ؛ وفاطمة – فُطّم ، وفواطم [5]، ((والفرق بين (فُعّل) ، و(فواعل) أنّ فُعّلاً ... فيه عنصر الحركة بخلاف هذا الجمع ، ليس فيه هذا العنصر ، بل هو أقرب إلى الاسميّة ، وأدلّ على الثبوت ، فإنّه ... وزن لجمع الأسماء أكثر ممّا هو لجمع الصفات . فالرُحّل هم الذين يرتحلون كثيراً ، والرواحل جمع الراحلة ، وهي كلّ بعير نجيب))[6]. ومن أمثلة هذا الاستعمال في السور المدنيّة ، قوله تعالى : **﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾**[7] . فقد استعمل وزن (القواعد) للدلالة على ثبوتها ، واستقرارها .

اختيار جمع القلّة : اختار النصّ القرآنيّ جمع القلّة على جمع الكثرة في بعض المواضع ، من ذلك استعمال جمع القلّة (أذلّة) على جمع الكثرة (أذلاء) ، أو (ذلائل) ، أو (ذلان) ، قال تعالى : **﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾**[8]، فقد كان موقف المسلمين النفسيّ ، والاجتماعيّ أقرب إلى الضعف ، وعدم الاستقرار ، فوصف النصّ الكريم حالهم بـ (الأذلّة) جمع القلّة ؛ ((ليدلّ على أنّهم على ذلّتهم كانوا قليلاً ، وذلّتهم ما كان بهم من ضعف الحال ، وقلّة السلاح ، والمال ، والمركوب))[9].

اختيار صيغة الجمع : قد يأتي اختيار صيغة الجمع ، وإيثارها على المفرد لمعنى المبالغة ، أو التكثير ، من ذلك استعمال لفظ (ظلمات) في قوله تعالى : **﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴾**[10] . فالكلام في شأن المنافقين ، وهم في حالة من التحيّر ، والضلال ، ((ففي هذا الموضع يُمثّل الله تعالى لتكاثر الشبهات على المنافقين بتخلّيهم عن الإيمان ، بمَنْ انطفأ نوره ، فصار في ظلمة حالكة ، ولكنّه جمع هذه الظلمة ليناسب بها كثرة الشبهات التي تعرض للمنافق ، وتحيط به حتى ينخلع عن ربقة الإيمان والإسلام . أو يكون تكثير الظلمات باعتبار محالها في القلب ، والبصر ، والحال))[11] ، ورأى الآلوسيّ أنّها ((ظلمة واحدة ، لكنّها لشدّتها استعير لها صيغة الجمع مبالغة ... ومن اللطائف أنّ الظلمة حيثما وقعت في القرآن ، وقعت مجموعةً ، والنور حيثما وقع وقع مفرداً))[12] . ويدخل في هذا الباب ، استعمال صيغة جمع التكسير للدلالة على الكثرة ، واستعمال صيغة جمع المؤنّث السالم للدلالة على مطلق الجمع ، من ذلك قوله تعالى : **﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾**[13] ، وذلك عند مقارنته بقوله تعالى : **﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾**[14]. يُلاحظ أنّ الآيتين قد استعملتا العدد (سبعة) ، وكان مفرد المعدود واحداً ، وهو (سنبلة) ولكنْ اختلفتْ صيغتا الجمع في الآيتين ، ومردّ ذلك إلى سياق كلٍّ منهما ، فآية سورة البقرة جاءتْ في سياق التكثير لثواب من ينفق ماله في سبيل الله – تبارك اسمه – فكان ذلك مناسباً لاستعمال الصيغة الدالّة على الكثرة (سنابل) ، أمّا آية سورة يوسف ، فقد جاءتْ لبيان عدد السنابل التي رآها الملك في منامه ، وهو ما يتطلّب استعمال الصيغة التي تدلّ على مطلق الجمع ، فناسبتْ كلّ آيةٍ سياقها

المزاوجة بين المفرد والجمع : قد يرد في النصّ الكريم تعبيران ، استعمل في أحدهما صيغة الجمع ، واستعمل في الآخر صيغة المفرد ، وذلك يخرج لدلالة يحدّدها سياق النصّ الواردة فيه ، من ذلك قوله تعالى : **﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾**[16]. فقد وصف ثواب المطيعين بقوله (خالدين) ، ووصف عقاب العاصين بقوله (خالداً) ، وذلك ((من معاني الإذلال ، والتعذيب بالوحشة والانفراد ما فيه))[17] ، وقد أشار أبو السعود إلى ذلك ، بقوله :

---

(1) إعجاز القرآن والدلالات الصرفيّة : ١٤٣ ، ١٤٥ ،
(2) سورة الفتح : ٢٩ .
(3) سورة التحريم : ٦ .
(4) إعجاز القرآن والدلالات الصرفيّة : ١٤٥ . وينظر : شرح شافية ابن الحاجب : ٢ / ٢٩١ .
(5) ينظر : شرح المفصّل : مج ٢ / ٤٤٥ .
(6) إعجاز القرآن والدلالات الصرفيّة : ١٣٣ .
(7) سورة البقرة : ١٢٧ . ومثلها في سورة (النور : ٦٠) .
(8) سورة آل عمران : ١٢٣ .
(9) تفسير الكشاف : ١ / ٤٠٢ . وينظر : الإعجاز الصرفيّ : ١١٧ ، وشرح شافية ابن الحاجب : ٢ / ٢٨٥ .
(10) سورة البقرة : ١٧ . ومثلها الآية (١٩) من السورة نفسها .
(11) الإعجاز الصرفيّ : ١١٣ .
(12) روح المعاني : ١ / ٢٢٦ .
(13) سورة البقرة : ٢٦١ .
(14) سورة يوسف : ٤٣ .
(15) ينظر : البرهان في علوم القرآن : ٤ / ١٧ .
(16) سورة النساء : ١٣ – ١٤ .
(17) الإعجاز الصرفيّ : ١١٢ .

((الخلود في دار الثواب بصفة الاجتماع أجلب للأنس ، كما أنّ الخلود في دار العذاب بصفة الانفراد أشدّ في استجلاب الوحشة))[1]. وممّا يمكن أنْ يُضاف إلى ذلك أنّ ((هذه المزاوجة المذكورة في هذا الموضع ، هي طريقة القرآن ، ونهجه في التعبير عن عذاب الكافر ، ونعيم المتّقين ، حيث يطّرد الإفراد بالنسبة للكافر ، والجمع بالنسبة للمؤمن ... وهنا تؤدي صيغة الفرد دورها في إحداث ذلك التقابل البديع بين انفراد الكافر ، ومعاناته عذاب الوحشة ، والوحدة فوق عذاب الجحيم في مقابل ائتناس المؤمن بصحبته ، ورفاقه في جنّات النعيم ، فنرى التقابل بين ذلك العذاب المضاعف ، وذلك النعيم المضاعف))[2].

دلالة المصادر والمشتقات : يستعمل المصدر للدلالة على الحدث الخالي من الزمن ، وقد يستعمل في النصّ القرآني مصدر للدلالة على معنًى معيّن ، ويُستعمل مصدر آخر – للفعل نفسه – للدلالة على معنًى آخر . وتستعمل المشتقات للدلالة على معانٍ خاصة بكلّ نوع منها ، فاسم الفاعل يدلّ على فاعل الحدث ، واسم المفعول على مَنْ وقع عليه الحدث ، وهكذا ، ولكنْ يُلحظ على النصّ الكريم استعمال نوع من المشتقات بدلاً من الآخر ، كان أولى بالاستعمال منه ، وكان في هذا الاستبدال دلالة يحدّدها السياق الذي وردتْ الآية الكريمة فيه ، وفيما يأتي تفصيل لهذه الاستعمالات :

استعمال صيغة المفاعلة : تتعدّد أوزان الفعل من حيث وجود حروف الزيادة على بنائه المجرّد ، ويكون لكلّ صيغة زيادة دلالة خاصّة بها ، تأتي مناسبة للسياق الذي ترد فيه ، فمن ذلك صيغة المفاعلة التي تدلّ على وجود طرفٍ آخر في حال حدوث الفعل ، يشارك الفاعل الأول في عمل الفعل ، وهو يخالف الفعل في صيغة تجرّده ، من ذلك الفعل (غبن) ويعني ((الغبن أنْ تبخس صاحبك في معاملةٍ بينك وبينه بضربٍ من الإخفاء))[3]. وقد ورد هذا الفعل بصيغة المفاعلة فقط ، وفي موضع واحد من النصّ الكريم [4] ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ **يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾[5]. فـ ((يوم التغابن : يوم القيامة ؛ لظهور الغَبْن في المبايعة المشار إليها بقوله : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ ...** ﴾[6] ، وبقوله تعالى : ﴿**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ...** ﴾[7]، وبقوله : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلا ...** ﴾[8] ، فعلموا أنّهم غُبنوا فيما تركوا من المبايعة ، وفيما تعاطوه من ذلك جميعاً))[9].

اختيار صيغة الفعل المجرّد على المزيد : وذلك أن يكون للفعل المجرّد دلالة غير دلالة المزيد منه ، فيستعمل كلّ واحد منهما في سياقه الخاصّ به ، من ذلك استعمال الفعلين (سقى ، وأسقى) ، إذ إنّ ((السقي ، والسقيا : أن يعطيه ما يشرب ، والإسقاء : أن يجعل له ذلك حتى يتناوله كيف شاء . فالإسقاء أبلغ من السقي ؛ الإسقاء هو أن تجعل له ما يُسقى منه ، ويشرب))[10]. وهذا التوجيه للفرق بين الفعلين أرجح ممّا ذهب إليه الزركشيّ ، الذي قال : ((الفرق بين (أسقى) ، و(سقى) بغير همز لما لا كلفة معه في السقيا ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا** ﴾[11] ، فأخبر أنّ السقيا في الآخرة يقع قيها كلفة ، بل جميع ما يقع فيها من الملاذ يقع فرصة ، وعفواً ، بخلاف (أسقى) بالهمزة ، فإنّه لا بدّ فيه من الكلفة بالنسبة للمخاطبين))[12]. وقد استعمل النصّ الكريم (سقى) فيما يدلّ على الكلفة ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ **قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ** ﴾[13] . ومن أمثلة استعمال الفعل المزيد قوله تعالى : ﴿**وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا** ﴾[14] ، وقوله تعالى : ﴿ **وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا** ﴾[15] .

اختيار اسم المفعول بدلاً من اسم الفاعل : جاء في الاستعمال القرآنيّ استعمال صيغة اسم المفعول، وكان ظاهر الكلام يستدعي اسم الفاعل ، ولكنَّ مجيء صيغة المفعول حقّق لمسّة إعجازيّة أدقّ من صيغة الفاعل ، ويمكن أنْ تكون الصورة أوضح عند التمثيل لها بقوله تعالى : ﴿ **وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** فقد استعمل النصّ الكريم صيغة المفعول (مُطهّرة) بدل من صيغة الفاعل (طاهرة) ، وقد علّل الزمخشريّ ذلك ، بقوله : ((في (مطهّرة) فخامة لصفتهنّ ليستْ في (طاهرة) ، وهي الإشعار بأنَّ مطهّراً طهّرهنّ ، وليس ذلك إلاّ الله – عزّ وجلّ – المُريد بعباده الصالحين أنْ يخوّلهم كلّ مزية فيما أعدّ لهم))[17]. فقد أثبت استعمال اسم المفعول بدل اسم الفاعل أنّ لهذا التطهير فاعلاً ، وهو الله – تبارك وتعالى - ، فدلّ سياق الكلام على تشريف تلك الأزواج ؛ لكونهنَّ مطهّرات من الله تعالى .

دلالة اسم الفاعل على حاليّة الحدث : تُستعمل بعض أسماء الفاعلين الدالّة على المؤنث فقط من دون تاء في آخرها ؛ وذلك لكون المذكر لا يشاركها في تلك الصفات ، مثل : مرضع ، حامل ، حائض ، وقد استعمل النصّ الكريم بعض هذه

---

(1) إرشاد العقل السليم : ٢ / ١٥٤ . وينظر : الإعجاز الصرفيّ : ١١٢ .
(2) الإعجاز الصرفيّ : ١١٢ .
(3) مفردات ألفاظ القرآن : ٦٠٢ .
(4) ينظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (غبن) .
(5) سورة التغابن : ٩ .
(6) سورة البقرة : ٢٠٦ .
(7) سورة التوبة : ١١١ .
(8) سورة آل عمران : ٧٧ .
(9) مفردات ألفاظ القرآن : ٦٠٢ (غبن).
(10) مفردات ألفاظ القرآن : ٤١٥ .
(11) سورة الإنسان : ٢١ .
(12) البرهان في علوم القرآن : ٣ / ٢٣٨- ٢٣٩ .
(13) سورة البقرة : ٧١ . ومثلها في : سورة يوسف : ٤١ ، وسورة الشعراء : ٧٩ ، وسورة القصص : ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، وغيرها.
(14) سورة الجن : ١٦ .
(15) سورة المرسلات : ٢٧ .
(16) سورة البقرة : ٢٥ .
(17) تفسير الكشّاف : ١ / ١١٥ . وينظر : إعجاز القرآن والدلالات الصرفيّة : ١٠٨ .

الأسماء مزيدة بالتاء ، وكان في تلك الزيادة دلالة إضافيّة جاد بها النصّ المقدّس ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ **يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ** ﴾[1]. فقد استعمل (مرضعة) بدل (مرضع) ؛ وذلك ((أنّه أراد ... الفعل ، ولو أراد الصفة فيما نرى لقال : مرضع))[2]؛ لأنّ (مرضع) ((مَنْ كان لها لبن رضاع ، وإنْ لم تُباشر الإرضاع في حال وصفها به ،و (المرضعة) فهي التي في حال الإرضاع مُلقمة ثديها للصبيّ ... وهو أبلغ من (مرضع) في هذا المقام))[3].

اختلاف صيغتي المصدر : ورد في النصّ القرآنيّ الكريم استعمال أكثر من صيغة مصدراً للفعل ، وكان في كلّ صيغة دلالة لا توجد في الثانية ، وقد بيّن السياق مناسبة صيغة المصدر للمعنى المطلوب ، من ذلك استعمال بعض المصادر على وزني (فِعْل – وفِعَل) ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ **أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ** ﴾[4]، إذ استعمل صيغة (كِبَر) في هذه الآية ، في حين استعمل صيغة (كِبْر) في قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾[5]. فقد استعمل صيغة (كِبَر) للدلالة على معنى الشيخوخة ، في حين استعمل صيغة (كِبْر) للحالة ((التي يتخصّص بها الإنسان من إعجابه بنفسه ، وذلك أن يرى نفسه أكبر من غيره))[6] . ومثله تخصيص لمصدر (صَوْم) بالدلالة على الصمت ، ولم يرد ذلك إلاّ مرّة واحدة وذلك في سورة مكيّة ، وهو في قوله تعالى : ﴿ **فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا** ﴾[7]. أمّا في العهد المدنيّ ، فلم يرد مصدر الفعل (صام) إلاّ بصيغة (صيام) ، وذلك في تسعة مواضع [8]، وكلّها دالّة على فعل عباديّ من ذلك قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾[9]، وهو ما يتناسب مع سياق العهد المدنيّ الذي انماز بالأحكام ، والتشريعات ، ومنها فرض الصوم العباديّ [10] ، فاستعمال المصدر (صيام) فيه دلالة على معنى الإمساك عن الطعام ، والشراب ، من طلوع الفجر إلى الليل ، وهو عمل عباديّ يتمثل في صيام شهر رمضان ، أو أنْ يكون كفارةً عن ذنبٍ قد فعله من وقع عليه حكم الصيام .

احتمال الصيغة لأكثر من دلالة : يرد في النصّ الكريم أبنية قد تحتمل دلالتها أنْ تكون وزناً لصنفين من المشتقات ، كأنْ يكون الاشتراك بين المصدر، واسم مكان ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ **إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا** ﴾[11]، ومثله قوله تعالى : ﴿ **لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ** ﴾ [12]، فقد جاءت صيغة الكلمة (مُدخلاً) ، وقد احتملت دلالتها أنْ تكون مصدراً ، وأنْ تكون اسم مكان ، ((والمصدر له وجه ، وهو أنْ يكون الإدخال نفسه كريماً . وكذلك الحمل على المكان ، وهو الجنة ... فالحمل في مثل هذا الموضع من الإعجاز القرآنيّ ، لما فيه من تناغم المعاني ، واتساقها ، وتآزرها على توفية المقام حقّه ، وهو الترغيب في اجتناب مناهيه ، وزواجره سبحانه وتعالى))[13].

السياق التركيبيّ :

عرّفه بعض المحدثين ، بقوله : ((هو السياق الذي يدرس البنية النحويّة التي ترد فيها الكلمة بوصفها وحدة نحويّة في كلٍّ متّسق . إنّ الكلمات في الجمل تتوالى على نسق مرتّب ، وتخضع في ترتيبها إلى أنساق تركيبيّة مطّردة ، وعلاقات شكليّة داخليّة تشكل في مجموعها قواعد التركيب النحويّ ، وتحكم بالسياق)) [14] . فالسياق النحويّ يبحث في معنى الجملة ، ((ومعنى الجملة ليس مجموع معاني الكلمات المفردة التي ترد فيها ، إذ إنّ التغيير في البنية النحويّة ، وعلاقات الكلمات ، ووظائفها ، وموقعها في الترتيب من شأنه أنْ يبدّل في المعنى))[15]. ويظهر أثر السياق التركيبيّ / النحويّ منسجماً مع مباحث علم المعاني البلاغيّ ، فهو يبحث في مناسبة الكلام لمقتضى الحال ، ولعلّ من أمثلة السياق التركيبيّ ما يأتي :

استعمال الجملة الاسميّة : تستعمل الجملة الاسميّة للدلالة على ثبوت الخبر للمبتدأ ، وقد استنبط النحويون ، والبلاغيون هذه القاعدة من الاستعمال القرآني لهذه الجملة ، والتي تأتي بصورةٍ مطّردة في النصّ الكريم ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ **تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا** ﴾[16] . فقد استعمل الجملة الاسمية (تحيتهم سلام) للدلالة على ثبوت الأمن

---

(1) سورة الحج : ٢ .
(2) معاني القرآن ، الأخفش : ٢٥٣ .
(3) إعجاز القرآن والدلالات الصرفيّة : ٥٦ – ٥٧ . وينظر : الكتاب : ٣ / ٣٨٤ ، إذ رأى سيبويه أنّ زيادة التاء في هذه الأسماء للدلالة على الاستقبال ، وهذا ما يوحي به معنى الآية الدالّ على الحدث (يوم القيامة) في المستقبل.
(4) سورة البقرة : ٢٦٦ .
(5) سورة المؤمن : ٥٦ .
(6) مفردات ألفاظ القرآن : ٦٩٧ (كبر).
(7) سورة مريم : ٢٦ .
(8) ينظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (صوم) .
(9) سورة البقرة : ١٨٣ .
(10) ينظر : معاني الأبنية في العربيّة : ٢١ - ٢٢ ، إعجاز القرآن والدلالات الصرفيّة : ٤١ – ٤٢ .
(11) سورة النساء : ٣١ .
(12) سورة الحج : ٥٩ .
(13) الإعجاز الصرفيّ في القرآن الكريم : ١٣٧ .
(14) الدلالة السياقيّة : ٦٠ – ٦١ .
(15) التطور الدلاليّ بين لغة الشعر ولغة القرآن : ٧٥ . وينظر : الدلالة السياقية : ٦٠ – ٦١ .
(16) سورة الأحزاب : ٤٤ .

لهم ، إذ إنّهم في الآخرة لا يشوب حياتهم تعب ، ولا نصب ، بل تكون حياة أبدية لا تكدير لصفوها . ومنه قوله تعالى : ﴿ **وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلا فِرَارًا**﴾[1]. فقد استعمل النصّ الكريم – حاكياً كلام المنافقين - صيغة الجملة الاسميّة المنفيّة بـ (لا) النافية للجنس في قوله (لا مُقام لكم)، وهي تدلّ على تأكيد الكلام بنفي جميع أفراد جنسه ، فقد نفى أنْ يكون لهم أيّ عذرٍ في البقاء والثبات في المعركة . ويُلحظ أنّ النداء الذي تخاطبوا به يحمل في طيّاته عنصريّة النسب ، والسكن ، لا رابط العقيدة والدين ، إذ كان نداؤهم (يا أهل يثرب) ، فهم لم يقولوا : يا أيّها المسلمون ، ولا يا أهل المدينة ؛ لأنّها ستكون في الأولى مستعملة على أساس رابطة العقيدة الدينيّة التي تلغي العنصريّة القبليّة ، أو تكون في الثانية شاملة لجميع الساكنين فيها ، من المهاجرين والأنصار . أما وقد استعملوا عبارة (يا أهل يثرب) ، فقد كان مقصودهم الأنصار من دون غيرهم ، زيادة على استعمالهم للاسم الجاهليّ لمدينتهم (يثرب) ، وفيه دليل على عدم يقينهم من الاسم الذي وضعه لها النبيّ ٦ ، وهو ما ينعكس على عدم يقينهم بلدين ، وبنبوّة النبيّ أصلاً . ولأنّهم كانوا يطلبون العذر في الفرار من المعركة ، فقد استعملوا في عذرهم الموهَم أسلوب التوكيد بالحرف المشبّه بالفعل(إنّ) الداخلة على الجملة الاسميّة الدالّة على ثبوت الخبر للمبتدأ ، وذلك في قوله (إنّ بيوتنا عورة) ، فكان الردّ عليهم بمثل قولهم (وما هي بعورة) مؤكداً بحرف الجرّ الزائد ، الذي ينفي اتّصاف المبتدأ بالخبر ، ثمّ أردف تكذيبهم بالتوكيد لسبب تركهم المعركة بأسلوب القصر بحرف النفي (إنْ) ، وحرف الاستثناء (إلاّ)، وذلك في قوله (إنْ يريدون إلاّ فراراً) . وحكى الفعل المضارع (يريدون) حالهم ، واستحضرها كأنّها ماثلة أمام العين .

التقديم والتأخير : قد يأتي المبتدأ ، أو الخبر مصدراً مؤوّلاً ، والمصدر المؤوّل ما يُكوّن من الحرف المصدريّ ، والفعل ، الذي يحمل دلالة الحدوث ، والتجدّد . وقد يُقدّم الخبر(الصريح) على المبتدأ (المصدر المؤوّل) ؛ وذلك لدلالة يحدّدها السياق التركيبيّ الذي وقعتْ فيه ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ **لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ...** ﴾ [2]فقد قرأ ((حمزة وحده : (ليس البرَّ أنْ تولّوا) . وقرأ الباقون : (ليس البرُّ أنْ تولّوا) . وروى حفص عن عاصم : (ليس البرَّ) مثل حمزة))[3]. وعلّل ابن عاشور القراءتين ، بقوله : ((فوجه قراءة رفع (البرُّ) أنّ البرَّ أمر مشهور معروف لأهل الأديان مرغوب للجميع ، فإذا جُعل مبتدأ في حالة النفي أصغتْ الأسماع إلى الخبر . وأمّا النصب ؛ فلأنّ أمر استقبال القبلة هو الشغل الشاغل لهم، فإذا ذكر خبره قبله ترقّب السامع المبتدأ ، فإذا سمعه تقرّر في علمه))[4]. ورأى أن الإخبار في قوله : (ولكنَّ البرَّ مَنْ آمن) ((إخبار عن المصدر باسم الذات للمبالغة))[5]. ولعلّ سبب مجيء الخبر اسماً صريحاً الدلالة على ثبوت معناه ، ووجوده ، أمّا مجيء المبتدأفعلاً متضمناً في المصدر المؤوّل ، فللدلالة على تجدّد التولية ، وحدوثها المتكرّر، والذي يحصل عند القيام للصلاة في أوقاتها المتجدّدة ، والحادثة في كلّ يوم ، فناسب ذلك استعمال الصيغة الفعليّة ، في حين أنّ البرَّ يحدث بالتوجّه لأداء الصلاة ، وبغيرها من الأعمال الحسنة .وممّا يمكن أن يكون داخلاً في هذا المبحث هو أن يستعمل النصّ الكريم أسلوباً معيّناً ، ويخالفه في بعض المواضع ؛ لكون السياق هو ما يحدّد هذا التغيير في الأسلوب ، من ذلك ما يلحظ من قول الزركشيّ في تقديم الرحمة على العذاب ، إذ قال : ((من أساليب القرآن : حيث ذكر الرحمة ، والعذاب أن يبدأ بذكر الرحمة ، كقوله : ﴿ **يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ** ﴾[6] ... وقد خرج عن هذه القاعدة مواضع ، اقتضتْ الحكمة فيها تقديم ذكر العذاب ؛ ترهيباً ، وزجراً ، منها قوله : ﴿ **أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾[7] ؛ لأنّها وردتْ في ذكر قطّاع الطرق ، والمحاربين ، والسراق ، فكان المناسب تقديم ذكر العذاب ، ولهذا ختم آية السرقة بـ (عزيز حكيم) ... وختمها [الآية] بالقدرة مبالغة في الترهيب ؛ لأنّ مَن توعّده قادر على إنفاذ الوعيد))[8] .

تقديم شبه الجملة على متعلّقها : تقوم العلاقة الإسنادية في الجملة العربيّة على عنصرين أساسين، هما : المسند إليه ، والمسند ، المتمثلين في المبتدأ ، والخبر ؛ أو المسند ، والمسند إليه ، المتمثّلين في الفعل ، والفاعل . وقد تلحق عنصري الإسناد عناصر ، تقوم بدور يكون في أكثر الأحيان ثانويّاً ، ولكنّ وجودها في الجملة يُضيف شيئاً من المعنى على العلاقة الإسناديّة ، بل قد تتوقف صحة العلاقة الإسنادية على وجود هذه الفضلة ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ...** ﴾[9]. فجملة الحال (وأنتم سكارى) يتوقف على وجودها صحّة الجملة الأساس / الإسنادية (لا تقربوا الصلاة) ، إذ لو كان يمكن حذف الفضلة / الحال ، لكان معنى الكلام النهي عن مقاربة الصلاة ، وهو غير ما يطلبه الشارع المقدّس . والمتعارف عليه أنّ الفضلة تكون تابعة لجملة الإسناد ، فتأتي بعدها ، ولكن قد تُقدّم الفضلة عليها لإضفاء معنًى جديد على الكلام ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ **مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ** ﴾[10]. فقد قدّم شبه الجملة (في النار) على متعلّقها

---

(١) سورة الأحزاب : ١٣ .

(٢) سورة البقرة : ١٧٧ .

(٣) السبعة في القراءات : ١٧٦ . وينظر : التذكرة في القراءات : ٢٠٠ ، وكتاب العنوان في القراءات السبع : ٧٣ ، والنشر في القراءات العشر : ٢ / ٢٢٦ .

(٤) تفسير التحرير والتنوير : ٢ / ١٢٨ .

(٥) المصدر نفسه : الصحيفة نفسها .

(٦) سورة المائدة : ١٨ .

(٧) سورة المائدة : ٤٠ .

(٨) البرهان في علوم القرآن : ٤ / ٤٣ .

(٩) سورة النساء : ٤٣ .

(١٠) سورة التوبة : ١٧ .

وهي جملة (هم خالدون) ، و تحقق في هذا التقديم أمران : الأول : رعاية للفاصلة القرآنيّة ، والآخر : أنّ تقديم شبه الجملة بيّن تعجيل العقاب الذي ينتظرهم في حال بقائهم على الكفر ، فإذا علموا ذلك عند سماعه ، كان سبباً في ترهيبهم من هذه العاقبة [١].

الفصل بين الجمل بالوقف : يأتي في السياق التركيبيّ للنصّ القرآنيّ الوقف على بعض الجمل ، ثمّ الاستئناف للكلام بعد ذلك ، وسبب ذلك أنّ الجملة التالية مقطوعة عن الجملة السابقة لعدم اشتراك الاثنين في المعنى ، فيكون الوقف هو ما يُظهر هذا الانقطاع بينهما ، من ذلك قوله تعالى : **﴿ وَاللائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾**[٢] . فالوقف على قوله (لم يحضنَ) ، وسببه كون الكلام بعدها مستأنفاً لحكم آخر غير الحكم السابق له ، فقد عطف قوله (اللائي لم يحضنَ) على قوله (اللائي يئسنَ من المحيض) ، فلا علاقة معنويّة رابطة لها بما بعدها ، وهو قوله (وأولات الأحمال) ، المبتدأ الذي خبره قوله (أجلهنَّ أنْ يضعن حملهنَّ) ، فقوله (واللائي لم يحضنَ) غير داخل في مضمون هذا الخبر ، ولذا وجب الوقف ، ثمَّ الاستئناف بالحكم الآخر ، فهذا الأخير ((إتمام لأحوال العدّة ... وتقدير الكلام : وأولات الأحمال منهنّ ، أي من المطلّقات ، أجلهنَّ أنْ يضعنَ حملهنَّ))[٣]. ولعلّ ممّا يدخل في باب الفصل ما يُلحظ في الاستعمال القرآنيّ من الفصل بين الفعل والفاعل بالمفعول به ، وذلك حين يكون الفاعل لفظ الموت ، من ذلك قوله تعالى : **﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي ... ﴾**[٤]. فقد فصل بين الفعل والفاعل بالمفعول به في قوله (حضر يعقوب الموت) ، ويستعمل الحضور في اللغة ((لشهادة مكان ، أو إنسان ، أو غيره))[٥]. ولعلّ سبب هذا الاستعمال هو بيان كون الفصل معبّراً عن عدم وقوع فعل الفاعل على المفعول به ، وإنّما يدلّ علىمقاربته له ، إذ إنّه ((كنّى بالموت عن مقدّماته ؛ لأنّه إذا حضر الموت نفسه لا يقول المحتضر شيئاً ... وفي قوله (حضر) كناية غريبة ، أنّه غائب لا بدّ أن يقدم))[٦] .

التعريف والتنكير : هذا المبحث يشترك فيه النحويون ، والبلاغيّون ، فاستعمال المفردة بصيغة المعرفة ، أو بصيغة النكرة له دلالات خاصّة في اللغة العربيّة ، لعلّ من أهمّها هي كون المخاطب عالم بمقصود الكلام عندما يرد معرّفاً ، ويكون خالي الذهن عندما يكون مُنكراً ، والسياق هو ما يحدّد استعمال كلّ منهما ، من ذلك قوله تعالى : **﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾**[٧]. إذ استعمل النصّ الكريم اسمي المعرفة (الفقر) ، و(الفحشاء) ، عند الكلام عن موعدة الشيطان ، واستعمل اسمي النكرة (مغفرة) ، و (فضلاً) ، عند الكلام عنة موعدة الله للناس . واستُعمل الفعل (يعدكم) مسنداً للشيطان ، مع أنّ الوعد – في الاستعمال – للخير ، والوعيد للشرّ ؛ لكون الشيطان يُظهر في غوايته لهم أنّه يريد لهم الخير بتخويفهم من الإنفاق ، وأنّ عاقبة إنفاقهم الفقر الذي يخشون ، ثم أردف الوعد بالفعل (يأمركم) ، الدالّ على الاستعلاء ؛ ((لأنّه بالوعد يحصل الاطمئنان إليه ، فإذا اطمأنّ إليه ، وخاف الفقر تسلّط عليه بالأمر))[٨] . ويبدو أنّ سبب ذلك كون الموعدة التي وعدهم بها الشيطان هي ما موجود في حياتهم الدنيا ممّا تعارفوا عليه ، وألفوه من أنواع الفقر ، والفحشاء ، فهي لا تخرج عمّا كان متداولاً في حياتهم الدنيا . أمّا موعدة الله – عزّ وجلّ – فهي ما لا يمكن أنْ يحدّها خيال ، ولا تدركها أبصار ، فجاءتْ بصيغة التنكير (مغفرة) ، فـ ((التنوين فيها للتفخيم ، وكذا وصفها بقوله تعالى (منه) ، فهو مؤكد لفخامتها))[٩] ؛ للدلالة على جهل المخاطبين بهذه المغفرة ، وكذلك قوله (فضلاً) ، فقد دلّ تنكيره على عدم تصوّرهم لمقدار الفضل الذي أعدّه لهم ، والفضل هنا إنْ كان بمعنى الرزق في الدنيا ، فقد قدّم منافع الآخرة (مغفرة) على منافع الدنيا (فضلاً) ؛ لكون الآخرة هي الباقية ، وإنْ كان كلاهما في الآخرة ، فقد تقدّم الأهمّ ، وهو (مغفرة) الذنب ، فكان بها نجاتهم من النار ، ثم زاده (فضلاً) بثواب الجنة ؛ ((لكون دفع المفاسد أولى من جلب المصالح))[١٠] ، فكان إسناد الكلام إلى الشيطان يناسبه سياق التعريف ، في حين كان إسناد الكلام إلى الله – تبارك وتعالى – يناسبه سياق التنكير .

السياق يوضّح كون الجملة إنشاءً لا إخباراً : استعمل النصّ القرآنيّ بعض صيغ الكلام ، ظاهرها أنّه إخبار بالحدث ، وحقيقة الأمر إنشاء ، الغاية منه أمر المكلّفين بالحكم الشرعيّ من المسلمين بالامتثال له ، من ذلك قوله تعالى : **﴿ الزَّانِي لا يَنْكِحُ إلا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنْكِحُهَا إِلا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾**[١١]. فالذي ((يلوح في بادئ من ظاهر الآية أنّ صدرها إلى قوله (أو مشرك) إخبار عن حال تزوّج امرأة زانية ، وأنّه ليس لتشريع حكم النكاح بين الزناة المسلمين ، ولا نكاح بين المشركين . فإذا كان إخباراً لم يستقم معنى الآية ، إذ قد ينكح الحصينة ، والمشرك قد ينكح الحصينة ... [ولو] قبلنا أنْ تكون لتشريع حكم ، فالإشكال أقوى ، إذ لا معنى لتشريع حكم نكاح الزاني ، والزانية ، والمشرك ، والمشركة ، فتعيّن تأويل الآية بما يُفيد معنًى معتبراً . والوجه في تأويلها : أنّ مجموع الآية مقصود منه التشريع دون

---

(١) ينظر : تفسير التحرير والتنوير : ١٠ / ٤٥ .
(٢) سورة الطلاق : ٤ .
(٣) تفسير التحرير والتنوير : ٢٨ / ٢٨٦ .
(٤) سورة البقرة : ١٣٣ . ومثلها البقرة : ١٨٠ ، والنساء : ١٨ ، والمائدة : ١٠٦ ، الأنعام ٦١ ، والمؤمنون : ٩٩ ، والمنافقون : ١٠ ، وغيرها إذ فصل بين الفعل والفاعل بالجار والمجرور .
(٥) مفردات ألفاظ القرآن : ٢٤١ (حضر).
(٦) البحر المحيط : ١ / ٦٤٠ .
(٧) سورة البقرة : ٢٦٨ .
(٨) روح المعاني : ٣ / ٥٥ .
(٩) روح المعاني : ٣ / ٥٥ .
(١٠) روح المعاني : ٣ / ٥٦ .
(١١) سورة النور : ٣ .

الإخبار ؛ لأنّ الله تعلى قال في آخرها (وحُرّم ذلك على المؤمنين) ... وينبني على هذا التأصيل أنّ قوله (الزاني لا ينكح إلاّ زانية أو مشركة) تمهيد للحكم المقصود))[1].

السياق المعجميّ :

عرّف بعض المحدثين السياق المعجميّ ، بقوله : ((تلك العلاقة البنيويّة الأفقيّة التي تقوم في العبارة بين المفردات بوصف هذه الأخيرة وحدات معجميّة دلاليّة ، لا بوصفها وحدات نحويّة ، وأقساماً كلاميّة عامّة))[2]. وترى الدكتورة عواطف كنوش أنّ ((هذا النوع من السياق يمكن تسميته بالسياق الدلاليّ أفضل من السياق المعجميّ ؛ لأنّه يبحث في التركيب أكثر من بحثه في معنى المفردة داخل السياق))[3]. ويظهر أثر السياق المعجميّ عند اختيار المفردة المناسبة للمعنى المطلوب في النصّ ،وذلك يتطلّب دقّة في تخيّر الألفاظ التي تفي بالمعنى ، وتبيّنه ، كما تتناسب مع المقام المستعملة فيه . ويلحظ أنّ النصّ الكريم قد استعمل الألفاظ التي تناسب الحدث ، أو الموقف الذي تقع فيه . من ذلك قوله تعالى : **﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾**[4]. فالآية الكريمة نزلت في مباهلة نصارى نجران للنبيّ ، لأنّهم كذّبوا النبيّ في إثبات نبوّته ، وصحة دعوته ، فدعاهم الرسول إلى اللجوء (للمباهلة) ، التي لم يُستعمل لفظها في غير هذا الموضع [5] ، ومعنى البهل : ((والابتهال في الدعاء : الاسترسال فيه ، والتضرّع ... ومَنْ فسّر الابتهال باللعن فلأجل أنّ الاسترسال في هذا المكان لأجل اللعن))[6]. والذي يتّضح من سياق الموقف أنّ دعوة نصارى نجران للمباهلة يعني المداومة على الدعاء ، والتلاعن حتى يُظهر الله – تبارك وتعالى – صدق أحد الطرفين المتلاعنين بإنزال العذاب على الطرف الآخر ، وهو ما يُبيّن سبب انسحاب النصارى عن تلك الملاعنة لما رأوه من تقديم النبيّ ٦ لأهل بيته المقرّبين لهذا الأمر ، وهو ما كان مؤكداً لصحة دعواه في نفوسهم ؛ لأنّ صدقه في دعوته لم يزايلها الشك ، فقدّم لأجلها أحبّ الناس ، وأقربهم إليه ، ولم يكن يفعل ذلك لو كان غير صادق فيها . فكان استعمال هذا اللفظ مناسباً لهذا الموقف الذي تطلّب ذلك المعنى . ومن ذلك ما يلحظ من اختتام آيتين كريمتين ، مرّة بالافتراء ، وأخرى بالضلال ، وكان السياق هو ما أوجب استعمال كلّ مفردة منهما في مكانها ، وذلك في قوله تعالى : **﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا ﴾**[7] ، وقوله تعالى : **﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالا بَعِيدًا ﴾**[8]. فالذي يلحظ أنّ الآيتين متناصّتان ، والفارق بينهما أنّ جواب الشرط في الأولى قد تضمّن الافتراء ، وجواب الشرط في الثانية قد تضمّن الضلال ، وسبب ذلك ((أنّ الأولى نزلت في اليهود ، وهم الذين افتروا على الله ما ليس في كتابه ، والثانية نزلت فيالمشركين ، ولا كتاب لهم ، وضلالهم أشدّ))[9] . وممّا يدخل في هذا الباب استعمال بعض الألفاظ التي يدلّ معناها الحقيقيّ على مدنيّة السورة ، ولو حاول أحد النظر إليها على أنّها من المجاز ، فقد ينقل ذلك معنى الآية ، أو معنى السورة أجمع ، إلى العهد المكيّ ، كالذي يُلحظ في تفسير بعض المفسّرين للفظ (الأسير) في قوله تعالى : **﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾**[10] . فالأسير الوارد في الآية – بحسب تفسيره - ليس أسير الحرب ، إذ لم يكن للمسلمين أسرى في مكة ، ولذا ((فالمراد بالأسير العبد من المسلمين ، إذ كان المشركون قد أجاعوا عبيدهم الذين أسلموا ... والعبوديّة تنشأ من الأسر ، فالعبد أسير))[11] . وقد استبعد هذا المفسّر أنّ تكون هذه السورة مدنيّة اعتماداً على ما جاء في أسباب ، من أنّها ((نزلت في إطعام عليّ بن أبي طالب بالمدينة مسكيناً ليلة ، ويتيماً أخرى ، وأسيراً اخرى ، ولم يكن للمسلمين أسرى بمكة حملاً للفظ أسير على معنى : أسير الحرب))[12] . وقد ردّ العلامة الطباطبائيّ هذا الرأي ، مثبتاً مدنية السورة ، قال : ((فما تُشير إليه من القصّة سبب النزول ، وليس سياقها سياق فرض موضوع ، وذكر آثارها الجميلة ، ثمّ الوعد الجميل عليها ، ثمّ إنّ عدّ الأسير فيمَنْ أطعمه هؤلاء الأبرار نعم الشاهد على كون الآيات مدنيّة ، فإنّ الأسر إنّما كان بعد هجرة النبيّ ، وظهور الإسلام على الكفر ، والشرك لا قبلها))[13]. وممّا يدخل في هذا المبحث استعمال مفردتين ، قد يُظنُّ أنّهما بمعنًى واحد ، وأنّهما مترادفتان ، ولكنّ استعمال كلٍّ منهما في موضع لا يصلح له الآخر ، من ذلك قوله تعالى : **﴿ مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا ﴾**[14]. فقد استعمل النصّ الكريم كلمة (نصيب) مع الشفاعة الحسنة ، واستعمل كلمة (كِفْل) مع الشفاعة السيّئة ، فإذا كانت المفردتان مترادفتين ، فلِمَ استعمل كلاً منهما في سياق مختلف ، وإنْ كان ثمّة اختلاف ، فما هو ؟ رأى الفرّاء [15] أنّ الكفل : الحظّ ، أو

---

(1) تفسير التحرير والتنوير : ١٨ / ١٢٤ .
(2) الدلالة السياقيّة عند اللغويين : ٧٦ .
(3) الدلالة السياقيّة : ٦٨ .
(4) سورة آل عمران : ٦١ .
(5) ينظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (بهل) .
(6) مفردات ألفاظ القرآن : ١٤٩ (بهل).
(7) سورة النساء : ٤٨ .
(8) سورة النساء : ١١٦ .
(9) معترك الأقران : ١ / ٣٦ .
(10) سورة الإنسان : ٨ .
(11) تفسير التحرير والتنوير : ٢٩ / ٣٥٧ .
(12) تفسير التحرير والتنوير : ٢٩ / ٣٤٤ .
(13) الميزان في تفسير القرآن : ٢٠ / ٤١١ . وينظر : أسباب النزول : ٢٣٠ .
(14) سورة النساء : ٨٥ .
(15) ينظر : معاني القرآن ، الفرّاء : ١ / ١٩٤ .

الضعف . وتبعه محمد بن عُزيز السجستانيّ [1] [ت ٣٣٠هـ] ، فرأى أنّ الكفل : النصيب ، أو الضعف . وفرّق الراغب بينهما ، فقال : ((قوله (يكن له كفل منها) ، فإنّ الكفل ههنا ليس بمعنى الأوّل ، بل هو مستعار من الكفل ، وهو الشيء الرديء ، واشتقاقه من الكَفَل ، وهو أنّ الكِفْل لمّا كان مركباً ينبو براكبه صار متعارفاً في كلّ شدّة ... ومعنى الآية : مَنْ ينضمّ إلى غيره معيناً له في فعلةٍ حسنةٍ يكون له منها نصيب ، ومَنْ ينضمّ إلى غيره معيناً له في فعلةٍ سيّئةٍ يناله منها شدّة))[2]. ورأى الآلوسيّ أنّ هذا التفريق بين الشفاعتين بالنصيب مرّة ، وبالكفل مرّة أخرى لغرض التفنّن [3]، كما نقل رأياً آخر آخر فرّق فيه بين معنى المفردتين ، فقال : ((النصيب يشمل الزيادة ، والكفل هو المثل المساوي ، فاختيار النصيب أوّلاً لأنّ جزاء الحسنة يُضاعف ، والكفل ثانياً لأنّ مَنْ جاء بالسيّئة لا يُجزى إلاّ مثلها ، ففي الآية إشارة إلى لطف الله تعالى بعباده))[4]. وممّا يدخل في مبحث السياق المعجميّ المشترك اللفظيّ ، إذ يتمّ التعرّف على معنى الكلمة ذات المعاني المتعدّدة من خلال سياقها الذي جاءت فيه ، من ذلك قوله تعالى : **﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى﴾**[5]. فقد استعمل كلمة (معروف) ، وليس هو المعروف الذي يقابل المنكر ، أي ليس العمل الحسن الذي أُمر المسلمون بفعله ، وإنّما هو مأخوذ من العُرف ، بمعنى : ما متداول ، ومتعارف في مثل هذه الأحوال من الأجر الموضوع للرضاعة ، فكان تقييد ((الائتمار بالمعروف ، أي ائتماراً ملابساً لما هو المعروف في مثل حالهم ، وقومهم ، أي معتاد مقبول ، فلا يشطّ الأب في الشحّ ، ولا تشطّ الأمّ في الحرص))[6]. ومثلها قوله تعالى : **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾** [7]. فقد استعملت كلمة (قوم) في هذه الآية بمعنى : رجال ، ((وهو في الأصل الرجال دون النساء ؛ لقيامهم بالأمور المهمة دونهنّ))[8] ، وليس بمعناها الذي يدلّ على التعميم لجميع الناس من رجالٍ ، ونساء ، وقد دلّ على هذا المعنى مقابلتها في الآية بالنساء ، فعُرف بذلك اقتصار معناها على الرجال فقط ، ((وخصّ النساء بالذكر مع أنّ القوم يشملهم بطريق التغلب العرفيّ في الكلام ... ؛ دفعاً لتوهّم تخصيص النهي بسخرية الرجال ، إذ كان الاستسخار متأصّلاً في النساء))[9].

سياق الموقف / أسباب النزول :

لا يمكن التعرّف على معنى الألفاظ المعجميّة ، وهي مفردة ، من دون أنْ تدخّل عناصر خارجيّة ، تُسهم في الكشف عن معناها في الكلام ، وتحديده . وتشمل تلك العناصر كلّ الظروف التي تُصاحب إنتاج النصّ ، وتُحيط به [10]. وإذا كان البلاغيون قد عرفوا هذا السياق بمصطلحات ، مثل : مقتضى الحال ، الذي يُفسّره عبارات مثل : لكلّ مقام مقال ، ولكلّ كلمة مع صاحبتها مقام ، وهاتان العبارتان عُدّتا الركيزة الأساسيّة في دراسة اللغة في الفكر المعاصر[11]، فقد اعتمد المفسّرون السياق في دراسات مختلفة ، فمن الضوابط التي وضعها المفسّرون ، وعلماء القرآن لتمييز السور المكيّة من المدنيّة ، أنّ كلّ سورة فيها مجادلة أهل الكتاب ، هي سورة مدنيّة ؛ والسبب في ذلك أنّ النبيّ ρ لم يلتق ((أهل الكتاب في موقف صراعٍ في مكة ، فقد كان المجتمع المكيّ مجتمعاً وثنيّاًمشركاً إلاّ من بعض أفرادٍ قلائل ؛ ولذا لم نجد في الآيات التي نزلت في مكة ما يُشير إلى أيّ جدالٍ ، أو حوار بينه ، وبينهم لأنّه كان مشغولاً بمحاربة تيار الشرك ، والوثنيّة من جهة ، ولأنّهم لا يُعتبرون مشكلة إسلاميّة من جهةٍ أخرى ... وهاجر النبيّ ρ إلى المدينة ليبني قواعد المجتمع الإسلاميّ الجديد على أساس من قوة ، وعلم ، وتقوى . فواجه اليهود هناك ؛ إذ لم يكنْ في المدينة نصارى))[12] . فمن الآيات الكريمة التي يبين سياق الموقف أنّها في اليهود ، قوله تعالى : **﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾**[13] ، فالمقصود بـ ((السفهاء من الناس ، وهم اليهود ... ذكروا ذلك طعناً في الإسلام ؛ لأنّ النسخ عند اليهود باطل ، فقالوا الانتقال عن قبلتنا باطل ، وسفه))[14] . ومن المواضع التي يكون التعرّف على أسباب النزول سبباً إلى معرفة أطراف الخطاب ، من المخاطبين ، والحضور غير الداخلين فيه ، قوله تعالى : **﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾** [15]. فالسورة بدأتْ بالإشارة إلى حادثة وقعتْ في المجتمع الإسلاميّ ، ويمكن من معرفة هذه الحادثة التعرّف على المقصود من قوله (التي تجادلك) ، إذ يحيل الاسم الموصول إحالة مقاميّة خارج النصّ ، يمكن معرفة صاحبها بالرجوع إلى أسباب النزول . فالآية

---

(1) ينظر : نزهة القلوب : ٣٨٥ .
(2) مفردات ألفاظ القرآن : ٧١٨ (كفل).
(3) ينظر : روح المعاني : ٥ / ١٢٨ .
(4) المصدر نفسه : الصحيفة نفسها .
(5) سورة الطلاق : ٦ .
(6) تفسير التحرير والتنوير : ٢٨ /٢٩٥ . وينظر : إرشاد العقل السليم : ٨ / ٢٦٣ ، وروح المعاني : ٢٨ / ٤٦٣ .
(7) سورة الحجرات : ١١ .
(8) الميزان في تفسير القرآن : ١٨ : ٥١٥ .
(9) تفسير التحرير والتنوير : ٢٦ / ٢٠٦ .
(10) ينظر : أدعية الصحيفة السجاديّة ، دراسة في ضوء علم اللغة النصّيّ : ٢٦٢ .
(11) ينظر : اللغة معناها ومبناها : ٢٠ – ٢١ .
(12) الحوار في القرآن ، قواعده ، أساليبه ، معطياته : ١١٧ – ١١٨ .
(13) سورة البقرة : ١٤٢ .
(14) البحر المحيط : ٢ / ٩ .
(15) سورة المجادلة : ١ .

تُشير إلى الحكم في مظاهرة (أوس بن الصامت) لزوجه (خولة)[١]، فافتتحتْ آيات أحكام الظِهار بذكر سبب نزولها ؛ تنويهاً بالمرأة التي وجّهتْ شكواها إلى الله تعالى . ومثلها قوله تعالى : **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾**[٢]. فالتعرّف على المقصود بـ (الذين آمنوا) ، و(فاسق) ، و (قوماً) ، و(بنبأ)يحتاج إلى معرفة سبب نزول الآية الكريمة ، إذ المقصود بالذين آمنوا النبيّ ٦ ، والمسلمون ، والمقصود بالفاسق هو (الوليد بن عقبة) ، والمقصود بالقوم هم (بنو المصطلق) ، والنبأ هو دعواه منعهم الصدقات ، ومحاولة قتله[٣] .

السياق التداوليّ :

يتعلّق هذا السياق بالمعنى المستعمل في البيئة اللغويّة التي ينتج فيها الكلام ، فقد يكون للمفردة معنًى في جماعة لغويّة ، ويكون لها معنًى آخر عند جماعة أخرى . ومن أمثلة السياق التداوليّ قوله تعالى : **﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾**[٤] . فقد جاء في تفسير كلمة (صِبغة) أنّها ((دين الله ، وفطرته التي فطر الناس عليها))[٥] ، أو ((إشارة إلى ما أوجده الله تعالى في الناس من العقل المتميّز به عن البهائم كالفطرة))[٦] . ورأى كثير من المفسّرين أنّ استعمال هذه المفردة على معنى : ((تطهير الله ؛ لأنّ الإيمان يطهّر النفوس . والأصل فيه أنّ النصارى كانوا يغمسون أولادهم في ماءٍ اصفر يسمّونه المعموديّة ، ويقولون : هو تطهير لهم ، وإذا فعل الواحد منهم بولده ذلك قال : الآن صار نصرانيّاً ... وإنّما جيء بلفظ الصبغة على طريقة المشاكلة))[٧].

ومنه قوله تعالى : **﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾**[٨]. فالمقصود بالشهور في الآية الكريمة هي الشهور القمريّة دون غيرها من الشهور ، فقوله تعالى ناظر ((إلى الشهور القمريّة التي تتألف منها السنون ، وهي التي لها أصل ثابت في الحسّ ، وهو التشكلات القمريّة بالنسبة إلى أهل الأرض . والدليل على كون المراد بها الشهور القمريّة ، أولاً : قوله بعد (منها أربعة حُرُم) لقيام الضرورة على أنّ الإسلام لم يُحرّم إلاّ أربعة من الشهور القمريّة التي هي : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرّم ، ورجب ، والأربعة من القمريّة دون الشمسيّة . وثانياً : قوله (عند الله) ، وقوله (في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض) ... ومن المعلوم أنّ الشهور الشمسيّة وضعيّة اصطلاحيّة))[٩]. ومثله قوله تعالى : **﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾**[١٠]. فالملاحظ أنّ الآية أشارتْ إلى إحدى الطائفتين بعبارة (ذات الشوكة) ، والمقصود بها الجيش الذي خرج من مكة للقاء المسلمين طالباً الحرب . وهذا التعبير بـ (ذات الشوكة) شائع عند العرب ، إذ شاع لديهم التعبير ((بالشوك والشكّة عن السلاح ، والشدّة))[١١].

السياق النفسيّ :

راعى النصّ القرآنيّ الكريم الحالة النفسيّة للمخاطبين، فكان سياق النصّ متغيّراً تبعاً لتحوّل الظروف النفسيّة للمخاطبين ، من ذلك قوله تعالى : **﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾**[١٢] ، إذ لم يُعد الاسم الموصول (ما) مع قوله (الأرض) ، وعند مقارنة هذه الآية بقوله تعالى : **﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾**[١٣]. فهذه الآية مطابقة لآية سورة الحديد باستثناء خلوّها من الاسم الموصول ، وعلّل بعض المفسّرين ذلك أنّ ((فاتحة الحديد تضمّنت الاستدلال على عظمة الله تعالى ، وصفاته ، وانفراده بخلق السموات ، والأرض ، فكان دليل ذلك هو مجموع ما احتوت عليه السموات ، والأرض من أصناف الموجودات ، فجمع ذلك كلّه في اسم واحد هو (ما) الموصولة التي صلتها قوله (في السموات والأرض) . وأمّا فاتحة سورة الحشر ، فقد سيقتْ للتذكير بمنّة الله تعالى على المسلمين في حادثة أرضيّة ، وهي خذلان بني النضير ، فناسب فيها أنْ يخصّ أهل الأرض باسم موصول خاصّ بهم ، وهي (ما) الموصولة الثانية التي صلتها (في الأرض)))[١٤]. ولا يخفى على أحد أنّ بين الآيتين تناصاً ، إذ إنّ كلّ الألفاظ قد تكرّرتْ في الآيتين ، إلاّ الاسم الموصول الذي كان موضع الشاهد على السياق النفسيّ للآيتين . ومثلها قوله تعالى في وصف اليهود والمنافقين : **﴿ لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾**[١٥]. إذ وصف النصّ الكريم حال المنافقين ، وأحلافهم بأنّهم ((يخشون المسلمين خشية شديدة ،

---

(١) ينظر : أسباب النزول : ٢١١ ، ولباب النقول في أسباب النزول : ٢٢٨ .
(٢) سورة الحجرات : ٦ .
(٣) ينظر : أسباب النزول : ٢٠٢ ، ولباب النقول : ٢١٧ – ٢١٨ .
(٤) سورة البقرة : ١٣٨ .
(٥) نزهة القلوب : ٣٠٦ .
(٦) مفردات ألفاظ القرآن : ٤٧٥ (صبغ).
(٧) تفسير الكشاف : ١ / ١٩٥ . وينظر : مفردات ألفاظ القرآن : ٤٧٥ ، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل : ١ / ٤١٢، وإرشاد العقل السليم : ١ / ١٦٨ ، والبحر المحيط : ١ / ٦٥٥ ، وتفسير التحرير والتنوير : ١ / ٧٢٢ .
(٨) سورة التوبة : ٣٦ .
(٩) الميزان في تفسير القرآن : ٩ / ١٩١ . وينظر : تفسير التحرير والتنوير : ١٠ / ٨٠ .
(١٠) سورة النور : ٧ .
(١١) مفردات ألفاظ القرآن : ٤٧٠ (شوك)، وينظر : تفسير التحرير والتنوير : ٩ / ٢٨ .
(١٢) سورة الحديد : ١ .
(١٣) سورة الحشر : ١ .
(١٤) تفسير التحرير والتنوير : ٢٨ / ٥٨ .
(١٥) سورة الحشر : ١٣ – ١٤ .

وصفتْ شدتها بأنّها أشدّ من خشيتهم الله تعالى))[١]. وقد أكد الكلام بلام التوكيد ، والجملة الاسمية ، ثم وصفهم بقوله (قوم) للدلالة على أنّ هذه الصفة أصبحتْ من مقومات أنفسهم ، ثم وصفهم بعدم الفقه ؛ ((لأنّ الفقه : فهم المعاني الخفيّة ، والحقائق المطلقة ، وهم لعدم فقههم تبعوا دواعي الخوف المشاهد ، وذهلوا عن الخوف المغيّب عن أبصارهم ، وهو خوف الله ، فكان ذلك من قلّة فهمهم للخفيّات))[٢]. فهؤلاء القوم من شدّة خوفهم (لا يقاتلونكم جميعاً) ، إذ المعروف أنّ اجتماع القوم يزيد من ثقتهم بأنفسهم ، أمّا هؤلاء ، فلا يقاتلون حتى لو كانوا مجتمعين ، ثمّ وصف شدّة خوفهم من اللقاء في المعركة بأنّهم يقاتلون في حال كانوا في قرًى شديدة التحصين (محصّنة) ، ((أي مجعولة بالإحكام كالحصون))[٣] ، أو إذا كانوا متخفين وراء (جُدُر) ، وقد استعمل جمع التكسير الدالّ على الكثرة ؛ للدلالة على شدة تحرّزهم من المواجهة المباشرة .

ومن أمثلة السياق النفسيّ ، قوله تعالى : **﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾**[٤]. إذ يُلحظ أنّ الآية الكريمة لم تذكر في الإصلاح الأوّل اقترانه بالعدل ، في حين اقترن الآخر به ، ((وتقييد الإصلاح هنا بالعدل ؛ لأنه مظنّة الحيف لوقوعه بعد المقاتلة ، وقد أكد ذلك بقوله تعالى (وأقسطوا) ، أي اعدلوا في كلّ ما تأتون ، وما تذرون))[٥]. فالنصّ الكريم قد نبّه على التزام العدل في الإصلاح ؛ لأنه سيكون بعد أنّ تقع الحرب من قِبل القوم المصلحين ، فقد تكون أنفسهم أميل للطرف الآخر لوقوع القتال بينهم والطرف الأول ، فكان التأكيد على العدل مراعاة للأثر النفسيّ الذي فيه القوم المصلحون . وكذلك فإنّ الصلح الثاني غير الصلح الأول ، إذ الأول غرضه الحيلولة دون وقوع الأذى ، في حين أنّ الثاني سيكون بعد حصول البغي ، في قوله (فإنْ بغتْ إحداهما على الأخرى) ، فيكون الإصلاح ((لا إصلاحاً بوضع السلاح ، وترك القتال فحسب ، بل إصلاحاً متلبساً بالعدل بإجراء أحكام الله فيما تعدّتْ به المعتدية من دمٍ ، أو عرض ، أو مالٍ ، أو أيّ حقّ آخر ضيّعته))[٦] .

السياق الثقافيّ :

يظهر دور السياق الثقافيّ عند استعمال مفردة ، أو معلومة يكون المخاطبون قد تعارفوا عليها ، فلا تكون موضع إشكالٍ لديهم ، إذ إنّ أذهانهم تتجه مباشرة إلى المعنى الذي قد تعارفوا عليه ، من ذلك قوله تعالى : **﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾**[٧]. فالآية الكريمة تقرّ تعلّل المشركين لأهل الكتاب بعدم مجيء رسول لهم ، كما جاء لأهل الكتاب ، قال تعالى : **﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾**[٨]. كما تقرّر تعلّل أهل الكتاب حين يدعوهم النبيّ للإسلام ، وذلك في قوله تعالى : **﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾**[٩]. فبعث الرسول الخاتم شائع عند اليهود ، والنصارى ، وهم قد نقلوا هذه المعلومة للمشركين ، فكان ((شيوعه عند الفريقين قرينة على أنّ المراد من سياقه دمغهم بالحجّة ، وبذلك كان التعبير بالمضارع المستقبل في قوله (حتى تأتيهم البيّنة) مصادفاً المحزّ ، فإنّهم كانوا يقولون ذلك قبل مجيء الرسول))[١٠]. والظاهر أنّ التعريف في (البيّنة) ((تعريف ذهنيّ ، وهو أنْ يُراد معهود بنوعه ، لا بشخصه))[١١]. وقد قدّم أهل الكتاب على المشركين مع أنهم أصحاب ديانة سماويّة ؛ ((لأنّ لأهل الكتاب السبق هذا المقام ، فهم الذين بثّوا بين المشركين شبهة انطباق البيّنة الموصوفة بينهم ، فأيدوا المشركين في إنكار نبوّة محمد ρ بما هو أتقن من تُرّهات المشركين))[١٢]. وهذا التعبير ((أحسن ما تترجم به العبارة الواقعة في كتب أهل الكتاب ممّا يحوم حول معنى الشهادة الواضحة لكلّ متبصّر))[١٣]، وقد جاءتْ في إنجيل متي عبارة ((وتصل الشهادة لكلّ الشعوب))[١٤].

المبحث الثاني : التناص

التناص لغةً واصطلاحاً :

التناص لغةً : جاء في المعاجم : نصصتُ الحديث إلى فلان نصّاً : أي رفعته ، ونصنصتُ الشيء حرّكته . ونصصتُ الرجل : استقصيتُ مسألته عن الشيء ، يقال : نصّ ما عنده : أي استقصاه . ونصّ كلّ شيءٍ : منتهاه . والنصّ : الإسناد إلى الرئيس الأكبر ، والنصّ : التوقيف ، والنصّ : التعيين على شيءٍ ما [١٥]. **التناص اصطلاحاً :** لم يذكر القدماء [١] هذا

---

(١) تفسير التحرير والتنوير : ٢٨ / ٩١ .
(٢) تفسير التحرير والتنوير : ٢٨ / ٩٣ .
(٣) مفردات ألفاظ القرآن : ٢٣٩ (حصن).
(٤) سورة الحجرات : ٩ .
(٥) روح المعاني : ٢٦ / ٤٢٠ .
(٦) الميزان في تفسير القرآن : ١٨ / ٥١١ .
(٧) سورة البيّنة : ١ .
(٨) سورة الأنعام : ١٥٦ ـ ١٥٧ .
(٩) سورة آل عمران : ١٨٣ .
(١٠) تفسير التحرير والتنوير : ٣٠ / ٤١٦ .
(١١) نفسه : ٣٠ / ٤١٨ .
(١٢) تفسير التحرير والتنوير : ٣٠ / ٤١٩ .
(١٣) نفسه : ٣٠ / ٤١٨ .
(١٤) الكتاب الشريف ، إنجيل متي / ٢٤ : ١٤ .
(١٥) ينظر : كتاب العين : ٧ / ٨٦ ـ ٨٧ ، ومعجم مقاييس اللغة : ٢ / ٥٢٦ ، وتاج اللغة وصحاح العربيّة : ٣ / ٦٥٤ ، ولسان العرب : ٤ / ٣٩٣٠ ، والقاموس المحيط : ٥٨٣ ـ ٥٨٤ .

المصطلح في كتبهم ، وممّا ورد لديهم مصطلح (التنصيص) الذي عرّفه الكفويّ بأنه : ((مبالغة في النصّ)) (٢). أمّا المحدثون ، فقد نقل بعض الباحثين تعريفاً عن (ل . جيني) ، عرّف التناص ، بقوله : ((عمل تحويل ، وتشرّب (استيعاب ، وتمثّل) لعدّة نصوص يقوم به نصّ مركزيّ ، يحتفظ بمركز الصدارة في المعنى))(٣). وقد جعل (روبرت دي بوجراند) التناص أحد المعايير السبعة التي يقوم عليها النص ، وهو عنده ((يتضمّن العلاقات بين نصّ ما ، ونصوص أخرى مرتبطة به ، وقعتْ في حدود تجربة سابقة ، سواء بوساطة أم بغير وساطة)) (٤). وعرّفه آخر بقوله : ((العلاقة بين نصّين ، أو أكثر ، وهي التي تؤثّر في طريقة قراءة النصّ المتناص ، أي الذي تقع فيه آثار نصوص أخرى ، أو أصداؤها))(٥). وحاول باحث محدث إيجاد تعريف للتناص يستوعب كلّ أنواعه ، ومضامينه ، فقال : ((التناص يعني دخول النصّ في علاقة ، أو علائق مع نصّ آخر ، أو نصوص أخر ، أدبيّة ، وغير أدبيّة ، سابقة له ، أو متزامنة معه ، من نوعه وجنسه ، ونمطه ، أو من غيرها ، بشكل عفويّ ، أو إراديّ ، ظاهراً كان ، أو خفيّاً ، جزئيّاً كان ، أوكلّيّاً ، بآليّة ، أو أكثر ، على سبيل التحقيق ، أو التحويل ، أو الخرق ، أو بهم جميعاً ، لغرض فكريّ ، أو فنّيّ ، أو لكليهما))(٦). يُعدّ التناص وليد الدراسات الأدبيّة ، والنقديّة ، واللغويّة في العصر الحديث ، وإنْ كان لمفهومه ، وتطبيقه جذور عميقة ، وأصيلة في التراث العربيّ ، ولكنّ العلماء العرب لم يستعملوا مصطلح التناص ، بل استعملوا مصطلح الاقتباس للدلالة على مفهومه . وتُعدّ (جوليا كريستيفا) مؤسّسة مصطلح التناص على أساس من انعكاس واحد ، أو مجموعة من الأصول الثقافيّة في كلّ نصّ ، ممّا يجعل التناص حواراً للنصوص ، وترى أنّ النصّ ((كجهاز عبر لسانيّ يُعيد توزيع نظام اللسان بواسطة (٧) بالربط بين كلام تواصليّ ، يهدف إلى الإخبار المباشر ، وبين (٨) أنماط عديدة من الملفوظات السابقة عليه ، أو المتزامنة معه . فالنصّ إذن إنتاجيّة ، وهو ما يعني ... أنه ترحال للنصوص ، وتداخل نصّيّ ، ففي فضاء نصّيّ معين ، تتقاطع ، وتتنافى ملفوظات عديدة مقتطعة من نصوص أخرى))(٩). ويرى الدكتور صلاح فضل أنّ التناص لا يتحقّق في النصّ بدرجة واحدة ، أو على مستوًى واحد ((بل هناك درجات عديدة للتناص ، ممّا يمكن أنْ يقودنا إلى التحليل النصّيّ ، فهناك مثلاً خواص شكليّة محدّدة ، مثل : الإيقاعات ، والأوزان ، والأبنية المقطعيّة ، ومثل أنماط الشخصيات ، والمواقف التي يمكن استخدامها كحدّ أدنى للتناص على اعتبار ما تفرضه في استخدامها مجموعة الأعراف التقليديّة المتصلة بكلّ جنس من الأجناس الأدبيّة ، وتتمثّل الدرجة الوسطى من التناص في الإشارات المتضمّنة والانعكاسات غير المباشرة سواءً كانتْ بالقبول ، أو الرفض لنصوص أخرى تتعلّق معها ، ممّا يعتدّ به مجالاً للتناص الحقيقيّ . أمّا الدرجة القصوى من التناص ، فتقوم فيها تلك الممارسات الاقتباسيّة ... وهو المجال الذي تمثّله أبواب السرقات في النقد القديم مغفلةً أهميّة التوليد ، والتوالي ، ومدرجةً للتحليل الأدبيّ في نطاق النقد المعياريّ والأخلاقيّ بالرغم من استخدامها لمصطلح الحسن في بعض الأحيان))(١٠). ويرى (رولان بارت) أنّ ((كلّ نصّ هو تناصّ ، والنصوص الأخرى تتراءى فيه بمستويات متفاوتة ، وبأشكال ليستْ عصيّة على الفهم بطريقةٍ ، أو بأخرى ، إذ نتعرّف نصوص الثقافةالسالفة ، والحاليّة . فكلّ نصّ ليس إلاّ نسيجاً جديداً من استشهادات سابقة . وتُعرض موزعة في النصّ قطع مدوّنات ، صيغ ، نماذج إيقاعيّة ، نُبذ من الكلام الاجتماعيّ ... لأنّ الكلام موجود قبل النصّ وحوله)) (١١).

التناص في دراسات القدماء :

درس القدماء من الأدباء ، والبلاغيين ، واللغويين هذه العلاقة بين نصوص سابقة ، ونصوص لاحقة ، استفادتْ منها ، وتأثرتْ بها ، وتفاعلتْ معها . وقد أفرد بعض العلماء مؤلّفات لدراسة هذه العلاقة ، منها : الاقتباس من القرآن الكريم لأبي منصور الثعالبيّ [ت ٤٢٩هـ] . وإذا كان الثعالبيّ قد سمّاه اقتباساً ، فإنّ غيره قد اصطلح عليه اسم (السرقات) ، أو ما يرادفها ، مثل : سرقات الشعراء وما اتفقوا عليه لابن السكيت [ت ٢٤٤هـ] ، وإغارة كثير على الشعراء للزبير بن بكار ، وسرقات أبي نؤاس لمهلهل بن يموت ، والموضّحة في ذكر سرقات المتنبيّ وساقط شعره للحاتميّ ، والإبانة عن سرقات المتنبيّ للعميديّ . وتناول بعضهم سرقات الشعراء من القرآن الكريم ، مثل : سرقات الكميت من القرآن وغيره لابن كناسة (١٢). وقد وضع أصحاب هذ المؤلفات حول السرقات أصولاً ، وشروطاً للاقتباس ((فالمنطلق الذي صدر عنه النقاد ، والبلاغيون العرب في تناولهم للعلاقة بين السابق ، واللاحق أنّه يحقّ للاحق الإفادة من السابق ، من معناه مطلقاً ، ومن لفظه بشرط أنْ يُغيّر فيه بالنقص منه ، أو الزيادة فيه ، أو بـ نقله من معنًى إلى معنًى ، أو تحويله من قالب فنّيّ إلى قالبٍ فنّيّ آخر))(١٣). وتتفق نظرة القدماء للتناص مع نظرة علماء النصّ المحدثين ، إذ ليس التناص عندهم مجرّد نقل شيءٍ من نصوص سابقة إلى النصّ الحاضر ، وإنّما لا بدّ أنْ يقتضي هذا النقل تفاعلاً ، وتعالقاً بين النصّ الغائب ، والنصّ الحاضر ؛ ولذا إنّ كلّ

---

(١) ينظر : التعريفات ، والكلّيات ، وكشاف اصطلاحات الفنون .
(٢) الكلّيات : ٧٦٥ .
(٣) المصطلحات الأساسيّة في لسانيّات النصّ ، وتحليل الخطاب دراسة معجميّة : ١٠١ .
(٤) النصّ والخطاب والإجراء : ١٠٤ .
(٥) المعايير النصّية في القرآن الكريم : ١٧٥ .
(٦) التناص ، دراسة في الخطاب النقديّ العربيّ : ١٧٠ .
(٧) كذا ، والصحيح : بوساطة .
(٨) كذا ، والصحيح أنْ تُحذف ؛ لأنّ (بين) المتقدمة دالّة على التوسط بين اثنين من دون الحاجة إلى تكرارها .
(٩) علم النص : ٢١. وينظر : المعايير النصّية في القرآن الكريم : ١٧٥ .
(١٠) بلاغة الخطاب وعلم النصّ : ٣٠٩ – ٣١٠ . وينظر : المعايير التنصّية في القرآن الكريم : ١٧٦ – ١٧٧ .
(١١) نظرية النص ، ضمن كتاب (دراسات في النص والتناصية) : ٣٨ .
(١٢) ينظر : المعايير النصّيّة في القرآن الكريم : ١٧٧ – ١٧٩ .
(١٣) المعايير النصّية في القرآن الكريم : ١٧٩ .

التعريفات التي وضعها علماء النصّ ، والنقاد ((تظهرهذا التعالق ، والالتقاء ، والتداخل اللفظيّ ، أو المعنويّ بين نصّ ما ، ونصوص أخرى سبقته ، واستفاد منها هذا النصّ المراد دراسته))[١].

التناص في دراسات العرب المحدثين :

أخذ علماء النصّ العرب المحدثون هذا المصطلح عن الغربيين ، ولكنّهم اختلفوا في فهمهم لهذا المصطلح ،وكيفيّة وجوده ، وتحقّقه ، فالدكتور تمام حسان يرى أنّ التناص ((علاقة تقوم بين أجزاء النصّ ببعض، كما تقوم بين النصّ ، والنص ، كعلاقة المسوّدة بالتبييض ، وعلاقة المتن بالشرح ، وعلاقة الغامض بما يوضّحه ، وعلاقة المحتمل بما يُحدّد معناه ، وهذه العلاقة الأخيرة هي المقصودة بعبارة : القرآن يُفسّر بعضه بعضاً))[٢]. ، ويرى الدكتور سعيد بحيري أنّ التناص ((يختص بالتعبير عن تبعيّة النصّ لنصوص أخرى ، أو تداخله معها))[٣] ، أمّا الدكتور محمد عبد المطّلب ، فيحصر التناص في نمطين أساسين : ((أولها : يقوم على العفويّة ، وعدم القصد ، إذ يتمّ التسرب من الخطاب الغائب إلى الحاضر في غيبة الوعي ، أو يتمّ ارتداد النصّ الحاضر إلى الغائب في نفس الظرف الذهنيّ . ثانيهما : يعتمد على الوعي ، والقصد بمعنى أنّ الصياغة في الخطاب الحاضر تُثير إلى نصّ آخر ، وتكاد تحدده تحديداً كاملاً يصل إلى درجة التنصيص ، وهنا يطفو على السطح مفاهيم الملاقحة ، والمثاقفة ، والسرقات الأدبيّة ، والمعارضة ...))[٤]. والتناص الذي يكون ألصق بنحو النصّ هو الذي ((يحمل خصوصيّة التطبيق ، فبدلاً من أنْ تكون هذه المفاهيم ، والصور المطروحة بين نصّ حاضر ، ونصوص أخرى غائبة ، فإنّ التناص المقصود هنا ينصبّ على النصّ الواحد دون نصوص أخرى))[٥] . ويتبيّن من ذلك أنّ للتناص مفهومين : أحدهما : يدلّ على تداخل نصوص ماضية في نصّ حاضر ، تتفاعل ، وتترابط معه على المستوى النحويّ ، والدلاليّ ، وهذا شائع في الدراسات الأدبيّة ، والنقديّة ، والأسلوبيّة ، والعلاقة وثيقة بينها ، وبين نحو النصّ في التحليل النصّيّ . أمّا الآخر : فهو التناص لغرض تفسير شيءٍ غامض ، أو تحديد لمعنى محتمل ، أو جواب عن سؤالٍ ، أو تفصيل مجمل ، وغيرها من الوجوه ، وعلاقة نحو النصّ بهذا أوثق من الأول [٦]. إنّ العلاقة القائمة على التناصّ ((بين النصّ المُبدع ، والنصوص المستلهَمة هي علاقة اتّصال وانفصال ، هدم وبناء ، امتصاص وتحويل ، أي أنها علاقة تفاعل ، وحوار ، وهذا ممّا يتأسّس على وجود مسافة بين النصّ ، والتراث من جهة ، وبينه وبين الواقع من جهة ثانية ... السياق –إذاً – فكرة لا بدّ من تواجدها عند نظرنا للتناص ، فبدون وضع النصّ في سياق، يُصبح من المستحيل أنْ نفهمه فهماً صحيحاً ، وبدون فكرة السياق نفسها يتعذّر علينا الحديث عن الترسيب ، أو النصّ الغائب ، والإزاحة ؛ لأنّ هذه المفاهيم –أيضاً – تكتسب معناها المحدّد من السياق الذي تظهر فيه ، وتتعامل معه . وهو لا يُسهم فقط في تحديد الإزاحة ، وبلورة آلياتها ، ولكنّه –أيضاً – يقوم بدور فعّال في صياغة ملامح النصّ الجديد ، وفي تحديد علاقته بالعالم الذي يظهر فيه))[٧] .

وممّا وقع في القرآن الكريم بمفهومه الأول ما أطلق عليه السيوطيّ ، وغيره (التضمين) ، وعدّوه من أنواع البديع ، ورأوا أنّه يطلق على أشياء ، الرابع منها هو ((إدراج كلام الغير في أثناء الكلام ؛ لقصد تأكيد المعنى ، أو ترتيب النظم ، وهذا هو النوع البديعيّ . قال ابن أبي‌الإصبع : ولم أظفر بشيءٍ منه إلاّ في موضعين ، تضمّنا فصلين من التوراة والإنجيل : قوله تعالى : ﴿ **وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ ...**﴾ [٨]، وقوله : ﴿**مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ...**﴾[٩]. ومثله ابن النقيب ، وغيره بإيداع حكايات المخلوقين في القرآن ، كقوله تعالى : ﴿**.. قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا ...**﴾[١٠] ، وعن المنافقين : ﴿**... أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ ...**﴾[١١] ، ﴿ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**﴾ [١٢]. قال : وكذلك ما أودع من اللغات الأعجميّة))[١٣]. أمّا التناص بمفهومه الثاني ، وهو تفسير لشيءٍ غامض أو تفصيل لمجمل ، أو جواب عن سؤال ، أو تحديد لمعنى محتمل ، أو تخصيص لمطلق ، فإنّ القرآن يُفسّر بعضه بعضاً ، وهذا القول مبنيّ على النظرة إلى القرآن على أنه كالكلمة الواحدة ، نقل الزركشيّ عن أبي بكر بن العربيّ قوله : ((ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متّسقة المعاني منتظمة المباني علم عظيم))[١٤] .ويُمثّل فهم التناص جزءاً مهماً من عملية فهم النصّ ؛ لأنّه يُزوّد القارئ بالتقاليد ، والمواضعات التي تُمكن من فهم أيّ نصّ نتعامل معه ، والتي أرستها النصوص السابقة له . وكلّ نصّ جديد ينمّي النصوص السابقة ، ويرسّخها ، ويُضيف إليها ، فالإطاحة بالتقاليد قد تنطوي على تثبيت المفهوم نفسه في بعد من أبعادها ، ولو بشكلٍ جديد . وأيّ كتابة تنطوي على التناص ، فتفترض قدراً من

---

(١) نحو النص ، اتجاه جديد في الدرس النحويّ : ٨١ . وينظر : المعايير النصّية في القرآن الكريم : ١٧٩ .
(٢) المعايير النصّيّة في القرآن الكريم : ١٨٠ – ١٨١ .
(٣) علم لغة النص ، المفاهيم ، والاتّجاهات : ١٦٧ .
(٤) قضايا الحداثة عند عبدالقاهر الجرجانيّ : ١٥٣ . وينظر : المعايير النصيّة في القرآن الكريم : ١٧٩ – ١٨٠ .
(٥) نحو النص ، اتجاه جديد في الدرس النحويّ : ٨٣ .
(٦) ينظر : المعايير النصّيّة في القرآن الكريم : ١٨١ – ١٨٢ .
(٧) نظرية علم النص : ١٩٧ .
(٨) سورة المائدة : ٤٥ .
(٩) سورة الفتح : ٢٩ .
(١٠) سورة البقرة : ٣٠ .
(١١) سورة البقرة : ١٣ .
(١٢) السورة نفسها : ١١٣ .
(١٣) الإتقان في علوم القرآن : ٢ / ١٧٦ . وينظر : المعايير النصّيّة في القرآن الكريم : ١٨٢ – ١٨٣ .
(١٤) البرهان في علوم القرآن : ١ / ٤٢ .

المعرفة الواعية الضمنيّة لما سبقها من النصوص ، أو على الأقلّ بالتقاليد الأدبيّة التي تعارف عليها في هذا الجنس من الكتابة [١]. وللتناص ((بؤرة مزدوجة : إنّه يلفت انتباهنا إلى النصوص الغائبة ، والمسبقة ، وإلى التخلّي عن أغلوطة استقلاليّة النصّ ؛ لأنّ أيّ عمل أدبيّ يكتسب ما يحقّقه من معنى بقوة كلّ ما كُتب قبله من نصوص . كما يدعونا إلى اعتبار هذه النصوص الغائبة مكونات لشفرة خاصّة ، يُمكننا وجودها من فهم النصّ الذي نتعامل معه ... والتناص بذلك يطرح العديد من القضايا حول علاقة النصوص بعضها بالبعض الآخر من جهة ، وعلاقتها بالعالم ، والمؤلّف الذي يكتبها من جهة أخرى))[٢]. وطبقاً لهذا الفهم ، فالعمل الأدبيّ استعمال خاصّ للغة ، ورسالة مصوغة بلغة الفنّ ، وهو بذلك لا يكون منقطعاً عن اللغة التي كُتب بها ، ولا يكون بمعزل عن وسائل الاتصال الاجتماعيّ الأخرى . ففهم العمل الأدبيّ يفرض علينا فهمه ، ومنحه معناه ضمن إطار اللغة التي أُنتج فيها ، والسياقات ، والصياغات التركيبيّة ، والبلاغيّة التي تعرف عليها أهل هذه اللغة ، فأيّ محاولة من القارئ لفكّ شفرته وفق أيّ نظام لا يراعي مرجعياته اللغويّة ، والثقافيّة ، تؤدّي إلى تشويه معناه [٣]. وهذا لا يعني أنّ النصّ يجب أنْ يكون صورة مطابقة للمعهود من النصوص السابقة ، فقد يأتي النصّ الحديث بصياغة تخالف ما سبقه ، مع عدم خروجها عن المألوف ، والمتعارف . وقد جاء النظم القرآنيّ بفرادة الصياغة القائمة على فكرة التمايز التي ((لا تستبصر النصّ إلاّ من خلال علاقته بغيره من النصوص ، معتنيّةً بعناصر الاختلاف التي تُميّز هذا الخطاب من ذاك ، على حين تصبو فكرة التفاضل إلى فحص القيمة الجماليّة التي حقّقتها الخصائص التمييزيّة في هذا النصّ ، أو ذاك . كأنّ نظرية النص التي أنجزتها دراسات الإعجاز القرآنيّ كانتْ تستبصر النصّ الأدبيّ من خلال بعديه : المرجعيّ ، وفرادة التكوين القبّيّ له ... من هنا جاءتْ فكرة الموازنة بين النصّ القرآنيّ ، والنصّ غير القرآنيّ))[٤]. ففرادة التكوين عند الرمانيّ تؤسّس على مقوّمات أربعة ، يوضّحها قوله : ((هذا الضرب من الإيجاز كثير ، وقد استحسن الناس من الإيجاز قولهم : القتل أنفى للقتل ، وبينه وبين[٥] لفظ القرآن تفاوت في البلاغة ، والإيجاز ، وذلك يظهر في أربعة أوجه : إنّه أكثر فائدة ، وأوجز في العبارة ، وأبعد من الكلفة بتكرار الجملة ، وأحسن تأليفاً بالحروف المتلائمة))[٦]. فهذا التناص في المعنى بين القول العربيّ ، والآية القرآنية قد أثبت الفائدة للنص القرآنيّ ، وأنّه يستطيع ((أداء المعنى المراد منه أداؤه ، متفوقًافي هذا الأداء على أداء نصّ آخر في المعنى عينه من جهة ، ومضيفاً إليه معاني أخر تستحسن من جهة ثانية))[٧] .

أقسام التناص : قسّم بعض المحدثين التناص على :

التناص الخارجيّ : ويعني العلاقة التي تربط النصّ المفرد بغيره من النصوص ، علاقة الفنون بعضها ببعض ، سواء أكانتْ من آثار المنتج نفسه ، أم من آثار غيره .

التناص الداخليّ : هو الذي يعني ارتباط الأجزاء المختلفة للنصّ ، بعضها مع بعضها الآخر .

والتناص الخارجيّ يقوم على كلّ التراكمات المعرفيّة السابقة للنص ، أو المتزامنة معه ، فـ ((النصّ هو حالة بناء فنيّة هرمية التشكل ، والبناء ، فكلّ نصّ هو ذاكرة لما قبله من النصوص ، والتناص هو دراسة ، ورصد هذه التأثيرات النصّيّة في النصّ))[٨] ، إذ يوظّف النصّ كلّ ما يمكن أنْ يكون وسيلةً لفهم النصّ ، أو جلب الانتباه ، أو قد يكون توضيحاً لغموض في النصوص السابقة ، فيقوم النصّ الجديد بإزالة هذا الغموض ، وهو ما سيُلحظ في النصّ القرآنيّ الكريم . أمّا التناص الداخليّ ، فيكون في النصّ ذاته ، وهو –أيضاً – يحمل غايات استعماله ، فهو قد يضيف معلومة جديدة في الجزء اللاحق من النصّ ، أو قد يخصّص عاماً ، أو يقيّد مطلقاً ، أو يؤكد معنًى ، وغيرها . وعند دراسة التناص في السور المدنيّة من القرآن الكريم ، في ضوء هذين النوعين من التناص ، يُمكن أنْ نقسّم كل نوع منهما حسب الآتي :

التناص الخارجيّ في السورالمدنيّة ، ويتحقّق في :

تناص المفردات : لورود مفردات غير عربيّة في النصّ القرآنيّ الكريم ، استعمل العرب بعضاً منها، وجاء النصّ الكريم ببعضها الآخر . وهذه الألفاظ قد وردتْ إلى العرب ؛ لكون مسمياتها مستوردة من البلدان الأخرى ، وقد حُملتْ للعرب مع احتفاظها بتسميتها الأصلية – كما نستعمل اليوم السلع الحديثة الصنع مع مسمياتها – وقد تكون مناسبةً للسياق الذي تُستعمل فيه من النصّ الكريم ، و قد يكون بعضها وصفاً لأشياء في الحياة الآخرة ، في الجنة ، أو في النار . فمن أمثلة المفردات الداخلة إلى العربيّة بسبب مسمياتها الأصلية ، مفردة (دينار) ، وذلك في قوله تعالى : **﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾**[٩]. فالدينار ((فارسيّ معرّب ... وهو وإنْ كان معرّباً فليس تعرف له العرب اسماً غير الدينار))[١٠] . فليس للعرب صناعة للعملة كي يطلقون عليها اسماً ، بل كانتْ النقود تُصنع في البلاد المجاورة لهم فكان اسم العملة مستورداً معها . ومن أمثلة استعمال الألفاظ المناسب للسياق الواردة فيه ، مفردة (الربانيّون) ، إذ استعملتْ في قوله تعالى : **﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا**

---

(١) ينظر : نظرية علم النص ، رؤية منهجيّة في بناء النصّ النثريّ : ١٩٤ – ١٩٥ .
(٢) نظرية علم النص : ١٩٥ .
(٣) ينظر : نظرية علم النصّ : ١٩٦ .
(٤) التأويل وقراءة النصّ في دراسات الإعجاز القرآنيّ ، دراسة في الهومينوطيقيا الأدبيّة الإسلاميّة : ٧٦ – ٧٧ .
(٥) كذا ، والصحيح أنْ تُحذف ؛ للاستغناء بالأولى .
(٦) النكت في إعجاز القرآن : ٧٧ .
(٧) التأويل وقراءة النصّ : ٧٨ . وينظر : النكت في إعجاز القرآن : ٧٧ – ٧٨ .
(٨) المعنى خارج النص : ١٣١ – ١٣٢ .
(٩) سورة آل عمران : ٧٥ .
(١٠) المعرّب من الكلام الأعجميّ على حروف المعجم : ١٨٧ . وينظر : مفردات ألفاظ القرآن : ٣١٨ .

اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ...﴾[1]. فقد جاء استعمال هذه المفردة مناسباً لسياقها ، إذ إنّها : ((ليستْ بعربيّة ، إنّما هي عبرانيّة ، أو سريانيّة))[2]. فقد ناسب استعمال هذه المفردة السياق الذي جاءتْ فيه ، إذ إنّ الكلام عن علماء اليهود ، وعُبّادهم ، فكان ورود هذه المفردة مناسباً لما عُرف لديهم من مسميّات يطلقونها على أهل الديانة فيهم . ومثلها مفردة (صلوات) في قوله تعالى : **﴿ ... وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ...﴾**[3]. فالصلوات ((هي كنائس اليهود ، وهي بالعبرانيّة صلوتا))[4]. فقد ناسب استعمال هذه المفردة السياق الذي وردتْ فيه ، إذ جاءتْ في سياق عدّ أماكن العبادة ، فكان استعمالها مبيّناً للديانة المقصودة في الآية الكريمة . أمّا استعمال مفردات من الحياة الآخرة ، فمنها مفردة (جهنّم) ، التي وردتْ في النصّ الكريم أكثر من سبعين مرّة ، منها قوله تعالى : **﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾** [5] . فالمفردة ((اسم لنار الله الموقدة ، قيل : وأصلها فارسيّ معرّب))[6]. وممّا يُمكن أنْ يُضاف إلى ما تقدّم أنّ ((أسماء الأنبياء – صلوات الله عليهم –كلّها أعجميّة ، نحو : إبراهيم ، واسماعيل ، واسحق ، وإلياس ، وإدريس ، وإسرائيل ، وأيوب ، إلاّ أربعة أسماء ، هي : آدم ، وصالح ، وشعيب ، ومحمّد))[7]. كما يُمكن تأكيد الكلام المتقدّم في استعمال هذه الألفاظ في سياقاتها الخاصّة بها ، عند مراجعة بعض الألفاظ الأعجميّة ، ومنها لفظة (اليّم) ، التي استعملتْ في النصّ القرآنيّ ثماني مرّات [8] ، كلّها في سياق الكلام عن فرعون ، أو عن بني إسرائيل ، من ذلك قوله تعالى : **﴿ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾**[9]. ولعلّ هذا التخصيص في الاستعمال يُجيز احتمالاً آخر غير أنْ تكون الكلمة ((البحر بالسريانيّة))[10] ، فيُقرّبها من اللغة القبطيّة .

تناص العبارات : تناص النصّ القرآنيّ – على مستوى العبارة - مع عبارات من الكتب السماويّة السابقة ، من تلك العبارات : عبارة (لا إله إلاّ الله) ، التي وردتْ في السور المدنيّة في موضعين [11]، وقد وردتْ في بعض الكتب السابقة [12] ومثلها عبارة (لا إله إلاّ هو) التي وردتْ في مواضع [13] من النصّ القرآنيّ ، وهذه العبارة وردتْ في الكتب السابقة [14] ، ومنها عبارة (الرحمن الرحيم) التي وردتْ في موضعين [15] ، وهذه العبارة قد وردتْ في الكتب السابقة [16] ، وغيرها من العبارات .

تناص القصص والأحداث : تتناول الكتب السماويّة السابقة للقرآن الكريم الكثير من الأحداث ، والقصص التي حصلتْ من خلق آدم A إلى خلق عيسى A ، وما جاء به من معجزات ، وما بشّر به بعده . ولكنّ التزييف ، والتحريف الذي أصاب الكتب المقدسة قبل بعث النبيّ محمد ρ ، وفي أثناء البعثة ، يجعل الباحث عن أيّ معلومة –فضلاً عن التناص بين الكتب المقدّسة - حذراً في الأخذ بصحة هذه المعلومة . وكلّ ما يمكن فعله هو التعرّف على أصل هذه المعلومة ، وكيفيّة تطوّرها من كتاب إلى آخر ، ليكون النصّ القرآنيّ الكريم هو الفيصل في صحة ما يُنقل عن هذه الكتب ، فيكون المعيار في تصديقه ، أو تكذيبه لها . فمن القصص الرئيسة التي تناولتها الكتب السماويّة السابقة ، ووردتْ في القرآن الكريم ، ما يأتي :

رواية خلق الإنسان ، وعصيان آدم : تظهر هذه القصة في التوراة في صياغتين ، مرّة في نطاق خلق الأيام الستة (التكوين ١ : ١ – ٤)، والثانية : رواية منفصلة (التكوين : ٢ : ٢٤ – ٢٥) . وفيها يتمّ تخصيص الجنة لأوّل زوجين ، وإعلان تحريم الأكل من شجرة المعرفة ، وتنتهي الرواية بالعصيان ، والطرد من الجنة (التكوين : ٣)[17] . وتظهر هذه القصة في القرآن الكريم في مواضع عدّة ، فقد وردتْ قصة خلق آدم عندما أعلن الله – تبارك وتعالى – للملائكة جعل الخليفة في الأرض ، وذلك في سورة البقرة (٣ – ٣٩) . وعند محاولة إجراء مقارنة بين النصّين ، يتبيّن ما يأتي :

ما ورد في العهد القديم	ما ورد في القرآن الكريم
الإشارة إلى خلق الإنسان من تراب الأرض .	لم يُشر النصّ الكريم إلى المادة التي خُلق منها آدم A .
وصف الجنة بأنّ أنواع الشجر موجود فيها ، وفي وسط الجنة شجرة الحياة ، وشجرة معرفة الخير والشرّ .	القصة على شكل حوار ، وليس سرداً لأحداث . وهذا الحوار كان سببه التعرّف على دقائق أفكار الملائكة من

---

(١) سورة المائدة : ٤٤ . واستعملتْ في سورة آل عمران : ٧٩ ، وسورة المائدة : ٦٣ .

(٢) المعرّب : ٢٠٩ . وينظر : مفردات ألفاظ القرآن : ٣٣٧ .

(٣) سورة الحج : ٤٠ .

(٤) المعرّب : ٢٥٩ .

(٥) سورة البقرة : ٢٠٦ .

(٦) مفردات ألفاظ القرآن : ٢٠٩ – ٢١٠ (جهنم). وينظر : المعرّب : ١٥٥ .

(٧) المعرّب : ٦١ .

(٨) ينظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (يمم) .

(٩) سورة الأعراف : ١٣٦ . وينظر : سورة طه ، الآيات (٣٩ ، ٧٨ ، ٩٧) ، وسورة القصص ، الآيات (٧ ، ٤٠) ، وسورة الذاريات ، الآية (٤٠) .

(١٠) المعرّب : ٤٠٣ .

(١١) وردتْ في سورة محمد : ١٩ ، ووردتْ بصيغة (ما مِن إله إلاّ الله) في سورة آل عمران : ٦٢ .

(١٢) ينظر : الكتاب الشريف ، الكتاب الثاني للنبيّ صموئيل / ٧ : ٢٢ ؛ ٢٢ : ٣٢ ، والكتاب الأول أخبار الأيام / ١٧ : ٢٠ ، والمزامير / ١٨ : ٣١ ، وأشعيا / ٤٥ : ١٤ ، وإنجيل مرقس / ١٢ : ٣٢ .

(١٣) وردتْ في سورة البقرة : ١٦٣ ، ٢٥٥ ؛ آل عمران : ٢ ، ٦ ، ١٨ ؛ النساء : ٨٧ ، وغيرها .

(١٤) الكتاب الشريف ، التثنية / ٤ : ٣٥ .

(١٥) ينظر : سورة البقرة : ١٦٣ ؛ سورة الحشر : ٢٢ .

(١٦) الكتاب الشريف ، الخروج / ٣٤ : ٦ ؛ المزامير / ٨٦ : ١٥ ، ١٠٣ : ٨ ؛ إنجيل لوقا / ١ : ٧٨ .

(١٧) ينظر : أسس الحوار في القرآن الكريم ، دراسة في علاقة الإسلام باليهوديّة والمسيحيّة : ١٠١ .

الإشارة إلى أنّ الله وضع الإنسان في الجنة ليفلحها ، ويعتني بها .

تحذير الإنسان من الأكل من شجرة معرفة الخير والشرّ (لأنك إنْ تأكل منها تموت) .

الإشارة إلى إحضار الوحوش ، والطيور أمام آدم ليرى ما يُسمّيها ، فكان كلّ اسم يطلقه يصير اسم ذلك الكائن .

الإشارة إلى خلق (حوّاء) من ضلع آدم ، وتعليل تسميتها امرأة ؛ (لأنها من امرئ أخذتْ) .

الإشارة إلى غواية الحيّة لآدم وحوّاء بالأكل من شجرة معرفة الخير والشرّ .

الإشارة إلى معرفتهما بعُريّهما بعد الأكل من الشجرة ، ومحاولتهم صناعة ملابس من ورق شجرة التين .

الإشارة إلى أنّ آدم سمّى زوجته حوّاء ؛ (لأنها أمّ كلّ حيّ) .

الإشارة إلى تخوّف الله تعالى من أنّ الإنسان قد يمدّ يده ، فيأخذ من شجرة الحياة ، كما أخذ من شجرة معرفة الخير والشرّ ، فيحيا إلى الأبد ، فطرده الله من جنة عدن ؛ ليفلح في الأرض التي أخذ منها [١] .

خلال ألسنتهم مباشرة .

يُلحظ أنّ القصة تُشير إلى إخبار الله تبارك وتعالى للملائكة بجعل الخليفة في الأرض ، وموقفهم حيال هذا الخليفة ، مع معرفة أنّ تراكيبهم لا يتجاذبها طرفان من الصراع بين الخير والشرّ ، أو بين العقل والشهوة .

القصة تسير باتّجاه هدف معين تريد تحقيقه هو إبراز (علم الله) الذي يجعل الملائكة المختارين وفق تركيبة خاصّة لا يُمكنهم أنْ يقفوا على أسرار هذا العلم .

تُظهر القصة إكساب الشخصيّة الآدميّة قدراً من التقدير والتفضيل من خلال إنبائهم بالأسماء التي عجز عنها الملائكة ، ثمّ الأمر للملائكة بالسجود له إشعاراً بأهميّته بعد أنْ مهّدتْ أسباب التفضيل .

ظهور عنصر جديد في القصة ، وهو إبليس ، وقد أحاطته القصة بغموض فنّي من حيث صلته بالملائكة ، وسبب الغموض أنّ هدف القصة الأول إبراز أهميّة الكائن المخلوق ، والمُعدّ لخلافة الأرض .

دخول عنصر جديد في القصة ، هو الزوجة ، ولم يذكر لها اسم في القرآن كلّه .

شدّدتْ القصة على شيء من الجنة ، وهي الشجرة التي لم يوضّح نوعها ، وتأكيد عدم التقرب منها ، والأكل من ثمرها .

إزلال إبليس لهما ، وإخراجهما من الجنة بسبب ذلك [٢] .

يتبيّن من هذه المقارنة أنّ قصة خلق آدم A في الكتب الماضية كانتْ أشبه بسرد لحدث تأريخيّ خالٍ من أيّ قيمة فنّيّة ، وحُذفتْ أحداث ، وأضيفتْ أحداث غير مقبولة ، ولا مناسبة لوصف الله تعالى بها . أمّا القصة القرآنيّة ، فقد أكدتْ أنّ ((وجود خليفة في الأرض ، مزوّد بطاقةٍ (علميّة) تنير له معالم الخلافة ، هو عصب القصة ، كما أنّ وجود طرفٍ آخر يقف حجراً أمام الطريق ، هو المسوّغ لدلالة التجربة الجديدة : ميلاد البشريّة ، فالتجربة تتطلّب طرفين من الصراع ، من الممكن تجاوزها ما دام (العلم) الذي أودعته السماء في الشخصيّة الآدميّة كفيل بإنارة الطريق لها ... [و] القصص القرآنيّ حينما يتّجه إلى شكلٍ فنّيّ خاص ، إنّما يستهدف من ذلك إلقاء إنارة ضخمة على دلالات القصة قبل كلّ شيء ، وإفادتنا – نحن القرّاء – من ذلك في محاولتنا لتعديل السلوك عبر مهمة خلافتنا في الأرض))[٣].

قصة هابيل وقابيل : سُردتْ قصة ابني آدم A (قابيل وهابيل)[٤] ، وذلك في (التكوين ٤ : ١ – ٦) . وقد وردتْ قصتهما في سورة المائدة ، الآيات (٢٧ – ٣٢) ، ((وتُعدّ القصة مختصرة للغاية مقابل قصة التوراة رغم [٥] أنّها شملتْ بعض الإضافات))[٦].وعند محاولة إجراء مقارنة بين الروايتين ، يتبيّن ما يأتي :

القصة في الكتاب الشريف

الإشارة إلى اسميهما ، و أنّهما أوّل ولدين لآدم .

بيّنتْ عمل كلّ واحد منهما ، (هابيل يرعى الغنم – قابيل فلاحة الأرض) .

الإشارة إلى ذكر القربان من دون ذكر السبب لذلك القربان ، ولكنّها وضّحتْ نوع القربان لكلّ واحد منهما ، مع الإشارة إلى أنّ هابيل قدّم (أفضل أبكار غنمه) .

الإشارة إلى قبول الله لقربان هابيل ، وعدم رضاه عن قابيل وقربانه .

أشارتْ القصة إلى غضب قابيل ، وتحذير الله له من الخطيئة إنْ لم يُحسن التصرّف .

الإشارة إلى طلب قابيل من أخيه الخروج للخلاء ،

القصة في القرآن الكريم

لم يُعرّف النصّ باسمي ولدي آدم .

ذكر القربانين اللذين قدماهما ، من دون ذكر السبب لهما .

تقبّل أحد القربانين ، ورفض القربان الآخر ، من دون ذكر السبب .

الحوار الذي دار بين الأخوين يُشكّل تفسيراً لسبب الرفض ، والقبول ، فجواب هابيل المتمثّل في قوله (إنّما يتقبّل الله من المتقين) .

لم يذكر النصّ نوع القربان لأيّ منهما .

هدف النصّ الكريم إلى إبراز ظاهرة نقاء الأعماق ، أو التقوى من خلال جزئية سلوكيّة .

النصّ الكريم ركز على تحديد السلوك ، وقد حدّده في

---

(١) ينظر : الكتاب الشريف ، التكوين / ٢ : ٧ – ٢٥ ، ٣ : ١ – ٢٤ .

(٢) هذا الكلام يعتمد على ما جاء في سورة البقرة : ٣٠ – ٣٩ . والتحليل لمضامين الآيات اعتمد على كتاب (دراسات فنّية في قصص القرآن : ١٢ – ٢١ .

(٣) دراسات فنّيّة في قصص القرآن : ١٩ .

(٤) أسس الحوار في القرآن الكريم : ١٠٣ ، إذ ذكرتْ اسميهما ، علماً أنّ النصّ القرآنيّ لم يُصرّح باسميهما .

(٥) كذا ، والصحيح : على الرغم من .

(٦) أسس الحوار في القرآن الكريم : ١٠٣ . وقد جعل المترجم اسم (قايين) بدل (قابيل) .

ثم هجومه عليه ، وقتله أشدّ مستوياته متمثّلاً في عملية القتل التي تُجسّد سلوكاً
حكم الله عليه باللعنة والطرد من الأرض مضادّاً للتقوى لدى الطرف الآخر .

التناص الداخليّ في السور المدنيّة :

يتحقّق التناص الداخليّ في السور المدنيّة بالعلاقات الدلاليّة ، ومنها علاقات التكرار للعبارات ، والتراكيب اللغويّة ، والآيات القرآنية ، وتكرار بعض القصص القرآنيّة ، وفيما يأتي تفصيل لها : يظهر التناص في العلاقات الدلاليّة الآتية :

علاقة الإطلاق – التقييد : يضع الزركشيّ قاعدةً في الإطلاق ، والتقييد ، يقول فيها : ((إنْ وجد دليل على تقييد المطلق صِيرَ إليه ، وإلاّ فلا ، والمطلق على إطلاقه ، والمقيّد على تقييده ؛ لأنّ الله تعالى خاطبنا بلغة العرب . والضابط أنّ الله تعالى إذا حكم في شيءٍ بصفةٍ ، أو شرط ، ثمّ ورد حكم آخر مطلقاً نُظر ، فإنْ لم يكن له أصل يُردّ إليه إلاّ ذلك الحكم المقيّد وجب تقييده به ، وإنْ كان له أصل غيره لم يكن ردّه إلى أحدهما بأولى من الآخر))[1]. ورأى الزركشيّ أنّ اشتراط الرقبة المؤمنة في كفارة القتل ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا** ﴾[2] ، وعدم اشتراطها في قوله تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** ﴾[3] ، فهو يرى عدم التصريح بالقيد (مؤمنة) ، مع أنّها مطلوبة في كفارة الظهار . وقد علّل أبو حيان تقييد الرقبة بـ (مؤمنة) في القتل ؛ لأنّه ((لمّا أخرج نفساً مؤمنة عن جملة الأحياء ، لزمه أنْ يدخل نفساً مثلها في جملة الأحرار ؛ لأنّ إطلاقها من قيد الرقّ حياتها ، من قِبل أنّ الرقيق ممنوع من تصرّف الأحرار))[4]. وممّا يُمكن أنْ يُضاف إلى ذلك أنّ النصّ المقدّس قيّد الرقبة بـ (مؤمنة) ، من دون أنْ يوجد بديلاً آخر لها في الحالتين ، وهما أنْ يكون المقتول موصوفاً بالإيمان ، وذلك في قوله (مَنْ قتل مؤمناً) ، وفي قوله (وهو مؤمن) . أمّا في الحالة الثالثة ، وهي قوله (من قومٍ بينكم وبينهم ميثاق) ، فلم يشترط أنْ يكون المقتول مؤمناً ؛ ولذا فقد جعل الكفارة تحرير رقبة مؤمنة ، وقال (فمَنْ لم يجد فصيام شهرين متتابعين) ، ويبدو أنّ سبب هذا الجواز في الحالة التالية ؛ لكون المقتول من غير المؤمنين . أمّا في آية المجادلة ، فالظاهر أنّ الذنب المُرتكب ليس من كبائر الأثم ، ولذا فلم يُقيّد تحرير الرقبة بـ (مؤمنة) ، فجاز بذلك تحرير غير المؤمن ، وإنْ كان تحرير المؤمن أولى عند وجوده ، وهذا ما ذهب إليه المفسّرون [5]. ومن التناص بالإطلاق ، والتقييد قوله تعالى : ﴿ **... وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾[6]، الذي يتناص مع قوله تعالى : ﴿ **... وَمَنْ يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾[7]. فقد جعل الزركشيّ آية البقرةمقيّدة للإطلاق في آية المائدة ، فقال : ((فأطلق الإحباط عليه ، وعلّقه بنفس الردّة ، ولم يشترط الموافاة عليه ، وقال في الآية الأخرى (ومَن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطتْ أعمالهم) ، وقيّد الردّة بالموت عليها ،والموافاة على الكفر ، فوجب ردّ الآية المطلقة إليها وألاّ يُقضى بإحباط الأعمال إلاّ بشرط الموافاة عليها))[8]. وهذا الرأي فيه نظر ؛ لأنّه جعل الآية المتقدّمة في النزول مقيّدة للآية المتأخرة في النزول ، والمعلوم أنّ المتأخر يُقيّد المتقدّم ، وليس العكس . ويبدو أنّ التقييد في آية البقرة سببه أنّها نازلة في أول الهجرة ، فلم تقطع الرجاء منهم ابتداءً ، أمّا آية المائدة ، وهي آخر سورة نازلة على النبيّ ، فلم يعُد هناك أمل منهم .

علاقة العموم – الخصوص : القاعدة في هذه العلاقة هي أنّ : ((لا يُستدلّ بالصفة العامّة إذا لم يظهر تقييد عدم التعميم ، ويُستفاد ذلك من السياق))[9]. ومنها قوله تعالى : ﴿ **... وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾[10]. فعدم تعميم هذه الآية ((لا يصلح الاحتجاج بها في إيجاب الزكاة في قليل الذهب ، والفضة ، وكثيره ، وفي المتنوع منهما من الحليّ ، وغيره . ألا ترى أنّ مَنْ ملك دون النصاب منهما غير داخل في جملة المتوعَّدين بترك الإنفاق منهما ؟ وهذا يدلّ على أنّ القصد من الآية إثبات الحكم في ترك أداء الواجب من الزكاة منهما ، وفيها دليل على وجوب الزكاة فيهما ، وليس فيها بيان مقدار ما يجب من الحقّ فيهما))[11]. ومن أمثلة هذه العلاقة التي يظهر فيها التناص ، قوله تعالى : ﴿ **فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ... وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ...** ﴾[12]. ويُلحظ أنّ قوله (وإنْ أحد من المشركين) ((عطف على جملة (فاقتلوا المشركين) لتخصيص عمومه))[13]. ومثله قوله تعالى : ﴿ **وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلا مَا ظَهَرَ**

---

(1) البرهان في علوم القرآن : ٢ / ١١ .
(2) سورة النساء : ٩٢ .
(3) سورة المجادلة : ٣ .
(4) البحر المحيط في التفسير : ٤ / ٢١ .
(5) ينظر : البحر المحيط : ١٠ / ١٢٣ ، وروح المعاني : ٢٨ / ٢٩٠ ، والميزان في تفسير القرآن : ١٩ / ١٣٨ – ١٣٩ .
(6) سورة البقرة : ٢١٧ .
(7) سورة المائدة : ٥ .
(8) البرهان في علوم القرآن : ٢ / ١٢ .
(9) المصدر نفسه : ٢ / ١٣ .
(10) سورة التوبة : ٣٤ .
(11) البرهان في علوم القرآن : ٢ / ١٣ .
(12) سورة التوبة : ٥ – ٦ .
(13) تفسير التحرير والتنوير : ١٠ / ٢٤ .

مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ... ﴾ [1]. فهذا الحكم يشمل القواعد من النساء ، وغيرهنّ ، فجاء قوله تعالى : ﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللاتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[2]، تخصيصاً لهذا العموم ، قال أبو حيّان : ((ولما أمر – تعالى – النساء بالتحفّظ من الرجال ، ومن الأطفال غير البُلّغ في الأوقات التي هي مظنّة كشف عورتهنّ ، استثنى القواعد من النساء))[3] .

علاقة الناسخ – المنسوخ : انماز النصّ القرآنيّ بهذه العلاقة ، وهي علاقة ليستْ ((من قبيل التناقض في القول ، أو الاختلاف فيه ، وإنّما هو تلئٌ من الاختلاف في المصداق الذي ينطبق عليه الحكم حيناً تحقيقاً لمصلحة ، ولا ينطبق حيناً آخر لعدم المصلحة ، بحسب التقدير الشرعيّ))[4]. فالنصّ القرآنيّ لم يأتِ بالتشريع دفعة واحدة ، ((بل نزل نجوماً على قلب النبيّ ρ ، يتدرج مع الأحداث ، والوقائع ، وأنّ هذا التدرج تناول العادات الشعوريّة ، والتقاليد الاجتماعيّة التي آثر الإسلام أنْ يقف منها موقف المتمهّل المتريّث ، مؤمناً بأنّ البطء مع التنظيم خير من العجلة مع الفوضى . ولدى تقصّينا المراحل المتعاقبة في مكيّ القرآن ، ومدنيّه ، كانتْ حاجتنا ماسّة إلى علم قرآنيّ يلقي الضوء ساطعاً على هذه الخطوات ، ويُعين على تتبعها ، ورسمها بدقّة بالغة ، وهو علم الناسخ والمنسوخ))[5]. ويتبيّن من ذلك أنّ ظاهرة النسخ كانتْ ((أمراً لا بدّ منه في كلّ تشريع يحاول تركيز معالمه في الأعماق ، والأخذ بيد أمة جاهلة إلى مستوًى عالٍ من الحضارة الراقية ، الأمر الذي لا يتناسب مع الطفرة المستحيلة ، لولا الأناة ، والسير التدريجيّ المستمرّ))[6]. والنسخ هو ((رفع أمر ثابت في الشريعة المقدّسة بارتفاع أمده ، وزمانه سواء أكان ذلك الأمر المرتفع من الأحكام التكليفيّة ، أم الوضعيّة ، وسواء أكان من المناصب الإلهيّة ، أم من غيرها من الأمور التي ترجع إلى الله تعالى))[7]. وعلى الرغم من أنّ العلماء قد قسّموا النسخ على ثلاثة أقسام ، إلاّ أنّ النسخ الموجود في القرآن الكريم هو (نسخ الحكم دون التلاوة) ، وهو ((أن تبقى الآية ثابتة في الكتاب ، يقرأها المسلمون عبر العصور ، سوى أنّها من ناحية مفادها التشريعيّ منسوخة ، لا يجوز العمل بها بعد مجيء الناسخ القاطع بحكمها))[8].

ومن أمثلة علاقة النسخ التي تظهر التناص في النصّ القرآنيّ الكريم ، قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾[9]. فالذي يُلحظ أنّ هذا الاختلاف في عدد المقاتلين بالنسبة إلى عدد عدوّهم يدلّ على أنّ الآية الثانية ناسخة للأولى . ورأى السيد الخوئيّ ϖ أنه ((لا نسخ في حكم الآية ، فإنّ القول بالنسخ يتوقف على إثبات الفصل بين الآيتين نزولاً ، وإثبات أنّ الآية الثانية نزلتْ بعد مجيء زمان العمل بالآية الأولى ؛ وذلك لئلاّ يلزم النسخ قبل حضور وقت الحاجة ، ومعنى ذلك أنْ يكون التشريع الأول لغواً ... ونتيجة ذلك أنّ حكم مقاتلة العشرين للمئتين استحبابيّ ، ومع ذلك كيف يمكن دعوى النسخ على أنّ لازم كلام القائل بالنسخ أنّ المجاهدين في بدء الإسلام كانوا أربط جأشاً ، وأشدّ شكيمة من المجاهدين بعد ظهور الإسلام ، وقوته ، وكثرة أنصاره ، وكيف يمكن القول بأنّ الضعف طرأ على المؤمنين بعد قوتهم))[10]. وردّ بعض الدارسين هذا الرأي ، بقوله : ((أنّ العكس هو الظاهر من السياق ، فإنّ قوله تعالى (الآن خفّف الله عنكم وعلم أنّ فيكم ضعفاً) يدلّ بوضوح على تأخر نزول الثانية عن الأولى بفترة ، ربّما غير قصيرة ، مرّتْ خلالها تجربة عنيفة على المسلمين ، ظهر منها ضعفهم ، وتثاقلهم عن التكليف الأول . فإنّ لفظة (الآن) تدلّ دلالة واضحة على تلك الفترة ، ولولاها لم يكن موقع لهذه اللفظة أصلاً . وهكذا التعبير بالتخفيف يدلّ على تكليف سابق شاقّ ، الأمر الذي يتناسب مع كونه إلزاميّاً لا استحبابياً وأخيراً فإنّ قوله (علم أنّ فيكم ضعفاً) أيضاً شاهد على ذلك ، إذ المعنى : ظهر أنّ فيكم ضعفاً ، ممّا يتناسب مع وقوع تجربة تبدّى خلالها ضعف المسلمين ، ووهنهم عن مقاتلة أضعافهم بعشرات))[11]. ومن هذه العلاقة التناصيّة ، قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[12] . فالآية الأولى هي آية النجوى ، فرض الله تعالى تقديم صدقة من المسلمين حين طلبهم مناجاة النبيّ ρ، لكنّ هذه الآية نُسختْ بعد مدّة ؛ وذلك لأنّ المسلمين لم يعملوا بها إلاّ الإمام عليّ A ، فكانتْ الآية التالية لها ناسخة لحكم الآية الأولى . فالآيتان وإنْ كانتا متصلتين تلاوةً ، فهما غير متصلتين نزولاً [13]. ولعلّ السؤال الذي يمكن أنْ يُطرح ، لماذا ينزل الحكم بهذه الآية ، ثم يُنسخ في غضون عشرة أيام – على أبعد تقدير – كما يقول المفسّرون [14] . والجواب أنّ الآية لم يعمل بها غير الإمام عليّ A ، مع أنّ بعض المسلمين موسورو ، ولكنّهم – كما تصفهم الآية الكريمة – (أأشفقتم) ، و ((الإشفاق : عناية مختلطة بخوف ؛ لأنّ المشفِق يحبّ المشفَق عليه ،

---

(1) سورة النور : ٣١ .
(2) سورة النور : ٦٠ .
(3) البحر المحيط : ٨ / ٧٠ . وينظر : الميزان في تفسير القرآن : ١٥ / ١١٥ .
(4) موجز علوم القرآن : ٢٢ .
(5) مباحث في علوم القرآن : ٢٥٩ .
(6) تلخيص التمهيد : ١ / ٤١٦ .
(7) البيان في تفسير القرآن : ٢٩٤ .
(8) تلخيص التمهيد : ٤٣٧ .
(9) سورة الأنفال : ٦٥ – ٦٦ .
(10) البيان في تفسير القرآن : ٣٧٤ .
(11) تلخيص التمهيد : ٤٤٤ .
(12) سورة المجادلة : ١٢ – ١٣ .
(13) ينظر : روح المعاني : ٢٨ / ٣١٥ ، والميزان في تفسير القرآن : ١٩ / ١٤٦ .
(14) ينظر : روح المعاني : ٢٨ / ٣١٥ ، والميزان في تفسير القرآن : ١٩ / ١٤٦ .

ويخاف ما يلحقه))[١]، وقوله (فإنْ لم تجدوا فإنّ الله غفور رحيم) فيه دلالة ((على رفع الوجوب عن المعدمين ، كما أنّه قرينة على إرادة الوجوب في قوله (فقدّموا) ... ووجوبه على الموسرين))[٢]. وفي الآية مخالفة للأمر الإلهيّ الصادر إليهم ، وذلك في قوله (فإذ لم تفعلوا) ، وذنب مرتكب بدليل قوله (وتاب الله عليكم) ، إذ ((فيه إشعار بأنّ إشفاقهم ذنب تجاوز الله تعالى عنه))[٣] ؛ ولهذا نُسخ الحكم الذي فيها .

علاقة التناص بالتكرار : وتنقسم هذه العلاقة إلى أقسام ، هي :

التناص بتكرار اللفظ : وذلك أنْ يتكرّر اللفظ في آيات من سور عدّة ، أو في آيات من السورة نفسها ، فمن تكرار اللفظ في آيات من سور عدّة ما ذهب إليه الكرمانيّ من تكرار للفظ (سبّح) ، ومشتقاته ، فقال : ((هذه الكلمة استأثر الله بها ، فبدأ بالمصدر في بني إسرائيل (الإسراء) ؛ لأنه الأصل ، ثم الماضي ؛ لأنّه أسبق الزمانين ، ثم المستقبل ، ثم الأمر في الأعلى ؛ استيعاباً لهذه الكلمة من جميع جهاتها ، وهي أربع : المصدر ، والماضي ، والمستقبل ، والأمر للمخاطب))[٤]. وقد اعتمد الكرمانيّ في ذلك ترتيب المصحف ، فبدأ بآية الإسراء ، وهي قوله تعالى : **﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾** [٥]، ثم قوله تعالى : **﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾**[٦]، وقد شابهها في صيغة الماضي قولان من سورتي الحشر ، والصف ، وذلك في قوله تعالى : **﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾** [٧]، وقوله تعالى : **﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾**[٨] ، ثمّ جاء اللفظ بصيغة المضارع ، وذلك في قوليه من سورتي الجمعة ، والتغابن ، وهما قوله تعالى : **﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾**[٩]، وقوله تعالى : **﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾**[١٠] ، ثم أمر الناس بالتسبيح ، وذلك في قوله تعالى : **﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾** [١١].

التناص بتكرار العبارات : وذلك أنْ تُكرّر عبارة من آية قرآنية في آية أخرى ، وقد يكون هناك فارق بين لفظي العبارتين ، سببه السياق الذي جاءتْ فيه كلّ منهما ، من ذلك قوله تعالى : **﴿... وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ...﴾**[١٢]، الذي يتناص العبارة نفسها ، لكنْ بتأخير شبه الجملة (به) عن شبه الجملة (لغير الله) ، وذلك في قوله تعالى : **﴿... وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ...﴾**[١٣]. وقد علّل الكرماني ذلك ، بقوله : ((لأنّ تقديم الباء الأصل ، فإنّها تجري مجرى الهمزة ، والتشديد في التعدي ، فكانتْ كحرف من الفعل ، فكان الموضع الأول أولى بما هو الأصل ؛ ليعلم ما يقتضيه اللفظ . ثم قدم فيما سواها ما هو المُستنكر ، وهو الذبح لغير الله ، وتقديم ما هو الغرض أولى))[١٤].

ومثله تناص عبارة (إنّ الله غفور رحيم) في قوله تعالى : **﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾** [١٥] ، مع قوله تعالى **﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾**[١٦]. فيُلحظ التناص بين العبارتين ، لكن مع استبدال لفظ (ربّك) بلفظ (الله) – تبارك وتعالى - ، ورأى الكرمانيّ أنّ سبب هذا الاستبدال ؛ ((لأنّ لفظ الربّ تكرّر في الأنعام مرّات ؛ ولأنّ في الأنعام قوله (وهو الذي أنشأ جنات معروشات). وفيها ذكر الحبوب ، والثمار ، وأتبعها بذكر الحيوان من الضأن ، والمعز ، والإبل ، وبها تربية الأجسام ، فكان ذكر الربّ فيها أليق))[١٧]. ومن تناص العبارة في السورة نفسها ، قوله تعالى : **﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾**[١٨] ، الذي يتناص مع قوله تعالى : **﴿ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾**[١٩]. فالتناص في عبارة (تلك حدود الله فلا تقربوها) مع عبارة (تلك

---

(١) **مفردات ألفاظ القرآن : ٤٥٨ (شفق).**
(٢) **الميزان في تفسير القرآن : ١٩ / ١٤٦ .**
(٣) **روح المعاني : ٢٨ / ٣١٦ .**
(٤) **أسرار التكرار : ٢٠٠ .**
(٥) **سورة الإسراء : ١ .**
(٦) **سورة الحديد : ١ .**
(٧) **سورة الحشر : ١ .**
(٨) **سورة الصف : ١ .**
(٩) **سورة الجمعة : ١ .**
(١٠) **سورة التغابن : ١ .**
(١١) **سورة الأعلى : ١ .**
(١٢) **سورة البقرة : ١٧٣ .**
(١٣) **سورة المائدة : ٣ . وتكررتْ هذه العبارة في سورة الأنعام : ١٤٥ ، وسورة النحل : ١١٥ .**
(١٤) **أسرار التكرار : ٣٨ – ٣٩ .**
(١٥) **سورة البقرة : ١٧٣ .**
(١٦) **سورة الأنعام : ١٤٥ .**
(١٧) **أسرار التكرار : ٣٩ .**
(١٨) **سورة البقرة : ١٨٧ .**
(١٩) **نفسها : ٢٢٩ .**

حدود الله فلا تعتدوها) . والاختلاف بين التناصين ؛ ((لأنّ الحدّ الأول ، وهو قوله (ولا تباشروهنّ وأنتم عاكفون في المساجد) ، وما كان من الحدود نهياً أمر بترك المقاربة ، والحدّ الثاني أمر ، وهو بيان عدد الطلاق بخلاف ما كان عليه العرب من المراجعة بعد الطلاق من غير عدد ، وما كان أمراً أُمر بتركِ المجاوزة ، وهو الاعتداء))[١].

التناص بتكرار الآية : جاء في السور المدنيّة تكرار الآية القرآنيّة بأكملها ، وذلك في سورة الرحمن، إذ تكرّر قوله تعالى : ﴿ **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴾[٢]. فقد تكرّرتْ هذه الآية في السورة الكريمة إحدى وثلاثين مرّة ، ورأى الزركشيّ ((أنها وإنْ تعدّدتْ ، فكلّ واحد منها متعلّق بما قبله ، وإنّ الله – تعالى – خاطب بها الثقلين من الإنس ، والجنّ ، وعدّد عليهم نعمه التي خلقها لهم ، فكلّما ذكر فصلاً من فصول النعم ، طلب إقرارهم ، واقتضاهم الشكر عليه))[٣].

التناص بتكرار القصة : جاء في النصّ القرآنيّ الكريم تكرار لكثير من القصص السابقة ، خاصة قصص الأنبياء ، والمرسلين . من تلك القصص المكرّرة قصة النبيّ آدم A ، إذ تكرّرت في سور متعدّدة ، منها : البقرة ، الأعراف ، والحجر ،والإسراء ، والكهف ، وطه ، سورة ص ، فضلاً عن ذكر النبيّ آدم عليه السلام بصورة غير مباشرة ، وذلك من خلال ذكر حادثة ابنيه (قابيل وهابيل) ، أو عند التمثيل بخلقه على خلق النبيّ عيسى A . ويُلحظ أنّ أول سورة – بحسب ترتيب المصحف – تناولتْ قصة آدم A هي سورة البقرة ، ((وتبدأ القصة من أقدم حدث فيها ، حين أبلغ الربّ – تعالى – ملائكته بقراره في أنْ يجعل في الأرض خليفة ، وذلك قبل خلق آدم ... لقد ذكر هذه الأوليات ... ولم يذكرها في موطن آخر ، وذكرُ هذه الأوليات في هذا الموطن بالذات ، له أكثر من دلالة فنيّة ، وغير فنيّة . ومن بين جوانبها أنّها وردتْ في المكان المناسب لها تماماً ، فقد وردتْ أوليات القصة عند أول ذكر لها في أول سورة من سور القرآن ، كما أنّها أول قصة افتتح فيها القصص القرآنيّ))[٤]. وذلك في قوله تعالى : ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ**﴾[٥] ، و يأتي أهم حدث في القصة ، والذي تتناص معظم السور القرآنيّة من خلال ذكره ، وذلك هو الأمر للملائكة بالسجود لآدم ، وامتناع إبليس عن السجود ، وذلك في قوله تعالى : ﴿**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ** ﴾[٦]. وممّا يُلحظ في التعبير القرآنيّ في هذه الحادثة ، أنّه يذكر اسم (إبليس) صراحة عند عدم سجوده لآدم ، كما في الآية المتقدّمة ، وعند استكمال القصة ، يستعمل التعبير القرآنيّ إمّا لفظ (الشيطان) ، أو أنْ يخرجه من صنف الملائكة ، أو أنْ يعلن طرده من الجنة ، ولعنه من الله تعالى . من ذلك قوله تعالى : ﴿ **فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ**﴾[٧] ، وقوله تعالى : ﴿**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ...**﴾[٨]، وقوله تعالى : ﴿**قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ**﴾[٩].

ويبدو أنّ استعمال لفظ (الشيطان) بدل لفظ (إبليس) ؛ لأنّ ((الشيطان اسم لكلّ عارم من الجنّ ، والإنس ، والحيوانات ... وسُمّي كلّ خلقٍ ذميم للإنسان شيطاناً))[١٠].

الفصل الرابع : القصديّة والمقبوليّة والإعلاميّة

توطئة

ترتبط المعايير الثلاثة (القصديّة ، والمقبوليّة ، والإعلاميّة) بأطراف عملية الاتصال (المنشِئ – المتلقي – النص) ، فالقصديّة تبحث في المعنى الذي أراد المنشئ أنْ يوصله من خلال النصّ ، والمقبوليّة تبحث في الأثر الذي يحدثه النص في المتلقي ، فيؤدّي إلى قبوله ، أو رفضه معتمداً على المعايير الأخرى التي تساعده في عملية القبول ، أو الرفض . أمّا الإعلاميّة ، فتبحث في مقدار الجدّة ، والطرافة في النص ، بدءاً من الشكل الأدبيّ للنص(السبك)،مروراً بالمحتوى المضمونيّ (الحبك)، ومناسبته لمقتضى الحال (المقاميّة) ، ومدى تأثّره بغيره من النصوص السابقة له ، والمتزامنة معه (التناص) ، وزيادة على المعيارين الآخرَين موضوع هذا الفصل . إنّ هذه المعايير الثلاثة – مع المعايير السابقة – تعمل مجتمعة في تكوين فكرة عامّة تقييميّة للنص ، ويكون العمل فيها تكامليّاً ، وتبادليّاً ، فالقصد الذي يطلبه المنشئ ، ينتقل إلى المتلقي ، فإمّا يقبله ، أو يرفضه ؛ ليحقّق قبول المتلقي ، ويكسر توقعه بالصياغة التركيبيّة ، أو بجدّة المحتوى المعنويّ الذي يطرحه في النصّ ، ((فكلّما كان النص منسجماً متّسقاً كان أكثر مقبوليّة ، وكلّما كانتْ هناك مقبوليّة كانتْ هناك قصديّة ، فالمنتج يحرص على أنْ يكون نصّه مقبولاً لدى المتلقي ، والقبول لا يتحقّق إلاّ بالاتساق ، والانسجام)) [١١].

ولعلّ في المخطط الآتي بعض الإيضاح :

---

(١) أسرار التكرار : ٤١ .

(٢) سورة الرحمن : ١٣ .

(٣) البرهان في علوم القرآن : ٣ / ١٥ .

(٤) التعبير القرآنيّ : ٢٨٦ .

(٥) سورة البقرة : ٣٠ .

(٦) سورة البقرة : ٣٤ . وتنظر : سورة الأعراف : ١١ ، والحجر : ٢٨ ، والإسراء : ٦١ ، والكهف : ٥٠ ، طه : ١١٦ ، سورة ص : ٧١ – ٧٤ . ولم يذكر في سورة الحجر ، وسورة ص ، اسم النبيّ آدم صراحة ، وإنّما رمز له بلفظ (بشراً) .

(٧) سورة البقرة : ٣٦ . ومثلها في استعمال لفظ (الشيطان) سورة الأعراف : ٢٠ ، والإسراء : ٦٤ ، طه : ١٢٠ .

(٨) سورة الكهف : ٥٠ .

(٩) سورة الحجر : ٣٤ – ٣٥ . ومثلها سورة ص : ٧٧ – ٧٨ .

(١٠) مفردات ألفاظ القرآن : ٤٥٤ – ٤٥٥ (شطن).

(١١) سورة البقرة ، دراسة في ضوء علم لغة النصّ : ١٥٢ .

منشئ النص قصد إلى الجدّة وكسر توقع المتلقي — إعلاميّة النص أدث بالمتلقي إلى قبول النص وفهم قصد المنشئ

القصديّة ← الإعلاميّة ← المقبوليّة

وفيما يأتي إيضاح لكلّ معيار من هذه المعايير الثلاثة ، وبيان مظاهرها في السور المدنيّة ، ومعرفة مقدار تحقّق هذه المعايير فيه ، وأثرها في تحقيق النصّية .

المبحث الأول : القصديّة

القصديّة في اللغة والاصطلاح :

القصديّة لغةً[1]: قصَدَ يقصدُ قصداً ، بمعنى : إتيان الشيء وأمّه . وقصد في مشيه : اعتدل ، قال تعالى : **﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ... ﴾** [2] . وسفر قاصد بمعنى : قريب ، ومنه قوله تعالى : **﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ ... ﴾** [3] ، وإن كان الراغب قد فسّره بكونه ((سفراً متوسطاً غير متناهي البعد))[4] . **القصديّة اصطلاحاً** : لم يذكر الشريف الجرجانيّ [5] مصطلح القصد ، أو القصديّة في كتابه . وذكر الكفويّ مصطلح (الاقتصاد) ، ورأى أنّه ((من القصد ، والقصد : استقامة الطريق . والاقتصاد - فيما له طرفان : إفراط وتفريط – محمود على الإطلاق))[6]. ويبدو أنّ الكفويّ قد أخذ هذا التعريف عن الراغب ، ولكنّه اقتطع جزءاً منه ، فالراغب جعل الاقتصاد ضربين ، أحدهما ما ذكره الكفويّ ، والآخر ((يُكنّى به عمّا يتردّد بين المحمود ، والمذموم ، وهو فيما يقع بين محمود ، ومذموم ...))[7] ، وعلى ذلك قوله تعالى : **﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ... ﴾** [8]. أمّا عند المحدثين ، فقد عرّف بعضهم القصد بقوله : ((القصد توجّه النفس إلى الشيء ، انبعاثها نحو ما تراه موافقاً ، وهو مرادف للنيّة . وأكثر استعماله في التعبير عن التوجّه الإراديّ ، أو العمليّ ، وإنْ كان بعض الفلاسفة يطلقونه على التوجّه الذهنيّ ... ويطلق اتّجاه القصد في علم اللاهوت الأدبيّ على الموقف الفكريّ الذي يوجب على المرء فعل شيء له جانبان ، أحدهما جميل ، والآخر قبيح ، كالربّان الذي يخرق سفينته لا ليغرق أهلها ، بل ليتفادى وقوعها في أيدي الأعداء ... فكأنّ قيمة الفعل تابعة لنيّة الفاعل ، أو كأنّها مستقلّة عن النتائج الخارجيّة الناجمة عنها))[9].

القصديّة في دراسات العرب القدماء :

لم يكن مفهوم القصد غائباً عن الدراسات العربيّة القديمة ، على الرغم من عدم وجود تعريف واضح له . وقد كان لكلّ مستوى من مستويات اللغة فهم خاصّ للقصد يفترق فيه عن المستويات الأخرى ، ويمكن تقسيم هذه المستويات على :

القصد عند اللغويين : يرى اللغويون أنّ القصد أساس مهم في اللغة ؛ لتحقيق التواصل الذي استعملت لأجله . فاللغة تعبير المتكلّم عن قصده ، وذلك التعبير ناشئ عن القصد بإفادة المعنى عند الكلام ، فلا بدّ من أنْ تصير ملكة متقرّرة في العضو الفاعل لها ، وهو اللسان [10].ويرى ابن سنان الخفاجيّ [ت ٤٦٦هـ] أنّ ((الكلام يتعلّق بالمعاني ، والفوائد بالمواضعة لا لشيءٍ من أحواله ، وهو قبل المواضعة ، إذ لا اختصاص له ، ولهذا جاز في الاسم الواحد أنْ تختلف مسمياته لاختلاف اللغات. وهو بعد وقوع التواضع يحتاج إلى قصد المتكلّم له ، واستعماله فيما قرّرته المواضعة ، لا يلزم على هذا أنْ تكون المواضعة لاتأثير لها ؛ لأنّ فائدة المواضعة تمييز الصيغة التي متى أردنا مثلاً أنْ نأمر قصدناها ، وفائدة القصد أنْ تتعلق تلك العبارة بالمأمور ، وتؤثر في كونها أمراً له))[11] فالمتكلّم يعي ما يتكلّم به ، فهو ((قبل كلّ شيء يعني القصد إلى الفائدة بعد العلم بسنن المواضعة ، بل هو في كلّ لحظة من لحظات استعمال اللغة قصد لفائدة معيّنة طبقاً لسنن المواضعة العامّة في جهاز تلك اللغة مع تكريس مظهر من مظاهرها العمليّة في الممارسة ، ويمكن أنْ يؤول هذا الاستنباط إلى عدّ قانون القصد يتمثّل في القصد لا إلى مبدأ المواضعة بعدّها فكرة مجرّدة لصيقة بالظاهرة اللغويّة العامّة ، وإنّما هو قصد ناموس معيّن من نواميس المواضعات اللغويّة بما يخرجه على سنن لغة معيّنة من اللغات))[12] . يتبيّن من هذا الكلام أنّ اللغويين قد اشترطوا للتعبير عن المقصود معرفة المتكلّم بقواعد اللغة ، والمعاني التي تواضع عليها أهل اللغة للألفاظ ، زيادة على معرفة الصيغة المناسبة للمعنى المطلوب .

القصد عند البلاغيين: إنّ الباحث في كتب البلاغة لا يجد تعريفاً محدّداً للقصد على الرغم من عناية البلاغيين به بشكل كبير ، وواضح ، إذ القصد من أهمّ مبادئ البلاغة الأساسيّة ، التي رسمت بها البلاغة قواعد تحليل الخطاب ، ومعايير إنتاجه ، إذ إنّ البلاغة العربيّة نظرت إلى تحقيق التواصل ، من خلال أطراف النصّ الثلاثة ، وهم : المبدع ، أوالمتكلّم ، والمتلقي

---

(1) **ينظر : كتاب العين : ٥ / ٥٤ ، وتاج اللغة وصحاح العربية : ١ / ٣٢١ ، ومعجم مقاييس اللغة : ٢ / ٤٠٤ ، وأساس البلاغة : ٥١١ – ٥١٢ ، ولسان العرب : ٣٢٣٢ – ٣٢٣٥ ، والقاموس المحيط : ٢٩٤ – ٢٩٥ (قصد).**

(2) **سورة لقمان : ١٩.**

(3) **سورة التوبة : ٤٢ .**

(4) **مفردات ألفاظ القرآن : ٦٧٢ (قصد).**

(5) **ينظر : التعريفات .**

(6) **الكليّات : ١٣١ .**

(7) **مفردات ألفاظ القرآن : ٦٧٢ .**

(8) **سورة فاطر : ٣٢ .**

(9) **المعجم الفلسفيّ : ٢ / ١٩٣ .**

(10) **ينظر : مقدمة ابن خلدون : ٦٢٤ . وينظر : القصديّة في القرآن الكريم : ٧ .**

(11) **سرّ الفصاحة : ٦٦ – ٦٧ . وينظر : استراتيجيات الخطاب : ١٨٣ .**

(12) **التفكير اللسانيّ في الحضارة العربيّة : ١٤٥ . وينظر : القصديّة في القرآن الكريم : ٧ .**

،و النصّ المنتج . فالنصّ يحقّق شروط العمليّة التواصليّة من تطابق القصد مع الألفاظ المختارة لأداء المعنى التواصليّ (١). والبلاغة هي التعبير عن المعنى بعبارةٍ تُسهّل فهم الغرض المقصود بها ، ولذا ينقل الجاحظ قول بعضهم في البلاغة ، إذ هي : ((جِماع البلاغة إلتماس حسن الموقع ، والمعرفة بساعات القول ، وقلّة الخَرَق بما إلتبس من المعاني أو غمض ...))(٢) . فقوله (بما التبس من المعاني أو غمض) ، يعني : التبس في أدائه للقصد ، أو غموض القصد منه . ورأى الراغب أنّ ((لبلاغة تُقال على وجهين : أحدهما أنْ يكون بذاته بليغاً ، وذلك بأنْ يجمع ثلاثة أوصاف : صواباً في موضوع لغته ، وطبقاً للمعنى المقصود به ، وصدقاً في نفسه ... والثاني : أنْ يكون بليغاً باعتبار القائل ، والمقول له ، وهو أنْ يقصد القائل أمراً ، فيورده على وجه حقيق أنْ يقبله المقول له))(٣) . ويُعرّف الطيبيّ الفصاحة ، بقوله : ((صفة راسخة يقتدر بها المتكلّم على التعبير عن المعنى المقصود بلفظٍ بيّن في حالتي الإفراد ، والتركيب))(٤) .

القصد عند المفسّرين : إنّ الجهد التفسيريّ الذي قام به المفسّرون هو – في حقيقته – بيان للمقاصد الإلهيّة المتضمنة في النصّ القرآنيّ الكريم ، وكان عملهم يقوم على مرتكزين : ((الأول : القصد الإلهيّ ، وبلوغه ، وهو هدف عملهم . والثاني : الوسيلة الكامنة في النصّ لتحقيق ذلك الهدف))(٥) . فالتفسير ((علم يبحث فيه عن كيفيّة النطق بألفاظ القرآن ، ومدلولاتها ، وأحكامها الإفراديّة والتركيبيّة ، ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب ، وتتمات ذلك))(٦) ، أو هو ((توضيح معنى الآية ، وشأنها ، وقصتها ، والسبب الذي نزلتْ فيه ، بلفظ يدل عليه دلالة ظاهرة))(٧) ، أو هو ((إيضاح مراد الله تعالى من كتابه العزيز))(٨) . فقد اتفقتْ التعريفات على أنّ المراد من التفسير هو بيان قصد القرآن ، وإيضاح دلالته ، وشرح معناه ، إذ إنّه كلام له دلالة ، ومعنى ، ولمنشئه هدف فيه ، وقصد (٩). ((إنّ الآيات القرآنيّة ، وكلّ التعبيرات الموجهّة من قِبل مخاطِب لمخاطَب ، تأتي لفائدة يصدر عنها فعل ، أو ردّ فعل ، وليستْ تذكرة بأمر معلوم ، وخطاباً في غير فائدة))(١٠) . ولم يكتفِ المفسّرون بهذا الهدف ، وهو الوصول إلى القصد الإلهيّ ، بل كان لهم اعتناء باللفظ القرآنيّ ، والتنظير لتراكم المعاني في اللفظ الواحد ، وتحقّقهابه جميعاً ؛ وذلك لكونه مقتصداً في اللفظ الدالّ عليها، ومكتنزاً لدلالات متعدّدة . وهذا الاقتصاد في اللفظ من الله تعالى ، جاء مراعياً للاستعمال العربيّ ، وعلى سنن كلامهم من الحذف ، والقصد إلى المعنى بالإشارة الموحى بها (١١). وإذا كان الدارسون - في بحثهم عن مواضع الإعجاز القرآنيّ –لم يقدّموا تعريفاً لهذا المعيار ، ولم يحدّدوا جوانبه ، وخصائصه ،فـ((إنّ الذي بقي واضحاً أنّ عمل الباحثين في الإعجاز إنّما هو قائم على تقديم تفسير أرحب لجوانب النصّ القرآنيّ، وهو عمل يعتمد على كشف / شرح وتفسير لمقاصد الحكم في كتابه ، وبالتالي (١٢) فإنّ عملهم إنّما ركز على توضيح قصد المولى تعالى))(١٣) .

القصد عند النحويين : أشار النحويون بشكل واضح إلى القصد من الكلام على الرغم من عدم استقراره مصطلحاً عندهم . فالنحو العربيّ بُني على القصد ، فهو الأساس في التفريق بين الجمل النحويّة ، ولعلّ من أمثلة ذلك ، ما جاء في أحكامهم للمنادى ، قال سيبويه : ((وذلك أنّه إذا قال : يا رجلُ ، ويا فاسق ، فمعناه كمعنى : يا أيّها الفاسق ، ويا أيّها الرجل ، وصار معرفةً ؛ لأنّك أشرتَ إليه ، وقصدتَ قصده))(١٤) . وقد اشترط النحاة عدّ القصد في تسميّة الكلام كلاماً ، فالكلام : هو القول المفيد بالقصد ، أي : ما دلّ على معنًى يحسن السكوت عليه . وأشار ابن مالك إلى مفهوم القصد من خلال مفهوم الإفادة من الكلام ، فقال : كلامنا لفظ مفيد ، كاستقم . ويشرح معنى هذا الشطر من البيت ، بقوله : ((الكلام ما تضمّن من الكلم إسناداً مفيداً مقصوداً لذاته))(١٥) . وجعل الرضيّ للقصد أثراً مهماً في تحديد جنس الكلام ، فالفرق بين الجملة ، والكلام – كما الرضي – هو القصد ، إذ إنّ ((الجملة ما تضمّن الإسناد الأصليّ سواءٌ أكانتْ مقصودة لذاتها أم لا ، كالجملة التي هي خبر المبتدأ ، وسائر ما ذكر من الجمل ، فيخرج المصدر ، وأسماء الفاعل ، والمفعول ، والصفة المشبّهة ، والظرف مع ما أسندتْ إليه . والكلام ما تضمّن الإسناد الأصليّ ، وكان مقصوداً لذاته ، فكلّ كلام جملة ، ولا ينعكس))(١٦) . وقد استعمل النحويون تراكيب تلحظ القصد في الفعل ، فمثلاً استعمال تركيب (ما كان ليفعل) لنفي قصد الفعل ، والأصل فيه عندهم ((ما كان قاصداً للفعل ، ونفي القصد أبلغ من نفيه))(١٧) ، أي من نفي الفعل نفسه ، ومنه قوله تعالى : ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ**

(١) ينظر : القصديّة في القرآن الكريم : ١٢ .
(٢) البيان والتبيين : ١ / ٨٨ .
(٣) مفردات ألفاظ القرآن : ١٤٥ (بلغ).
(٤) التبيان في المعاني والبديع والبيان : ٤٦٨ . وينظر : الإيضاح في علوم البلاغة : ١٦ .
(٥) القصديّة في القرآن الكريم : ١٨ .
(٦) البحر المحيط : ١ / ٢٦ .
(٧) التعريفات : ٥٠ .
(٨) البيان في تفسير القرآن : ٤٢١ .
(٩) ينظر : موجز علوم القرآن : ١٩ .
(١٠) التلقي والتأويل : ٣٥ – ٣٦ .
(١١) ينظر : إعجاز القرآن والبلاغة النبويّة : ١٩٥ ، وينظر : القصدية في القرآن الكريم : ١٩ .
(١٢) كذا ، والصحيح : ومن ثّم .
(١٣) الدرس النحويّ النصّيّ في كتب إعجاز القرآن الكريم : ١٥٧ .
(١٤) الكتاب : ٢ / ١٩٧ ، وينظر : القصديّة في القرآن الكريم : ١١ .
(١٥) شرح التسهيل : ١/ ١٣. وينظر : القصديّة في القرآن الكريم : ٩ .
(١٦) شرح الكافية : ١ / ٣٣ .
(١٧) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب : ١ / ٢٧٩ ، وينظر : حاشية الصبان على شرح الأشمونيّ : ٣ / ٢٩٣ ، همع الهوامع : ٢ / ٧ – ٨ ، والقصديّة في القرآن الكريم : ١٠ .

إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾[1] ، ((فاللام جعلتْ بمنزلة ما لا يكون أصلاً))[2] ، أي لنفي أن يكون الله – تبارك وتعالى –قاصداً تضييع إيمانكم ، وذلك طمأنة لنفوسهم ، وتثبيتاً لهم .

القصد عند الأدباء والنقّاد : يُعدّ القصد أحد مقوّمات الشعر عند الأدباء ، والنقاد ، فالشعر كلام موزون مقفّى إذا قصد فاعله ذلك [3] . ونقل ابن منظور أنّ الشعر سُمّي قصيداً ؛ ((لأنه قصد واعتمد ، وإنْ كان ما قصر منه ، واضطرب بناؤه نحو الرمل ، والرجز شعراً مراداً مقصوداً ، وذلك أنّ ما تمّ من الشعر ، وتوفّر آثر عندهم ، وأشدّ تقدّماً في أنفسهم ممّا قصر ، وأختلّ ، فسمّوا ما طال ، ووفر قصيداً ، أي مراداً مقصوداً ... وقيل : سُمّي الشعر التامّ قصيداً ؛ لأنّ قائله جعله من باله ، فقصد له قصداً ، ولم يحسيه حَسْياً على ما خطر بباله ، وجرى على لسانه ، بل روّى فيه خاطره ، واجتهد في تجويده ، ولم يقتضبه اقتضاباً ، فهو فعيل من القصد ، وهو الأمّ))[4] . ويرى الباقلانيّ أنّ الشاعر ((اجتهد في اختيار اللفظ ؛ ليكون معبّراً عن القصد ، والغرض ، أو الموضوع المراد إيصاله إلى المتلقي . وإنّما تعدّ شعراً ما إذا قصده صاحبه ، وتأتى له ، ولم يمتنع عليه))[5] .

القصد عند الأصوليين : تقوم أغلب الأحكام الفقهيّة على القصد ، مثل التفريق بين القتل العمد ، والقتل الخطأ . وكذلك الأمر في العبادات ، فإنّها تابعة لتحقق القصد في إيقاعها . والدلالة التصوّريّة ، والتصديقيّة لها علاقة بالقصد ، فالدلالة التصوّريّة لا تنظر إلىقصد المتكلّم في إخطار معنى الجملة لدى السامع ، فإنّ الجملة التي ينطقها المتكلّم ، تدلّ على معناها ، سواءً تحققّقصد المتكلّم في ذلك أم لم يتحقق [6]. أمّا الدلالة التصديقيّة ، فتحصل من ((تعهّد المتكلّم بأنْ يقصد المعنى حين يأتي باللفظ))[7] . واهتمّ الأصوليّون بالاستعمال ، إذ عرّف بعضهم الفقه بأنّه((المعرفة بقصد المتكلّم))[8] . وعرّف الكفويّ الخطاب ، بقوله : ((اللفظ المتواضع عليه المقصود به إفهام من هو متهيئ لفهمه))[9] .ويرى الأصوليّون صعوبة الوصول إلى مراد المتكلّم ضمن نطاق النصّ الإلهيّ انطلاقاً من خصوصيّة جهة صدوره ، إذ يحول حائل دون السماع منه مباشرة ، ولم يعد يتوفّر سوى خطابه المكتوب ؛ ولذا حاول بعضهم – على اعتقادهم هذا – أنْ يستجلي الفرق بين الخطاب الإلهيّ ، والخطاب البشريّ ،بقوله : ((علم التفسير علم عسير يسير ، أمّا عسره فظاهر من وجوه ، أظهرها أنّه كلام متكلّم لم يصل الناس إلى مراده بالسماع منه ، ولا إمكان للوصول إليه ، بخلاف الأمثال ، والأشعار ، فإنّ الإنسان يمكن علمه بمراد المتكلّم بأنْ يسمع منه ، أو يسمع ممّن سمع منه ، أمّا القرآن ، فتفسيره على وجه القطع لا يعلم إلاّ بأنْ يسمع من الرسول A ، وذلك متعذّر إلاّ في آيات قلائل . فالعلم بالمراد يستنبط بإمارات ، ودلائل ، والحكمة فيه أنّ الله تعالى أراد أنْ يتفكر عباده في كتابه ، فلم يأمر نبيّه بالتنصيص على المراد ، وإنّما هو A صوّب رأي جماعة من المفسّرين ، فصار ذلك دليلاً قاطعاً على جواز التفسير من غير سماع من الله ورسوله)) [10] .

القصد في الدراسات النصّيّة الحديثة :

القصد هو أحد المعايير السبعة التي وضعها روبرت دي بوجراند للنصّ ، ورأى أنّه ((يتضمّن موقف منشئ النصّ من كون صورة ما من صور اللغة قصد بها أنْ تكون نصّاً يتمتّع بالسبك ، والالتحام ، وأنّ مثل هذا النصّ وسيلة من وسائل متابعة خطة معيّنة للوصول إلى غاية بعينها . وهناك مدًى للتغاضي في مجال القصد ، حيث يظلّ القصد قائماً من الناحية العمليّة حتى مع عدم وجود المعايير الكاملة للسبك ، والالتحام ، ومع عدم تأدية التخطيط إلى الغاية المرجوّة . وهذا التغاضي عامل من عوامل ضبط النظام ، يتوسّط بين المرتكزات اللغويّة في جملتها ، والمطالب السائدة للموقف))[11] . إنّ القصد لبّ العمليّة التواصليّة ؛ لأنه لا وجود لأيّ تواصل عن طريق العلامات من دون وجود قصديّة وراء فعل التواصل ، ومن دون إبداع ، أو في الأقلّ من دون توليف للعلامات . وغاية قصد المرسِل هي إفهام المرسَل إليه . ويشترط ليُعبّر المرسِل عن القصد الذي يوصل إليه أنْ يمتلك اللغة في مستوياتها المعروفة ، ومنها المستوى الدلاليّ ، من خلال معرفته العلاقة بين الدوال ، والمدلولات . وكذلك معرفته بقواعد تركيبها ، وسياقات استعمالاتها ، وعلى الإجمال معرفته بالمواضعات التي تُنظّم إنتاج الخطاب بها [12] . وهذه العلاقة بين الدالّ ، والمدلول ، والمعرفة بقواعد اللغة ، يجب أنْ تكون ممكنةً للمتلقي على الذي قصده المتكلّم ، ((إذ إنّه خلاف ذلك قد يغيب أساس ضمان عمليّة الفهم عن المخاطب في عمليّة التواصل . ولذلك يجب أنْ يفترض أنّ التعلّق ملكن قصده من المتكلّم بالسياق اللغويّ محدّد قاعديّاً ، وأنّ المتكلّم ، والمخاطب يتمكنان من القواعد بقدرٍ مناسب))[13] . إنّ قصديّة النصّ لا تتمثّل فقط في الدلالة الكامنة فيه ، وإنّما تتمثّل – كذلك- في نيّة منتج النصّ في أنْ يوصل تلك الدلالة إلى المتلقي[14] ، فهي ما يريده منشئ النصّ من خلال تعبيره ، فما تعنيه هو : التعبير عن هدف النص

---

(1) سورة البقرة : ١٤٣ .
(2) البرهان في علوم القرآن : ٣ / ٥٨ . وينظر : القصديّة : ١١ .
(3) العمدة : ١١٦ .
(4) لسان العرب : ٣ / ٣٢٣٣ .
(5) إعجاز القرآن : ١٢٧ .
(6) ينظر : البحث النحويّ عند الأصوليّين : ١١ ، وينظر : القصديّة : ٢١ .
(7) بحوث في علم الأصول ، مباحث الدليل اللفظيّ : ١ / ١٠٦ ، وينظر : القصديّة : ٢١ .
(8) علم التخاطب الإسلاميّ ، دراسة لسانيّة لمناهج علماء الأصول في فهم النصّ : ٧٧ ، وينظر : القصديّة : ٢٢ .
(9) الكليّات : ٣٤٩ ، وينظر : القصديّة : ٢٣ .
(10) البرهان في علوم القرآن : ١ /٢٩ ، وينظر : القصديّة : ٢٤ .
(11) النصّ والخطاب والإجراء : ١٠٣ – ١٠٤ ، وينظر : المصطلحات الأساسيّة : ١٢٨ .
(12) استراتيجيات الخطاب : ١٨٣ .
(13) بعض مفاهيم أساسيّة لنظريّة لغويّة للنصّ ، ضمن كتاب : إسهامات أساسيّة في العلاقة بين النصّ والنحو والدلالة : ٢٧ .
(14) ينظر : نحو النّص بين الأصالة والحداثة : ٨٩ .
(15) ينظر : علم لغة النصّ ، المفاهيم والاتّجاهات : ١٦٦ .

ويستمدّ القصد شرعيّة وجوده في الدراسات اللغويّة من أنّ ((كلّ فعلٍ كلاميّ يفترض وجود نيّة للتوصيل ، والإبلاغ ، إذ لا يتكلّم المتكلّم مع غيره إلاّ إذا كان لكلامه قصد)) [١] . ومعنى هذا أنّ للقصد ((تأثيراً في بنية النصّ وأسلوبه ، ذلك أنّ الكاتب يبني نصّه بناءً معيّناً ، ويختار لذلك الوسائل اللغويّة الملائمة بما من شأنه أنْ يضمن تحقيق قصده ... إنّ تجسيد القصد ، أو النيّة يقتضي وضع خطة معيّنة تجعل النصّ يتّسم بالترابط ، والاتساق ، ويسير في اتجاه غاية محدّدة))[٢] . وعمليّة الإبداع تتمّ في إطار تفاعليّ مصحوبة بالقصد ، يحاول منتج النصّ من خلاله أنْ يجعل من الآخرين / المتلقين عوناً له ، فالمتلقي موجود في وعي المرسِل ، إذ إنّهما مرتبطان دلاليّاً في النصّ ، ((وهكذا نرصد دائماً حركة جدليّة بين الطرفين : المبدع ، والمتلقي ، تلك الحركة هي التي تُفسر لنا التداخل التقديريّ للمتلقي بشكلٍ مستمر ... فوجود المتلقي المستمرّ في ذهن المبدع – سواء أثناء [٣] وضعه لهدف معيّن في نصّه ، وهو التأثير في هذا المتلقي ، أو في تخطيطه الذي يضعه حتى يصل إلى هذا الهدف ... _ يؤكد أنّ القارئ مشارك في عمليّة الإبداع))[٤] . فالقصديّة من المرسِل ، والمقبوليّة من المتلقي عمليّتان تكامليّتان ، والقارئ المشارك في عمليّة إبداع النصّ ((هو القارئ المثاليّ : واسع الاطّلاع بالمعرفة الأدبيّة التأريخيّة ، والمسلّح بالقدرة على تسجيل كلّ انطباع جماليّ تسجيلاً واعياً ، ثمّ إحالته مرةً ثانيةً إلى بنية فعالة للنصّ))[٥] . ولعلّ المعرفة الأدبيّة ، والمقدرة النقديّة عند المتلقي تكون أوسع نطاقاً من قدرات المبدع ، وموهبته الأدبيّة ، فيرى من الثغرات في نص المبدع ما لا يراهاالمبدع نفسه ، وسأذكر مثالاً على ذلك في مبحث المقبوليّة . أو لعلّ المنتج أراد معنًى معيّناً ، فيأتي المتلقي ، فيخرج معنًى لم يكن في حسبان المنتج ، بل يفضل معناه ، وهو ما يثير إعجاب المنتج ، زيادة على أنّه لم يكن قاصداً لذلك المعنى ، وفي الحادثة المروية عن أبي نؤاس خير دليل ، فقد روي أنّه ((مرّ على أديب يُفيد الناس بشعره ، فلمّا افتتح قوله :

أَ لا فَاسْقِنِي خَمْرَاً وَقُـلْ لِـي هِـيَ الْخَمْرُ   وَلا تَسْقِنِي سِرَّاً إذا أَمْـكَـنَ الْجَـهْـرُ

وقف ، وقال : أنظر ما عساه يقول . فقال ، أشار الشاعر بقوله : (وقل لي هي الخمر) إلى حظّ حسّ السمع ليحظى بتمام حسّه . فتعجّب منه ، وقال : ما هجس المعنى في خَلَدي))[٦] .

القصديّة ونظرية أفعال الكلام :

ترتبط القصديّة ارتباطاً وثيقاً بنظريّة الفعل الكلاميّ ، أو الإنجازيّة ، فالمتكلّم ينتج بعض التراكيب اللغويّة ، ويُطالب المخاطب بإنجاز الحدث المعنويّ المقصود من تلك التراكيب ، فـ ((الاستعمال اللغويّ ليس إبراز منطوق لغويّ فقط ، بل إنجاز حدث اجتماعيّ في آن . فهناك أحداث كثيرة ننجزها من خلال نطق جملةٍ ، أو نصّ ما))[٧] . فالحدث اللغويّ المنطوق المنطوق ، أو المكتوب محمّل بكمّ من المعلومات ، عند انتقالها إلى السامع / المتلقي ، تُتبع باستجابة من المتلقي ، أمّا أن يكون إنجازاً لغويّاً ، أو أن يكون في هيأة عمل منجز ،قد تضمّنه الكلام المنجز أولاً ، فنحن ((لا ننجز الأحداث الكلاميّة من أجل ذاتها ، بل ليتحقّق من خلالها ، أو بها شيء آخر))[٨] . فالمتكلّم / منتج الخطاب يؤدّي من خلال الكلام وظيفةً معيّنةً ، تفهم من خلال الظروف المحيطة بالكلام ، والأسلوب التعبيريّ المستعمل ، ((ومن ثمّ كان لنظرية أفعال الكلام تأثير قويّ في حقل دراسات الخطاب على اعتبار[٩] أنّ هذه النظريّة تركز على وظيفة الخطاب في سياق معيّن))[١٠]. وكان علماء الأصول ، وعلماء الكلام العرب –وعلماء البلاغة أيضاً – من أوائل الباحثين في هذه النظريّة ؛ وذلك لأنّ كثيراً منهم اشتغل بالقضاء ، زيادة على الفقه ، واستنباط الأحكام من القرآن الكريم ، والسنّة النبويّة الشريفة . وهذه الأعمال تتطلب جهداً كبيراً في البحث عن القصد ، وأنواع المعنى ، فأدّى ذلك بهم إلى دراسة الوضع ، والعرف ، دراسة دقيقة ، وبنظرٍ ثاقب . وقد أدركوا أنّ اللغة وسيلة للفعل ، زيادة على كونها وسيلة للإخبار ، والتقرير[١١]. ومن الأفكار المهمة في نظريّة الأفعال الكلاميّة ، التفريق بين الخبر ، والإنشاء ، وكان مقياس التفريق هو إمكانيّة الصدق ، والكذب ، فابن قتيبة – وكان من أوائل الذين ذكروا مقياس التكذيب ، والتصديق – يقسّم الكلام على ((أربعة : أمر ، وخبر ، واستخبار ، ورغبة ، ثلاثة لا يدخلها الصدق ، والكذب ، وهي الأمر ، والاستخبار ، والرغبة ، وواحد يدخله الصدق ، والكذب ، وهو الخبر))[١٢]. إنّ الوظيفة التي تتحقق من نصّ لغويّ ما ، هي ((المعنى الذي يتحصّل لنص ما في عملية تواصل ، أو بأنّه الغرض الذي يحقّقه نص ما في إطار موقف تواصليّ))[١٣]، فالأفعال اللغويّة ليستْ قصديّة من المتكلّم فقط ، بل هي متواضع عليها من الجماعة اللغويّة ، فتكون بذلك أفعالاً عرفيّة أيضاً ، أي أنّ كلّ واحد من أبناء الجماعة اللغويّة قد تعلّموا تلك الأعراف اللغويّة ، وإنْ كان هناك تفاوتٌ في درجة كلّ واحد منهم ، فيمكن ((للمتلقي أن يهتدي بناءً على تلك القواعد ، والشروط السارية عرفيّاً مع منطوق ، أو نص ما إلى طريقة الفهم التي يطمح إليها الباثّ ، أي يعرف ماذا ينبغي أن يعدّ المنطوق (أيعدّ خبراً أم سؤالاً أم أمراً ...) . التركيز يقع هنا على (ينبغي أن يعدّ ... أنّ المخاطب قد عرف (القصد الحقيقيّ) للمتكلّم))[١٤] . إنّ اختلاف المنهج الذي

---

(١) مدخل إلى علم النصّ ، ومجالات تطبيقه : ٩٦ .

(٢) مدخل إلى علم النصّ ، ومجالات تطبيقه : ٩٧ .

(٣) كذا ، والصحيح : في أثناء .

(٤) نظرية علم النصّ ، رؤية منهجيّة في بناء النصّ النثريّ : ٥٢ .

(٥) قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجانيّ : ٢٢٨ .

(٦) التبيان في المعاني والبديع والبيان : ٣١١ . وينظر : البلاغة وتحليل الخطاب : ١٨٥ – ١٨٦ ، إذ روى الحادثة بطريقة مشابهة .

(٧) نظريّة علم النص ، رؤية منهجيّة في بناء النصّ النثريّ : ٤٨ .

(٨) المصدر نفسه : ٤٨ .

(٩) كذا ، والصحيح : بعدّ هذه ... .

(١٠) علم لغة النص ، النظريّة والتطبيق : ٢٩ .

(١١) ينظر : نظرية الفعل الكلاميّ بين علم اللغة الحديث ، والمباحث اللغويّة في التراث العربيّ الإسلاميّ : ٢٢٥ – ٢٢٦ .

(١٢) أدب الكاتب : ١٧ .

(١٣) التحليل اللغويّ للنص ، مدخل إلى المفاهيم الأساسيّة والمناهج : ١٢١ .

(١٤) التحليل اللغوي للنص : ١٢٥ .

اتبعه علماء الأصول ، والمتكلّمون قد جعل نتائج بحثهم تختلف بحسب اهتمام كلّ طائفة بما تطلب من النصّ ، فالنص ((أساس مرجعيّ ، والفهم ، والإفهام وسيلة معرفيّة سُمّيتْ بالبيان عند كافة [1] علماء المعرفة الإسلاميّة ، غير أنّ ما أضافه علماء أصول الفقه هو اهتمامهم بإعمال النصّ ، وربطه بأعمال المكلفين ، واستثماره في واقعهم ، وهذا ما جعل اشتغالهم على النصّ يتخذ بعداً متميّزاً ، وإضافات مرموقة فيما يخصّ الجانب المنهجيّ ، والتأصيليّ للأساليب اللغويّة ، والبلاغيّة في فهم النصوص ، واستثمارها . في حين اتخذ الأصوليون المتكلمون اتجاهاً آخر بالخوض في العمق الميتافيزيقي ، والعقديّ للغة ، وللأساليب البلاغيّة ، والوقوف على أبعادها الفلسفيّة ، والمنطقيّة))[2] . وقد قسّم المحدثون الأفعال الكلاميّة على : أفعال مباشرة ، وأفعال غير مباشرة . فالأفعال المباشرة : هي التي تُعبّر صراحةً عن الغرض من الكلام ، سواء أكان إخباراً أم طلباً ، وتدلّ على هذه الأفعال صيغ اللغة ، وأساليبها ، والقوة الانجازيّة متضمّنة في صيغ الجمل نفسها . أمّا الأفعال غير المباشرة ، فهي الأفعال الكلاميّة التي تتكئ على الأفعال الكلاميّة المباشرة ، فيتولّد من استعمال الأساليب ، والصيغ المباشرة دلالات على غيرها ، والقوة الإنجازيّة فيها مستلزمة من السياق الذي جاءت فيه . فالأفعال الكلاميّة المباشرة تمثّل المقاصد الظاهرة ، إذ هي تدلّ دلالة صريحة على المعاني المتضمّنة في الصيغ ، والأساليب اللغويّة المستعملة بشكل مباشر ، أمّا الأفعال اللغويّة غير المباشرة ، فتمثّل المقاصد الخفيّة ، وتدلّ على معنى آخر غير الظاهر من الفعل الكلاميّ ، وهذا المعنى يدلّ عليه السياق . ولعلّ ممّا يُمكن أنْ يضاف إلى ذلك أنّ بعض الأفعال الإنجازيّة التي طلبها الله - تبارك وتعالى – من طائفة من الناس ، وهم الكفار ، لم يكن الطلب فيها للقيام بالفعل المترتب على الطلب ، وإنّما كان الغاية منه إظهار العجز البشريّ عن القيام به ، وأصدق مثال على ذلك يتجلّى في التحدي للمشركين على الإتيان بمثل القرآن الكريم ، فمعلوم أنّ هذا الطلب جاء لإفحامهم بسبب الدعاوى التي أثاروها حول صدق الرسالة ، ونسبة الكلام إلى الله تعالى ، فجاء هذا التحدي على الإتيان بمثله تقريعاً لهم ، وتبكيتاً ، قال تعالى : **﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾**[3]، فهذا التحدي يبيّن أنّ النصّ الكريم قد قصد كلّ كلمة ، وكلّ تركيب ، ، ونفى عنه التناقض ، والاختلاف ، قال تعالى : **﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾**[4]. ولعلّ في عدم استجابتهم للتحدي ، وعدم محاولتهم التأليف على شاكلة القرآن ، أو محاولة نظم كلام يقارب نظمه اعترافاً ضمنيّا بمقبوليّة النصّ – من ناحية جودة النظم وحسن السبك – فقد أظهروا إعجابهم ، وانبهارهم بالنظم القرآنيّ منذ بدء نزوله . والتحديّ –أيضاً – يُبرز الإعلاميّة التي ينطوي عليها النصّ ، إذ من غير المعقول أنْ يتحدّاهم إلى شيء معروف لديهم نظمه ، أو معناه ، ولا في شيء لديهم ما هو أفضل منه . فقصديّة أيّ نص لا تكون فاعلة إذا لم يكن هناك متلق يُقبل على هذه القصديّة ، فيتفاعل معها إمّا بقبول ، فيرى مصداقيّة القصد ، وجودة المعنى ، وصحة الفكر الذيفيه ، وإمّا بالردّ ، فيظهر ما فيها من خلل ، أو عيب ، أو نقص .

آيات الأحكام التشريعيّة وأفعال الكلام :

إنّ الآيات القرآنيّة الكريمة التي جاءت لغرض التشريع ، سواء منها ما يختصّ بالعبادات ، أو ما يختصّ بالمعاملات ، فإنّ الغرض منها هو طلب الفعل الإنجازيّ المتضمّن فيها ، فالمسلم الذي يطرق سمعه الكلام الإلهيّ الذي يقرأه ، أو يسمعه من غيره من المسلمين مطالبٌ بأداء الفعل العباديّ ، أو العمليّ الذي ينطوي عليه المنطوق اللغويّ منذ سماعه لذلك النص المطالِب بالفعل الإجازيّ . وإذا كانت الأفعال الكلاميّة في العهد المكيّ تتعلّق بالجانب العقائديّ الصرف ، وهي الإيمان بالله تعالى أولاً ، وبصدق الرسالة المحمديّة ثانياً ، والإيمان باليوم الآخر ، والحساب ، وغيرها ، وهي أكثر ما يدور حوله مضمون السور المكيّة . أمّا في العهد المدنيّ ، فهو العهد الذي أصبحت فيه الكلمة للإسلام ، إذ أصبح معظم أهل المدينة المنوّرة يدين بالإسلام ، وليس هناك ما يخشون منه كي لا يظهروا أعمالهم العباديّة ، التي يأمرهم الله تعالى بها ؛ ولذا يلحظ كثرة الآيات التي تتناول الأحكام الشرعيّة ، من صيام ، وزكاة ، وحجّ ، وغيرها ، هذا فيما يخصّ العبادات . والآيات التي تنظّم أمور الحياة الاجتماعيّة ، من أحكام المواريث ، والطلاق ، والدَّين ، وغيرها فيما يخصّ المعاملات . وهذه الأفعال الإنجازيّة يقسّمها أصحاب التفسير ، وعلوم القرآن على : المُصرَّح بها / المقاصد الظاهرة ، وما يؤخذ بطريق الاستنباط / المقاصد غير الظاهرة ، وفي ذلك قال الزركشيّ : ((آيات الأحكام خمسمئة آية ... ثم هو قسمان : أحدهما ما صُرّح به في الأحكام ، وهو كثير ، وسورة البقرة ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام مشتملة على كثير من ذلك ، والثاني : ما يؤخذ بطريق الاستنباط ، ثم هو على قسمين : أحدهما ما يستنبط من غير ضميمة إلى آية أخرى ... والثاني ما يستنبط مع ضميمة آية أخرى))[5]. ولعلّ ما يلفت النظر أنّ آية الوضوء ، وهي في سورة المائدة ، وسورة المائدة من أواخر السور النازلة على النبيّ ρ ، والصلاة قد فُرضت في السنة الخامسة من البعثة النبويّة بعد الإسراء ، والمعراج ، فكيف كان القيام بالوضوء ، وليس هناك قرآن نازل به ، ينقل السيوطيّ أنّ هذه الآية داخلة في (ما تأخر نزوله عن حكمه) ، فآية الوضوء ((مدنيّة إجماعاً ، وفرض الوضوء كان بمكة مع فرض الصلاة ... والحكمة في نزول آية الوضوء مع تقدّم العمل به ؛ ليكون فرضه متلوّاً بالتنزيل))[6].

القصديّة في السور المدنيّة :

إنّ البحث عن مظاهر القصديّة في السور المدنيّة يمكن أن نتلمسّها من خلال مستويات الدراسة اللغويّة للنصّ ، ولذا البحث عن تلك المظاهر يُلحظ عند تقسيمها على تلك المستويات ، وهي :

---

(1) **كذا ، والصحيح : علماء المعرفة الإسلاميّة كافّة .**
(2) **المنهجيّة الأصوليّة والبحث البلاغيّ : ٢١ – ٢٢ .**
(3) **سورة البقرة : ٢٣ .**
(4) **سورة النساء : ٨٢ .**
(5) **البرهان في علوم القرآن : ٢ / ٥ – ٦ .**
(6) **الإتقان في علوم القرآن : ١ / ٧٥ .**

القصد في مستوى الصوت : إنّ التناسق الصوتيّ في النص القرآنيّ يدلّ على أنّ اختيار الألفاظ ، ونظمها في الآيات كان مقصوداً منه التأثير الصوتيّ أولاً ، ثم يأتي البحث عن الإعجاز في بلاغته ، ومعانيه ، قال ابن قتيبة : ((... وجعله متلوّاً لا يُملّ على طول تلاوته ، ومسموعاً لا تمجّه الآذان ، وغضّاً لا يخلق على كثرة الردّ ، وعجيباً لا تنقضي عجائبه))(١). وحين نبحث عن مواضع القصد من خلال الصوت ، يمكن إيجادها في :

التنغيم : وذلك بأن يكون ظاهر الكلام لمعنًى ، ويكون المقصود معنًى آخر يخرج إليه ، من ذلك قوله تعالى : ﴿**هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا**﴾(٢). فظاهر الآية يوحي أنّ الكلام للاستفهام ، ولكنّ علماء اللغة ، والمعاني يرون أنّ معنى (هل) هنا هو الإخبار لا الاستفهام ، فهي بمعنى : قد (٣).

زيادة اللفظ : يرى معظم علماء اللغة ، والنحو أنّ بعض الألفاظ في النصّ القرآنيّ الكريم زائدة ، وأنّ زيادتها لغرض التوكيد ، من ذلك زيادة (ما) بين الجار ، والمجرور ، والناصب ، والمنصوب ، والجازم ، والمجزوم ، ومن أمثلة ذلك زيادتها في النصّ الكريم بين الجارّ والمجرور ، قوله تعالى : ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ...**﴾(٤). فقد رأى كثير من العلماء (٥) أنّ (ما) زائدة في قوله (فبما رحمةٍ). وقد أنكر ابن الأثير زيادتها ، ورأى أنّها ((وردت تفخيماً لأمر النعمة التي لان بها رسول الله ρ له ، وهي محض الفصاحة ، ولو عري الكلام منها لما كانت له تلك الفخامة ... ومَن ذهب إلى أنّ في القرآن لفظاً زائداً لا معنى له ، فإمّا أن يكون جاهلاً بهذا القول ، وإمّا أن يكون متسمحاً في دينه واعتقاده))(٦) .

اختلاف الصوت في الكلمات المترادفة : استعمل النصّ الكريم بعض المفردات المترادفة فيالمعنى ، وقد كانت متفقة البناء إلاّ في أحد أصواتها ، وكان اختيار ذلك الصوت مقصوداً لدلالة معيّنة ، من ذلك استعمال الاسمين الموصولين (اللاتي – اللائي) في النص المقدّس ، وقد كان استعمالهما يلقي بظلاله على المعنى الذي وردتا فيه ، فقد استعمل (اللائي) في سياق الآيات التي تتناول موضوع الظهار ، وانقطاع الحيض عند المرأة ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ **... وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ...**﴾ (٧)، وقوله تعالى : ﴿ **وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ...**﴾(٨). أمّا (اللاتي) ، فقد استعملت في سياقات عدّة ، ليس فيها حصول ظهار ، أو طلاق مُعلن ، ولعلّ أقرب الاستعمالات التي فيها مفارقة بين الأزواج هي في قوله تعالى : ﴿ **وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا** ﴾(٩). وليس فيها أيّ إشهار بالطلاق ، أو بالتحريم . وقد علّلت بعض الباحثات هذا الاستعمال القرآنيّ للمفردتين بسبب طريقة نطق صوت الهمزة ، الذي يحتاج إلى جهد ليتمّ النطق به ، ((فناسبت صعوبة النطق بالهمزة ثقل الطلاق ، والظهار ، وكأنّ الهمزة تصوّر المعاني النفسيّة ، والأحداث المؤلمة الناتجة من هذين الأمرين))(١٠). ولعلّ ممّا يمكن أنْ يزاد أنّ ثقل نطق الهمزة يحكي ثقل النطق بعبارة الظهار ، أو الطلاق ، كما أنّ طريقة الهمزة ، الذي يتحقق عند انفراج الوترين الصوتيين فجأة ، إيحاء بمعنى المفارقة الحاصل في سياقي الظهار ، والطلاق .

القصد في مستوى الصرف :

كان استعمال النصّ القرآنيّ للصيغ الصرفيّة للمفردات مناسباً للقصد المطلوب من بنية الكلمة ، الذي يُراد من خلاله التعبير عن المعنى ، فاستعمل كلّ صيغة في موضعها المناسب ؛ لأنّ ((استعمال صيغة معيّنة في التعبير القرآنيّ ، أو إيثار صيغة على أخرى ليس أمراً اعتباطيّاً ، وإنّما هو أمر مقصود قصداً))(١١) . فمن مظاهر هذا الاستعمال المقصود للمفردات على مستوى الصرف ، ما يأتي :

اختلاف بناء الفعل من حيث التجرّد والزيادة :ممّا اتفق عليه علماء اللغة ، والصرف أنّ أيّ زيادة في المبنى يُصاحبها زيادة في المعنى ، وكان هذا المبدأ مستنبطاً من النصوص البليغة ، وفي مقدّمتها النصّ القرآنيّ الكريم ، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى : ﴿ **لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ...**﴾(١٢). فالآية الكريمة استعملت صيغة الفعل (كسبت) للعمل الحسن ، واستعملت صيغة الفعل المزيد للعمل السيّئ ، قال الزمخشريّ –متسائلاً – : ((لِمَ خصّ الخير بالكسب ، والشرّ بالاكتساب ؟ قلتُ : في الاكتساب اعتمال ، فلمّا كان الشرّ ممّا تشتهيه النفس ، وهي منجذبة إليه ، وأمّارة به ، كانت في تحصيله أعمل ، وأجدّ ، فجعلت لذلك مكتسبة فيه ، ولمّا لم تكن في باب الخير وُصِفت بما لا دلالة فيه على الاعتمال))(١٣). ويخالف ابن أبي الأصبع الزمخشريَّ ، فيقول : ((فطر الله سبحانه وتعالى الناس فطرة الخير ، فالإنسان بتلك الفطرة السابغة في أصل الخلق ، لا يُحسن أنْ يُنسب إليه إلاّ كسب الحسنات ، وأمّا ما يعمله من السيّئات يعمله لمخالفته الفطرة ، فكأنّه تكلّف من ذلك ما ليس في جبلّته ، فوجبت زيادة التاء التي للافتعال))(١٤). ولعلّ الرأي الذي أتى به ابن أبي

---

(١) تأويل مشكل القرآن : ١١ .
(٢) سورة الإنسان : ١ .
(٣) ينظر : معاني القرآن ، الفرّاء : ٣ / ١٠٥ ، والإيضاح في شرح المفصّل ، ابن الحاجب : ٢ / ٢٣٥ ، ورصف المباني : ٤٧٠ ، والجنى الداني : ٣٤٤ .
(٤) سورة آل عمران : ١٥٩ .
(٥) ينظر : الكتاب : ٣ / ٧٦ ، ومعاني القرآن ، الأخفش : ١٤٩ ، والإيضاح في شرح المفصّل : ٢ / ٢٢١ ، والجنى الداني : ٣٣٢ ، ورصف المباني : ٣٨٣ .
(٦) المثل السائر : ١ / ٣٥٨ .
(٧) سورة الأحزاب : ٤ . ومثلها في سورة المجادلة : ٢ .
(٨) سورة الطلاق : ٤ .
(٩) سورة النساء : ١٥ . واستعملت (اللاتي) - في السور المدنيّة - في سورة النساء : ٢٣ ، ٣٤ ، ١٢٧ ؛ سورة النور: ٦٠ ؛ وسورة الأحزاب : ٥٠ .
(١٠) القصدية في القرآن الكريم : ٥٧ .
(١١) القصديّة في القرآن الكريم : ٦٩ .
(١٢) سورة البقرة : ٢٨٦ .
(١٣) تفسير الكشّاف : ١ / ٣٢٧ .
(١٤) البرهان في إعجاز القرآن أو بديع القرآن : ٣٩١ – ٣٩٢ .

الأصبع أقوم من رأي الزمخشريّ ، فالله – تبارك وتعالى – قد جَبَل النفس البشريّة على الخير / الفطرة ، فإنْ خالفتْ هذه الفطرة ، فالسبب أمّا التربية ، أو البيئة ، أو غيرها من الأسباب .

استعمال الفعل في صيغتي الإدغام ، وفكّ الإدغام : جوّز علماء النحو في الفعل المدغم آخره فكّ الإدغام ، أو إبقائه مدغماً ، وقد جاء كلامهم هذا مبنيّاً على ما جاء في النصّ الكريم ، والمستعمل من كلام العرب ، إذ إنّ فكّ الإدغام لهجة حجازيّة ، في حين أنّ الإدغام لهجة تميم [١]. وقد جاء النصّ الكريم مستعملاً اللهجتين ، من ذلك قوله تعالى : **﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾**[٢] ، وقوله تعالى : **﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾**[٣]. وناسب استعمال الفعل في حالتيه سياق الآيتين ، ففي الإدغام شدّة ، ومبالغة في المشاقة ، وهي المخالفة المقصودة .

استعمال المفردة في حالتي الإفراد والجمع : استعمل النص الكريم بعض المفردات في صيغتي الإفراد ، والجمع ، وقد ناسب كلّ استعمال الموضع الأخصّ به ، على الرغم من أنّ المثال الذي سيُعرض ، كان المتوقع فيه أنْ تكون المفردة في حالة الجمع ، فقصد إلىإفرادها ، فحقق بذلك أمرين ، أولاً : القصد إلى المعنى المطلوب من الآية ، وثانياً : الإعلاميّة التي حقّقها عندما كسر توقع المخاطب ، إذ إنّ السياق الذي جاءتْ فيه المفردة كان سياق الجمع إلاّ هذه المفردة ، وهي (الطفل) مفردة ، وذلك في قوله تعالى : **﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾**[٤] ، واستعملها جمعاً في قوله تعالى : **﴿وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾**[٥]. إنّ العرب تستعمل المفردة (طفل) للمذكر، والمؤنث ، وللمفرد ، والمثنى ، والجمع ، يقول ابن منظور : ((والعرب تقول : جارية طِفلة ،وطِفل ، وجاريتان طِفل ، وجوارٍ طِفل ، وغلام طِفل ، وغلمان طِفل . ويقال طفل ، وطفلة وطفلان ، وأطفال ، وطفلتان وطفلات في القياس))[٦]. واستعمال (الطفل) في الآية الأولى أنسب من استعمال صيغة الجمع(الأطفال) ، وذلك لأنه – في الآية – يقصد به الجنس ، ((فهو يشمل كلّ الأطفال ، تقول : الطفل لا يعي ، وتقصد به عموم الأطفال ... [و] كلمة (طفل) قد تصف بها العرب الواحد ، والمثنى ، والجمع ... فبهذا تكون [شاملة لهم] ... [و] أمّا الطفل [في الآية] ، فهو عام غير مختصّ بقرابة ، بل يشمل جميع الأطفال ، فناسب استعمال الجنس ؛ لأنه يراد به العموم ... [و] أنّ المذكورين في الآية أشخاص متعدّدو الإحساس ، والمواقف بالنسبة إلى الجنس ، والزينة ، فكلّ واحد له إحساس خاصّ به ، وأمّا الأطفال الذين لم يظهروا على عورات النساء ، فموقفهم واحد متجانس ، وهو عدم التمييز ، فكأنّهم شخص واحد لا تمايز بينهم ، فأفردهم ، وجعلهم كأنّهم شخص واحد ، فكان الإفراد ههنا أنسب))[٧]. أمّا في الآية الثانية ، فاستعمال صيغة الجمع ؛ لكون الآية ((مبنية على الجمع لا على الإفراد ، ولا على الجنس))[٨]. وترى إحدى الباحثات أنّ السبب في الإفراد في الآية الأولى هو أنّ السياق ((يتحدّث عن الذين يسمح للنساء إبداء زينتهنّ أمامهم ، وذكرهم بلفظ الجمع ، وأفرد معهم الأطفال ؛ ليميّزوا عنهم في إشارة إلى براءتهم ، وخصوصيّة هذه البراءة))[٩] ، أمّا في الآية الثانية ، ((فأورد صيغة الجمع للدلالة على أنّ الأطفال خرجوا من ذلك العهد الطفوليّ المشترك بينهم ، وتمايزوا في شخصياتهم ، وميولهم حتى أصبحوا جزءاً من الكبار ، بقرينة قوله (بلغوا الحلم) ، وقوله (منكم) ، أي جزءاً لا يتجزّأ من الكبار ، وهو إخراج لهم من عهد الطفولة ، فالجمع هو المناسب للمقام ، وليس الإفراد))[١٠].

إيثار الفعل المضعّف على المجرّد : يُستعمل الفعل المضعّف العين في اللغة العربيّة لدلالات عدة ، منها المبالغة ، والتكثير ، و غيرها ، وقد وظّف النصّ الكريم هذه الدلالات في السياقات التي قصد منها إيصال هذا المعنى في هذه الصيغة ، من ذلك قوله تعالى : **﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾**[١١] . فالآية الكريمة جاءتْ في سياق إظهار نعمة الله تعالى على المسلمين ؛ ولذا قصد عزّ وجلّ – أنْ ((يظهر نعمته على قريش ، فيؤثر فعل (يتخطّف) لا (يخطف) ، ففيه زيادة التاء ، والتشديد ، زيادة على اختيار فعل الخطف الذي يفيد قوة المعتدي ، وبطشه ، وبالمقابل يفيد سهولة خطف المعتدى عليه ؛ وذلك لتظهر جليّة رحمة الله ، وعنايته بهم))[١٢]. ولعلّ ممّا يمكن أنْ يزاد على ذلك أنّ الفعل أسند إلى(الناس) ، فكأنّ الناس جميعاً متفقون على التربص بهم ، وانتظار الفرصة المناسبة لخطفهم ، فلا يجدون فيهم من يكون عوناً لهم ، ومدافعاً عنهم .

القصدية على مستوى التركيب :

---

(١) ينظر : اللهجات العربيّة في التراث : ٢٩٦ – ٢٩٧ .
(٢) سورة النساء : ١١٥ .
(٣) سورة الحشر : ٤ .
(٤) سورة النور : ٣١ .
(٥) سورة النور : ٥٩ .
(٦) لسان العرب : ٣ / ٢٣٩٤ .
(٧) بلاغة الكلمة في التعبير القرآنيّ : ١٠٢ .
(٨) بلاغة الكلمة في التعبير القرآنيّ : ١٠١ .
(٩) القصدية في القرآن الكريم : ٧٦ .
(١٠) المصدر نفسه : ٧٧ .
(١١) سورة الأنفال : ٢٦ .
(١٢) جماليات المفردة القرآنيّة : ٢٥٣ .

يخضع تركيب الكلام في كلّ لغة لنظام قواعديّ ، وقانون يُحدّد الدلالة التي يريد المتكلّم إيصالها إلى المتلقي ، فيكون استعمال تركيب معيّن محقّقاً دلالةً لا يحقّقها تركيب آخر [1]. وتتناغم ((المفردات المعجميّة ، والبنى الصرفيّة ، وتركيب الجمل ، وقواعد النحو متضامنةً على تحديد الدلالات المرادة انطلاقاً من بناء تركيبيّ نحويّ أصل ، يمكن إخضاعه للتغيير ، والتصرّف فيه تصرفاً أفقياً ، وكلّ تصرّف من هذا النحو يطرأ على الجملة بإرادة منشئ هذه الجملة ، أو ذاك التركيب ، ينتج دلالة محدّدة ،لا تقع عليها في الأصل المتصرّف فيه ؛ وذلك لأنّ مكونات أية جملة ، أو تركيب نحويّ مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمعنًى محدّد))[2]. ومن مظاهر القصديّة – في السور المدنيّة – على مستوى التركيب ، ما يأتي :

التقديم والتأخير : أتاح ظهور الحركة الإعرابيّة على أواخر الكلمات ، في اللغة العربيّة ، حريّة لدى المتكلّم في تأخير ما حقّه التقديم من الكلام ، ولا يلتبس معرفة الموقع الإعرابيّ للكلمة . فالجملة في العربيّة أمّا اسميّة ، وتتكون من المسند إليه / المبتدأ ، والمسند / الخبر ، وأمّا تكون فعليّة ، وتتكون من المسند / الفعل ، والمسند إليه / الفاعل ، والتقديم والتأخير يكون في الجملة الاسميّة ، إنتعلّق بالركنين الرئيسين في الإسناد . أمّا في الجملة الفعليّة ، فتقديم المسند إليه ينقل الجملة من الفعليّة إلى الاسميّة . ويكون التقديم ، والتأخير فيها في موقعها بالنسبة لمتعلقات الجملة ، مثل (المفاعيل ، شبه الجملة) وغيرها . وللتقديم والتأخير دلالات يحدّدها سياق الكلام ، فقد يكون لغرض الاختصاص ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ **يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾[3] ، فقد قدّم الخبر(له) في موضعين على المبتدأ (الملك) ، و(الحمد) ، وكان ذلك لغرض تخصيص الله تعالى بهما . ومثله قوله تعالى : ﴿ **وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ** ﴾ [4] ، فتقديم شبه الجملة (إلى الله) على الجملة الفعليّة (تحشرون) ؛ لغرض الاختصاص [5] ، زيادة على أنّ في هذا التقديم مراعاة للفاصلة القرآنيّة .

الانتقال من الجملة الفعليّة إلى الاسميّة : يستعمل النصّ الكريم الجملة الفعليّة ، وينتقل بعدها إلى الجملة الاسميّة على الرغم من أنّ الكلام يدور حول موضوع واحد ، وسبب ذلك الدلالة التي تحقّقها كلّ جملة منهما ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ **مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** ﴾[6]. فالذي يُلحظ في كلام النبيّ A أنه استعمل الجمل الفعليّة (قلتُ – أمرتني – اعبدوا – كنتُ – توفّيتني –كنتَ) ؛ وسبب ذلك أنّ فيه تحديداً لمدّة زمنيّة ، وكذلك وصفه الله - تبارك وتعالى – في قوله (كنتَ أنت الرقيب عليهم) ، فهذه الجملة محدّدة بوقت وفاته / رفعه ، يدلّ على ذلك قوله (لمّا توفّيتني) ، فلمّا أراد أن يُظهر علم الله – جلّ شأنه – وإحاطته ، استعمل الجملة الاسميّة (أنت على كلّ شيءٍ شهيد) ، ودلالة الجملة الاسميّة هي الثبوت ، والدوام .

التعريف والتنكير : للتعريف والتنكير دلالات مختلفة في اللغة العربيّة يحدّدها السياق الذي يُستعمل فيه ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾[7] . فقد استعمل مفردة (الأرض) معرّفة ، في حين استعمل (خليفة) نكرة ؛ لكون الملائكة يعرفون المقصود بـ (الأرض) ، إذ ((إنّ خلقاً يقال لهم الجانّ كانوا في الأرض ، فأفسدوا فيها ، فبعث الله ملائكة أجلتهم من الأرض))[8]. في حين أنّ المخاطبين / الملائكة كانوا فارغي الذهن من معرفة الخليفة ، فكان التنكير مناسباً لحال المتلقين .

الإضافة وتركها : تُضاف المفردات في اللغة العربيّة إلى بعضها ، فتكون الإضافة للتعريف ، إذا كان المضاف إليه معرفة ، وتكون للتخصيص إذا كان نكرةً . وقد استعمل النصّ الكريم بعض المفردات مضافة مرّة ، ومقطوعة عن الإضافة في الأخرى ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ** ﴾[9] ، وقوله تعالى : ﴿ **مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ...** ﴾[10] . فقد قصد في الآية الأولى قطع المفردة (رسول) عن الإضافة ، إذ إنّ الآية نزلت في وصف حال المسلمين يوم معركة (أُحُد) ، وانهزامهم منها ، وسماعهم خبر قتل النبيّ ، الذي أشاعه بعض المشركين ، فكانت منبّهة لهم أنّ النبيّ ρ أحد الرسل ، وقد وقع الموت على مَن سبقه ،وليس معه استثناء في ذلك ، فـ ((قصرَ محمّداً على وصف الرسالة قصْر موصوف على الصفة ... فقد نُزّل المخاطبون منزلة مَن يجهل قصر الموصوف على هذه الصفة ، وينكره ، فلذلك خوطبوا بطريق النفي ، والاستثناء ، الذي كثر استعماله في خطاب مَن يجهل الحكم المقصور عليه))[11]. في حين أنّ آية الفتح جاءتْ في سياق مدح النبيّ ρ، فأضافه إلى اسم الجلالة تشريفاً له ، وتعظيماً لشأنه .

الخبر المتضمّن معنى الأمر : قسّم علماء اللغة ، والبلاغة الكلام على قسمين : خبر ، وإنشاء ، وانقسم الإنشاء إلى : طلبيّ ، وغير طلبيّ . وكان أساس تقسيمهم لذلك هو أنّ الخبر ما يحتمل الصدق ، والكذب ، والإنشاء ما كان خلاف ذلك . ولكنّ الذي يُلحظ على النصّ القرآنيّ استعماله صيغة الخبر ، والقصد منه الإنشاء ، من ذلك قوله تعالى : ﴿**وَالْوَالِدَاتُ**

---

(1) علم الدلالة التطبيقيّ في التراث العربيّ : ١٢٧ . وينظر : القصديّة في القرآن الكريم : ١٨٨ .
(2) علم الدلالة التطبيقيّ : ١٢٧ .
(3) سورة التغابن : ١ .
(4) سورة آل عمران : ١٥٨ .
(5) البرهان في علوم القرآن : ٣ / ١٥١ .
(6) سورة المائدة : ١١٧ .
(7) سورة البقرة : ٣٠ .
(8) مجمع البيان : ١ / ١٧٧ .
(9) سورة آل عمران : ١٤٤ .
(10) سورة الفتح : ٢٩ .
(11) تفسير التحرير والتنوير : ٣ / ٢٣٨ .

يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ...﴾[1]. فالذي يُلحظ أنّ الآية الكريمة جاءت بصيغة الجملة الخبريّة ، وليس في تركيبها دلالة الطلب ، غير أنّ المعنى المطلوب من الآية هو الطلب ، إذ المعنى : ليرضعنَ [2]. ولعلّ تعمُّد استعمال صيغة الطلب غير الصريح ، فيه إيحاء أنّ الوالدات – بالفطرة – يرضعنَ أولادهنّ ، فلا يحتجنَ إلى الأمر لفعل ذلك ، فالأمر المتضمّن في الآية لقصد بيان المدّة ، وليس لطلب الفعل ، الذي هو الإرضاع .

القصديّة على مستوى المعجم :

استعمل النصّ القرآنيّ الألفاظ في سياقها المناسب لها ، فقد يكون هناك ألفاظ مترادفة في المعنى ، ويستعمل اللفظ الأخص منها بالمعنى ، وقد يكون اللفظ من الأضداد ، فيستعمله ، ويكون صالحا لكلا المعنيين المتضادّين ، وقد يشترك في اللفظ أكثر من معنى ، ويكون صالحاً لأدائهما معاً . أمّا حين يحتاج الكلام إلى استعمال لفظين متقاربين في المعنى ، أو أنْ يكون استعمال أحدهما ممّا يوجبه الظرف الاجتماعيّ ، أو الدينيّ ، أو غيرهما ، فيلحظ أنّ النصّ الكريم يبيّن الفارق الدلاليّ ، أو اللمسة البيانيّة ، أو اللفظ المناسب للمقام ، ولعلّ فيما يأتي بعض الإيضاح :

استعمال الألفاظ شبه المترادفة :

البطن – الجوف :استعمل النصّ القرآنيّ ألفاظاً ، قد يُظنّ أنّها مترادفة ، ولكنّ استعمالها كان مقصوداً بما يتناسب مع السياق الذي جاءت فيه ، من ذلك استعمال مفردتي (بطن – جوف) ، وذلك في قوله تعالى : **﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾**[3]، وقوله تعالى : **﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ...﴾** [4]. فابن الأثير يرى أنّه – تبارك وتعالى – ((لم يستعمل الجوف موضع البطن ، ولا البطن موضع الجوف ، واللفظتان سواء في الدلالة ، وهما ثلاثيتان في عدد واحد ، ووزنهما واحد ، فانظر إلى سبك الألفاظ كيف تفعل))[5]. ولعلّ كلام ابن الأثير يخالف ما جاء في معاجم اللغة في معنيي المفردتين ، فـ ((البطن في كلّ شيء خلاف الظهر))[6] ، وهي ((إنسيّ الشيء ، والمقبل منه))[7] ، في حين أنّ الجوف ((ما انطبقت عليه الكتفان ، والعضدان ، والأضلاع ، والصقلان))[8]. فمن ذلك يظهر أنّ اللفظين ليسا مترادفين ، فكلّ واحد منهما اختصّ ببيان موضع من الجسم لا يدلّ عليه الآخر ، فكان استعمال كلّ مفردة في سياقها المناسب لها ، إذ إنّ استعمال (الجوف) يتناسب نصيّاً مع (القلب) ، في حين أنّ استعمال مفردة (البطن) يتناسب مع الحمل للمرأة .

السنة – العام – الحجّة – الحول : استعمل النصّ الكريم هذه الألفاظ في مواضع عدّة من النصّ الكريم ، وقد استعمل بعضاً منها في مواضع متقاربة جداً ، وهو ما يثير السؤال عن الفارق الدلاليّ بينهما . يرى الراغب أنّ ((أكثر ما نستعمل السنة في الحول الذي فيه الجدب))[9] ، وأنّ ((العام بما فيه الرخاء والخصب))[10] ، أمّا الحول ، ففي ((تغيّر الشيء ، وانفصاله عن غيره ، وباعتبار التغيّر قيل : حال الشيء يحول حؤولاً))[11] ، وذلك في قوله تعالى : **﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ﴾** [12] . وفرّق العسكريّ بين السنة والحجّة ، بقوله : ((الحجّة تفيد أنّها يحجّ فيها ... ثمّ سمّيت بها السنة كما يُسمّى الشيء باسم ما يكون فيه))[13]. وقد حاول الدكتور فاضل السامرّائيّ [14] أنْ يجد فوارق دلاليّة معتمداً النصّ القرآنيّ الكريم ، فوجد أنّ (العام) استعمل لفظه في المفرد ، والمثنى ، ولم يستعمل بلفظ الجمع ، إلاّ من خلال العدد ، ولم ترد كلمة (أعوام) في القرآن الكريم ، فمن استعماله ، قوله تعالى : **﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا ...﴾**[15]، وقوله تعالى : **﴿... حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ...﴾** [16] ، وقوله تعالى : **﴿... قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ...﴾** [17]، في حين أنّ (سنة) لم ترد في النصّ الكريم مفردةً إلاّ مع العدد الدالّ على الجمع ، ولا مثناة ، وحتى جمعها جاء بجمع المذكر السالم فقط ، من ذلك قوله تعالى : **﴿... وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ...﴾**[18]. أمّا استعمال (الحجّة) ، فقد جاء بلفظ الجمع (حجج) ، وذلك في قوله تعالى : **﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ ﴾** [19] ، وكان ذلك ((مناسبة للمقام والسياق الذي ورد فيه ، ذلك أنّ موسى ... جاء فارّاً من مصر إلى

---

[1] سورة البقرة : ٢٣٣ .
[2] ينظر : البرهان في علوم القرآن : ٣ / ٢١٦ . وينظر : لسان العرب : ٣ / ٣٢٣٣ .
[3] سورة آل عمران : ٣٥ .
[4] سورة الأحزاب : ٤ .
[5] المثل السائر : ١ / ١٥٠ .
[6] كتاب العين : ٧ / ٤٤٠ .
[7] معجم مقاييس اللغة : ١ / ١٣٥ ،
[8] لسان العرب : ١ / ٧٠٠ .
[9] مفردات ألفاظ القرآن : ٤٣٠ (سنه).
[10] المصدر نفسه : ٥٩٨ (عوم).
[11] المصدر نفسه : ٢٦٦ (حول).
[12] سورة البقرة : ٢٣٣ .
[13] الفروق اللغويّة : ٣٠٣ .
[14] ينظر : من أسرار البيان القرآنيّ : ٥٧ – ٥٩ .
[15] سورة التوبة : ٣٧ .
[16] سورة لقمان : ١٤ .
[17] سورة البقرة : ٢٥٩ .
[18] سورة البقرة : ٩٦ .
[19] سورة القصص : ٢٧ .

مدين ، وليس من أهل مدين ، فهو إذن زائر ، ولا بدّ أنْ يترك مزوره ، ويعود كالحاجّ إذا قضى حجّه ، فإنّه لا بدّ أنْ يعود))[١].

أكمل – أتمّ : استُعمِلتْ هاتان المفردتان في موضع واحد ، وذلك في قوله تعالى : **﴿... اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا ...﴾** [٢]، فكان ذلك دليلاً على عدم ترادفهما في المعنى ، وقد حاول أبو هلال العسكريّ أنّ يجد الفرق بين الاثنين ، فقال : ((الفرق بين الكمال ، والتمام : أنّ قولنا كمال اسم لاجتماع أبعاض الموصوف به ، ولهذا قال المتكلّمون : العقل كمال علوم ضروريات ، يميز بها القبيح من الحسن ، يريدون اجتماع علوم ، ولا يُقال : تمام علوم ؛ لأنّ التمام اسم للجزء ، والبعض الذي يتمّ به الموصوف بأنّه تام))[٣].

راعنا – انظرنا : استُعمِلتْ هاتان المفردتان في موضع واحد ، وكان الأمر في الآية الكريمة باستبدال (انظرنا) بـ (راعنا) ، والذي يظهر من سياق الآية أن لا اختلاف في الدلالة المركزيّة للمفردة ، وإنّما الاختلاف سببه الدلالة الهامشيّة لإحدى المفردتين ، والتي أمر الله – تبارك وتعالى – باستبدال الأخرى بها ، فقال تعالى : **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾**[٤]، فالنهي عن استعمال المفردة (راعنا) كان سببه ((قولاً يقولونه للنبيّ ρ على سبيل التهكم ، يقصدون به رميه بالرعونة ، ويوهمون أنّهم يقولون : راعنا ، أي احفظنا))[٥]، فقد تظاهروا أنّهم يريدون المعنى العربيّ ، مبطنين السبّ ، الذي هو معنى اللفظ في اللغة اليهوديّة [٦].

استعمال الألفاظ المشتركة :

استعمل النص الكريم بعض الألفاظ ، التي تدلّ على معانٍ عدّة ، وقصد إلى تلك المعاني دون غيرها عند إيرادها في النص ، من ذلك المفردة (موالي) ، التي تدلّ على السيّد ، والعبد ، والناصر ، والصديق ، وابن العم ، وغيرها . قال تعالى : **﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾**[٧]، وقوله تعالى : **﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاَكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾** [٨].

القصد على مستوى البلاغة :

استقتْ علوم البلاغة العربيّة شواهدها من النصّ المقدّس ، الذي أعجز العرب البلغاء أنْ يأتوا بمثله ، فكان المثال المحتذى ، والطراز الأول في معايير البلاغة ، والفصاحة . وإذا كان الأمر كذلك ، فالقصد في كلّ تعبير ، وفي استعمال كلّ مفردة أمر لا يمكن رفضه ، أو الشكّ فيه ، ولعلّ من مظاهر هذه القصدية على مستوى البلاغة ، ما يأتي :

الإطناب : هو – عند البلاغيين - أداء المقصود من الكلام بأكثر من عباراته [٩] ، هكذا عرّفه السكاكيّ ، وعلى الرغم من أنّ البلاغيين المتأخرين عن السكاكيّ قد أضافوا على تعريفه عبارة (زيادة لفائدة) ، وحدّدوا الفائدة في سبعة وجوه [١٠] ، إلاّ أنّ الذي يبدو أنّهم لم يستقصوا كلّ الفوائد المتحققة منه ، من ذلك ما يلحظ في قوله تعالى : **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾** [١١]، فعبارة (في بطونهم) من باب الإطناب في المعنى ، ولكنّها ليست من الفوائد التي ذكرها البلاغيون – لو أردنا الدقّة في المعنى - ، قال الشريف الرضي : ((وقوله سبحانه (في بطونهم) زيادة معنى ، وإنْ كان كلّ آكل إنّما يأكل في بطنه ، وذلك أقطع سماعاً ، وأشدّ إيجاعاً ، وليس قول الرجل للآخر : إنّك تأكل ، مثل قوله : إنّك تأكل النار في بطنك))[١٢].
ويضيف بعض المحدثين على ذلك أنّ كلمة (بطون) بصيغة الجمع ، وردتْ سبع مرّات في مواقف تصوير العذاب ، وأربع مرّات مختصّة بالحيوان ، كالأنعام ، والنحل ، ممّا يدلّ على أنّ الكلمة في الآية ((توحي بالطبع الحيوانيّ ، وبشاعته عند مَن يتاجر بآيات الله ، ويكذّب بها ، وهي تهبط بآدميته ،خصوصاً حين تصوّر الجشع ، والنهم))[١٣].

الإيجاز : هو ((أداء المقصود من الكلام بأقلّ من عبارات متعارف الأوساط))[١٤] ، واستعمال الألفاظ الموجزة التي تُغني عن المحذوف من الكلام دليل على بلاغة النصّ ؛ ((ذلك أنّ من دواعي ثراء نصّ ما أن يتسع محموله الدلاليّ ، وتضمر بنيته السطحيّة بوساطة الاقتصاد في الأداة التعبيريّة))[١٥] ، من ذلك قوله تعالى : **﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾** [١٦]، إذ اشتقّ من كلمة (كلب) الجامدة ؛ لأنّها اسم جنس ، اسم فاعل ، وذلك حتى يوجز عن تعداد الكثير من الحيوانات المستخدمة في الصيد ، قال الجاحظ : ((فاشتقّ لكلّ صائد ، وجارح كاسب ، من باز ، وصقر ، عقاب ، وفهد ، وشاهين ، وزرّق ، ويؤيؤ ، وباشق ، وعَناق الأرض من اسم الكلب))[١٧]، فكان القصد إلى جميع

---

(١) من أسرار البيان القرآنيّ : ٥٩ .
(٢) سورة المائدة : ٣ .
(٣) الفروق اللغويّة : ٢٩٤ .
(٤) سورة البقرة : ١٠٤ .
(٥) مفردات ألفاظ القرآن : ٣٥٨ (رعن).
(٦) ينظر : البحر المحيط : ١ / ٥٤٣ .
(٧) سورة النساء : ٣٣ .
(٨) سورة الأنفال : ٤٠ .
(٩) ينظر : مفتاح العلوم : ٣٨٨ .
(١٠) ينظر: الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة : ١٢٥ .
(١١) سورة البقرة : ١٧٤ .
(١٢) تلخيص البيان في مجازات القرآن : ١١٩ .
(١٣) جماليات المفردة القرآنيّة : ٢٩٩ .
(١٤) مفتاح العلوم : ٣٨٨ .
(١٥) التأويل وقراءة النصّ : ٧٨ .
(١٦) سورة المائدة : ٤ .
(١٧) كتاب الحيوان : ١ / ٣٠٧ .

هذه الحيوانات من خلال استعمال الحال (مكلّبين) ، ((واشتقّ هذه الحال من الكلب ، وإنْ كانتْ جاءتْ غاية في الجوارح على سبيل التغليب ؛ لأنّ التأديب أكثر ما يكون في الكلاب ، فاشتقّ من لفظه لكثرة ذلك في جنسه))[١]. وقد أنكر علماء الشيعة أن يكون استعمال هذه المفردة دالاً على ما لم يذكر من الجوارح ، وإنّما هذا الأمر يختصّ بالكلب فقط ، قال العلامة الطباطبائيّ : ((وتقييد الجملة بالتكليب لا يخلو من دلالة على كون الحكم مختصّاً بكلب الصيد ، لا يعدوه إلى غيره من الجوارح))[٢] ، ولعلّ في استعمال شبه الجملة (من الجوارح) ما يحلّ هذا الاختلاف ، إذ في استعمالها دليل على أنّ (مكلّبين) شاملة لهنّ ، إذ لو كان التخصيص للكلاب ، فما الداعي لاستعمال شبه الجملة قبلها ، وقد أجاز علماء الشيعة أنّ صيد غير الكلاب ، ((ما أدرك ذكاته ، فهو مباح ، وإلاّ فلا يحلّ أكله))[٣].

الكناية : هي ((ترك التصريح بذكر الشيء إلى ذكر ما يلزمه ؛ لينتقل من المذكور إلى المتروك))[٤]، وقد قصد النصّ الكريم إلى الكناية في مواضع كثيرة من الآيات القرآنيّة ، أمّا للتنزيه عن استعمال الألفاظ التي لا يجوز التصريح بها ، أو أن يكون بعثاً للمتلقين على الحياء في مثل تلك المواضع ، وهي التي يسمّيها المحدثون [٥] (اللامساس) ، ومن الاستعمال القرآنيّ الذي قصد إلى استعمال *الكناية قوله تعالى :* ***﴿...أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا ...﴾***[٦]. فالتعبيران (جاء أحد منكم من الغائط) ، و(لامستم النساء) كنايتان عن أمرين ، يتنزه الباري – عزّ وجلّ – عن التصريح بهما ، وهما مفهوما القصد ، إذ إنّ معناهما ((المجيء منه [الغائط] كناية عن الحدث ... [ولامستم] كنّى بالملامسة عن الجماع ؛ لأنه ممّا يستهجن التصريح به ، أو يستحي منه))[٧] ، ومثله قوله تعالى : **﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾**[٨] ، فالتعبير في قوله (كانا يأكلان الطعام) ((كناية عن قضاء الحاجة))[٩].

المبحث الثاني : المقبوليّة

المقبوليّة في اللغة والاصطلاح :

المقبوليّة لغةً[١٠] :قبِلَ الشيء قَبُولاً وقُبُولاً . والتقبّل : القبول ، يقال : تقبّل الله منك عملك . والقُبَل : من إقبالك على الشيء ، تقول : قد أقبلتُ قُبَلك ، كأنك لا تريد غيره . **المقبوليّة اصطلاحاً** : عرّف الشريف الجرجانيّ المقبولات ، بقوله : ((هي قضايا تؤخذ ممّن يُعتقد فيه ، إمّا لأمر سماويّ من المعجزات ، والكرامات ، كالأنبياء ، والأولياء ، وإمّا لاختصاصه بمزيد عقل ، ودين ، كأهل العلم ، والزهد ، وهي نافعة جداً في تعظيم أمر الله ، والشفقة على خلق الله))[١١] . وعرّف القبول ، بقوله : ((هو عبارة عن ترتّب المقصود على الطاعة))[١٢] . وعرّف التهانويّ القبول عند الفقهاء ، فقال : ((عن لفظ صدر عن أحد المتعاقدين))[١٣]، كما عرّفه عند الحكماء ، والمتكلّمين ، بقوله : ((يطلق بالاشتراك الصناعيّ على معنيين : أحدهما مطلق إمكان الاتصاف بأمر ، سواء كان وجود الموصوف متقدّماً على وجود الصفة بالزمان ، أو لا ، وحاصله الإمكان الذاتي . والثاني الانفعال التجدّديّ ، ويقال له القوة ،والاستعداد أيضاً ، وهو عبارة عن إمكان اتصاف شيء بصفةٍ لم يحصل له بعد))[١٤]. أمّا عند المحدثين ، فالمقبوليّة ((هي معلومات تتعلّق بحكم المتحدّث باللغة الأم على لفظ معيّن بأنّه صحيح ، أو غير ملائم ، وهو يخصّ باهتمام علم اللغة ، وفي النحو التوليديّ هي تلك القوانين التي تحاول تحديد الجمل المصاغة بطريقة صحيحة ، وغير الصحيحة في لغة ما))[١٥] . وعرّف آخرٍ القبول ، بقوله : ((موقف متلقي النص حول توقع نص متماسك ، ومتناسق))[١٦] .

المقبوليّة في دراسات العرب القدماء :

كان لظهور الإسلام السبب في إحداث التحوّل الكبير في الحياة العربيّة ، فقد أحدث ظهوره تحوّلاً على مستوى اللغة ، والوعي للعلاقة الوثيقة ، والاتحاد بينهما ، سواء أكان وعي الذات ، أم وعي الآخر/الكون ، وما فيه من الموجودات . وقد أحدث تحوّلاً –أيضاً - على مستوى التلقي ، فبعد أنْ كان العربيّ يصغي إلى الشعر ، والخطب ، أصبح يصغي إلى القرآن . وقد ارتفع شأن اللغة بالقرآن ، وعلتْ به، فكان نظم القرآن صدمةً ثقافيّة – إنْ صحّ التعبير – على مستوى التلقي ، فانشغل الناس بصورة عامّة ، وأصحاب الميول الأدبيّة خاصّة بتلقي النصّ القرآنيّ ، والبحث عن الإعجاز فيه . فإذا اتفقوا على أنّ اللغة أحد وجوه الإعجاز ، فقد انكبّوا على دراسة النصّ القرآنيّ ، وتفسير آياته ، وتحليل مفرداته ، وجمله . وظهرتْ لأوّل مرّة في تأريخ الفكر العربيّ ظاهرة ثقافيّة ، هي ما أطلق عليه في العصر الحديث اسم التلقي / المقبوليّة [١٧]. وإذ كانتْ

---

(١) البحر المحيط : ٤ / ١٧٩ . وينظر : تفسير الكشاف : ١ / ٥٩٤ ، وروح المعاني : ٦ / ٣٢٢ .
(٢) الميزان في تفسير القرآن : ٥ / ١٤٥ . وينظر : التبيان في تفسير القرآن : ٣ / ٤١٥ ، ومجمع البيان في تفسير القرآن : ٣ / ٣٩٩ – ٤٠٠ .
(٣) التبيان في تفسير القرآن : ٣ / ٤١٥ .
(٤) مفتاح العلوم : ٥١٢ .
(٥) ينظر : دلالة الألفاظ : ١٠٨ – ١١١ ، وعلم الدلالة : ٢٣٩ – ٢٤٠ .
(٦) سورة النساء : ٤٣ . ومثله في سورة المائدة : ٦ .
(٧) روح المعاني : ٥ / ٥٥ – ٥٦ .
(٨) سورة المائدة : ٧٥ .
(٩) روح المعاني : ٦ / ٥١٢ .
(١٠) ينظر : كتاب العين : ٥ /١٦٦– ١٦٨ ، وتاج اللغة وصحاح العربيّة : ٤ / ١٠٨٠ / ومعجم مقاييس اللغة : ٢ /٣٨٣ ، وأساس البلاغة : ٤٩٢ – ٤٩٣ ، العرب : ٣ / ٣١٢٣ – ٣١٢٩ ، والقاموس المحيط : ٩٦٣ – ٩٦٤ (قبل).
(١١) التعريفات : ١٨٢ – ١٨٣ .
(١٢) الكليات : ٦١٦ .
(١٣) كشّاف اصطلاحات الفنون : ٣ / ٥٤٣ .
(١٤) كشاف اصطلاحات الفنون : ٣ / ٥٤٣ .
(١٥) معجم اللغة واللسانيّات : ١٤ .
(١٦) المصطلحات الأساسيّة في لسانيات النص ، وتحليل الخطاب : ١٢٦ .
(١٧) ينظر : استقبال النصّ عند العرب : ١٣٢ .

المقبوليّة قبل الإسلام لديهم تأخذ منحًى آخر غير المنحى القرآنيّ ؛ وذلك لأنّها مع النصّ القرآني محاولة للفهم ، والتأويل ، والتفسير ، وبيان اللمسة البيانيّة ، وقد ((اهتمّ البلاغيون بإظهار جوانب الجمال ، والفصاحة في اللفظ القرآنيّ كمظهر للإعجاز البيانيّ ... فالمتكلّم الذي كان مشغولاً ببيان وجوه إعجاز القرآن كان عليه أنْ يكون على معرفة بالأساليب البلاغيّة العربيّة متذوقاً لها ،كما أنّ البلاغيّ ، أو الناقد الأدبيّ الذي كان مهتماً بتحليل مظاهر البلاغة ، وآلياتها في الخطاب العربيّ ، كان عليه أنْ يعتمد القرآن كسلطة مرجعيّة ؛ لكونه يمثّل بنظمه ، وطرق تعبيره أعلى مراتب البيان ، بل إنّه كان هو منطلق الدراسات البلاغيّة الأولى التي سعتْ لإظهار أوجه تميّزه ، ورفعة أسلوبه ، وبلاغة لفظه))[١] . أمّا قبل الإسلام ، فقد تمثّلتْ بمراعاتها لمقتضى الحال ، والأعراف اللغويّة ، والتداوليّة . ولعلّ أصدق مثال على ذلك الحادثة المشهورة بين حسان بن ثابت ، والنابغة الذبيانيّ ، وذلك حين انتقد النابغة قول حسان :

لَنا الجَفَناتُ الغرُّ يَلْمَعْنَ بِالضُّحَى وَأسْيَافُنا يَقْطِرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمَا

فالنابغة ليُجز لحسان استعمال جمع القلّة (الجفنات ، أسياف) في موضع الفخر ، وكان الأَوْلى به استعمال جمع الكثرة ، وهو ما يوافق العرف المتداول لديهم [٢] . فكانتْ رؤية المتلقي / الناقد أعمق من رؤية المنتج / الشاعر . وهذا ما لا يُلحظ في الدراسات القرآنيّة الباحثة عن الإعجاز . فالقرآن الكريم كان مقبولاً / تأليفاً حتى من غير المؤمن ، فالكفار قبلوا القرآن الكريم نصّاً يتمتّع بالسبك ، الانسجام ، وأنّه في أعلى درجات البلاغة ، ولكنّهم مع ذلك لم يؤمنوا بالمضمون الذي جاء به ، و ((لقد أثبت البيان القرآنيّ جدارته بصفة الربط بين المتلقي ، والنصّ بوشائج متينة ، وهذا الاستحقاق يكمن في ديمومة ربط المرء بالواقع : الواقع النفسيّ في القدرة على إثارته على مرّ العصور ، فتُنبَش مكونات أساسيّة في السلوك البشريّ ، وههنا مخاطبة الخالق لما خلق ، وكذلك الواقع المحسوس في تصوير جزئيّاته في الطبيعة الصامتة ، والمتحرّكة ، والمشاهد المألوفة ، وتقريب ما هو ليس بمألوف بإثارة الحواس ، والبصيرة ، واستدامة صورته الفنيّة هي نتيجة ثبات الحواس ، وتأكيده على ربط الصورة بالحواس ، وهكذا لم يرفض الواقع ، بل نهض به ، ولوّنه))[٣] ، وخير مثال على ذلك ما رواه الجاحظ ، قائلاً : ((بكى ماسروجيه من قراءة أبي الخوخ ، فقيل له : كيف بكيت من كتاب الله ، ولا تؤمن به ، فقال : إنّما أبكاني الشجا))[٤] ؛ ولذا فقد عدّ الخطابيّ هذا التأثير النفسيّ للنص القرآنيّ وجهاً من وجوه الإعجاز ، قال : ((قلتُ في إعجاز القرآن وجهاً آخر ، ذهب عنه الناس ، فلا يكاد يعرفه إلاّ الشاذ من آحادهم ، وذلك صنيعه بالقلوب ، وتأثيره في النفوس ، فإنّك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ، ولا منثوراً إذا قرع السمع خلص إلى القلب من اللذة ، والحلاوة في الحال))[٥] . فنشطتْ الحركة العلميّة ، وبدأوا يدرسون اللغة في كلّ فروعها ، وكانتْ البلاغة ، التي كانوا مفطورين عليها ، تتخذ النصّ القرآنيّ المادة الرئيسة التي تنتقي منه شواهدها ، وتسير نحو التطور ، والنضوج من خلاله [٦]. وكانوا في بحثهم الإعجازيّ مفسّرين للاستعمال القرآني ، ومفتشين عن المعنى المتحقّق من ذلك الاستعمال ، فالخطابيّ يسوّغ حذف جواب الشرط في قوله تعالى : **﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾**[٧]، ويرى في الحذف تحقّقاً للمقبوليّة التي يبينها قوله : ((إنّ الحذف في مثل هذا أَبلغ من الذكر ؛ لأنّ النفس تذهب في الحذف كلّ مذهب ، ولو ذكر الجواب لكان مقصوداً على الوجه الذي تناوله الذكر))[٨] . ويربط الباقلانيّ مقبوليّة النص بقوة البصيرة ، وكمال المعرفة ، فقال : ((فمَنْ كانتْ بصيرته أقوى ، ومعرفته أبلغ كان القبول منه أسبق ، ومَنْ اشتبه عليه وجه الإعجاز ، أو خفي عليه بعض شروط المعجزات ، وأدلّة النبوّات كان أبطأ في القبول))[٩]. ويتابع عبد القاهر الجرجانيّ الباقلانيّ على هذا الرأي ، فيقصر فهم النصّ على مَنْ تتوفر فيه شروط معيّنة ، إذ قال : ((فإنّك تعلم على كلّ حال أنّ هذا الضرب من المعاني كالجوهر في الصدف ، لا يبرز لك إلاّ أنْ تشقه عنه ، وكالعزيز المحتجب لا يريك وجهه حتى تستأذن عليه ، ثمّ ما كلّ فكر يهتدي إلى وجه الكشف عمّا اشتمل عليه ، ولا كلّ خاطر يؤذَن له في الوصول إليه ، فما كلّ أحد يُفلح في شقّ الصدفة ، ولا يكون في ذلك من أهل المعرفة))[١٠]، وكما يضع شروطاً لفهم النصّ ، يضع شروطاً لقبول النصّ ، بقوله : ((اعلم أنّ لكلّ نوع من المعنى نوعاً من اللفظ ، هو به أخصّ ، وأولى ، وضروباً من العبارة هو بتأديته أقوم ، وهو فيه أجلى ، ومأخذاً إذا أخذ منه ، كان إلى الفهم أقرب ، وبالقبول أخلق ، وكان السمع له أوعى والنفس إليه أميل ، وإذا كان الشيء متعلّقاً بغيره ، ومقيساً على ما سواه ، كان من خير ما يُستعان به على تقريبه من الأفهام ، وتقريره في النفوس أنْ يوضع له مثال يكشف عن وجهه ، ويؤنس به ، ويكون زماماً عليه ، يمسكه على المتفهّم له ، والطالب علمه))[١١]. ولعلّ ممّا يدخل في هذا المبحث أنّ المنظرين في البلاغة ، والنقد العربيّين ، كان لهم اهتمام خاصّ بالمخاطب في العمليّة الإبداعيّة ، ويتضاعف هذا الاهمام إذا تعلّق الأمر بالنصّ القرآنيّ ، فـ ((ربّما كان الحاجز الدينيّ أحد العوامل الرئيسيّة [١٢] التي دفعتْ البلاغيّين ، والنقاد إلى هذا الاتجاه باعتبار [١٣] أنّ البلاغة مراعاة

---

(١) المنهجيّة الأصوليّة والبحث البلاغيّ : ١٤ .
(٢) ينظر : البلاغة والتطبيق : ١١ .
(٣) جماليات المفردة القرآنيّة : ٢٩ ــ ٣٠ .
(٤) كتاب الحيوان : ٢ / ٢٨٦ . وينظر : استقبال النصّ عند العرب : ١٢٣ .
(٥) بيان إعجاز القرآن ، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن : ٧٠ . وينظر : استقبال النصّ عند العرب : ١٦ .
(٦) ينظر : الإبلاغيّة في الشاهد البلاغيّ : ٢١ .
(٧) سورة الرعد : ٣١ .
(٨) بيان إعجاز القرآن : ٥٢ .
(٩) إعجاز القرآن : ٨٤ . وينظر : القصديّة في الخطاب القرآنيّ : ١١٨ .
(١٠) أسرار البلاغة : ١٠٨ . وينظر : استقبال النصّ عند العرب : ٣٧ .
(١١) الرسالة الشافيّة ، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن : ١١٧ .
(١٢) كذا ، والصحيح : الرئيسة .
(١٣) كذا ، والصحيح : بعدّ .

الحال ، والحال – عندهم –هي حال المخاطب لا المتكلّم ؛ لأنه ليس من المتصوّر عقلاً ، ودينا ً أنْ يتناول هؤلاء المنظرون القرآن باعتبار مصدره ، ولذا اتجهتْ مباحثهم إلى ناحية المتلقي ، ومحاولة ربط الأسلوب بظروفه الاجتماعيّة ، أو الثقافيّة ، أو الدينيّة))[1] .

المقبوليّة في الدراسات النصيّة الحديثة :

القبول أحد المعايير السبعة التي اشترطها (روبرت دي بوجراند) للنص ، و ((يتضمّن موقف مستقبل النص إزاء كون صورة ما من صور اللغة ينبغي لها أن تكون مقبولة من حيث هي نصّ ذو سبك ، والتحام . وللقبول مدى من التغاضي في حالات تؤدي فيها المواقف إلى ارتباك ، أو حيث لا توجد شركة في الغايات بين المستقبل ، والمنتج))[2]. ويترتب هذا المعيار على قوة الانسجام ، والارتباط بين المعيارين الأول ، والثاني (السبك ، والحبك) ، ويؤدي إلى قبول النص . أمّا إذا حدث خلل فيهما ، فإنّ نتيجة ذلك ليستْ إيجابيّة ؛ لأنّ هذا قد يؤدي إلى تصورات ليستْ إيجابيّة من جهة قبول النصّ ، وإنْ كانتْ النصوص اللغويّة عالية المستوى ، التي تكمن قيمة البلاغة فيها بالكشف عن المعاني الإضافيّة الكامنة وراء الصياغات اللغويّة [3]. فالنص القرآنيّ الكريم ليس محدّداً بعصر نزوله فقط ، وإنّما الغاية المرجوّة منه هي إيصال الأفكار المبثوثة فيه إلى يوم القيامة ، ابتداءًمن العقيدة الدينيّة ، وامتداداً إلى جميع جوانب الحياة الإنسانيّة اجتماعياً ، واقتصادياً ، وسياسيّاً ، وعلميّاً ؛ ولذا فقد نصّ الباري – تعالى – على ذلك في قوله تعالى : **﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾**[4]. فالنصّ القرآنيّ لم يكن نصّاً آنيّاً لقريش ، والعرب في زمن النبيّ ρ ، بل كان نصّاً عالميّاً مكاناً ، وسرمديّاً زماناً ، فلا ريب أن تكون التراكيب ، والعبارات الموجودة في آياته تحمل معاني يُكشف عنها في كلّ عصر ، أو مكان جزء منها ، وهي لا تنتهي ؛ لأنها من لدن كامل العلم ، والحكمة ، ولذا فإنّ أيّ تفسير جديد للنصّ القرآنيّ يأتي بمعنًى جديد غير ما هو مألوف عند القدماء ، يدلّ على تلك المواكبة القرآنيّة للتطور ، فيكشف المعنى المناسب لدرجة العلم ، والمعرفة التي وصل إليها أهل ذلك العصر ، أو تلك البيئة العلميّة . وكلّ نصّ يحتمل أن يكون متلقيه صاحب ثقافة ، ومعرفة أكبر من مبدعه إلا نصاً واحداً ، فهو غير قابل لهذا الاحتمال ، وهو النصّ القرآنيّ الكريم ، الذي أثبت مفسّروه – والصحيح مَنْ حاولوا تفسيره ويحاولون – أنّهم أمام عظمة نصّ ، لا يستطيعون معه بحال أنْ يحيطوا بكلّ ما فيه من علم ، وفكر ، ومعرفة . إنّ معيار القبول لأيّ نصّ – سوى القرآن الكريم – مرتبط بمجموع الدلالات التي يطرحها النصّ بشرط تماسكها ، والتحامها ، وتحديدها بعيداً عن الاحتماليّة الدلاليّة ، أو عن جواز أكثر من وجه إعرابيّ ، وذلك ما يحتمله نحو الجملة ، وهو ما يكون بدوره فارقاً بين نحو الجملة ، ونحو النصّ ؛ وذلك أنّ ((تقوم المعايير النصّيّة بالمساعدة على قبول موقف دلاليّ محدّد من خلال استبعاد المتلقي للدلالة غير المرتبطة بالنصّ ، وإيمانه بالدلالة التي تنسجم ، وتتسق مع بقيّة الدلالات النصّيّة))[5] . وأمّا مع النص القرآنيّ ، فإنّ الاحتمالات الدلاليّة يُمكن أنْ تكون كلّها مقبولة ، ويتوقف ذلك على الزاوية التي ينظر منها متلقي النص ، والمجال العلميّ الذي يبحث من خلاله عن تفسير النص القرآنيّ ، زيادة على التطور الفكريّ للمجتمعات الإنسانيّة ، الذي يلقي بنقاط الضوء مع كلّ اكتشاف جديد ، أو اختراع غير مسبوق ، فينعكس ذلك على ما جاء في الذكر الحكيم ، فيظهر فيه التوافق ، والانسجام مع المكتشَف الجديد ، أو أنْ يكون في النص ما هو في ظاهره مخالفاً للمكتشَف ، ولكنْ بالرجوع إلى اختيار مفرداته ، يُلحظ أن لا تعارض بينهما . إنّ ((اعتياد القارئ على الأعراف البلاغيّة ، واللغويّة ، والتقييدات الثقافيّة التي ينتج بها النص ، ووضوحها بالنسبة له ، يُسهم في سرعة تقبله له . فعملية القراءة تفاعل بين النص ، والخلفيّة المعرفيّة المسبقة للقارئ ، أو مخطط الذاكرة ، والتوقعات المعينة حول البنية العامة للنصوص . فالقارئ – إلى حد ما – هو المبدع المشارك لا للنص نفسه ، بل لمعناه ، وأهميته ، وقيمته))[6] . وإنّ المعنى الذي يشارك القارئ في إبداعه للنص القرآنيّ الكريم ليس المعنى المطروح على سبيل الاستقصاء ، والاستنفاد ، بل المعنى الذي أظهرته القدرات العلميّة ، والثقافيّة ، بل وحتى العقدية للقارئ ، فالقرآن الكريم – كما يصفه الإمام عليّ A - ((ظاهره أنيق ، وباطنه عميق ، لا تفنى عجائبه ، ولا تنقضي غرائبه))[7] . فـ ((الحقيقة القرآنيّة التي تؤسّسها المضامين القرآنيّة العالية ، والتي تؤكدها السنة الشريفة ، هي استمرار دائرة الانطباق ، بمعنى أنّ المصاديق البارزة للنص القرآنيّ ، لا تغلق دائرة الانطباق ، وأنّ المصاديق اللاحقة لا تدخل من باب المجاز ، وإنّما هي مصاديق حقيقيّة فعليّة ... إنّ عدم انحصار دائرة الانطباق في كلّ سورة ، وآية ، وكلمة هو الحقيقة القرآنيّة الراسخة ، التي لا ينبغي التنصل عنها أبداً ... وعدم انحصار دائرة الانطباق في النص القرآنيّ زمكانيّاً ينسجم تماماً مع حقيقة كون النص القرآنيّ مأخوذاً بنحو القضية الحقيقيّة لا الخارجيّة ، أو الشخصيّة))[8] .ولعلّ ممّا يؤكد مقبوليتهم للنصّ القرآنيّ ، وانبهارهم به ، هو كونهم أهل بلاغة ، وفصاحة ، وإذا كانوا كذلك فلماذا يؤلّفون في البلاغة ، وهي فطرة فيهم ، وسجيّة لهم ؟ . فليس الأمر – فيما يبدو – إلاّ أنّ بلاغتهم ، وفصاحتهم وقفتْ عاجزة أمام بلاغة القرآن ، وفصاحته ، فما كان منهم إلاّ أنْ حاولوا محاكاة القرآن ، وتقليده ؛ ولذا فقد أكثروا من الشواهد القرآنيّة في كتبهم لكي تكون قواعد تُتبع ، وطرائق تُنتهج في تعبيراتهم ، ومؤلّفاتهم . وكانوا كثيراً ما يقارنون بين النصّ القرآنيّ الكريم ، ونصوصهم الشعريّة ، والنثريّة ، ويظهرون التفوق القرآنيّ ، سواء أكان على مستوى المفردات ، أم التراكيب ، أم المعاني . وفيما يأتي بيان لمستويات المقبوليّة في النص القرآنيّ الكريم :

---

(1) البلاغة والأسلوبيّة : ٢٤٢ .
(2) النص والخطاب والإجراء : ١٠٤ .
(3) ينظر : الدرس النحويّ النصيّ : ١٥٨ .
(4) سورة الأنعام : ٣٨ .
(5) نحو النص ، اتجاه جديد في الدرس النحويّ : ٨٨ .
(6) علم لغة النص ، النظرية والتطبيق : ٣٤ . وينظر : نظرية النص ، رؤية منهجيّة في بناء النص النثريّ : ٥٠ .
(7) شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : ١ / ١٩٥ . وينظر : شرح نهج البلاغة ، محمد عبده : ٥٤ ، منطق فهم القرآن : ١ / ٤٣٢ .
(8) منطق فهم القرآن : ١ / ٤٣٢ .

المقبوليّة على مستوى الألفاظ / المستوى المعجميّ : يظهر التأثير الذي أحدثه النص الكريم في المتلقين من خلال بحثهم لاستعمال مفردة في سياق معيّن ، فيرون حسن استعمالها في النصّ القرآنيّ ، كما كانوا يرون مزية استعمال المفردة القرآنيّة مقارنة باستعمالها في نصوص الشعراء ، والأدباء ، من ذلك المقارنة التي يعقدها ابن الأثير بين قوله تعالى : **﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ... ﴾** [1] ، وقول المتنبيّ [2] :

تَلَذُّ لَهُ الْمُرُوءَةُ وَهِيَ تُؤْذِي وَمَنْ يَعْشَقْ يَلَذُّ لَهُ الغَرَامُ

ويبيّن تفوق المفردة في الآية الكريمة على نظيرتها في قول المتنبيّ بقوله : ((وهذا البيت من أبيات المعاني الشريفة ، إلاّ أنّ لفظة (تؤذي) قد جاءت فيه ، وفي الآية من القرآن ، فحطّتْ من قدر البيت لضعف تركيبها ، وحسن موقعها في تركيب الآية))[3]. ويعلّل رأيه بالترابط الموجود في الآية ، والانقطاع في البيت الشعريّ ، قال : ((هذه اللفظة التي هي (تؤذي) إذا جاءتْ في الكلام ، فينبغي أنْ تكون مندرجة مع ما يأتي بعدها ، متعلّقة به ... وقد جاءتْ في قول المتنبيّ منقطعة ، ألا ترى أنّه قال : تلذ له المروءة وهي تؤذي ، ثم قال : ومَن يعشق يلذ له الغرامُ ، فجاء بكلام مستأنف))[4]. ومنها – أيضاً – مقارنتهم في استعمال مفردتين متباينتين في سياق تقابل بين المسلمين ، والكفار ، وذلك في قوله تعالى : **﴿ ... فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ ... ﴾** [5] . فالآية الكريمة تبيّن حال المنافقين في أثناء الحرب الواقعة بين المسلمين ، والكفار ، فاستعملتْ مفردة (فتح) حين يكون الانتصار للمسلمين ، واستعملتْ مفردة (نصيب) حين يكون الأمر للكفار ، ويُعلّل الزمخشريّ ذلك ؛ بقوله : ((فإنْ قلتَ : لِمَ سمّي ظفر الملمين فتحاً ، وظفر الكافرين نصيباً ؟ قلتُ : تعظيماً لشأن المسلمين ، وتخسيساً لحظ الكافرين ؛ لأنّ ظفر المسلمين أمر عظيم ، تفتح لهم أبواب السماء حتى ينزل على أوليائه . وأمّا ظفر الكفرين ، فما هو إلاّ حظ دنيّ ، ولمظة من الدنيا يصيبونها))[6]. ولعلّ ممّا يُلحظ على التعبير في الآية الكريمة استعمال شبه الجملة (من الله) نعتاً للفتح للدلالة على أنّه حاصل للمسلمين بالقدرة الإلهيّة ، والمشيئة الربانيّة ، لا بقدرتهم – أي المسلمين - ، فناسب ذلك استعمال (فتح) ؛ لكونه مسنداً لله – تبارك وتعالى - . كما استعمل شبه الجملة (معكم) للدلالة على مشاركة المنافقين في المعركة بالعدد ، وليس لكونهم من عوامل النصر بما بذلوه من بسالة ، وشجاعة ، وفي سياق الكلام مع الكافرين استعمل شبه الجملة (عليكم) ، وفيها دلالة الاستعلاء ، والمنّة منهم على الكافرين ، وكأنّهم أصحاب الدور الأكبر في النصر .

المقبوليّة على مستوى التركيب :

وضع علماء النحو قواعدهم معتمدين ما ورد من كلام العرب من شعرٍ ، ونثر ، وكذلك النصّ القرآنيّ الكريم وقد خرجوا بقواعد تختص بالمعنى المطلوب عند استعمال تركيب من دون غيره . فهم قد وجدوا أنّ استعمال الجملة المنفية بـ (لا) النافية للدلالة على النفي المطلق للخبر الداخلة عليه ، وقد كانتْ شواهدهم في ذلك من الاستعمال القرآنيّ لهذه الطريقة في النفي ، زيادة على ذلك ، فقد وجدوا أنّ الجملة الاسميّة تدلّ على الثبوت ، والدوام ، ولعلّ خير مثال قوله تعالى : **﴿... فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾**[7]. فالآية الكريمة – وكذلك الآيات الأخرى المحال عليها في الهامش – جاءت في سيق مدح المهتدين إلى طريق الحقّ ، والرشاد ؛ ولذا قد جاء التركيب نافياً عنهم الخوف ، والحزن ، وذلك لأنّ طبيعة النفس البشريّة هي ميلها عن الخوف ، والحزن ، والحزن ما يحصل للإنسان من مكروه ماضٍ ، أو حاضر ، والخوف ما يشعر به الإنسان من مكروه مستقبل . وإذا كان النص الكريم قد نفى الاثنين معاً ، فلقد استعمل لذلك أبلغ تركيب ، وترتيب ، فالله – تعالى – نفى عنهم كلّ نوع من أنواع الخوف في المستقبل ، وذلك حين استعمل النفي بـ (لا) النافية للجنس ، واستعمالها يدلّ على عموم الجنس ، وحين نفى عنهم الحزن نفى اتّصافهم به بنفي الخبر عن المبتدأ ، وجاء الخبر جملة فعليّة (لا يحزنون) ، والجملة الفعليّة تأتي للدلالة على الحدوث ، والتجدّد ، فكان نفيها عن المبتدأ (هم) نفي لحدوثها ، أو تجدّدها . أمّا من ناحية الترتيب ، فقد نفى الخوف أولاً ، ثم نفى الحزن ؛ ولعلّ سبب ذلك أنّ المستقبل هو الأهم للإنسان ، فنفى وقوع المكروه فيه ، أمّا الماضي ، والحاضر ، فقد فرغ منهما ، أو قارب على الفراغ ، فنفى الأهمّ ، ثم أعقبه بنفي المهم ، وهو ما يناسب الطبيعة البشريّة . ومن المقبوليّة تقديم المفعول به على الفاعل ، وذلك في قوله تعالى : **﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي ...﴾**[8]، فقد قدّم المفعول (يعقوب) على الفاعل (الموت) ، وهذا التقديم قد تكرّر عندما يكون الفاعل (الموت) ، أو أن يكون الفعل دالاً على توفي المخلوق ، ولعلّ ذلك هو ما سوّغ التقديم ، إذ إنّ قرينة ذلك عقليّة ، فلا يُتوقع أن يكون (يعقوب) هو الذي حضر(الموت).

المقبوليّة على مستوى البلاغة :

تظهر مقبوليّة النص القرآنيّ الكريم في استعماله التراكيب التي تناسب المعنى المطلوب ، وتناسب – أيضاً – السياق الذي ترد فيه ، فعند مقارنة استعمال النصّ القرآنيّ لمعنًى معيّن ، مع استعمال مستحسن عند العرب ، فقد أظهر علماء اللغة ، والبلاغة تفوق النص الكريم ، ورفعة مقبوليّته على غيره ؛ ولذا يلحظ أنّ العلماء كانوا يظهرون المزية ، وهي بيان القرآن الكريم ، وعلو بلاغته ، وجودة نظمه ، ((ومَن يطوف في رحاب التفاسير اللغويّة ، والبلاغيّة يجد وقفات طويلة في مفردات السور المدنيّة ، التي كان طابعها التشريع ؛ لأنّ التشريع قد عُني – أيضاً – بنفسيّة المؤمن ، ومن خلال رسم السلوك

---

(١) سورة الأحزاب : ٥٣ .
(٢) ينظر : شرح ديوان المتنبيّ : ٤ / ١٩٥ .
(٣) المثل السائر : ١ / ١٥٢ – ١٥٣ .
(٤) المصدر نفسه : ١ / ١٥٣ .
(٥) سورة النساء : ١٤١ .
(٦) تفسير الكشاف : ١ / ٥٦٦ .
(٧) سورة البقرة : ٣٨ . وقد تكرّر هذا التركيب في البقرة : ٦٢ ، ١١٢ ، ٢٦٢ ، ٢٧٤ ، ٢٧٧ ؛ وسورة آل عمران : ١٧٠ ؛ وسورة المائدة : ٦٩ .
(٨) سورة البقرة : ١٣٣ . ومثلها في البقرة : ١٨٠ ، وسورة النساء : ١٨ ، وسورة المائدة : ١٠٦ ، وسورة الأنفال : ٥٠ .

البشريّ السوي ، وإلقاء الأوامر الإلهيّة ، إذ ظهرتْ للدارسين جماليات في مناسبة المقام بمفردات تختزن طاقة وجدانيّة كبرى))[1] ، من ذلك ما جاء عن بعض العلماء ، إذ قارن بين قوله تعالى : **﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾** [2] ، مع قول العرب المأثور : القتل أنفى للقتل ، وفي ذلك يقول الرمانيّ : ((وهذا الضرب من الإيجاز في القرآن كثير ، وقد استحسن الناس من الإيجاز قولهم : القتل أنفى للقتل ، وبينه وبين لفظ القرآن تفاوت في البلاغة ، والإيجاز ، وذلك يظهر من أربعة أوجه : أنّه أكثر في الفائدة ، أوجز في العبارة ، وأبعد من الكلفة بتكرير الجملة ، وأحسن تأليفاً بالحروف المتلائمة . أمّا الكثرة في الفائدة فيه ، ففيه كلّ ما في قولهم : القتل أنفى للقتل ، وزيادة معانٍ حسنة ، منها إبانة العدل لذكره القصاص ، ومنها إبانة الغرض المرغوب فيه لذكره الحياة ، ومنها الاستدعاء بالرغبة ، والرهبة لحكم الله به . وأمّا الإيجاز في العبارة ، فإنّ الذي هو نظير – القتل أنفى للقتل – قوله (القصاص حياة) ، والأول أربعة عشر حرفاً ، والثاني عشرة أحرف ، وأمّا بُعده من الكلفة بالتكرير الذي فيه على النفس مشقة ، فإنّ في قولهم : القتل أنفى للقتل تكريراً غيره أبلغ منه ، ومتى كان التكرير كذلك ، فهو مقصّر في باب البلاغة ...))[3] . ومنه – أيضاً – استعمال مفردة معيّنة للدلالة على معنًى بلاغيّ ، لا يتحقّق المعنى المطلوب لو استعمل مفردة أخرى ، إذ إنّ المفردة أصابتْ المعنى ، ودلّتْ على الغرض البلاغيّ في الوقت نفسه ، وذلك في قوله تعالى : **﴿ وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ ...﴾** [4]. فالمفردة (عرّضتم) تشير إلى استعمال أسلوب التعريض ، المشتق من الكلمة نفسها ، ويبدو أنّ علماء البلاغة قد استعملوا هذا المصطلح البلاغيّ مستندين إلى ما جاء في هذه الآية ، فالمعنى الذي يفيده استعمال المفردة هو عدم التصريح بالخطبة للمرأة المعتدّة ، وهو ما يوحي بغاية أخلاقيّة ، تحقّقها هذه المفردة ، إذ ((بها ينهج القرآن للمؤمنين منهج الستر ، والتأدب في خطبة المرأة المعتدّة ، وهي ممنوعة من النكاح))[5] .

المقبوليّة والتدرج في الحكم :

درج النصّ القرآنيّ على عدم تشريع الأحكام العباديّة ، وغير العباديّة دفعةً واحدةً ، بل استعمل طريقة إنزال الأحكام على دفعات ؛ وسبب ذلك هو مراعاة حال المتلقين / المسلمين ، إذ إنّ المتلقي – خاصة في أوائل العهد المدنيّ – يستثقل تكاثر الأحكام الشرعيّة عليه ، وهو حديث عهد بالدين ، وتحكمه الأعراف الاجتماعيّة ، والقبليّة المتأصلة في نفسه ؛ ولذا فقد استعمل النصّ الكريم – بحثاً عن المقبوليّة – طريقة التدرج في الحكم الشرعيّ ، أي أنّ الحكم الشرعيّ كان على شكل دفعات ، الغاية الأولى منها تحقيق المقبوليّة لدى المتلقين / المسلمين ، والغاية الأخيرة هي تحقيق قصد المشرِّع / الله – سبحانه وتعالى - ، فقصد منشئ النصّ هو الحكم الأخير ، وكلّ الخطوات التي اتبعها للوصول إليه سببها إيجاد المقبوليّة في نفس المتلقي . ولعلّ أصدق مثالٍ على ذلك حكم تحريم الخمر في القرآن الكريم ، فقد جاءتْ الآية الأولى تُبيّن للمسلمين المضارّ الموجودة فيه ، ولم تقطع الكلام بذلك ، بل ذكرتْ أنّ في الخمر منافع ، ورجّحتْ المضارّ على المنافع ، وذلك في قوله تعالى : **﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ ...﴾**[6]. إنّ السؤال من المتلقين في قوله (يسألونك) يحمل في ذاته نوعاً من المقبوليّة للحكم ، فهم لم يسألوا إلا ليعرفوا الجواب الإلهيّ من صاحب الحكمة ، وهم بسؤالهم يحكمون عقولهم على أهوائهم ؛ ولذا فالجواب يحمل مسحة عقليّة في قوله (وإثمهما أكبرمن نفعهما) ، فمَن كان يسترشد بالنصّ الكريم ترك شرب الخمر ، ولم يعاود عليه ، ولم يبقَ إلاّ أصحاب النفوس الضعيفة ، وأهل الأهواء الذين داوموا على الشرب ، ((فأسلوب الحوار ، وطريقة التخاطب التي يستخدمها الأنبياء ، وما تتضمّن من أبعاد نفسيّة ، وجماليّة ، تحمل المتلقي على الإنصات لقوّة المحاجّة العقليّة ، ووضوح البيّنة ، فيقف متأثراً مفكراً في الكلام نفسه ، وفي أبعاده القصيّة التي تظلّ لصيقة بالذاكرة))[7]، إذ جاءتْ الحادثة التي استدعتْ حكماً جديداً مناسباً للمقام ، فنزل قوله تعالى : **﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلا جُنُبًا إِلا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾** [8]. فالآية أولاً : نهتْ المسلمين عن الخمر في الوقت القريب من الصلاة (حتى تعلموا ما تقولون) ، وهذا ما يوجب على المسلم أنْ لا يشرب إلاّ الكميّة التي تبقي على وعيه عند قيام الصلاة ، وثانياً : الآية قرنتْ شرب الخمر حدّ السكر بالحدثين : الأكبر/ الجنابة ، والأصغر/ قضاء الحاجة ؛ وفي ذلك دلالة على أنّ حال شارب الخمر في تعرّضه للنجاسات كحال مَن كانوا (جنباً) ، أو مَن جاء(من الغائط) . ولمّا أصبحتْ الحالة النفسيّة للمسلمين – بعد أنْ تركوا شرب الخمر ، أو قلّلوا من شربه – مهيّأة للأمر لهم بتركه – وهذا هو قصد النصّ – نزلتْ الآية التي حرّمته عليهم تحريماً نهائيّاً ، وذلك في قوله تعالى : **﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾**[9]. فالخمر (رجس) من أوّل الخلق ، وليس من وقت نزول الآية ، ولكن البحث عن المقبوليّة لدى المتلقي هو ما أجّل البتّ بهذا الحكم إلى سورة المائدة ، التي تُعدّ من أواخر السور النازلة على النبيّ ρ ، ((فكلمة (رجس) تنمّ على [10] إبعاد المؤمن عن

---

[1] جماليات المفردة القرآنيّة : ٢٧ .
[2] سورة البقرة : ١٧٩ .
[3] النكت في إعجاز القرآن : ٧٧ – ٧٨ .
[4] سورة البقرة : ٢٣٥ .
[5] جماليات المفردة القرآنيّة : ٢٧٢ .
[6] سورة البقرة : ٢١٩ .
[7] استقبال النصّ عند العرب : ١٦ .
[8] سورة النساء : ٤٣ .
[9] سورة المائدة : ٩٠ .
[10] كذا ، والصحيح : تنمّ عن .

أخلاقيّة دنيئة ، منشؤها معاقرة الخمر ، واتباع الأصنام ، ولعب القمار ، وهذه الكلمة من المفردات التي لم يذكرها القدامى))[1]، وهذا ما يضيف إلى التحريم بعداً إعلاميّاً ، إذ استعمل كلمة لم يستعملها العرب في مثل هذا المقام .

المقبوليّة والأسلوب في الحكم الشرعيّ :

لم يستعمل النصّ القرآنيّ الكريم في كثير من الأحكام الشرعيّة الأسلوب الأمريّ المباشر ، بل استعمل طرقاً راعى فيها حال المتلقين / المسلمين ؛ ولذا فقد التمس لهم العلل الشرعيّة ، والاجتماعيّة لتكون تلك الأحكام أدعى إلى القبول ، والعمل بها ، من ذلك قوله تعالى : **﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلا عَلَى الظَّالِمِينَ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾**[2]. يلحظ أنّه – تعالى –قد علّل الأمر بالقتال بقوله (حتى لا تكون فتنة) ، وهذه الفتنة سوف يصيب أذاها المسلمين أولاً ، ثم ذكر ثانياً (ويكون الدين لله) ، فجعل أمر الإعلاء لكلمة الله بعد الخشية من وقوع الفتنة ؛ لكونها – أي الفتنة - تمسّهم بشرّها ، فكان للعامل النفسيّ الأثر الكبير في أمرهم بالقتال ، فجاء الحكم الشرعيّ مراعياً حالهم ، فكان ذلك مسوّغاً لقبولهم القتال . وقد لا يستعمل أسلوب الأمر المباشر ، بل يستعمل الأسلوب الخبريّ ، وبصيغة البناء للمجهول – خاصة في الأحكام التي فيها من الثقل ، والتكليف عليهم - ؛ لأجل الاهتمام بالحدث الفعليّ في الآية دون النظر إلى صاحبه ، من ذلك قوله تعالى : **﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنْثَى بِالأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾** [3]، فيلحظ استعمال الفعل (كُتِب) ، الذي يوحى لفظه بالوجوب ، ولكن بأسلوب ليّن ؛ لأنّ الأمر يتعلّق بالقصاص في القتل ، وهو ما يحمل من المشقّة على المسلمين ، فاستعمل صيغة البناء للمجهول ، التي تركز على الحدث الكلاميّ من دون النظر إلى محدثه ، كما يلحظ أنّه حين ذكر أمر العفو صرّح بذكر الله تعالى عن طريق وصفه بـ (ربّكم) ، التي تدلّ على سابق فضله عليهم ، وإحسانه إليهم ، فقال (فَمَن عُفي له من أخيه من شيء اتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربّكم). ومثله قوله تعالى : **﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾** [4]، وقد قرن العمل بالحكم الشرعيّ بتحفيزهم عليه ، وذلك بأن جعل العمل بالأمر (حقاً على المتقين) ، فكان ذلك التحفيز موجباً لهم أن ينفّذوا حكم الوصية – إن كانوا من المتقين - ، وقوله تعالى : **﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾**[5] إذ جعل الحكم الشرعي هيّناً ؛ وذلك لكونه ليس أمراً مفروضاً على المسلمين فقط ، بل هو حكم قد سرى على الأمم الماضية ، ثم أعقبه بالتعليل له بقوله (لعلّكم تتقون) ، وقوله تعالى : **﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾**[6]، حاولتْ الآية الكريمة مراعاة حال الإنسان المسلم ، بأنْ أفصحتْ عن دواخله تجاه قضية القتال ، فقال (وهو كره لكم) ، ثم أراد أن يبيّن لهم لِمَ حملهم على أمرٍ ، هو كره لهم ، فعلّله بقوله (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم) ، فكان ذلك تخفيفاً نفسيّاً لهم . ورغّب المسلمين في إعطاء الصدقات ، فلم يستعمل الأسلوب الأمريّ ، بل استعمل أسلوب الاستفهام الباحث عمّن يعطي الدَين لله تبارك وتعالى – وهو الذي بيده ملكوت كلّ شيء –تحفيزاً لهم على التصدّق على الفقراء ، والمحتاجين ، فقال - عزّمَن قال - : **﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾** [7]. فقد استعارتْ الآية الكريمة لفظ (الإقراض) في الإتيان بالصدقة ، وكأن المتصدّق يقرض صاحب عوز – وهو مالك الملك - على اتفاقٍ بينهما أن يرجعه له حين ميسرة ، ثمّ حفّز المتصدّق بأن جعل قرضه / المستعار ، يُعاد إليه (أضعافاً كثيرة) ، فكان العمل بالصدقة شرفاً للمتصدِّق أولاً ؛ كون إقراضه مع الله تعالى ، وثانياً ستكون فائدة الصدقة مضاعفة لها في الدنيا ، والآخرة .

المقبوليّة والقراءات القرآنيّة : وضع علماء القراءات ضوابط لتمييز القراءة الصحيحة من غيرها ، ونقل ابن الجزريّ الشروط التي وضعوها للقراءة الصحيحة ، وهي ((كلّ قراءة وافقتْ العربيّة ولو بوجه ، ووافقتْ المصاحف العثمانيّة ولو احتمالاً ، وصحّ سندها ، فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردّها ، ولا يحلّ إنكارها))[8]. إنّ البحث في القراءات القرآنيّة يرتبط بطريقة ، أو بأخرى بمبدإ المقبوليّة ، فـ ((القراءات السبع اختيارات أولئك القراء ، فإنّ كلّ واحد اختار فيما روى ، وعلم وجهه من القراءة ما هو الأحسن عنده ، والأولى ، ولزم طريقة منها ، ورواها ، وقرأ بها ، واشتهرتْ عنه ، ونُسبتْ إليه))[9] ، فقد اختلف قرّاء القرآن فيما بينهم ، فكلّ واحد منهم يرى صحة قراءته بمقدار فهمه / مقبوليته للنص ، وقد علّل ابن مجاهد هذا الاختلاف بقوله : ((اختلف الناس في القراءة كما اختلفوا في الأحكام ، ورويت الآثار بالاختلاف عن الصحابة ، والتابعين ؛ توسعةً ، ورحمةً للمسلمين))[10] . وقد يُخطّئ بعض القراء بعضاً معتمدين في ذلك أسباباً ، بعضها يمتّ إلى عقيدة المخطّئ ، وبعضها ينظر إلى الاستعمال اللغويّ ، من ذلك ما نقله الزركشيّ في قراءة قوله تعالى : **﴿فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ ﴾**[11]، إذ نقل أنّ بعضهم ((قال : أكره التأنيث لما فيه من موافقة دعوى الجاهليّة في

---

(1) جماليات المفردة القرآنيّة : ٢٦٤ .
(2) سورة البقرة : ١٩٣ – ١٩٤ .
(3) سورة البقرة : ١٧٨ .
(4) سورة البقرة : ١٨٠ .
(5) سورة البقرة : ١٨٣ .
(6) سورة البقرة : ٢١٦ .
(7) سورة البقرة : ٢٤٥ .
(8) النشر في القراءات العشر : ١ / ٩ .
(9) البرهان في علوم القرآن : ١ / ١٦٢ .
(10) السبعة في القراءات : ٤٥ .
(11) سورة آل عمران : ٣٩ .

زعمها أنّ الملائكة إناث ، وكذلك كره بعضهم قراءة مَن قرأ بغير تاء ؛ لأنّ الملائكة جمع))[١] . فالذي يلحظ أنّ المخطّئ الأول رفض القراءة – بتاء التأنيث - ؛ لأنّ ذلك سيكون موافقاً لما أدّعاه الكفار من أنّ الملائكة إناث ، وهنّ بنات الله ، فأراد أن يغيّر قراءته على الرغم من وجود التاء في الرسم القرآنيّ ؛ لدفع توهم أن يكون المعنى موافقاً لزعم مشركٍ ، وهذا يدلّ على الاجتهاد من القارئ عند تلقيه للنصّ القرآنيّ ، فقرأه بالمنظور المعرفيّ العقديّ الذي آمن به ، في حين أنّ القارئ الآخر رفض تلك التخطئة ، ورأى أنّ قواعد اللغة تلزم القراءة بالتاء . ويعقّب الزركشيّ بقوله : ((وهذا كلّه ليس بجيّد ، والقراءتان متواترتان ، فلا ينبغي أنْ تُردّ إحداهما ألبتّة ، وفي قراءة عبدالله (فناداه جبريل) ما يؤيّد أنّ الملائكة مراد به الواحد)) [٢]، ولم أجد هذه القراءة في كتب القراءات[٣]. وممّا يلحظ على نصّ الزركشيّ المتقدّم أن القارئ – عبدالله – قد قرأ النصّ بمنظار المعنى الذي يعطيه لفظ (الملائكة) ، وفي ذلك تعطيل للضوابط التي وضعوها للقراءة . وقد كان للمذاهب الكلاميّة أثر في القراءات ، ففي قوله تعالى : **﴿ ... وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ ...﴾** [٤] ، ((يقف الأشاعرة عند (الراسخون في العلم) على حين يقف المعتزلة عند (يقولون)))[٥] ، وفي ذلك يقول الزمخشريّ : ((ومنهم مَن يقف على قوله (إلاّ الله) ، يبتدئ (والراسخون في العلم يقولون) ، ويفسّرون المتشابه بما استأثر الله بعلمه ، وبمعرفة الحكمة فيه من آياته ، كعدد الزبانية ، ونحوه ، والأول هو الوجه)) [٦] . وقد جوّز العلماء القراءات المتعدّدة للنص القرآنيّ ، إنْ كانتْ موافقة للشروط التي وضعوها للقراءة الصحيحة ، وإن كان فيها بعض الفوارق الدلاليّة ، من ذلك ما يراه الأخفش [ت٢١٥هـ] – مثلاً – في بعض المواضع من جواز قراءة الفعل بالبناء للمعلوم ، أو المجهول ، وذلك في قوله تعالى : **﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ... ﴾** [٧] ، قال : ((وقال بعضهم (يُغلّ) ، وكلّ صواب والله أعلم ؛ لأنّ المعنى : أن يخون ، أو يُخان))[٨] . إنّ الاختلاف في القراءات القرآنيّة يؤدّي في كثير من الحالات إلى الاختلاف في الأحكام الفقهيّة المترتبة على كيفيّة القراءة ، وهو دليل على مقبوليّة كلّ قوم للمعنى بمقدار تلقيه لذلك المعنى المستنبط من القراءة ، وكلّ بحسب ثقافته اللغويّة ، والفقهيّة ، بل وحتى مذهبه الكلاميّ الذي يعتقده ، ولذا يلحظ أنّ الزمخشريّ يرى في قوله تعالى : **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ...﴾**[٩] ، أنّ حكم الأرجل الغسل ، قال : ((قرأ جماعة (وأرجلكم) بالنصب ، فدلّ على أنّ الأرجل مغسولة ، فإنْ قلتَ : فما تصنع بقراءة الجرّ ، ودخولها في حكم المسح ؟ قلتُ : الأرجل من بين الأعضاء الثلاثة المغسولة ، تُغسل بصبّ الماء عليها ، فكانتْ مظنّة للإسراف المذموم المنهي عنه ، فعطفتْ على الثالث الممسوح لا لتمسح ، ولكن لينبه على وجوب الاقتصاد في صبّ الماء عليها))[١٠] . فالزمخشريّ يعلم أنّ القراء السبعة قد انقسموا إلى قسمين ، ((فقرأ ابن كثير وحمزة وأبو عمرو : (وأرجلِكم) خفضاً . وقرأ نافع وابن عامر والكسائيّ : (وأرجلَكم) نصباً . وروى أبو بكر عن عاصم (وأرجلِكم) خفضاً . وروى حفص عن عاصم (وأرجلَكم) نصباً))[١١] ؛ ولذا حاول أن يوجد منزلة وسطاً بين دلالتَي القراءتين .

المحكم والمتشابه بين القصديّة والمقبوليّة :

جاء التصريح في النصّ الكريم أنّ آياته تنقسم إلى قسمين : محكم ، ومتشابه ، قال تعالى : **﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلا أُولُو الأَلْبَابِ ﴾** [١٢]. والذي يظهر من صريح الآية أنّ المحكمات هي ما كان القصد فيها واضحاً محدّداً ، لا يقبل التعدّد في الرأي على الرغم من أنّ علماء علوم القرآن قد ذكروا آراءً فيه ، فالزركشيّ يرى أنّ المحكم في الاصطلاح هو ((ما أحكمته بالأمر ، والنهي ، وبيان الحلال ، والحرام ... وقيل : هو الذي لم يُنسخ ... وقيل : هو الناسخ ، وقيل : الفرائض ، والوعد ، والوعيد . وقيل : الذي وعد عليه ثواباً ، أوعقاباً ، وقيل : الذي تأويلُه تنزيلُه بجعل القلوب تعرفه عند سماعه ... وقيل ما لا يحتمل في التأويل إلاّ وجهاً واحداً ، وقيل : ما تكرّر لفظه))[١٣] . أمّا المتشابه ، فهو ((أن يشتبه اللفظ في الظاهر مع اختلاف المعاني ... وقيل : يحتمل وجوهاً ... وقيل : ما لا يستقلّ بنفسه إلاّ بردّه إلى غيره))[١٤] . من الكلام المتقدّم يمكن التوصّل إلى أنّ الآيات المحكمة آيات ليس للمسلم أنْ يتأوّلها ، أو أن يبحث في أكثر من معنًى لها ، فالمعنى فيها مقصود من الله تعالى ، ولا يجوز للمسلمين الانحراف عن اللفظ بتأويله . أمّا الآيات المتشابهة ، فقد اختلف العلماء في قراءة الآية المتقدّمة، أيكون الوقف فيها على قوله (إلاّ الله) ، أم يكون على قوله (والراسخون في العلم). وهذا الوقف سيحدّد إن كان معنى التأويل مقصوراً على الله تعالى فقط ، ((وأنّ الله تعبّد من كتابه بما لا يعلمون – وهو المتشابه – كما تعبّدهم من دينه بما لا يعقلون – وهو التعبدات -))[١٥] . أم أنّ غيره – سبحانه – قد اشتركوا معه في معرفة المتشابه ، وقد ذهب إلى هذا الرأي مَن جعل الواو في قوله (والراسخون في العلم) للعطف ، فقد رأى أنّ معنى الآيات المتشابه يعلم تأويلها مَن وصفهم بالرسوخ في العلم ؛ ((لأنّ الله

---

(١) البرهان في علوم القرآن : ١ / ٢٣٩ .
(٢) المصدر نفسه : الصحيفة نفسها .
(٣) ينظر : السبعة في القراءات : ٢٠٥ ، والتذكرة في القراءات : ٢١٨ – ٢١٩ ، والعنوان في القراءات السبع : ٧٩ ، والنشر في القراءات العشر : ٢ / ٢٣٩ .
(٤) سورة آل عمران : ٧ .
(٥) التأويل وقراءة النصّ : ١٤٧ .
(٦) تفسير الكشاف : ١ / ٣٣٣ .
(٧) سورة آل عمران : ١٦١ .
(٨) معاني القرآن ، الأخفش : ١٤٩ .
(٩) سورة المائدة : ٦ .
(١٠) تفسير الكشاف : ١ / ٥٩٨ - ٥٩٩ .
(١١) السبعة في القراءات : ٢٤٢ – ٢٤٣ .
(١٢) سورة آل عمران : ٧ .
(١٣) البرهان في علوم القرآن : ٢ / ٤٥ – ٤٦ . وينظر : الإتقان في علوم القرآن : ٢ / ٣ – ٤ .
(١٤) المصدر نفسه : ٢ / ٤٦ .
(١٥) البرهان في علوم القرآن : ٢ / ٤٧ – ٤٨ .

تعالى لم يكلّف الخلق بما لا يعلمون ، وضُعّف الأول ؛ لأنّ الله لم ينزّل شيئاً من القرآن إلاّ لينتفع به عباده ، ويدلّ به على معنًى أراده ... فإنْ قيل : كيف يجوز في اللغة أن يعلم الراسخون ، والله يقول (والراسخون في العلم يقولون آمنا به) ، وإذا أشركهم في العلم انقطعوا عن قوله (يقولون) ؛ لأنّه ليس هنا عطف حتى يوجب للراسخين فعلين ؟ قلنا : إنّ : (يقولون) هنا في معنى الحال ، كأنّه قال (والراسخون في العلم) قائلين آمنّا))[1] . إنّ منتج النصّ يقصد معنًى يريد إيصاله إلى السامع ، أو القارئ ، ولكن هل القارئ حرّ في أن يتجاوز قصد المتكلّم ، فيذهب في المعنى حيثما يريد . إنّ المفردات ، والتراكيب المستعملة في النصّ تقيّد القارئ إلى حدّ ما في تحديد المعنى المطلوب من النصّ، وليس للقارئ أن يحمّل منتج النص ما لم يُرد قوله . وإذا كان القارئ للنصّ الأدبيّ – غير القرآن –بحكم أدبيّة النص ، حرّاً في تحميل النصّ المعاني التي يراها بحسب ثقافته ، ومنهجه ، والمدرسة الأدبيّة، أو النقديّة التي ينتمي إليها ، وهو ما انسحب إلى خلاف في هدف النصّ ، فـ ((هل هدف النص هو الوصول إلى معناه ، أم مغزاه ، أم تحقيق متعة ، أم الوصول إلى التفسير موجّه المعنى ، أم إشباع نفسيّ ؟ إلى آخر تلك المحاور التي أفرزها الخلاف حول الثنائيّة المعروفة القارئ – النصّ))[2]. لكنّ النصّ القرآنيّ – لقداسته – لا يحتمل ، أو لا يجوز الحكم عليه بمثل تلك الآراء ، والمناهج ؛ ولذا يجب الانطلاق من المسلمات العقديّة عند محاولة تفسير النصّ الكريم . إنّ ((النصّ عالم دلالات ، وبنيات ، يتمّ إنتاجها من خلال النصّ ، كما تتجلى من خلال الكاتب ، والقارئ . ولا شكّ أنّ إنتاج النصّ مرتبط بزمن محدّد ، أمّا تلقيه ، أو التأثير الذي يحدثه ، فلا يرتبط بزمان بعينه ، بل تحدث العمليّة في أزمنة عدّة ، وتظلّ تنتج تفسيرات تتعدّد بتعدّد القراءات))[3] .

المبحث الثالث : الإعلاميّة

الإعلاميّة في اللغة والاصطلاح :

الإعلاميّة لغةً [4] **:** هي من الفعل المجرّد : علم يعلم علماً : نقيض الجهل . وما علمتُ بخبرك ، أي ما شعرتُ به . وأعلمتُه بكذا ، أي : أشعرتُه ، واستعلمني الخبر ، فأعلمته إيّاه . وعلمتُ الشيء أعلمه علماً : عرفته. **الإعلاميّة اصطلاحاً :** ذكر الكفويّ مصطلح (الإعلام) ، وعرّفه بقوله : ((عبارة عن تحصيل العلم ، وإحداثه عند المخاطب جاهلاً بالعلم به ؛ ليتحقّق إحداث العلم عنده ، وتحصيله لديه))[5]. ورأى أنّ الإعلام يكون ((بالكتابة ، والإشارة ، والكلام))[6]. إنّ هذا المصطلح لدى القدماء يرادف معنى (الإخبار) ، أو (الإبلاغ) ، فكلّ فعلٍ لغويّ تواصليّ يؤدي إلى الإخبار بمعلومات ، وأحداث لا يعلمها المتلقي ، فإنْ لم يكن كذلك كان نوعاً من الثرثرة ، والاجترار للمعلومات ، والأحداث الحاصلة في الماضي . وإذا كان هذا المعنى المتعارف عليه عند القدماء هو ما يُفهم من المصطلح ، فذلك ما يتوفّر في كلّ حدث لغويّ ، أدبيّاً كان أم لم يكن . فالحديث العام الذي يتناقله الناس يحتوي على مقدار معيّن من الإعلاميّة بهذا المفهوم المتقدّم .

الإعلاميّة في دراسات العرب القدماء :

هناك محاولات مبكرة للغويّين ، والبلاغيّين العرب القدماء ، يُمكن عدّها مهاداً للبحث في إبلاغيّة /إعلاميّة اللغة ، فقد كانتْ الإعلاميّة موجودة لدى القدماء ، ولكنْ بمستويات أخرى غير ما نُظر إليه في الدراسات النصيّة . فقد كان لديهم الوعي بهذا الأمر ، ولكن من دون توسّع ، ومنهجيّة واضحة . ولعلّ خير دليل على ذلك قضيّة تخيّر الألفاظ عند كثير من اللغويّين ا لعرب ، فهي تُمثّل درجةً راقيةً ، ومهمة من درجات النظر في إبلاغيّة المفردة ، ومدى استجابة المتلقي لسماعها ، قبولاً ، أو رفضاً ، مثل معجم (تهذيب الألفاظ) لابن السكيت ، و(الألفاظ الكتابيّة) للهمدانيّ ، و(جواهر الألفاظ) لقدامة بن جعفر ، و (متخيّر الألفاظ) لابن فارس [7] [ت ٣٩٥هـ]. ففي كتاب (متخيّر الألفاظ) لابن فارس ، يُلحظ – على حدّ قول بعض الباحثين [8]- أنّه وضع معايير عدّة لهذا التخيّر ، منها : ((التلقي ، ومدى استجابة المتلقي للفظ ، وانفعاله لسماعه ، ومن ثمّ الطريقة التي يؤدَّى بها اللفظ ، و موقعه من كلام العرب ، ومجازاتهم ، وتشبيهاتهم ، وكذلك البعد الاجتماعيّ المتمثّل بطبقات المتكلّمين ، ودرجاتهم)) [9]. ومثله كتاب (تهذيب الألفاظ) لابن السكيت ، الذي تدلّ أبوابه على معاني الألفاظ من خلال تداولها بين الناس ، وهذا ما يُمثّل إرهاصاً للإبلاغيّة / الإعلاميّة في المصنّفات العربيّة القديمة [10]. من ذلك يُمكن أنْ تكون قضية (تخيّر الألفاظ) الممهّد التأريخيّ للإبلاغيّة ، وقد اتجهتْ إلى الربط بين اللفظ ، أو التركيب ، ودلالته الإيحائيّة ، ومدى الشحنات الانفعاليّة التي قد يحملها ، من دون أيّ تحوّل صيغيّ ، أو صوتيّ . وإذا كان هناك بعض الألفاظ التي يكون للتحوّل الصيغيّ أثر في قيمتها الإيصاليّة ، مثل الأفعال : يأكل ، ويشكر ، ويفعل ، فهي عندما تتحوّل إلى صيغ المبالغة : أكول ،و شكور، وفعول ، تصبح قيمتها التعبيريّة في التركيب ذات دلالة أكثر مبالغة في تحقّق الفعل [11]. ولعلّ ممّا يُمكن أنْ يُزاد على ذلك أنّ هذه الأفعال نفسها – كما يصلح لذلك كلّ فعلٍ يستعمل في غير حقله الدلاليّ – إذا استعملتْ مركبّةً مع ألفاظ لا يتوقّع السامع استعمالها معها ، رفعتْ من درجة الإعلاميّة فيها ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ **وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا**

---

(1) البرهان في علوم القرآن : ٢ / ٤٧ - ٤٨ .
(2) علم لغة النص ، المفاهيم والاتجاهات : ١٨٣ . وينظر : معايير القبول والردّ لتفسير النصّ القرآنيّ : ١١١ .
(3) علم لغة النصّ ، المفاهيم والاتجاهات : ١٨٦ . وينظر : معايير القبول والردّ : ١١٣ .
(4) ينظر : كتاب العين : ٢ / ١٥٢ ، وتاج اللغة وصحاح العربيّة : ٤ / ١١٨٩ ، ومعجم مقاييس اللغة : ٢ / ١٥٩ ، وأساس البلاغة : ٤٣٧ ، ولسان العرب : ٣ / ٢٧٤٣ – ٢٧٤٦ ، والقاموس المحيط : ١٠٥١ (علم).
(5) الكليّات : ١٢٣ .
(6) نفسه : ٥٣ .
(7) ينظر : الإبلاغيّة في الشاهد البلاغيّ : ١١ .
(8) ينظر : الإبلاغيّة في الشاهد البلاغيّ : ١٢ .
(9) المصدر نفسه : ١٢ .
(10) ينظر : المصدر نفسه : ١٣ .
(11) ينظر : المصدر نفسه : ١٣ – ١٤ .

﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴾ [١]. فقد ((مُثِّلت الغيبة بأكل لحم الأخ الميت ، وهو ما يستلزم تمثيل المولوع بها بمحبّة أكل لحم الأخ الميت ، والتمثيل مقصود منه استفظاع الممثَّل ، وتشويهه ؛ لإفادة الإغلاظ على المغتابين لأنّ الغيبة متفشّية في الناس))[٢] . ولعلّ ممّا يدخل في هذا المبحث ، بعض الإشارات التي ذكرها العلماء العرب فيما يخصّ النظم القرآنيّ ، إذ يُلحظ أنّ العلماء يفرّقون بين نظم القرآن ، وكلام العرب ، شعرهم ، ونثرهم ، فرأوا أنّ نظم القرآن هو أحد عوامل إعجازه ، من ذلك قول عبد القاهر الجرجانيّ : ((معلوم أنّ المعوّل في دليل الإعجاز على النظم ، ومعلوم كذلك أنْ ليس الدليل في المجيء بنظمٍ لم يوجد من قبل فقط ، بل في ذلك مضموماً إلى أنْ يبين ذلك النظم من سائر ما عُرف ، ويُعرف من ضروب النظم))[٣] . وهذا البيان عن صنوف النظم لديهم مزية إعلاميّة للنصّ الكريم ، إذ كسر توقعهم في جنس النصّ الأدبيّ الذي يحاولون أن ينسبوا إليه النصّ القرآنيّ الكريم . ويقارب مصطلح الإعلاميّة – في المفهوم – عند الغربيّين مصطلحات كثيرة عند العلماء المسلمين القدماء ، من تلك المصطلحات : (الغرابة– التعجيب– الاستبداع – المستندر– المستطرف– الاستطراف)[٤] ، و (الاستظراف – الإغراب – اللطف)[٥]. من ذلك قول القرطاجنّيّ ، وهو يبيّن مفهوم التعجيب : ((والتعجيب يكون باستبداع ما يثيره الشاعر من لطائف الكلام التي يقلّ التهدّي إلى مثلها . فورودها مستندر ، مستطرف لذلك : كالتهدّي إلى ما يقلّ التهدّي إليه من سبب للشيء تخفى سببيته ، أو غاية له ، أو شاهد عليه ، أو شبيه له ، أو معاند ، وكالجمع بين مفترقين من جهة لطيفة قد انتسب بها أحدهما إلى الآخر ، وغير ذلك من الوجوه التي من شأن النفس أنْ تستغربها))[٦] .

الإعلاميّة في الدراسات النصّيّة الحديثة :

لا يختلف مفهوم الإعلاميّة في الدراسات النصيّة الحديثة كثيراً عن دراسات القدماء ، إذ تعتمد الإعلاميّة – في نحو النص – على الجدة ، أو التنوع الذي توصف به المعلومات ، وعلى مدى الإثارة لانتباه المتلقي . والإعلاميّة أحد المعايير السبعة التي وضعها روبرت دي بوجراند للنصّ ، ورأى أنها ((العامل المؤثّر بالنسبة [٧] لعدم الجزم في الحكم على الوقائع النصيّة ، أو الوقائع في عالم نصيّ في مقابلة البدائل الممكنة . فالإعلاميّة تكون عالية الدرجة عند كثرة البدائل ، وعند الاختيار الفعليّ لبديل خارج الاحتمال . ومع ذلك نجد لكلّ نصّ إعلاميّة صغرى على الأقلّ ، تقوم وقائعها في مقابل عدم الوقائع))[٨]. ويُوضّح معنى هذا الكلام ، بقوله : ((ننظر إلى هذا المصطلح لا من حيث كونه يدلّ على المعلومات التي تشكل محتوى الاتصال ، بل من حيث يدلّ بالأحرى على ناحية الجدة ، أو التنوع الذي توصف به المعلومات في بعض المواقف ... فإنّ إعلاميّة عنصر ما تكمن في نسبة احتمال وروده في موقع معين (أي إمكانه وتوقعه) بالمقارنة [٩] بينه وبين العناصر الأخرى من وجهة النظر الاختياريّة . وكلّما بعُد احتمال الورود ارتفع مستوى الكفاءة الإعلاميّة))[١٠]. لذا لا بدّ أن يكون النصّ محمّلاً بمعان ، ودلالات يريد المنتج أنْ يوصلها إلى المتلقي ، إذ لو كان النص فارغاً من الدلالة ، فلا يكون – عند ذلك –نصّاً ، كما لا بدّ لهذه الدلالات من أن تكون مترابطة ، ومنسجمة [١١]. وتعلّق الإعلاميّة بمستوى توقع الموجود في النصّ من لدن المتلقين ، يجعل الإعلاميّة نسبيّةً ، تختلف من متلق إلى آخر ، بحسب ثقافة كلّ واحد منهم واطلاعه ، وتطبّق هذه الفكرة على المحتوى ، والربط بين الوقائع في النصّ ، وتبرز بصفة خاصّة في المجاز [١٢]. ويرى روبرت دي بوجراند أنّ الكفاءة الإعلاميّة ليستْ بدرجة واحدة، بلهي متباينة بحسب احتماليّة ورود البدائل في النصّ ، فكلّما قلّتْ احتماليّة الورود كانت الكفاءة الإعلاميّة أعلى درجة ؛ ولذا فقد قسّم الإعلاميّة على ثلاث مراتب :

١- كفاية إعلاميّة من المرتبة الأولى : ((وتتحقّق كفاءة إعلاميّة من المرتبة الأولى في العوالم الواقعيّة ، حيث توجد بدائل كثيرة ، ويحدث ذلك عند اختيار بديل في الدرجة العليا من الاحتمال))[١٣]. ويعني ذلك أنّ الألفاظ ، والتراكيب ، والتعبيرات المستعملة في النص متوقّعة بدرجة عالية ، وليس فيها لفظ ، ولا تعبير خارج نطاق توقّع متلقي النصّ .

٢- كفاية إعلاميّة من المرتبة الثانية : وهي ((اختيار بديل من الدرجة الوسطى ، أو من دنيا الوسطى من الاحتمالات ، يفضي إلى المرتبة الثانية من الكفاءة الإعلاميّة ... ولعلّ وجود عناصر واردة من المرتبة الثانية هو المستوى العادي للاتصال بطريق النص ، حتى إنّ العناصر الواردة من المرتبة الأولى يُمكن إعلاء مرتبتها ... كما أنّ العناصر الواردة من المرتبة الثالثة يمكن خفض نسبتها))[١٤]. وفي هذه المرتبة من الكفاءة يكون صاحب النصّ قد اختار (التعويضات) ، أو (التفضيلات) التي تصلح أنْ تكون بدائل لغيرها متوقّعة ، وتكون تلك التعويضات ، أو (التفضيلات) أقلّ توقّعاً [١٥].

---

[١] سورة الحجرات : ١٢ .
[٢] تفسير التحرير والتنوير : ٢٦ / ٢١٢ .
[٣] الرسالة الشافيّة ، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن : ١٣٣ .
[٤] ينظر : منهاج البلغاء وسراج الأدباء : ٩٠ – ٩١ . وينظر : الإعلاميّة في الخطاب القرآنيّ : ٥ .
[٥] ينظر : أسرار البلاغة : ٢٠٤ . وينظر : الإعلاميّة في الخطاب القرآنيّ : ٥ .
[٦] منهاج البلغاء : ٩٠ .
[٧] كذا ، والصحيح : فيما يخصّ عدم ... .
[٨] النصّ والخطاب والإجراء : ١٠٥ . وينظر : المصطلحات الأساسيّة في لسانيّات النص وتحليل الخطاب : ٨٨ .
[٩] كذا ، والصحيح : بالموازنة .
[١٠] النصّ والخطاب والإجراء : ٢٤٩ . وينظر : علم لغة النصّ ، النظرية والتطبيق : ٦٨ .
[١١] ينظر : نحو النص ، اتجاه جديد في الدرس النحويّ : ٨٦ .
[١٢] علم لغة النص ، النظرية والتطبيق : ٦٨ .
[١٣] النص والخطاب والإجراء : ٢٥٣ . وينظر : الإعلاميّة في الخطاب القرآنيّ : ٧ .
[١٤] النص والخطاب والإجراء : ٢٥٥ .
[١٥] ينظر : النص والخطاب والإجراء : ٢٥٥ . وينظر: الإعلاميّة في الخطاب القرآنيّ : ٨ .

٣- كفاية إعلاميّة من المرتبة الثالثة : وهي ((ما يُعدّ من بين العناصر الواردة خارج نطاق الخيارات المحتملة على درجة التقريب يصل بنا إلى المرتبة الثالثة من الكفاءة الإعلاميّة . وهذه العناصر غير معتادة ، وشديدة الإثارة للانتباه ، ومن ثمّ يصعب فهمها ، والسيطرة عليها))(١) .

ويؤكد علماء النصّ أنّ الإعلاميّة تكون ((عالية في الوقائع التي تبدو لأوّل وهلة خارجة بعض الشيء على قائمة الاختيارات المتملة ، وهذه الوقائع قليلة الحدوث نسبيّاً ، وتتطلب قدراً من الاهتمام ، وتكون أكثر إمتاعاً . وتنقسم إلى قسمين ، هما : الانقطاعات ، وفيها تبدو تشكيلة ما خالية من المادة . والمفارقات ، وفيها تبدو الأنماط المعروضة في النص غير مواكبة لأنماط المعرفة المختزنة ممّا يستلزم من مستقبلي النص البحث في الدافع ، وسبب الاختيار من أجل استمراريّة الاتصال))(٢). إنّ محاولة البحث عن مظاهر الإعلاميّة في السور المدنيّة من القرآن الكريم تطلب من البحث أن يقسّم هذه المظاهر على وفق مستويات اللغة ، وكما يأتي :

الإعلاميّة على مستوى الصوت :

يظهر أثر الإعلاميّة على مستوى الصوت من خلال استعمال أسلوب معيّن في الكلام ، يكون إنتاجه كسراً لتوقع المخاطب / المتلقي . وقد يكون في استعمال التنغيم الصوتيّ دليل على تلك الإعلاميّة ، من ذلك قوله تعالى : **﴿... كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ...﴾** (٣). فالآية الكريمة تصف ردّ فعل أهل الجنة ، وهم يأكلون من ثمرها ، الذي يشابه ثمر الدنيا في الشكل ، ويختلف عنه في الطعم ، فالإنسان بطبعه يأنس ما هو مألوف له ، وينفر عمّا لم يكن له به عهد ؛ ((ولأنه ظفر بشيءٍ من جنس ما سلف له به عهد ، وتقدّم له معه إلف ، ورأى فيه مزية ظاهرة ، وفضيلة بيّنة، وتفاوتاً بينه ، وبين ما عهد بليغاً ، أفرط ابتهاجه ، واغتباطه ، وطال استعجابه ، واستغرابه ، وتبيّن كنه النعمة فيه ، وتحقّق مقدار الغبطة به))(٤) . فالنص القرآنيّ الكريم يضع المتمعن فيه أمام عنصر مهم عند تلقيه هذه الآية ، وهو عنصر المفاجأة / كسر التوقع ، فالإحساس بلذة المأكول ، المشابه لثمار الدنيا شكلاً ، والمختلف عنها طعماً ، يثير الاستغراب ، والغبطة معاً ، فإذا تحقق ذلك في النص ، كان مدعاةً للتفاعل بينه ، وبين المتلقي ، وتكون المزية في الجديد الذي لم يُؤلَف ، ولم يكن له عهد سبق (٥). ومثله قوله تعالى : **﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ... ﴾**(٦) ، فقوله (إنّي وضعتها أنثى) فيه إظهار للحسرة ، وكسر لتوقعها ، الذي أرادته أن يكون ولداً ، قال الزمخشريّ : ((إنْ قلتَ : فلِمَ قالتْ : إنّي وضعتها أنثى ، وما أرادتْ إلى هذا القول ؟ قلتُ : قالته تحسّراً على ما رأت من خيبة رجائها ، وعكس تقديرها ، فتحزّنتْ إلى ربّها ؛ لأنها كانت ترجو ، وتقدر أن تلد ذكراً))(٧) . وممّا يدخل في هذا المبحث (حروف التهجي) الواردة في أوائل بعض السور القرآنيّة المدنيّة (البقرة – آل عمران – الرعد) ، فهذه الحروف استُفتح بها في تسع وعشرين سورة قرآنيّة ، وقد اختلف العلماء في المعنى الذي تفيده هذه الحروف ، وانتهوا في ذلك إلى قولين (٨) :

١- أنّه علم مستور ، وسرّ حجبه الله ، واستأثر به . وقد نفى المتكلّمون هذا القول ، وقالوا : لا يجوز أنْ يرد في القرآن ما لا يفهمه المخاطبون ؛ لأنّ الله تعالى أمرنا بتدبّره ، والاستنباط منه . وقد رُدّ قولهم بأنّ ذلك لا يمكن إلاّ مع إحاطتنا بمعناه ؛ لأنّه كما جاز التعبّد بما لا يحاط بمعناه في الفعل ، فلِمَ لا يجوز في القول بأن يأمرنا الله بما نقف على معناه تارة ، وتارةً أخرى بما لا نقف على معناه ، ويكون قصده ظهور الانقياد منّا ، والتسليم .

٢- أنّ المراد منه معلوم ، وذكروا فيه ما يتجاوز العشرين وجهاً – كما قال الزركشيّ (٩) – مع أنه قد عدّ منها ثلاثة عشر وجهاً فقط . ولعلّ أقربها إلى مبحث الإعلاميّة ما يأتي :

أ- أنّ لكلّ كتاب سرّاً ، وسرّ القرآن فواتح سوره . ورأى ابن فارس – كما نقل الزركشيّ – أنّ قائل ذلك أراد منه السرّ الذي يختصّ الله – تبارك وتعالى - به ، والراسخون في العلم .

ب- أنّ المشركين كانوا إذا سمعوا القرآن يُتلى لغوا فيه ، وقال بعضهم – كما يحكي النصّ الكريم عنهم -:**﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾** (١٠) ، فأنزله الله – تعالى - ؛ ليعجبوا منه ، ويكون ذلك سبباً لاستماعهم ، ثمّ استماعهم لما بعده ، فترقّ قلوبهم ، وتلين .

ت- أنّها كالمهيّجة للفصحاء منهم ، والموقظة للهمم الراقدة من بلغائهم لطلبهم التساجل ، وأخذهم في التفاضل . وما كان هذا شأنه جدير بالنظر فيه ، والتوقف على معانيه بعد أن تحفظ مبانيه .

الإعلامية على مستوى الصرف :

تظهر الإعلاميّة على مستوى الصرف من خلال كسر توقّع المتلقي في استعمال أوزان صرفيّة لجذر لغويّ ، لم يستعملها العرب قبل نزول القرآن . هذا من جانب ، ومن جانب آخر تبرز الإعلاميّة من خلال الاستعمال القرآنيّ للقاعدة

(١) النص والخطاب والإجراء : ٢٥٥ .
(٢) علم لغة النص ، النظرية والتطبيق : ٦٩ .
(٣) سورة البقرة : ٢٥ .
(٤) تفسير الكشّاف : ١ / ١١٣ . وينظر : استقبال النص عند العرب : ١٨ .
(٥) ينظر : استقبال النص عند العرب : ١٨ .
(٦) سورة آل عمران : ٣٦ .
(٧) تفسير الكشاف : ١ / ٣٥٠ .
(٨) ينظر : البرهان في علوم القرآن : ١ / ١٢٦ – ١٢٩ .
(٩) المصدر نفسه : ١ / ١٢٦ – ١٢٩ .
(١٠) سورة فصّلت : ٢٦ .

الصرفيّة لتي وضعها علماء اللغة ، والصرف للأوزان الصرفيّة ، فيكون استعمال أحدها بدل الآخر كسراً لتوقع المخاطب ، وخروجاً على القاعدة الصرفيّة الموضوعة . وفيما يأتي بيان بمظاهر هذه الإعلاميّة :

استعمال وزن صرفيّ لم يستعمل من قبل: وذلك أنْ يكون الجذر اللغويّ للكلمة معروفاً عند العرب، ولكن النصّ الكريم استعمل وزناً من ذلك الجذر اللغويّ ، لم يكن العرب قد استعملوه من قبل ، من ذلك استعمال المفردة (طاغوت) من الجذر اللغويّ (طغا) ، فقد استعمله النصّ الكريم في ثمانية مواضع ، ست منها في السور المدنيّة ، منها قوله تعالى : **﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّين قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾**[١] . فالمفردة مأخوذة من الجذر اللغوي (طغو) ، أو (طغي) ، وهو ((كلّ شيء يجاوز القدر فقد طغى))[٢] ، والوزن الصرفيّ لهذه المفردة هو ((فيما قيل : فَعَلُوت ، نحو جبروت ، وملكوت ، وقيل : أصله طَغَووت، ولكن قُلِب لام الفعل ... ثم قُلِب الواو ألفاً لتحركه ، وانفتاح ما قبله))[٣] ، فيكون وزنه ((فَلَعُوت من طَغَوت))[٤] ، فـ ((تاؤه زائدة))[٥] . ورأى محمد بن عُزيز السجستانيّ أنّ الطاغوت في الآية هو ((أصنام ، والطاغوت من الأنس ، والجنّ : شياطينهم))[٦] في حين عرّفه الراغب ، بقوله : ((عبارة عن كلّ متعدّ ، وكلّ معبود من دون الله))[٧]، وحاول الفيروز آبادي أن يجعله اسماً شاملاً لكلّ الضلالات من خلال استقرائه للاستعمال القرآني في كلّ المواضع التي ورد فيها ، فقال : ((الطاغوت : اللات ، والعزى ، والكاهن ، والشيطان ، وكلّ رأس ضلالة ، والأصنام ، وكلّ ما عُبد من دون الله ، ومردة أهل الكتاب))[٨] . وقد أكد بعض الباحثين المحدثين أنّ هذا المصطلح لم يُستعمل في الشعر الجاهليّ ، فقال : ((والجبت ، والطاغوت كلاهما مصطلح قرآنيّ جديد ، ولم أجد – فيما قرأت – من الشعر الجاهليّ شاهداً على أيّ منهما))[٩] . ومن صور الإعلاميّة **المصدر الصناعيّ** ، وهو ((كلّ لفظ زيد في آخره ياء مشدّدة ، بعدها تاء مربوطة ؛ ليدلّ على معنى مجرد ، لم يكن يدلّ عليه قبل الزيادة ، وهذا المعنى المجرد الجديد هو مجموعة الصفات الخاصة بذلك اللفظ))[١٠] . وقد استعمل هذا المصدر في القرآن الكريم، من ذلك استعمال المصدر (الجاهليّة) في أربعة مواضع ، كلّها في السور المدنيّة ، منها قوله تعالى : **﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ ... ﴾**[١١] . ونقل السيوطيّ عن ابن خالويه [ت ٣٧٠هـ] قوله : ((إنّ لفظ الجاهليّة اسم حَدَث في الإسلام للزمن الذي كان قبل البعثة))[١٢] ، فهذا الاستعمال لهذا الوزن غير مسبوق للقرآن الكريم ، ((وربّما كان مصطلح الجاهليّة من أشهر المصطلحات التي أطلقها القرآن الكريم ... وربّما يجوز لنا أن نقول إنّ الجاهليّة قد أصبحت علماً ، ومصطلحاً على كلّ عصر ، وعلى كلّ شعب ، لا يخضع لحكم الله – عزّ وجلّ – في نظامه))[١٣] . ومن اللافت للنظر أنّ هذا المصطلح قد استعمل في العهد المدنيّ دون العهد المكيّ ، إذ لم يكن الحكم في مكة للإسلام ، وإنّما كان الإسلام في تلك المدّةضعيفاً ، ومحارباً ، فلمّا استقرّ الأمر للنبيّ ρ في المدينة ، وأصبح الحكم باسم الله - تبارك وتعالى – استعمل هذا المصطلح للدلالة على الأعراف ، والتقاليد ، والديانات الخارجة عن عبادة الله تعالى ، والتي تحكم عصبيتها القبليّة ، وأعرافها الجاهلة .

الخروج على القاعدة الصرفيّة : وضع علماء النحو ، والصرف قواعدهم بعد استقراء كلام العرب ، فكان لكلّ صيغة فعليّة المصدر المناسب لها ، ولكن وُجِد في النصّ القرآنيّ الكريم خروجٌ على هذه القواعد ، وكان هذا الخروج كسراً لتوقع المتلقي ، الذي يعرف أنّ الوزن الصرفي المناسب للفعل غير مستعمل ، لذا كان لا بدّ من التعرّف على اللمسة البيانيّة التي أنتجتْ هذا الخروج ، من ذلك قوله تعالى : **﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَامَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾**[١٤] . فقد استعمل لفعل (تقبّل) ، وكانت القاعدة تقتضي أن يكون المصدر تقبُّلاً ، كما استعمل الفعل (أنبت) ، وكان مقتضى القاعدة أن يكون المصدر (إنباتاً) ، فكان ذلك كسراً لقواعد الصرف ، وقد حاول المفسّرون أن يوجدوا الأثر البلاغيّ المترتب على هذا الخروج ، والمصدر (قبول) من المصادر الشاذة[١٥] ، وسبب هذا العدول عن مصدر الفعل بحسب القاعدة ؛ ((للإيذان بمقارنة التقبل لكمال الرضا ، وموافقته للعناية الذاتية ، فإنّ صيغة التفعّل مشعرة بحسب أصل الوضع بالتكلف ، وكون الفعل على خلاف طبع الفاعل))[١٦] ، ورأى آبادي أنّ استعمال هذا المصدر ؛ ((للجمع بين الأمرين : التقبّل الذي هو الترقي في القبول ، والقبول الذي يقتضي الرضا

---

(١) سورة البقرة : ٢٥٦ . وورد أيضاً في : سورة البقرة : ٢٥٧ ، سورة النساء : ٥١ ، ٦٠ ، ٧٦ ، وسورة المائدة : ٦٠ ، سورة النحل : ٣٦ ، وسورة الزمر : ١٧ .

(٢) كتاب العين : ٤ / ٤٣٥ .

(٣) مفردات ألفاظ القرآن : ٥٢١ (طغى). وينظر : بصائر ذوي التمييز ٣ / ٥٠٩ .

(٤) بصائر ذوي التمييز : ٣ / ٥٠٩ .

(٥) كتاب العين : ٤ / ٤٣٦ .

(٦) نزهة القلوب : ٣١١ .

(٧) مفردات ألفاظ القرآن : ٥٢٠ – ٥٢١ .

(٨) بصائر ذوي التمييز : ٣ / ٥٠٩ .

(٩) التطور الدلاليّ بين لغة الشعر ولغة القرآن : ٣٢٩ .

(١٠) معجم مصطلحات النحو والصرف والعروض والقافية : ١٨٠ .

(١١) سورة آل عمران : ١٥٤ . وورد – أيضاً – في سورة المائدة : ٥٠ ، وسورة الأحزاب : ٣٣ ، وسورة الفتح : ٢٦ .

(١٢) المزهر في علوم اللغة : ١ / ٣٠١ .

(١٣) التطور الدلاليّ : ١٥٠ .

(١٤) سورة آل عمران : ٣٧ .

(١٥) ينظر : تاج اللغة وصحاح العربيّة : ٤ / ١٠٨٠(قبل) .

(١٦) روح المعاني : ٣ / ١٨٥ .

والإثابة))[١]. ولعلّ هذا الخروج على القاعدة الصرفيّة يحاكي الخروج على الأعراف التي توافقوا عليها ، إذ إنّهم لم يُدخلوا إلى بيت المقدس امرأة قبل مريم ، فناسب خروجهم على العرف خروجهم على القاعدة الصرفيّة الموضوعة للفعل . ومثله الفعل (أنبت) الذي كان يقتضي المصدر (إنبات) ، فخرج على القاعدة ؛ لأنّ المعنى الذي يتحقق في الخروج أسمى ممّا لو بقي على وضعه ، إذ إنّ هذا العدول أولاً : تنبيه على ((أنّ الإنسان من وجهٍ نبات ، من حيث إنّ بدأه ، ونشأه من التراب ، وإنّه ينمو نموّه))[٢]، وثانياً : إنّ (الإنبات) يدلّ على حصول الفعل ، ومطاوعة المفعول له من دون أن يكون له مكانة فيه عند وصفه بـ (حسن) ، في حين أنّ (نباتاً) يدلّ على ما تقدّم ، وزيادة معنى ، إذ في (نبات) دلالة على أنّ النبات يتصف بالحسن في ذاته .

الإعلاميّة على مستوى التركيب :

نشأتْ الدراسات النحويّة ، والبلاغيّة ، محفّوَةً بالنص القرآنيّ الكريم ، فكانتْ غايتها حفظ اللسان من الزلل ، أو الخلل في قراءة القرآن ، أو لبيان إعجازه ، ومعانيه ، أو لشرح غامضه ، وغريبه . وكان النص القرآنيّ أحد مصادر الاستشهاد في وضع قواعد العربيّة ، وإنْ كانتْ نسبة شواهده – في كتاب سيبويه – لا تتجاوز أربعمئة شاهد مقارنةً بالشعر الذي بلغتْ شواهده ألفاً وخمسين شاهداً [٣]. ولكلّ لغة من اللغات قواعد يؤلّف الكلام على وفقها ، وتنسج التعابير ، والتراكيب بحسبها ، ولا يخرج التركيب عن القواعد ، ولايُغيّر فيها إلاّ لمعنى يريده المتكلّم ، أو أنّ سياق الحال يفرض عليه ذلك الخروج ، أو الكسر تلك القواعد . وقد بُنيتْ قواعد اللغة العربيّة على توافر طرفي إسناد في الجملة الواحدة ، ثمّ يؤتى بالفضلة التي تكمل المعنى المطلوب في الكلام . ولكنّ هذه القواعد لم تكن مطّردة ، لا في كلام العرب ، ولا في النص القرآنيّ الكريم ، فقد تتقدّم العناصر غير الداخلة في علاقة الإسناد على عناصر الإسناد ؛ لغايةٍ متحققة في النص ، أو أنْ يكون نسق الكلام جارياً على علامةٍ إعرابيّة معيّنة ، فيتغيّر في أثناء الكلام لغاية يحقّقها منشئ النص . وقد أظهر النصّ القرآنيّ استعمالات غير متوافقة مع قواعد النحو التي وضعها نحاة العربيّة ، فكسرتْ بذلك أفق توقعهم / إعلاميتهم في كون النص الكريم قد خالف قواعدهم الموضوعة على القياس ، والمنطق ، لا الاستعمال ، والمعنى[٤]. ومن مظاهر ذلك الخروج على القاعدة النحويّة ، الذي أكسب النصّ الكريم مزية الإعلاميّة على مستوى تركيب الكلام :

مجيء الاستعمال على لغة (أكلوني البراغيث) :كانت القاعدة النحويّة التي وضعها النحاة على الكلام العربيّ ، الذي تواضعوا على الاستشهاد به ، واتخاذه الدليل على صحة قواعدهم ، هي أنّ لكلّ فعل في التركيب فاعلاً واحداً ، ولا يمكن له أنْ يتعدّد ، ولكن هناك لغة عند العرب ، وهي المعروفة بـ (لغة أكلوني البراغيث) ، كانتْ تأتي بالكلام مستعملةً فاعلين لفعل واحد ، وقد عدّ النحاة هذه اللغة شاذةً ، ولا يصحّ القياس عليها ، ولا يُؤلّف الكلام على نسجها ، وقد جاء الاستعمال القرآنيّ آخذاً من تلك اللغة الشاذة – على حدّ قول النحاة – وذلك في قوله تعالى : **﴿ وَحَسِبُواْ أَلا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾** [٥]. فالذي يلحظ أنّ الآية الكريمة قد استعملتْ هذه اللغة ، في قوله (عموا وصمّوا كثيرٌ) . وقد حاول النحاة إيجاد تأويل نحويّ لهذا الاستعمال الذي كسّر توقّعهم عند مخالفته لقواعدهم ، فرأى الفرّاء أنّ (كثير) رُفع من جهتين ((إحداهما أنْ تكرّ الفعل عليها ، تريد : عمي وصمّ كثير منهم ، وإنْ شئتَ جعلتَ (عموا وصمّوا) فعلاً للكثير ... وهذا لمَن قال : قاموا قومُك . وإنْ شئتَ جعلتَ الكثير مصدراً ، فقلتَ : أي ذلك كثير منهم))[٦] . ورأى الأخفش أنّ رفع (كثير) على البدليّة ، فقال : ((ولم يقل (ثمّ عمي وصمّ) وهو فعل مقدّم لأنه أخبر عن قوم أنّهم عموا وصمّوا ، ثم فسّر كم صنع ذلك منهم ، كما تقول : رأيتُ قومَك ثلثيهم ... وإن شئتَ جعلتَ الفعل للآخر ، فجعلته على لغة الذين يقولون : أكلوني البراغيثُ))[٧] . وحاول مكي بن أبي طالب إيجاد تخريج آخر للآية ، فقال : ((وقيل : كثير رفع على إضمار مبتدإٍ دلّ عليه (عموا وصمّوا) ، تقديره : العمي والصمُّ كثير منهم))[٨] .

عطف المرفوع على المنصوب : يشارك المعطوفُ المعطوفَ عليه في كثير من الأحكام النحويّة ، وهذا ما جاء به النص القرآنيّ الكريم ، وكلام العرب ، من شعر ونثر ، غير أنه جاءت بعض الآيات غير موافقة لهذه القاعدة النحويّة ، من ذلك قوله تعالى : **﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾** [٩]. ذهب النحاة إلى أنه لا يجوز العطف بالرفع على اسم (إنّ) قبل تمام الخبر ، فلا يجوز أن تقول : إنّ زيداً ومحمّد قائمان ، وإنّما يوجبون أن تؤخر (محمداً) إلى ما بعد الخبر ، فتقول : إنّ زيداً قائم ومحمّد [١٠]. وقد حاول النحويون تأويل الرفع لقوله (الصابئون) بتأويلات عدّة ، منها :

أولاً : أنّها مبتدأ خبره محذوف على نيّة التأخير ، وتقدير الكلام : إنّ الذين آمنوا والذين هادوا ... والصابئون كذلك [١١].

ثانياً : يرى الكسائيّ أنّ (الصابئون) معطوفة على موضع اسم (إنّ) [١٢].

---

(١) بصائر ذوي التمييز : ٤ / ٢٣٥.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن : ٧٨٧.

(٣) ينظر : الشواهد والاستشهاد في النحو : ٢٩ .

(٤) ينظر : نحو القرآن : ٧ – ١٠ .

(٥) سورة المائدة : ٧١ . وقد وردتْ هذه اللغة في قوله تعالى : (وأسرّوا النجوى الذين ظلموا)(سورة الأنبياء : ٣) .

(٦) معاني القرآن ، الفراء : ١ / ٢١٥ – ٢١٦ . وينظر : إعراب القرآن : ٢٩٣ .

(٧) معاني القرآن ، الأخفش : ١٧٢ . وينظر : مغني اللبيب : ٢ / ٥٨٢ ، وهمع الهوامع : ٣ / ١٤٨ .

(٨) مشكل إعراب القرآن : ١ / ٢٣٤ .

(٩) سورة المائدة : ٦٩ . وقد جاءتْ الآية (٦٢) من سورة البقرة مطابقة لهذه الآية إلاّ في كلمة (الصابئين) بالنصب .

(١٠) ينظر : الكتاب : ٢ / ١٤٤ – ١٤٦ .

(١١) ينظر : الكتاب : ٢ / ١٥٥ ، والأصول في النحو : ١ / ٢٥٣ ، وإعراب القرآن : ٢٩٢ ، وأسرار العربيّة : ٩٥ ، ومغني اللبيب : ٢ / ٥٤٧ .

(١٢) ينظر : أسرار العربيّة : ٩٥ ، والانصاف في مسائل الخلاف : ١ / ١٨٦ ، وهمع الهوامع : ٣ / ٢٠٥ . ونقل جامع كتاب (معاني القرآن) للكسائي هذا الرأي عن بعض المفسّرين ، ينظر : معاني القرآن ، الكسائيّ : ١٢٥ – ١٢٦ .

ثالثاً : يرى الفرّاء أنّه جاز الرفع ؛ لأنّ (إنّ) ضعيفة ، فلا تؤثّر إلاّ في الاسم دون الخبر ، و(الذين) هنا لا يتبيّن فيه الإعراب ، فجرى الأمران على جهة واحدة ، فجاز الرفع رجوعاً إلى أصل الكلام [1].

رابعاً : أنّ (الصابئون) معطوف على موضع (إنّ) ، وما عملتْ فيه ، وخبر (إنّ) منويّ قبل (الصابئون) ، وقد ذهب إلى هذا الرأي مكيّ بن أبي طالب [2].

خامساً : ذهب الدكتور فاضل السامرّائيّ – من المحدثين – إلى أنّ العربيّة قد عرفتْ هذا الاستعمال ، وهو قطع الكلمة من سياقها النحويّ ، وأنّ هذا الاستعمال لأداء معنى ، لا يتمّ بالإتباع ، فهو يلفت نظر السامع ، ويثير انتباهه ((فإذا خالفتَ بينهما نبّهت الذهن ، وحرّكته إلى شيءٍ غير معتاد ، فهو كاللافتة ، أو المصباح الأحمر في الطريق ، يثير انتباهك ، ويدعوك إلى التعرف على سبب وضعه))[3] .

عطف المنصوب على المرفوع : يشبه ما مرّ في الحالة السابقة ، ولكن هذه المرّة ، يُعطف منصوب على مرفوع ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ **لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ [4] . فقد جاء قوله (المقيمين) في سياق ، المعطوفات فيه مرفوعة ، وجاء هو بحالة النصب ؛ ولذا حاول بعض العلماء توجيه سبب النصب ، فنقل الشيخ الطوسيّ عن ((الفرّاء ، أو الزجاج ، وغيرهما من النحويين : هو من صفة الراسخين ، لكنْ لمّا طال ، واعترض بينهما كلامٌ ، نصب (المقيمين) على المدح ، وذلك سائغ في اللغة))[5] .

تقديم المفعول به على الفاعل : من القواعد التي وضعها النحاة ، أنّ المفعول به يُقدّم على فاعله إذا كان في الفاعل ضمير يعود على المفعول به ، وهذه القاعدة – على الرغم من عموميّتها –لا تبحث في كون الفاعل اسماً صريحاً ، أو صفة نائبة عن الفاعل ، أو غير ذلك ، وهو ما له أثره الدلاليّ في النصّ ، كما سيلحظ في قوله تعالى : ﴿ **وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ...** ﴾ [6] . فقد جاء تركيب الكلام بتقديم المفعول به على الفاعل ، وقد علّل النحاة هذا التقديم أنّه قد جاء في الفاعل ضمير يعود على المفعول به ؛ ولذا كان لا بدّ من تقديم المفعول على الفاعل كي لا يعود الضمير على متأخر عنه رتبةً . ولعلّ ممّا يمكن أنْ يقال في الآية الكريمة : إنّ الله – عزّ وجلّ – استعمل صفة الربوبيّة بدلاً من اسمه الصريح المقدّس أوّلاً ،ثانياً : إنّ افتراض حذف الضمير من قوله (ربّه) ، وتقديمه على المفعول به ، وذلك بأنْ يكون الكلام على النحو الآتي : (ابتلى ربٌّ إبراهيم) فيه الكثير من التعمية ، وفساد المعنى ، والإبهام عن المقصود بأنْ يكون هو غير الله – تبارك وتعالى - . أمّا في تقديم المفعول به ، وإضافة الفاعل إلى الضمير ، مع اختيار صفة الربوبيّة ، فقد تحقّق فيها أكثر من معنى ، فأوّلاً : أنّ المبتلي هو (ربّه) ، الذي تكفل بخلقه ، ورزقه ، وهدايته إلى طريقه ، وثانياً : في إضافة (ربّ) إلى ضمير إبراهيم تشريف له ، إذ جعل عمله المبتلى به تطبيقاً لأمر ربّه .

حذف حرف النداء مع لفظ الجلالة ، وصفاته :لم يستعمل النصّ القرآنيّ النداء مع الاسم العظيم (الله) ، وقد استعمل التركيب (اللهم) ، وهي بحسب رأي النحويين البصريين نداء حُذف منه حرف النداء ، والميم عوض عنه [7]. وقد ردّ علم اللغة الحديث هذا الرأي ، ورأى أنّ هذه الصيغة ليستْ عربيّة ، ((وإنّما هي في الأصل (إلوهيم) العبريّة التي تعني الآلهة ؛ لأنّ فيها علامة الجمع (الياء) ، و(الميم) ، ولكن الاستعمال لا يريد منها غير الله ، وعلامة الجمع إنّما جاءتْ للتعظيم))[8]. وقد أجاز سيبويه حذف أداة النداء إذا كان المخاطب مقبلاً على المتكلّم ، فقال : ((أول الكلام أبداً النداء ، إلاّ أن تدعه ؛ استغناءً بإقبال المخاطب عليك))[9] . وقد ورد النداء مع صفة الربوبيّة لله تعالى في صيغتي المضاف لى ياء المتكلّم (ربِّ) ، والمضاف إلى ضمير المتكلّمين (ربّنا) ، وقد حذف معها حرف النداء إلاّ في موضعين [10]، وهما قوله تعالى : ﴿ **وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا** ﴾ [11]، وقوله تعالى : ﴿ **وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ** ﴾ [12]. ولعلّ الذي يلفت النظر أنّ المناديَ في الموضعين هو الرسول محمد ρ ، ففي آية الفرقان ((المراد بالرسول محمد ρ بقرينة ذكر القرآن))[13] ، وفي آية الزخرف ((ضمير (قيله) للنبيّ ρ بلا إشكال))[14] . وسبب الإبقاء على حرف النداء في هذين الموضعين هو أنّ حرف النداء ، وما يحويه من مدّ للصوت ، يُبيّن مقدار الشكوى من الرسول ، وما قاساه من قومه ، فهذا القول ((ممّا يقوله الرسول يوم القيامة لربّه على طريق البثّ ، والشكوى ، وعلى هذا فالتعبير بالمضي بعناية تحقّق الوقوع ، والمراد بالقوم عامّة العرب ، بل عامة الأمّة باعتبار كفرهم ، وعصاتهم))[15]، بمعنى أنّ الصيغة صيغة نداء ، ولكنّه ليس نداءً حقيقيّاً ، وإنّما خرج من معناه إلى الشكوى . أمّا حذف حرف النداء في الخطاب مع الله تعالى ، فهو أولاً يحمل معنًى عقديّاً ، إذ إنّ الله – عزّ وجلّ – لا يجوز وصفه

---

(1) ينظر : معاني القرآن ، الفرّاء : ١ / ٢١٢ .
(2) مشكل إعراب القرآن : ١ / ٢٣٢ .
(3) معاني النحو : ٣ / ١٦٧ .
(4) سورة النساء : ١٦٢ .
(5) التبيان في تفسير القرآن : ٣ / ٣٧٠ .
(6) سورة البقرة : ١٢٤ .
(7) ينظر : الكتاب : ٢ / ١٩٦ .
(8) الدراسات اللغوية عند العرب : ٤٨٢ . وينظر : مناهج البحث اللغويّ بين التراث والمعاصرة : ١٨٤ .
(9) الكتاب : ٢ / ٢٠٨ .
(10) ينظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (ربّ) .
(11) سورة الفرقان : ٣٠ .
(12) سورة الزخرف : ٨٨ .
(13) الميزان في تفسير القرآن : ١٥ / ١٤٤ .
(14) المصدر نفسه : ١٨ / ٣٧٤ .
(15) المصدر نفسه : ١٥ / ١٤٤ .

بالالتفات لنا في حال النداء ، أو التنبيه له عن طريق النداء ، الذي يُراد من المنادَى . وثانياً أنّه أسلوب تأديبيّ أن لا يكون خطاب الناس كخطاب الله تعالى .

الإعلاميّة على مستوى الألفاظ / المستوى المعجميّ :

نزل القرآن الكريم بلغة العرب ، واستعمل ألفاظهم ، وتراكيبهم النحويّة ، ولكن ((لا يُمكننا تجاهل أنّ نوعاً من الألفاظ القرآنيّة يتّصف بأنّ له نزعة تجريديّة غير معلومة عند المخاطبين . أفلا يؤدّي النظر إلى هذه الألفاظ التي هي بظاهرها معروفة عند العرب ، والتي تحمل ثقافة جديدة ، ورؤية مختلفة إلى تحميل القرآن لتلك المفردات المأنوسة عند العرب معاني جديدة تماماً ، لم تكن قبل ذلك في قاموس العرب ، ولم يكن ذهنهم مسبوقاً بها))(١) . ولذلك يرى ابن فارس أنّ استعمال القرآن للمفردات العربيّة ليس بالمفهوم نفسه الذي استعمله العرب ، بل حصل لتلك المفردات انزياح دلاليّ ، قال : ((فكان ممّا جاء في الإسلام ذكر المؤمن ، والمسلم ، والكافر ، والمنافق ، وأنّ العرب إنّما عرفتْ المؤمن من الأمان ، والإيمان من التصديق . ثمّ زادتْ الشريعة شرائط ، وأوصافاً بها سُمّي المؤمن بالإطلاق مؤمناً . وكذلك الإسلام ، والمسلم إنّما عرفتْ منه إسلام الشيء ، ثم جاء في الشرع من أوصافه ما جاء . وكذلك كانتْ لا تعرف من لكفر إلاّ الغطاء والستر . فأمّا المنافق ، فاسم جاء به الإسلام لقوم أبطنوا غير ما أظهروه ، وكان الأصل من نافقاء اليربوع . ولم يعرفوا في الفسق إلاّ قولهم : فسقتْ الرطبة ، إذا خرجتْ من قشرها ، وجاء الشرع بأنّ الفسق : الإفحاش في الخروج عن طاعة الله جلّ ثناؤه ...))(٢) .إنّ الاستعمال القرآنيّ للألفاظ العربيّة لم يكن استعمالاً موافقاً لما تعارف عليه العرب بالصورة نفسها، ولكنّه أخذ يُشتقّ المعنى الرئيس ؛ ليوظّف منه معاني أخر ، ليستْ مطابقة للمعنى الرئيس ، ولكنّها مرتبطة معه ، فلا يصعب على المتلقي أنْ يستلهم المعنى المطلوب ، فـ ((الإيمان ، والعزّة ، والتقوى إلى الحاقة ، والصاخّة ، وأشراط الساعة ، وأمثالها ، فإنّ هذه العناوين تحكي عن مفاهيم جديدة، ومعان ، وحقائق مختلفة عن الحياة ، والوجود ، والإنسان . فالقرآن يوجّه خطاباً للمؤمنين ، ويأمرهم فيه بالإيمان ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ...** ﴾ (٣). والمعنى الذي تحمله مفردة الكرامة في القرآن هو ما يكون قريناً للتقوى ، وذلك في محيط يرى الكرامة في الشرف العائليّ ، والسخاء ﴿ ..إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ... ﴾ (٤) ... أفلا تحكي هذه الحقائق الراقية ، والثقافة الجديدة ، والمتعالية للقرآن الكريم عن تجاوز المعاني الألفاظ المتداولة عند العرب إلى وضع جديد ، وعُرف خاص للقرآن))(٥) . إنّ الاستعمال القرآنيّ للألفاظ يسير باتجاه ((إيجاد لنوع من العلاقة بين المعنى واللفظ ، دون أن يكون للخصوصيّات ، والمصاديق أيّ تأثير في نوع هذه العلاقة . وهذا التحليل اللغويّ لمفهوم الوضع يرتبط بالكثير من المفردات ، كالتكلّم ، والقدرة ، والحياة ، والعلم ، والإرادة ، والعظمة ، وأمثال هذه المفردات))(٦). فاستعمال المفردة يهدف إلى تحقيق معنًى مركزيّ تكون باقي المعاني هامشيّة بالنسبة إليه ، ومنضويّة تحته . من ذلك استعمال مفردة (النور) في قوله تعالى : ﴿ **اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾ (٧). فالنور الذي يعلمنا الله تعالى عنه معناه ((الحقيقة البيّنة في نفسها ، والمبيّنة لغيرها ، دون أنْ ندخل في البحث عن أنّها بيّنة للعين ، أو للعقل ، أو للقلب ، ولم نبحث عن أنّها كيف تكون بيّنة ومبيّنة ، نستطيع أنْ نصف الله – عزّ وجلّ – بأنّه نور ، أي الحقيقة البيّنة في نفسها ، والمبيّنة لغيرها ، وبهذا المعنى لن يكون من نور في مقابل النور الإلهيّ ، بل كلّ نور مقابل الله عزّ وجلّ هو ظلمة))(٨) . فمن هذا يتّضح أنّ الاستعمال القرآنيّ للألفاظ في ((الآيات القرآنيّة ، وكلّ التعبيرات الموجّهة من قبل مخاطِب لمخاطَب تأتي لفائدة يصدر عنها فعل ، أو ردّ فعل ، وليستْ تذكرة بأمر معلوم ، وخطاباً في غير فائدة))(٩) .

الإعلاميّة على مستوى البلاغة :

يُقسّم علماء البلاغة الألفاظ على حقيقيّة ، ومجازيّة ، فالاستعمال الحقيقيّ للفظ : هو أن تُستعمل المفردة لمعناها الأصليّ الذي وُضِعتْ له ، أمّا الاستعمال المجازيّ ، فعلى العكس من ذلك(١٠) ، ((ولعلّ السبب في اللجوء إلى الانزياح في اللغة الفنيّة أنّ المألوف من القول ، أو الكلام المباشر ، لا يُثير في المتلقي أيّ إحساس ؛ لأنّه يجري وفق سنن اللغة ، أمّا لغة الانزياح ، فهي السبيل إلى هزّ يقظة المتلقي . فعمليّة اختيار الألفاظ للتعبير عن موقف معيّن ، تستوجب أنْ يكون هذا الاختيار مخالفاً لما اعتاد عليه الناس ، وانزياحاً عنه يحدث الصدمة المطلوبة ، والأثر لدى المتلقي))(١١). وتتحقّق الإعلاميّة على المستوى البلاغيّ من خلال استعمال تراكيب ، وعبارات مجازيّة خارجة عن التراكيب المألوفة عند متكلّمي اللغة ، فيكون ذلك الخروج عن معهود التأليف كسراً لتوقع المتلقي في الصياغة التي جاء بها النصّ . وقد كان النصّ القرآنيّ الكريم مبهراً للمتلقين منذ نزوله ، وأول صدمة وجّهها إلى المتلقين هي طريقة نظمه ، يقول عبد القاهر الجرجانيّ : ((ومعلوم أنّ المعوّل في دليل الإعجاز على النظم ، ومعلوم كذلك أنْ ليس الدليل في المجيء بنظم لم يوجد من قبل قط ، بل ذلك مضموماً إلى أن يبينَ ذلك النظم من سائر ما عُرف ، ويُعرف من ضروب النظم ، وما يعرفه أهل العصر من أنفسهم أنّهم يستطيعونه البينونة

---

(١) تحليل لغة القرآن وأساليب فهمه : ٣٠٢ .
(٢) الصاحبي : ٨٣ – ٨٤ .
(٣) سورة النساء : ١٣٦ .
(٤) سورة الحجرات : ١٣ .
(٥) تحليل لغة القرآن : ٣٠٣ .
(٦) تحليل لغة القرآن : ٣٠٧ .
(٧) سورة النور : ٣٥ .
(٨) تحليل لغة القرآن : ٣٠٦ .
(٩) التلقي والتأويل ، مقاربة نسقيّة : ٣٥ – ٣٦ .
(١٠) ينظر : مفتاح العلوم : ٤٦٧ – ٤٦٨ .
(١١) الإبلاغيّة في الشاهد البلاغيّ : ٨ .

التي لا يعرض معها شكّ لواحد منهم أنّه لا يستطيعه ، ولا يهتدي لِكُنْه أمره ، حتى يكونوا في استشعار اليأس من أنْ يقدروا على مثله))[1] . إنّ الباحث عن الإعلاميّة في النصّ الكريم ، على مستوى البلاغة ، يجد أنّها متحقّقة في مظاهر كثيرة من موضوعات علوم البلاغة ، ولعلّ من أهمها :

المجاز : يعدّ المجاز مظهراً من مظاهر الإعلاميّة ؛ وذلك لأنّ استعمال اللفظ في غير ما وضع له يكسر توقّع المتلقي ، ويرفع من مستوى الكفاءة الإعلاميّة . ويلحظ أنّ بعض المفسّرين قد أشار إلى استعمال الألفاظ في النصّ القرآنيّ بطريقة عدّها من مبتكرات القرآن ، من ذلك ما جاء في قوله تعالى : ﴿**يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين**﴾[2] ، قال : ((واعلم أنّي لم أقف على استعمال (ذات بين) في كلام العرب ، فأحسب أنّها من مبتكرات القرآن))[3] ، ومثله قوله تعالى : ﴿**فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ...**﴾[4] ، فقد جاء التعبير بقوله (تضع الحرب أوزارها) تمثيلاً ((لانتهاء العمل ، فشبّهتْ حالة انتهاء القتال بحالة وضع الحمّال ، أو المسافر أثقاله ، وهذا من مبتكرات القرآن))[5] .

الإطناب : هو – كما سبق تعريفه في مبحث القصدية - عند البلاغيين أداء المعنى المقصود من الكلام بأكثر من عبارته [6]، ولكنّه في النص الكريم يأتي لفائدة أكبر من ذلك ، فهو قد يحقّق للمتلقي خلاف ما يرجو ، أو يتوقع ، من ذلك قوله تعالى : ﴿**هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضي الأمر وإلى الله ترجع الأمور**﴾[7] ، فعبارة (في ظلل من الغمام) الواردة في الآية الكريمة ، ليستْ زائدة على المعنى الأصليّ للكلام ، بل جاءتْ لكسر توقع المتلقين ، فيأتيهم العذاب ممّا يظنّونه الخير ، والمنفعة لهم ، قال الزمخشريّ : ((فإنْ قلت : لِمَ يأتيهم العذاب في الغمام ؟ قلتُ : لأنّ الغمام مظنّة الرحمة ، فإذا نزل منه العذاب كان الأمر أفظع ، وأهول ؛ لأنّ الشرّ إذا جاء من حيث لا يُحتسب كان أغمّ ، كما أنّ الخير إذا جاء من حيث لا يُحتسب كان أسرّ ، فكيف إذا الشرّ من حيث يُحتسب الخير ، ولذلك كانتْ الصاعقة من العذاب المستفظع لمجيئها من حيث يتوقع الغيث))[8] .

الأسلوب الحكيم : لعلّ من أوضح مظاهر الإعلاميّة في الدراسات العربيّة القديمة ، ما عُرف عند البلاغيين بـ (الأسلوب الحكيم) ، وهو ((تلقي المخاطب بغير ما يترقب ... أو السائل بغير ما يتطلّب ، كما قال الله تعالى : ﴿**يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج ...**﴾[9] قالوا في السؤال : ما بال الهلال يبدو دقيقاً مثل الخيط ، ثم يتزايد قليلاً قليلاً حتى يمتلئ ، ويستوي ، ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدا ؟ فأجيبوا بما ترى))[10] . ورأى العلامة الطباطبائيّ أنّ الإتيان بكلمة (الأهلة) – في آية البقرة - بصيغة الجمع ((دليل على أنّ السؤال لم يكن عن ماهيّة القمر ، واختلاف تشكلاته ، إذ لو كان كذلك لكان الأنسب أن يقال : يسألونك عن القمر لا عن الأهلة ، وأيضاً لو كان السؤال عن حقيقة الهلال ، وسبب تشكله الخاص كان لأنسب أن يقال يسألونك عن الهلال، إذ لا غرض حينئذٍ يتعلّق بالجمع ، ففي إتيان الأهلة بصيغة الجمع دلالة على أنّ السؤال إنّما كان عن السبب ، أو الفائدة في ظهور القمر هلالاً بعد هلال ، ورسمه الشهور القمريّة ، وعبّر عن ذلك بالأهلّة ؛ لأنّها هي المحقّقة لذلك ، فأجيب بالفائدة . ويستفاد ذلك من خصوص الجواب (هي مواقيت للناس والحج)... وبالجملة قد تحصّل أنّ الغرض في السؤال إنّما كان متعلّقاً بشأن الشهور القمريّة من حيث السبب ، أو الفائدة ، فأجيب ببيان الفائدة))[11] . والذي يبدو أنّ رأي العلامة الطباطبائي أدقّ من الرأي الذي كان للعلماء القدماء ، ومثله قوله تعالى : ﴿**يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم**﴾[12] ، ((سألوا عن بيان ما ينفقون ، فأجيبوا ببيان المصرف ، ينزّل سؤال السائل منزلة سؤال غير سؤاله ؛ لتوخي التنبيه له بألطف وجه ، على تعديه عن موضع سؤال هو أليق بحاله أن يسأل عنه ، أو أهمّ له إذا تأمل . وإنّ هذا الأسلوب الحكيم لربّما صادف المقام ، فحرّك نشاط السامع ما سلبه حكم الموقور ، وأبرزه في معرض المسحور))[13] . فهذه الإعلاميّة الظاهرة من خلال الأسلوب الحكيم ، وهو ((وجه بليغ غير أنهم تركوا شيئاً ، وهو أنّ الآية مع ذلك متعرضة لبيان جنس ما ينفقونه ، فإنّها تعرضتْ لذلك : أولاً بقولها (من خير) ، إجمالاً ، وثانياً بقولها (وما تفعلوا من خير فإنّ الله به عليم) ، ففي الآية دلالة على أنّ الذي يُنفق به هو المال كائناً ما كان ، من قليل ، أو كثير))[14] . ولعلّ ممّا يمكن أن يضاف أنّ التعبير بـ (ما تفعلوا من خير) يدلّ على أنّ الفعل الحسن جنس من الإنفاق ، فالكلمة الطيبة ، والمساعدة غير الماديّة إنفاق من المسلم ، سواء في وقته ، أو جهده .

المغايرة السياقيّة: وذلك أن يتناول الكلام موضوعاً ما ، فينتقل المتكلّم منه إلى موضوع آخر مغاير له ، وهذا الانتقال أمّا أن يكون له ما يسوّغه من ناحية المعنى ، أو أن تتوافر روابط تجمعه بما قبله ، أو أن يحدّد المقام الرابط بينهما ،

---

(1) الرسالة الشافية ، ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز : ١٣٣ . وينظر : التأويل وقراءة النص : ٩١- ٩٢ .
(2) سورة الأنفال : ١ .
(3) تفسير التحرير والتنوير : ٩ / ١٣ – ١٤ .
(4) سورة محمد : ٤ .
(5) تفسير التحرير والتنوير : ٢٦ / ٦٩ . وينظر من التفسير نفسه : ١ / ٤٤١ ، ٧٢٣ ؛ ٩ / ٣٥ .
(6) ينظر : مفتاح العلوم : ٣٨٨ .
(7) سورة البقرة : ٢١٠ .
(8) تفسير الكشاف : ١ / ٢٥١ .
(9) سورة البقرة : ١٨٩ .
(10) مفتاح العلوم : ٤٣٥ – ٤٣٦ .
(11) الميزان في تفسير القرآن : ٢ / ٣٥٦ .
(12) سورة البقرة : ٢١٥ .
(13) مفتاح العلوم : ٤٣٥ – ٤٣٦ . وقد أضاف الطيبيّ على تعريف السكاكيّ عبارة (تنبيهاً به على أنّه أولى بالقصد)، ينظر : التبيان في المعاني والبيع والبيان : ٢٩٥ .
(14) الميزان في تفسير القرآن : ٢ / ٤٣٢ – ٤٣٣ .

والظروف التي أنتج فيها الخطاب [1]. وقد يكون التعرف على الرابط محتاجاً إلى إعمال الفكر ، إذ يكون الغرض التأكيد على أهمية الموضوع المنتقل إليه ، فتكون هذه المغايرة السياقيّة للفت النظر إليه ، فتكون المغايرة بين الموضوعين سبباً في البحث عن هذا الانتقال ، والموضوع الذي يطرحه هذا التغاير محاولة التعرّف على الظروف التي أدّتْ إلى هذا الأمر ، و ((لمّا كان الخطابفي النصّ القرآنيّ يهدف إلى الإقناع ، والتأثير ، وكان المتلقي يشغل موقعاً وسطاً بين التأويل ، والبيان ... فإنّه في لحظة ما قد ينتقل النصّ من سياق معيّن إلى سياق آخر ؛ لتنبيه المتلقي ، ولفت نظره إلى أهميّة السياق الذي انتقل إليه النصّ بصورة مفاجئة ، وكلّما ازداد السياق الجديد اختلافاً عن السياق الأول ارتفعتْ قيمة الإعلاميّة))[2]. من ذلك قوله تعالى : **﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾** [3]. فالذي يلحظ في الآيتين الكريمتين هذا الانتقال المفاجئ بقوله (سيقول السفهاء) ؛ ولذا قد حاول كثير من المفسّرين تلمّس الرابط لهذا الانتقال ، فقال بعضهم : ((ومناسبة هذه الآية لما قبلها : أنّ اليهود ، والنصارى قالوا : إنّ إبراهيم ، ومن ذكر معه كانوا يهوداً ، ونصارى . ذكروا ذلك طعناً في الإسلام ؛ لأنّ النسخ عند اليهود باطل ... و (سيقول) ظاهر في الاستقبال ، وأنّه إخبار من الله تعالى لنبيّه ρ ... فتكون من باب الإخبار بالشيء قبل وقوعه ؛ ليكون ذلك معجزاً ، إذ هو إخبار بالغيب ، ولتتوطن النفس على ما يرد من الأعداء ، وتستعدّ له))[4]. ولعلّ ممّا يلحظ على الانتقال بين الآيتين أنّ هنالك رابطاً معنوياً بينهما ، إذ قال في الآية الأولى (لا تُسألون) ، وقال في الآية الثانية (ما ولاّهم) ، فعدم سؤالهم عمّن سبقهم من الأمم يرتبط بسؤالهم هم عن سبب تغيير القبلة ، فهُمْ – أي اليهود – لا يُسألون عن أعمال من سبقهم ، كما لا يحقّ لهم السؤال للنبيّ الآن عن سبب تغيير القبلة . ومن المغايرة السياقيّة التي يتعرّف على سببها من المقام ، قوله تعالى : **﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ... أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾**[5]. فقوله (كما أخرجك) يبدأ بتشبيه ، ولم يسبقه مشبّه به قبله ، ولذا إنّ اللجوء إلى المقام هو الذي يُعيّن الركن الثاني من التشبيه ، قال الخطابيّ : ((إنّ الله سبحانه أمر رسوله أنْ يمضي لأمر الغنائم على كرهٍ من أصحابه ، كما مضى لأمره في خروجه من بيته لطلب العير ، وهم كارهون ، وذلك أنّهم في يوم بدر اختلفوا في الأنفال ، وحاجّوا النبيّ ρ ، وجادلوه ، فَكَرِه كثير منهم ما كان من رسول الله ρ في النفل ، فأنزل الله تعالى الآية ... يريد أنْ كراهتهم لما فعلته في الغنائم ككراهتهم في الخروج معك))[6] .

الإعلاميّة في القصة القرآنيّة : تختلف صياغة القصة عن سواها من الأجناس الأدبيّة لكونها تحفل بأدوات فنّيّة متنوعة ، تجعل من قراءتها مشفوعةً بما يثير ، ويُلفت النظر ، بحيث يتشوّق القارئ /المتلقي ، ويحرص على متابعتها حتى النهاية . وتختلف القصة القرآنيّة عن القصة البشريّة بكونها قصة من واقع الحياة الماضية ، وليستْ مصطنعة ، وأنّها تنتقي من الحوادث ، والأبطال ، والمواقف ، والبيئات ما هو طريف ، ومثير ؛ ليتناسب مع قوانين الاستجابة البشريّة للحدث. والمتلقي ينفعل مع القصة الواقعيّة أكثر من انفعاله مع القصة المصطنعة ؛ وذلك لأنّ انفعاله بالقصة الواقعيّة جاء من انفعال وجدانيّ ، لأنّ مصداقه موجود في الحياة ، سواء منها الماضية ، أو المستقبليّة (الحياة الآخرة) ، في حين أنّه مع القصة المصطنعة لا يعدو انفعاله عن كونه لأثر فنيّ لا يتعدّاه [7] ، وإنْ كانتْ بعض القصص البشريّة محاكيةً لحوادث واقعيّة ، إلاّ أنّها لم تنقلها بحياديّة ، وموضوعيّة كالقصص القرآنيّة . وقد جاءتْ القصص القرآنيّة في أكثر الأحيان محمّلةً بالإعلاميّة ، سواء على مستواها الفنيّ ، أو المعنويّ ، وفيما يأتي بعض هذه الأمثلة :

قصة ابني آدم A : ورد ذكر ابني آدم A ، وحادث قتل أحدهما للآخر في الآيات الكريمة من قوله تعالى : **﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾**[8] . فعلى الرغم من أنّ الآيات الكريمة لم تصرّح بنوع القربانين ، ولا سبب تقديمهما ، ولا الذي تقبّل من أحدهما ، إلاّ أنّ الذي يفهم من السياق هو تمكن نوازع الشرّ عند أحدهما ، وظهور علامات التقوى عند الطرف الآخر . والقصة قد ((ركزتْ على الملمح النفسيّ في مجريات الأحداث ، وتعميقه ، ويبرز العنصر اللونيّ في التشكيل . فالغراب يلوّن الصورة بالأسود ، ويأخذ مساحة في مكوّنات الصورة ، وأحداثها ، ثم يمتدّ السواد الظاهر ليتناسب مع ظلمة الحسد ، والظلم المعتمل في النفس ، يلتقي مع ظلمة الفجيعة ووقع حدث القتل ، وما أعقبه من مؤثّرات على النفس ، والحياة))[9] . فالغراب عند العرب رمز الفراق ، ولونه لون الحداد ، فلا ضير لو ارتبط رمزياً بأول موت ، يقول الآلوسيّ : ((والحكمة في كونه المبعوث دون غيره من الحيوان ؛ كونه يتشاءم به في الفراق ، والاغتراب ، وذلك مناسب لهذه القصة))[10] .

---

(1) ينظر : الإعلاميّة في الخطاب القرآنيّ : ٥٨ .
(2) الإعلاميّة في الخطاب القرآنيّ : ٥٨ .
(3) سورة البقرة : ١٤١ – ١٤٢ .
(4) البحر المحيط : ٢ / ٩ . وينظر : الميزان في تفسير القرآن : ١ / ٢٣٠ .
(5) سورة الأنفال : ١ ، ٤ ، ٥ .
(6) بيان إعجاز القرآن ، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن : ٤٩ – ٥٠ . وينظر : لباب النقول في أسباب النزول : ١١٤ .
(7) ينظر : قصص القرآن الكريم ، دلاليّاً وجماليّاً : ١ / ١١ – ١٥ .
(8) سورة المائدة : ٢٧ – ٣١ .
(9) غرائب الصورة القرآنيّة ، تحليل البنية الأسلوبيّة ودلالاتها البلاغيّة : ٣٠ .
(10) روح المعاني : ٦ / ٣٩١ .

في جعل (الغراب) معلّماً ، ومرشداً للقاتل يحمل صفتين متضادّتين ، فهو في الوقت الذي يعلّمه كيفية إكرام الميّت ، وذلك بدفنه ، ومواراته في التراب ، هو – أيضاً – أداة مساعدة لصاحب الذنب ، والإثم . وهذا ما يعطي بعداً إعلاميّاً للقصة .
ومن إعلاميّة القصة تعليم الإنسان / القاتل كيفية التعامل مع الميّت ((فالآية ظاهرة في أنّ القاتل ما كان يدري أنّ الميّت يمكن أن يستر جسده بمواراته في الأرض))[١] . فالقاتل الذي توعّد أخاه بقوله : (لأقتلنّك) ((شاءتْ حكمة الله أن تقفه أمام عجزه – وهو الباطش القاتل الفاتك – عن أن يواري سوأة أخيه . عجزه عن أن يكون كالغراب في أمّة الطير ... فقال القاتل قولته ، وفعل مثلما رأى الغراب يفعل))[٢] . وفي القصة تحولات في بناء بعض المفردات ، واستعمال لمفردة دون مرادفتها ، وكلّ ذلك جاء لغرض دلاليّ ، فقد جاء التعبير (لئن بسطتَ إليَّ يدك لتقتلني) بصيغة الفعل الدالّ على التجدد والاستمرار ، في حين استعمل في الجواب (ما أنا بباسط) ، وهي صيغة الاسم الدالّ على الثبوت ؛ ((لأنّ الأخير يريد النفي بصفة دائمة ، وثابتة غير ممكنة التغيّر في المستقبل))[٣] . زيادة على توكيد الكلام بأكثر من مؤكد ، فاستعمل اللام الموطئة للقسم ، والجملة الاسميّة ، والباء الزائدة . واستعمل في القصة المفردة (بعث) ، ولم يستعمل (أرسل) ؛ لأنّه ((يجوزُ أنْ يبعث الرجل إلى الآخر لحاجة تخصّه دونك ، ودون المبعوث إليه ... ولا تقول : أرسلته لأنّ الإرسال لا يكون إلاّ برسالة ، وما يجري مجراها))[٤] ، والإرسال يفيد التمهّل ، والاتّئاد ، فـ ((الرسل : السير السهل))[٥] ، في حين أنّ ((طاقة المفردة (بعث) ، وما تفيده من الإثارة ، والدفع بقوة ، تناسب دلالة السياقات التي وردتْ فيها))[٦] . ويلحظ – أيضاً – ما يعطيه الإيقاع الداخليّ بين (بعث) ، و(يبحث) .

قصة الذي مرّ على القرية : وذلك في قوله تعالى : **﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾**[٧] . إنّ هذه القصة التي يضربها الله – تبارك وتعالى – تتمثّل الكفاءة الإعلاميّة فيها في أكثر من جانب، ففي جانب الاستعمال اللغويّ ، استعمل الاسم الموصول (الذي) وصلته غير معلومة بالنسبة للمخاطب فـ (الذي مرّ على قرية) ليس للمتلقين ، سواء أكان النبيّ ρ ، أو المسلمون ، أو المشركون أيّ معرفة بحاله لولا هذا القصّ القرآنيّ له . فكان الكسر الأول لتوقع المخاطب في كونه غير عالم بالمقصود من صلة الموصول الوارد في النصّ ، وبذلك كسر القاعدة النحويّة من خلال مخالفته لما تعارف عليه النحويون من معلوميّة المخاطب للمقصود من الصلة . ومن جانب آخر ، فقد سبق القول إنّ القصة القرآنيّة واقعيّة الحدوث ، فالقارئ لا يتمثّل ((مشهداً خياليّاً ، بل الحقيقة في واقعها مرسومة في هذه الصورة))[٨]، صورة تحمل الكثير من المفارقات ، تأثير الزمن في الكائن البشريّ ، والحيوانيّ ، وتعطيله عن الطعام ، والشراب ، ((إنّ المشهد ليرتسم للحسّ قوياً واضحاً موحياً ، مشهد الموت ، والبلى ، والخواء يرتسم بالوصف (وهي خاوية على عروشها) محطمة على قواعدها . ويرتسم من خلال الرجل الذي مرّ على القريّة ، هذه المشاعر التي ينضح بها تعبيره (أنّى يحيي هذه الله بعد موتها) . إنّ القائل ليعرف أنّ الله هناك ، ولكنّ مشهد البلى ، والخواء ، ووقعه العنيف في حسّه جعله يحار))[٩] . ولأنّه سأل عن الكيفيّة ، جعل الله – عزّ وجلّ – البرهان من حاله (فأماته الله مئة عام ثم بعثه) ، وقد ظنّ أنّه نام (يوماً أو بعض يوم) ، فجاءه الجواب الذي لم يكن يتوقعه (بل لبثتَ مئة عام) ، ثم توالتْ عليه المفارقات (فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنّه) ، أي : لم يتغيّر على الرغم من مرّ السنين عليه [١٠] ، وقدّم (الطعام) على (الشراب) ؛ ((لأنّ التغيير أسرع في الطعام من الشراب ، فتقديمه هنا يناسب سياق بيان القدرة لله سبحانه وتعالى – لأنّ حفظ الطعام ، وهو الأسرع إلى العفن ، والتحلل كلّ هذه المدة أظهر في القدرة ، وبيانها))[١١] ، المفارقة الأخرى في (وانظر إلى حمارك) ، فكان تغيير الزمن قد وقع عليه ، وثم كان مشهد إعادة الحياة لذلك الحمار على مرأى من الرجل (فلمّا تبين له قال أعلم أنّ الله على كلّ شيء قدير) ، ((إنّ الذي يفسّر هذه الظاهرة هو طلاقة المشيئة ، طلاقتها من التقييد بما نحسبه نحن قانوناً كلّيّاً لازماً ملزماً ، لا سبيل إلى مخالفته ، أو الاستثناء منه ، أو حسباننا هذا خطأ بالقياس إلى المشيئة المطلقة ، خطأ منشؤه أننا نفرض تقديراتنا نحن ، ومقرّراتنا العقليّة ، أو العلميّة على الله سبحانه))[١٢].
وقد استعمل التعبير القرآنيّ الفعل (انظر) ثلاث مرّات ، وكان من الممكن أنْ يكتفي بواحد ؛ وسبب ذلك أنّ كلّ فعل منها يدلّ على أمر خارق ((فلكلّ واحد من الموارد الثلاث غرض خاص به ، لا يشاركه فيه غيره))[١٣] .

الإعلاميّة في المثل القرآنيّ : وظّف النص الكريم المثل في كثير من الآيات القرآنيّة ، وكان التوظيف لغايات يتطلبها المقام ، منها الإيضاح ، وقطع المجادل ، وغيرها ، ((وقد قام المثل القرآنيّ بهذا الدور الإيضاحيّ ، فأبرز المعنويات بقالبٍ حسيّ ، وجسّد العقليات بإطار مدرك ، وقلب هذا الأمر في عدّة وجوه تقرّب البعيد ، وتسكّر الوهم . وقد اعتمدت لهذه

---

(١) الميزان في تفسير القرآن : ٥ / ٢١٥ .
(٢) في ظلال القرآن : ٢ / ٨٧٧ .
(٣) غرائب الصورة القرآنيّة : ٦١ .
(٤) الفروق اللغويّة : ٢٩٩ .
(٥) معجم مقاييس اللغة : ١ / ٤٦٣ .
(٦) غرائب الصورة القرآنيّة : ٧٧ . وينظر : معجم مقاييس اللغة : ١ / ١٣٩ .
(٧) سورة البقرة : ٢٥٩ .
(٨) غرائب الصورة القرآنيّة : ٣٥ .
(٩) في ظلال القرآن : ١ / ٢٩٩ .
(١٠) ينظر : أساس البلاغة : ٣١١ .
(١١) غرائب الصورة القرآنيّة : ٣٥ .
(١٢) في ظلال القرآن : ١ / ٣٠١ .
(١٣) الميزان في تفسير القرآن : ٢ / ٥٨٣ .

المهمة شخصية المظاهر في الكون ، والأرض ، ومشاهد الطبيعة باعتبارها [1] مدركات حسية يمكن الاستدلال بها لمعرفة حقائق الأشياء ، وطبيعة المجهولات . وحشد لذلك الطاقات التمثيلية المشاهدة متنقلاً بها في خضم العقل بتعبير شاخص ، مثّل ، يكشف عن مواطن الغموض ، ملاحظ الاستغراب ، ليعود الشكل الذهنيّ المحض في المتخيلة متمثلاً بشكل ماديّ مدرك بالحواس))[2]. وقد كان هذا الاستعمال للمثل يتمتع بصفة الإعلاميّة ، فقد كان يكسّر توقع المتلقي في الصورة التي يُقدّم بها ، والتركيب الذي يبنى به ، من ذلك قوله تعالى : **﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾**[3] .

إنّ النظر في استعمال هذا التشبيه بين أعمال الكفار ، والظمآن الطالب للماء ((يجد المقارنة السليمة في اكتشاف العلاقة القائمة بين السراب في صورته النفسيّة المؤثّرة عند الظمآن ، وبين أعمال الكفرة التي تخال – من خلال وجهة نظرهم – بأنّها نافعة ، ومجدية ، ولكنّها – في واقع الحال – خادعة ، وكاذبة ... فهذا المناخ الذي تردّدتْ فيه صورة الكافرين في التمثيل لهو أشدّ ، وأفظع ممّا يتوقعه الكافرون أنفسهم))[4]. إنّ استعمال كلمة (الظمآن) جاءتْ أكثر تأثيراً في الآية الكريمة ، فلو استعمل كلمة أخرى لما كانتْ أبلغ من هذه الكلمة ، قال الرمانيّ : ((ولو قيل : يحسبه الرائي ماءً ، ثم يظهر على خلاف ما قدّر لكان بليغاً ، وأبلغ منه لفظ القرآن ؛ لأنّ الظمآن أشدّ حرصاً عليه ، وتعلق قلبٍ به))[5] . ومثله المثل القرآنيّ ، الذي جاء ليقطع المجادل في الكلام ، فلا يبقي له أيّ دليل ، أو حجّة ، وذلك في قوله تعالى : **﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾** [6]. فقد جاءتْ الإعلاميّة بهذا المثل ؛ من أجل الاستدلال ((على خلق عيسى A إعجازياً بما هو أصعب منه ، وهو خلق آدم A؛ ليقطع بذلك دابر النزاع ، ويسلّم الخصم في الحجة ، فلا يحير جواباً ، ولا يطيق ردّاً ، أو اعتراضاً . فمع اعتراف الخصم بخلق آدم دون أب ، أو أمّ ، وهو لم يُثر الشبهة من ذي قبل حوله ، فعليه قياساً ، ونظراً ، واستدلالاً أنْ يعترف بخلق عيسى Aإعجازاً من جهة واحدة دون الأخرى ، إذ خلق آدم أكثر إعجازاً ، وأركز تحييراً للعقول ، والاستدلال بهذا الملحظ يقطع الخصام ، ويُوقف الكلمة))[7] . فجملة (خلقه من ترابٍ) جملة مفسّرة للتمثيل ، الذي بنى عليه التشبيه ، فقد بدأ خلقه (آدم) بما لا علاقة ماديّة جامعة له به ، وهو التراب ، فهو أعجب في الخلق من خُلق عيسى A ، الذي من أمّ ، فلِمَ لا تتخذونهإلهاً ، أو ابناً ،إنْ كانتْ هذه حاله ، واتخذتم مَن هو دونه في رتبة الخلق العجيب ، فكان التشبيه ((بما هو أعرب منه إفحاماً للخصم ، وقطعاً لمواد الشبهة))[8]. ومثله المثل في قوله تعالى : **﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾** [9]. فهذا المثل ضُرب لليهود الذين حُمّلوا التوراة ، فهم ((حفظوها ، ودوّنوها في كتبهم ، ثم لم يعملوا بما فيها))[10] ، وتخصيص تشبيههم بالحمار ؛ لأنّه كالعَلم في الجهل [11] ، والأسفار واحدها : سِفر ، وهي الكتب ، ولم تستعمل في غير هذا الموضع [12]. وإنّما سُمّي الكتاب سِفراً ؛ لأنّه ((يسفِر عن الحقائق ... وخصّ لفظ الأسفار في هذا المكان تنبيهاً أنّ التوراة ، وإنْ كانتْ تحقّق ما فيها ، فالجاهل لا يكاد يستبينها كالحمار الحامل))[13]. ولعلّ سبب استعمالها أنّ فيها بُعداً تداوليّاً ، فاليهود يسمّون كتب أسفاراً ، مثل سفر التكوين ، سفر الخروج ، وغيرها . وهذا التمثيل لليهود بالحمار ؛ لأنّهم كـ ((الحمار الذي يحمل كتب الحكمة على ظهره ، لا يدري بما فيها ، ولا يحسّ بها كمثل مَن يحفظ الكتاب ، ولا يعمل به)) [14]، أو ((يتعب في حملها ولا ينتفع بها))[15] .

الخاتمة

بعد هذا البحث في السور المدنيّة في محاولة لإظهار المعايير النصيّة الموجودة فيها ، يمكن أن نخرج بجملة من النتائج ، من أهمّها :

(1) كذا ، والصحيح : بعدّها .
(2) الصورة الفنية في المثل القرآنيّ : ٣٣٧ .
(3) سورة النور : ٣٩ – ٤٠ .
(4) الصورة الفنية في المثل القرآنيّ : ٣٤٠ – ٣٤١ .
(5) النكت في إعجاز القرآن ، ضمن ثلاث كتب في إعجاز القرآن : ٨٢ .
(6) سورة آل عمران : ٥٩ .
(7) الصورة الفنية في المثل القرآنيّ : ٣٦١ .
(8) أنوار التنزيل وأسرار التأويل : ٢ / ٤٦ .
(9) سورة الجمعة : ٥ .
(10) التبيان في تفسير القرآن : ١٠ / ٦ .
(11) ينظر : روح المعاني : ٢٨ / ٤٠٣ .
(12) ينظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، (سفر) .
(13) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز : ٣ / ٢٢٥ .
(14) التبيان في تفسير القرآن : ١٠ / ٦ .
(15) أنوار التنزيل وأسرار التأويل : ٥ / ٣٣٨ .

- كثرت المصطلحات المستعملة في نحو النصّ في الدراسات العربيّة ، وكان ذلك بفعل اختلاف الترجمة عن المؤلفات الغربيّة ، فتداخلتِ المصطلحات ، واستعملتْ في أكثر من مفهوم ؛ فسبّب ذلك تشتيتاً لذهن الباحث المستجدّ ، وزرع الحيرة ، والتردّد في نفسه في اختيار المصطلح الأصلح ، والأشيع .
- مصطلح النصّ مصطلح عربيّ قديم ، استعمله العلماء العرب في مؤلفاتهم ، ولم يكن مستورداً من الدراسات الغربيّة ، بل كان البحث في (النصّ ، والتماسك النصيّ ، ووحدة الموضوع ، ومناسبة الكلام للمقام) من المباحث التي درسها علماء العربيّة في مؤلفاتهم البلاغيّة ، والأصوليّة ، والتفسيريّة ، بل وحتى النحويّة .
- استعمل النصّ القرآنيّ (الضمائر ، وأسماء الإشارة ،والأسماء الموصولة ،وال التعريف) لتسهم في ربط أجزاء النصّ الكريم . وكان الربط عن طريق الضمائر هو الأكثر شيوعاً في النصّ الكريم .
- لم يكن استعمال الضمائر – في بعض المواضع -مطابقاً دلاليّاً للمحال عليه ، إذ قد يستعمل الضمير محيلاً على متضادّين ، أو غير متساويين عدداً ، وقد يستعمل الضمير محيلاً على مفهومٍ من الكلام ، فيستعمل ضوياً موجزاً للمعنى المفهوم منه. وكان في ذلك الاستعمال بُعداً دلاليّاً ، يطلبه النصّ الكريم ، ويحقّق من خلاله لمسة بيانيّة .
- كان استعمال أسماء الإشارة مشتركاً بين الإحالة ، والاستبدال ، فيكون اسم الإشارة محيلاً في موضع ، ومستبدِلاً في موضع آخر . وزيادة على ذلك ، فقد يستعمل اسم الإشارة للفصل بين كلامين ، فينهي به الكلام السابق ، ويبدأ بالكلام اللاحق .واستعملتْ عناصر الإحالة عناصر إحالة مقاميّة حين لا يكون في الكلام ما يمكن أن تكون صالحة للإحالة عليه .
- استعمل النصّ الكريم إحالة من نوع خاصّ ، لم يكن علماء النصّ قد أشاروا إليها ، وتتمثل في استعمال أسماء صريحة تحيل على أسماء صريحة أخرى ، متقدّمة عليها ، أو متأخرة عنها . ووظّف النصّ القرآنيّ الكريم خصائص اللغة العربيّة المتمثّلة بالإعراب ، فكان التباين الإعرابيّ عاملاً منتجاً لنوعٍ من الاستبدال ، ينماز عمّا هو معروف في نحو النصّ ، إذ يجمع بين الاستبدال ، والتكرار ، وتكون العلامة الإعرابيّة هي الفارقة بينهما ، والمحدّدة للتباين الدلاليّ بينهما .
- إنّ المفهوم الدلاليّ للاستبدال الاسميّ يدلّ على المغايرة – في أكثر الأحيان – بين العنصرين (المستبدِل، والمستبدَل منه) . أمّا في الاستبدال الفعليّ ، فلا مغايرة بينهما ، ففي هذا النوع من الاستبدال ، تستعمل الصيغة العامّة للفعل بدل الفعل ذي المعنى الخاصّ . وكذلك الاستبدال القوليّ ، فإنّه ليس من باب المغايرة ، وإنّما هو من باب إيجاز الكلام ، ومراعاة عدم التكرار المخلّ بالبلاغة .
- استعمل النصّ القرآنيّ الكريم نوعاً من التكرار يسمّى (الاشتقاقيّ) ، وذلك بأن لا يستعمل اللفظ نفسه ، وإنّما يستعمل صيغة مشتقة منه ، كأن يستعمل صيغة الفعل المجرّد ، والمزيد ، أو الفعل مع المصدر . وفي كلّ استعمال من ذلك كانتِ اللمسة البلاغيّة حاضرة فيه . وكان استعمال عناصر السبك يحقّق اللمسة البيانيّة في النصّ الكريم زيادةً على تحقيق التماسك النصيّ فيه .
- يرى البحث أنّ أدوات الموازنة يجب – كما يرى علماء النصّ المحدثون –أن لا تكون عنصراً إحاليّاً ، بل يجب أن تكون عنصراً من عناصر الوصل الجامع بين متشابهين ، أو متضادّين ، أو مختلفين . وقد كثرتِ الموازنة عن طريق التفضيل ، والتشبيه في النصّ الكريم . وزيادة على ذلك ، فقد كثرتْ علاقة التضادّ بكلّ أنواعه عند التضامّ بين جمل ، وآيات النصّ ، ومردّ ذلك كلّه يرجع إلى الصراع الدائر بين الفريقين المتنازعين ، المسلمين من جهة ، والمشركين وأهل الكتاب والمنافقين من جهة أخرى .
- قسّم علماء النصّ الوصل على أقسام ، وكأنّهم قصدوا أنّ أنواع الوصل لا تتحد ، أو تأتلف عند إنتاج النصّ . وقد استعمل النصّ الكريم أكثر من نوع من الوصل في مكان واحد ، فقد نجد في الموضع الواحد وصلاً إضافيّاً استدراكيّاً ، أو إضافيّاً سببيّاً ، وهكذا .
- لم يكن مفهوم الحبك غائباً عن الدراسات العربيّة القديمة ، إذ كان للعلماء إسهامات عدّة في هذا المجال، وأغلبها كانتْ في مجال التفسير ، وعلوم القرآن ، زيادة على الدراسات النقديّة ، التي طالبتْ بوحدة الموضوع في النصّ الأدبيّ .
- لم يذكر علماء النصّ – الغربيون ، ومَن تبعهم من العرب – علاقة الطلب – الجواب ، وعلاقة السؤال – الجواب من العلاقات الدلاليّة الرابطة للنصّ ، وهي علاقة متوافرة في النصّ القرآنيّ الكريم . كما لم يكن مفهوم البدليّة ، في العلاقات الدلاليّة مطابقاً لما في النحو العربيّ ، فهو في العلاقات الدلاليّة عطف قائم على التخيير بـ (أو) الدالّ على الانفصال ، والتغاير بين المبدلين ، في حين أنّ البدل في النحو العربيّ قائم على الاتصال ، والترابط بينهما بعلاقة الكليّة ، أو الجزئيّة ، أو الشموليّة . زيادة على ذلك ، لم تُذكر علاقة الاعتراض بجملة في تتابع جمل ، والذي يسهم بدور دلاليّ في إيضاح غامضٍ ، أو استدراك معنى .
- وظّف النصّ القرآنيّ الكريم الإيحاءات الصوتيّة المتوافرة في صيغ المفردات المستعملة لغرض تجسيد المعنى ، وتوجيهه اتجاه تكميل الصورة الفنيّة للحدث الذي تتناوله الآية ، أو السورة الكريمة . وكان التركيز في استعمال بعض الأصوات ، أو استعمال صفة التشديد ، أو المدّ ، وغيرها ممّا يلقي بظلاله على المعنى المراد إيصاله إلى القارئ ، أو السامع . كما وظّف النصّ الكريم الفاصلة القرآنيّة بما يتناسب مع السياقات الموضوعيّة التي تعالجها ، فكانتِ الفاصلة منسجمة مع موضوع السورة ، وأسلوبها .

- كان مفهوم القصد حاضراً في كلّ الدراسات اللغويّة العربيّة القديمة ، بل كان حاضراً حتى في المؤلفات الفقهيّة والأصوليّة . وكان القصد فيها مستمدّاً ممّا جاء في النصّ القرآنيّ الكريم ، الذي يؤسّس لكلّ عمل من خلال نيّة الفعل . وإنّ التحدّي للعرب بالإتيان بمثل سورة من سور القرآن الكريم دليل على أنّ الله – تبارك وتعالى –قد قصد كلّ لفظ في القرآن ، فكان التحدّي دليلاً على أنّ النصّ مسبوك فنّيّاً بطريقة يعجز البشر عن الإتيان بمثله . ولعلّ في عدم استجابتهم للتحدّي دليلاً على مقبوليّتهم للنصّ . فانبهارهم به ، وعكوفهم على دراسته ، واستعمالهم لعبارات القرآن ، وآياته كأمثلة تحتذى في دراساتهم اللغويّة بكلّ مستوياتها من أكبر الأدلـّة على هذه المقبوليّة .
- إنّ الطابع التشريعيّ ، والتنظيميّ الذي يطغى على السور المدنيّة قد استعمل كثيراً من الأساليب اللغويّة، وغير اللغويّة ؛ لتطبيع المتلقين على الأحكام الشرعيّة القرآنيّة ، سواء أكانت في جانب العقيدة ، أم الحياة الإجتماعيّة، فكانت تلك الأساليب مراعية لحال المتلقين / المسلمين ، وكان بعضها – كالتدرج في الحكم الشرعيّ – يجمع بين معياري القصد ، والمقبوليّة . فالمقبوليّة في عدم الإتيان بالحكم دفعة واحدة ؛ مراعاة لحال المتلقين . والقصديّة تتمثّل في كون الحكم الشرعيّ الأخير هم القصد الحقيقيّ ، والرئيس من الشارع المقدّس – تبارك وتعالى -. بل يمكن القول أنّ الأحكام الشرعيّة تحمل طابعاً إعلاميّاً للمتلقين ، إذ إنّها جاءت بحدود وتنظيمات لم يكن متلقّو النصّ يتوقعونها ، فضلاً عن عدم درايتهم بها .
- وجد البحث أنّ القراءات القرآنيّة ، واختلاف القرّاء من مظاهر المقبوليّة للنصّ القرآنيّ . فقراءتهم له ، كلّ بمنظار علمه للغة ، ودرايته بأساليب الكلام العربيّ ، وإجازتهم لتلك القراءات ، تدلّ على غنى النصّ بالمعاني المتعدّدة ، التي وافقت كلّ قارئ فيما ذهب إليه .
- كان استعمال النصّ القرآنيّ للمفردات اللغويّة العربيّة استعمالاً خاصّاً ، فكان مظهراً من مظاهر الإعلاميّة في مستوى المفردات ، إذ أوجد النصّ الكريم معاني جديدة للمفردات غير ما تعارف عليه العرب ، فكان أن طغى الاستعمال القرآنيّ ، وشاع على الاستعمال القديم . وقد استعمل أوزاناً صرفيّة جديدة ، لم يستعملها العرب من قبل ، فكان استعمالها تأصيلاً لأوزان صرفيّة ، استعمل منها مصطلحات لغويّة كثيرة – كالمصدر الصناعيّ مثلاً – وكان الرائد في استعمالها النصّ المقدّس .
- كان الاستعمال القرآنيّ لبعض الصيغ ، والتراكيب اللغويّة سبباً في نشأة الدراسات اللغويّة العربيّة ، التي حاولت أن تضع القواعد اللغويّة على الأشيع ، والأشمل ، وتبحث – لما خالف القواعد – عن التفسير ، والتأويل ، الذي لا يخطّئ النصّ الكريم أولاً ، ويبحث عن المعنى المقصود عند الخروج على القواعد ثانياً ، ثم البحث عن التأويلات ، والتفسيرات المسبّبة لذلك ثالثاً .
- وظّف النصّ القرآنيّ الكريم القصة ، والمثل ؛ لكسر توقع القرّاء / المتلقين في الأحداث التي تشتمل عليها القصة ، خاصّة إذا علمنا أنّ القصة القرآنيّة قصة واقعيّة لأحداث ماضية ، وحتميّة الوقوع للأحداث المستقبليّة ، فكان ذلك سبباً في رفع مستوى الكفاية الإعلاميّة للنصّ . وكذلك فالمثل القرآنيّ قد جاء بدلالات، ومفاهيم تخاطب العقل الإنسانيّ بمنطقيته ، وتخاطب الفطرة الأدبيّة بأسلوب عرضه .

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

📖 الإتقان في علوم القرآن – السيوطيّ ، جلال الدين السيوطيّ [ت ٩١١ هـ] – ضبطه وصحّحه وخرّج آياته : محمد سالم هاشم – ط ٢ – منشورات ذوي القربى – قم – ١٤٢٩ هـ .

📖 أدب الكاتب – ابن قتيبة ، عبدالله بن مسلم ابن قتيبة [ت ٢٧٦ هـ]– تحقيق : محمد طعمة الحلبيّ – ط ٢ – دار المعرفة – بيروت – ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م .

📖 إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم – أبو السعود ، أبو السعود العماديّ [ت ٩٥١ هـ] – ط ٤ – دار إحياء التراث العربيّ – بيروت – ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م .

📖 أساس البلاغة – الزمخشريّ ، جار الله الزمخشريّ [ت ٥٣٨ هـ] – قراءة وضبط وشرح : محمد نبيل طريفي – ط ١ – دار صادر – بيروت – ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م .

📖 أسباب النزول – الواحديّ ، محمد بن علي الواحديّ النيسابوريّ [ت ٤٦٨ هـ] – ضبطه وصحّحه : محمد عبدالقادر شاهين – ط ٢ – دار الكتب العلميّة – بيروت – ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م .

📖 استراتيجيات الخطاب ، مقاربة لغويّة تداوليّة – عبدالهادي بن ظافر الشهريّ – ط ١ – دار الكتاب الجديد المتحدة – بيروت – ٢٠٠٤ م .

📖 استقبال النص عند العرب – محمد المبارك – ط ١ – المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر – بيروت – ١٩٩٩ م .

📖 أسرار البلاغة في علم البيان – عبدالقاهر الجرجانيّ [ت ٤٧٠ هـ] – تحقيق : عبدالحميد الهنداويّ – ط ١ – دار الكتب العلميّة – بيروت – ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م .

📖 أسرار التكرار في القرآن – محمد بن حمزة الكرمانيّ [ت ٥٠٠ هـ] – تحقيق : عبدالقادر أحمد عطا – (د . ط) – دار الاعتصام – القاهرة – (د . ت) .

📖 أسرار العربيّة – ابن الأنباريّ ، أبو البركات بن الأنباريّ [ت ٥٧٧ هـ] – تحقيق : محمد حسين شمس الدين – ط ٢ – دار الكتب العلميّة – بيروت – ٢٠١٠ م .

أسس الحوار في القرآن الكريم ، دراسة في علاقة الإسلام باليهوديّة والمسيحيّة – هيربرت بوسة – ترجمة : أحمد محمود هويدي – ط ٢ – المركز القوميّ للترجمة – القاهرة – ٢٠٠٩ م .

أسس لسانيات النصّ – مارغوت هاينمان ، وفولفغنغ هاينمان – ترجمة : موفق محمد جواد المصلح – ط ١ – دار المأمون للترجمة والنشر – بغداد – ٢٠٠٦ م .

الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة – محمد بن علي الجرجانيّ [ت ٧٢٩ هـ] – علّق عليه ووضع حواشيه : إبراهيم شمس الدين – ط١ – دار الكتب العلميّة – بيروت – ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م .

الأشباه والنظائر في النحو – ، السيوطيّ ، جلال الدين السيوطيّ [ت ٩١١ هـ] – وضع حواشيه : غريد الشيخ – ط ٢ – دار الكتب العلميّة – بيروت – ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م .

إشكالات النصّ - ، دراسة لسانية نصّية – جمعان بن عبدالكريم – ط ١ – النادي الأدبيّ ، والمركز الثقافيّ العربيّ – الرياض ، والدار البيضاء – ٢٠٠٩ م .

أصول تحليل الخطاب في النظريّة النحويّة العربيّة ، تأسيس نحو النصّ – محمد الشاوش – ط ١ – المؤسسة العربيّة للتوزيع – تونس – ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م .

الأصول في النحو – ابن السراج ، أبو بكر بن السراج [ت ٣١٦ هـ] – تحقيق : عبدالحسين الفتليّ – (د . ط) – (د . دار طبع) – (د . مكان طبع) – (د . ت) .

الإعجاز الصرفيّ في القرآن الكريم ، دراسة نظريّة تطبيقيّة للتوظيف البلاغيّ لصيغة الكلمة – عبدالحميد الهنداويّ – (د . ط) – المكتبة العصريّة – بيروت – ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م .

إعجاز القرآن – الباقلانيّ ، أبو بكر الباقلانيّ [ت ٤٠٣ هـ] – تحقيق : محمود محمد مزروعة – ط ١ – مكتبة كنوز المعرفة – جدّة – ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ .

إعجاز القرآن والبلاغة النبويّة – مصطفى صادق الرافعيّ – ط ٢ – دار الكتب العلميّة – بيروت – ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م .

إعجاز القرآن والدلالات الصرفيّة – يوسف المرعشليّ – ط ١ – دار ابن حزم – بيروت – ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م .

إعراب القرآن – أبو جعفر النحاس [ت ٣٨٨ هـ] – تحقيق : زهير غازي زاهد – ط ٢ – عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت – ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م .

أقسام الكلام العربيّ من حيث الشكل والوظيفة – فاضل مصطفى الساقي – (د . ط) – مكتبة الخانجيّ – القاهرة – ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م .

الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين – ابن الأنباريّ ، أبو البركات بن الأنباريّ [ت ٥٧٧ هـ] – تحقيق : محمد محيي الدين عبدالحميد – (د . ط) – (د . دار طبع) – (د . مكان طبع) – (د . ت) .

أنوار التنزيل وأسرار التأويل – البيضاويّ ، عبدالله بن محمد البيضاويّ [ت ٧٩١ هـ] – تحقيق : عبدالقادر عرفان العشاحسونة – (د . ط) – دار الفكر – بيروت – ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٩ م .

الإيضاح في شرح المفصّل – ابن الحاجب ، أبو عمرو بن الحاجب [ت ٦٤٦ هـ] – تحقيق : إبراهيم محمد عبدالله – ط ٣ – دار سعدالدين – القاهرة – ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م .

الإيضاح في علوم البلاغة – القزوينيّ ، الخطيب القزوينيّ [ت ٧٣٩ هـ]– تحقيق : محمد عبدالقادر الفاضليّ – (د . ط) – المكتبة العصريّة – بيروت – ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م .

البحث النحويّ عند الأصوليين – مصطفى جمال الدين – (د . ط) – دار الرشيد للنشر – بغداد – ١٩٨٠ م .

بحوث في علم الأصول ، مباحث الدليل اللفظيّ ، تقريرات السيد محمد باقر الصدر – محمود الهاشميّ – ط ١ – مؤسسة الفقه ومعارف أهل البيت % - (د . مكان طبع) – ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م .

البحر المحيط في التفسير – أبو حيان الأندلسيّ [ت ٧٥٤ هـ] – اعتنى به : صدقي محمد جميل – (د . ط) – بيروت – ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٥ م .

البديع بين البلاغة العربيّة واللسانيات النصّيّة – جميل عبدالمجيد – (د . ط) – الهيأة المصريّة العامة للكتاب – القاهرة – ١٩٩٨ م .

البرهان في إعجاز القرآن أو بديع القرآن – ابن أبي الإصبع المصريّ [ت ٦٥٤ هـ] – تحقيق : أحمد مطلوب ، وخديجة الحديثيّ – (د . ط) – مطبعة المجمع العلميّ العراقيّ – بغداد – ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٦ م .

البرهان في علوم القرآن – الزركشيّ ، بدر الدين الزركشيّ [ت ٧٩٤ هـ] – تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم – (د . ط) – المكتبة العصريّة – بيروت – ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م .

بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز – الفيروز آبادي ، مجدالدين الفيروز آبادي [ت ٨١٧ هـ] – تحقيق : محمد علي النجار – (د . ط) – المكتبة العلميّة – بيروت – (د . ت) .

بلاغة الخطاب وعلم النصّ – صلاح فضل – ط ١ – الشركة المصريّة العالميّة للنشر – القاهرة – ١٩٩٦ م .

بلاغة الكلمة في التعبير القرآنيّ – فاضل السامرائيّ – ط ٥ – دار عمار – الأردن – ٢٠٠٨ م .

البلاغة والأسلوبيّة – محمد عبد المطلب – ط ٣ – الشركة المصريّة العالميّة للنشر – القاهرة – ١٩٩٤ م .

البلاغة وتحليل الخطاب – حسين خالفي – ط ١ – منشورات الاختلاف ، دار الفارابيّ – الجزائر ، بيروت – ٢٠١١ م .

📖 البلاغة والتطبيق – أحمد مطلوب ، وكامل حسن البصير – ط ٢ – مكتبة اللغة العربيّة – بغداد – ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م .
📖 بيان إعجاز القرآن ، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن – الخطابيّ ، أبو سليمان الخطابيّ [ت ٣٨٦ هـ] – تحقيق : محمد خلف الله أحمد ، محمد زغلول سلام – ط ٣ – دار المعارف – القاهرة – (د . ت) .
📖 البيان في تفسير القرآن – السيد أبو القاسم الخوئيّ – (د . ط) – مطبعة العمال المركزيّة – بغداد – ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م .
📖 البيان في غريب إعراب القرآن – ابن الأنباريّ ، أبو البركات بن الأنباريّ [ت ٥٧٧ هـ] – تحقيق : طه عبد الحميد طه – ط ١ – الهيأة المصريّة العامة للكتاب – القاهرة – ٢٠٠٦ م .
📖 البيان والتبيين – الجاحظ ، أبو عثمان الجاحظ [ت ٢٥٥ هـ]– تحقيق : عبد السلام محمد هارون – (د . ط) – مكتبة الخانجيّ – القاهرة – (د . ت) .
📖 تأويل مشكل القرآن – ابن قتيبة ، عبد الله بن مسلم ابن قتيبة [ت ٢٧٦ هـ] –علّق عليه ووضع حواشيه : إبراهيم شمس الدين – ط ٢ – دار الكتب العلميّة – بيروت – ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م .
📖 التأويل وقراءة النص في دراسات الإعجاز ، دراسة في الهومينوطيقيا الأدبيّة الإسلاميّة – سرحان جفات- ط ١ – دار الينابيع – السويد – ٢٠١٠ م .
📖 تاج اللغة وصحاح العربيّة – الجوهريّ ، إسماعيل بن حماد الجوهريّ [ت ٣٩٨ هـ] – اعتنى بها مكتب التحقيق بدار إحياء التراث العربيّ – ط ٥ – دار إحياء التراث العربيّ – بيروت – ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م .
📖 التبيان في تفسير القرآن – الطوسيّ ، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسيّ [ت ٤٦٠ هـ] – تحقيق : أحمد حبيب قصير العامليّ – ط ١ – دار الأميرة للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت – ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م .
📖 التبيان في المعاني والبديع والبيان – الطيبيّ ، شرف الدين بن محمد الطيبيّ [ت ٧٤٣ هـ] – تحقيق : هادي عطية الهلاليّ – ط ١ – عالم الكتب ، ومكتبة النهضة العربيّة – بيروت – ١٩٨٧ م .
📖 تحليل الخطاب الشعريّ ، استراتيجيّة التناص – محمّد مفتاح – ط١ – المركز الثقافيّ العربيّ – الدار البيضاء – ١٩٨٥ م .
📖 تحليل لغة القرآن وأساليب فهمه – محمد باقر سعيديّ لوشن – ترجمة : علي عباس الموسويّ – ط ١ – دار الولاء – بيروت – ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م .
📖 التحليل اللغويّ للنصّ ، مدخل إلى المفاهيم الأساسيّة والمناهج – كلاوس برينكر – ترجمة : سعيد حسن بحيريّ – ط ٢ – مؤسسة المختار – القاهرة – ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م .
📖 التذكرة في القراءات – ابن غلبون ، طاهر بن عبد المنعم بن غلبون [ت ٣٩٩ هـ] – تحقيق : سعيد صالح زعيمة – ط ١ – دار الكتب العلميّة – بيروت – ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م .
📖 التطور الدلاليّ بين لغة الشعر ولغة القرآن – عودة خليل أبو عودة – ط ١ – مكتبة المنار – الأردن – ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .
📖 التعبير القرآنيّ – فاضل السامرّائيّ – ط ٥ – دار عمار – الأردن – ١٩٩٨ م .
📖 التعريفات – الشريف الجرجانيّ ، علي بن محمد الجرجانيّ [ت ٨١٦ هـ] – ط ١ – دار إحياء التراث العربيّ – بيروت – ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م .
📖 التفسير البنائيّ للقرآن الكريم – محمود البستانيّ – ط ١ – مؤسّسة الطبع التابعة للأستانة الرضويّة المقدّسة – مشهد – ١٤٢٤ هـ .
📖 تفسير التحرير والتنوير – الطاهر بن عاشور – ط ١ – مؤسسة التأريخ – بيروت – (د . ت) .
📖 تفسير شبّر – عبد الله شبّر – ط ١ – منشورات الفجر – بيروت – ١٤٣٠ هـ - ٢٠١٠ م .
📖 تفسير الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل – الزمخشريّ ،جار الله الزمخشريّ [ت ٥٣٨ هـ] – رتّبه وضبطه : محمد عبد السلام شاهين – ط ٥ – دار الكتب العلميّة – بيروت – ٢٠٠٩ م.
📖 التفسير الواضح – محمد محمود حجازيّ – ط ١ – دار الكتاب العربيّ – بيروت – ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .
📖 التفكير اللسانيّ في الحضارة العربيّة – عبد السلام المسدّيّ – ط ٣ – دار الكتاب الجديد المتحدة – بنغازي – ٢٠٠٩ م .
📖 تلخيص البيان في مجازات القرآن – الشريف الرضي [ت ٤٠٦ هـ] – تحقيق : محمد عبد الغني حسن – ط ٢ – دار الأضواء – بيروت – ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م .
📖 تلخيص التمهيد ، موجز دراسات مبسّطة عن مختلف شؤون القرآن الكريم – محمد هادي معرفة – ط ٨ – مؤسسة النشر الإسلاميّ – قم – ١٤٣٠ هـ .
📖 التلقي والتأويل ، مقاربة نسقيّة – محمد مفتاح – (د . ط) – المركز الثقافيّ العربيّ – الدار البيضاء ، بيروت – (د . ت) .
📖 التناص ، دراسة في الخطاب النقديّ العربيّ – سعد إبراهيم عبد المجيد – ط ١ – دار الفراهيديّ – بغداد – ٢٠١٠ م .
📖 جماليات المفردة القرآنيّة – أحمد ياسوف – ط ٢ – دار المكتبيّ للطباعة والنشر والتوزيع – دمشق – ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م .

الجنى الداني في حروف المعاني – المراديّ ، الحسن بن القاسم المراديّ [ت ٧٤٩ هـ] – تحقيق : فخر الدين قباوة ، محمد نديم فاضل – ط ١ – دار الكتب العلميّة – بيروت – ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م .
الجواهر الحسان في تفسير القرآن – الثعالبيّ ، عبد الرحمن بن مخلوف الثعالبيّ [ت ٨٧٥ هـ] – تحقيق : علي محمد معوض ، وعادل أحمد عبد الموجود – ط ١ – دار إحياء التراث العربيّ ، ومؤسسة التأريخ العربيّ – بيروت – ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م .
حاشية الصبان على شرح الأشمونيّ – الصبان ، محمّد بن عليّ الصبان [ت ١٢٠٦ هـ]– تحقيق : محمود بن الجميل – ط ١ – مكتبة الصفا – القاهرة – ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م .
الحذف والتقدير في النحو العربيّ – علي أبو المكارم – ط ١ – دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة – ٢٠٠٧ م .
الحوار في القرآن ، قواعده ، أساليبه ، معطياته – محمد حسين فضل الله – ط ٢ – مكتبة الشهيد الصدر – قم – ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م .
الحيوان – الجاحظ ، أبو عثمان الجاحظ [ت ٢٥٥ هـ] – تحقيق : عبد السلام محمد هارون – ط ١ – دار إحياء التراث العربيّ – بيروت – ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م .
الخصائص – ابن جني ،أبو الفتح عثمان بن جنّي [ت ٣٩٣ هـ] – تحقيق : محمد علي النجار – ط ٢ – دار الهدى للطباعة والنشر – بيروت – (د . ت) .
دراسات فنّية في قصص القرآن – محمود البستانيّ – ط ٢ – دار البلاغة للطباعة والنشر والتوزيع – لبنان – ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م .
دراسات في علوم القرآن – محمود البستانيّ – ط ١ – دار مدينة العلم – قم – ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٧ م .
الدراسات اللغويّة عند العرب إلى نهاية القرن الثالث – محمد حسين آل ياسين – ط ١ – منشورات دار ومكتبة الحياة – بيروت – ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م .
دراسة الصوت اللغويّ – أحمد مختار عمر – ط ٤ – عالم الكتب للنشر والتوزيع والطباعة – القاهرة – ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م .
الدرس النحويّ النصيّ في كتب إعجاز القرآن – أشرف عبد البديع عبد الكريم – (د . ط) – مكتبة الآداب – القاهرة – ٢٠٠٨ م .
دلائل الإعجاز – عبد القاهر الجرجانيّ [ت ٤٧٠ هـ] – قرأه وعلق عليه : محمود محمد شاكر – ط ٣ – مطبعة المدنيّ – القاهرة – ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م .
دلالة الألفاظ – إبراهيم أنيس – (د . ط) – مكتبة الأنجلو المصريّة – القاهرة – (د . ت) .
دلالة السياق – ردّة الله الطلحيّ – ط ١ – جامعة أم القرى – مكة المكرّمة – ١٤٢٤ هـ .
الدلالة السياقيّة عند اللغويين – عواطف كنوش المصطفى – ط ١ – دار السياب – لندن – ٢٠٠٧ م .
الرسالة الشافية ، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن – عبد القاهر الجرجانيّ [ت ٤٧٠ هـ] – تحقيق : محمد خلف الله أحمد ، محمد زغلول سلام – ط ٣ – دار المعارف – القاهرة – (د . ت) .
رصف المباني في شرح حروف المعاني – المالقيّ ، أحمد بن عبد النور المالقيّ [ت ٧٠٢ هـ] – تحقيق : أحمد محمد الخراط – ط ٣ – دار القلم – دمشق – ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م .
روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني – الآلوسيّ ، شهاب الدين محمود الآلوسيّ [ت ١٢٧٠ هـ] – تحقيق : محمد أحمد الأمد ، عمر عبد السلام السلاميّ – ط ١ – دار إحياء التراث العربيّ – بيروت – ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م .
السبعة في القراءات – ابن مجاهد ، أبو بكربن مجاهد [ت ٣٢٤ هـ] – تحقيق : شوقي ضيف – ط ٤ – دار المعارف – القاهرة – ٢٠١٠ م .
السبك في العربيّة المعاصرة بين المنطوق والمكتوب – محمد سالم أبو عفرة – ط ١ – مكتبة الآداب – القاهرة – ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م .
سرّ الفصاحة – الخفاجيّ ، ابن سنان الخفاجيّ [ت ٤٦٦ هـ] – قدّم له ووضع حواشيه : إبراهيم شمس الدين – ط ١ – كُتاب ناشرون – بيروت – ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م .
سمات دلاليّة وبنية النصّ ، ضمن كتاب إسهامات أساسيّة في العلاقة بين النص والنحو والدلالة – مجموعة مؤلفين –نقله إلى العربيّة وعلّق عليه : سعيد حسن بحيريّ – ط١ – مؤسسة المختار للنشر والتوزيع – القاهرة – ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٨ م .
السور المدنيّة ، دراسة بلاغيّة وأسلوبيّة – عهود عبد الواحد – (د . ط) – دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – عمّان – (د . ت) .
شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك – ابن عقيل ، عبد الله بن عقيل [ت ٧٦٩ هـ] – تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد – (د . ط) – دار الفكر – بيروت – (د . ت) .
شرح ألفية ابن مالك – ابن الناظم ، بدر الدين بن جمال الدين بن مالك [ت ٦٨٦ هـ] – اعتنى بتصحيحه وتنقيحه : محمد بن سليم اللبابيديّ – (د . ط) – (د . دار طبع) – بيروت – (د . ت) .
شرح التسهيل ، تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد – ابن مالك ، جمال الدين بن مالك [ت ٦٧٢ هـ] – تحقيق : أحمد السيد سيد أحمد علي – (د . ط) – المكتبة التوفيقيّة – القاهرة – (د . ت) .

شرح ديوان المتنبّي – عبد الرحمن البرقوقيّ – (د . ط) – دار الكتاب العربيّ – بيروت – (د . ت) .

شرح الرضي على الكافية – الرضيّ ،رضي الدين الاستراباديّ [ت ٦٨٨ هـ] – تصحيح وتعليق : يوسف حسن عمر – (د . ط) – جامعة قاريونس – ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م .

شرح شافية ابن الحاجب – الرضيّ ، رضي الدين الأستراباديّ [ت ٦٨٨ هـ] – تحقيق : محمد نور الحسن ، محمد الزفزاف ، محمد محيي الدين عبد الحميد – ط ١ – دار إحياء التراث العربيّ – بيروت – (د . ت) .

شرح المفصّل – ابن يعيش ، موفق الدين بن يعيش [ت ٦٤٣ هـ] – تحقيق : أحمد السيد سيد أحمد ، إسماعيل عبد الجواد عبد الغني – (د . ط) – المكتبة التوفيقيّة – القاهرة – (د . ت) .

شرح نهج البلاغة – ابن أبي الحديد ، ابن أبي الحديد المعتزليّ [ت ٦٥٦ هت] – تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم – ط ١ – المكتبة المصريّة – بيروت – (د . ت) .

شرح نهج البلاغة – محمّد عبده – خرّج مصادره : فاتن محمّد خليل اللبون – ط١ – مؤسسة التأريخ العربيّ – بيروت – (د . ت) .

الشواهد والاستشهاد في النحو – عبدالجبار علوان – ط ١- مطبعة الزهراء – بغداد – ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م .

الصاحبيّ – ابن فارس ، أحمد بن فارس [ت ٣٩٥ هـ] – تحقيق : أحمد صقر – (د . ط) – مكتبة ومطبعة دار إحياء الكتب العربيّة – القاهرة – (د . ت) .

الصورة الفنيّة في المثل القرآنيّ – محمد حسين علي الصغير – (د . ط) – دار الرشيد – بغداد – ١٩٨١ م .

علم التخاطب الإسلاميّ ، دراسة لسانية لمناهج علماء الأصول في فهم النصّ – محمد محمد يونس علي – ط ١ – مكتبة المدار – طرابلس ، ليبيا – ٢٠٠٦ م .

علم الدلالة – أحمد مختار عمر – ط٦ – عالم الكتب – القاهرة – ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م .

علم الدلالة التطبيقيّ في التراث العربيّ – هادي نهر – ط ١ – دار الأمل للنشر والتوزيع – إربد ، الأردن – ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٧ م .

علم اللغة العام – فردينان دي سوسور – ترجمة : يوئيل يوسف عزيز – (د . ط) – دار آفاق عربيّة – ١٩٨٨ م .

علم اللغة ، مقدمة للقارئ العربيّ – محمود السعران – (د . ط) – دار النهضة العربيّة – بيروت – (د . ت) .

علم لغة النصّ ، المفاهيم والاتجاهات – سعيد حسن بحيريّ – ط ٢ – مؤسسة المختار للنشر والتوزيع – القاهرة – ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م .

علم لغة النصّ ، النظرية والتطبيق – عزّة شبل محمد – ط ١ – مكتبة الآداب – القاهرة – ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م .

علم اللغة النصيّ بين النظرية والتطبيق ، دراسة تطبيقيّة على السور المكيّة – صبحي إبراهيم الفقيّ – ط ١ – دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة – ١٤٣١ هـ - ٢٠٠٠ م .

علم النصّ – جوليا كريستفيا – ترجمة : فريد الزاهي – ط ١ – دار توبقال للنشر – الدار البيضاء – ١٩٩٧م .

علم النصّ ، مدخل متداخل الاختصاصات – فان دايك – ترجمة : سعيد حسن بحيريّ – ط ٢ – دار القاهرة – القاهرة – ٢٠٠٥ م .

علوم القرآن – السيد محمد باقر الحكيم – ط ٥ – دار التعارف للمطبوعات – بيروت – ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م .

العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده – ابن رشيق القيروانيّ ، الحسن بن رشيق القيروانيّ [ت ٤٥٦ هـ] – تحقيق : عبد الحميد الهنداويّ – (د . ط) – المكتبة العصريّة – بيروت – ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م .

عيار الشعر – ابن طباطبا العلويّ ، محمد بن طباطبا العلويّ [ت ٣٢٢ هـ] – تحقيق : طه الحاجريّ ، محمد زغلول سلام – (د . ط) – المكتبة التجاريّة – القاهرة – ١٩٥٦ م .

العنوان في القراءات السبع – المقرئ ، أبو طاهر إسماعيل بن خلف المقرئ [ت ٤٥٥ هـ] – تحقيق : زهير غازي زاهد ، خليل إبراهيم العطية – ط ٢ – مؤسسة المنار – النجف الأشرف – (د . ت) .

غرائب الصورة القرآنيّة ، تحليل البنية الأسلوبيّة ودلالاتها البلاغيّة – أمير فاضل سعد – (د . ط) – دار الكتاب الثقافيّ – إربد ، الأردن – ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٨ م .

الفروق اللغويّة – العسكريّ ، أبو هلال العسكريّ [ت ٤٠٠ هـ] –علّق عليه ووضع حواشيه : محمد باسل عيون السود – ط ٤ – دار الكتب العلميّة – بيروت – ٢٠٠٦ م .

الفصل والوصل في القرآن الكريم ، دراسة في الأسلوب – منير سلطان – ط ٢ – منشأة المعارف – الأسكندريّة – ١٩٩٧ م .

في ظلال القرآن – سيّد قطب – ط ٣٤ – دار الشروق – القاهرة – ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م .

القاموس المحيط – الفيروز آبادي ، مجد الدين الفيروز آبادي [ت ٨١٧ هـ] – إعداد : محمد عبد الرحمن المرعشليّ – ط ٢ – دار إحياء التراث العربيّ – بيروت – ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م .

قصص القرآن الكريم دلالياً وجمالياً – محمود البستانيّ – ط ٢ – مؤسسة السبطين – قم – ١٤٣٢هـ .

قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجانيّ – محمد عبد المطلب – ط ١ – الشركة المصريّة العالميّة للنشر ، مكتبة لبنان ناشرون – مصر ، لبنان – ١٩٩٥ م .

الكتاب – سيبويه ، أبو بشر عمرو بن قنبر سيبويه [ت ١٨٠ هـ] – تحقيق : عبد السلام محمد هارون – ط ٣ – مكتبة الخانجيّ – القاهرة – ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م .

📖 الكتاب الشريف ، التوراة ، والمزامير ، وصحف الأنبياء ، والإنجيل الشريف – (د . ط) – دار الكتاب الشريف – بيروت – ٢٠٠٧ م .
📖 كتاب الصناعتين ، الكتابة والشعر – العسكريّ ، أبو هلال العسكريّ [ت ٤٠٠ هـ] – تحقيق : علي محمد البجاويّ ، محمد أبو الفضل إبراهيم – ط ١ – المكتبة العصريّة – بيروت – ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م .
📖 كتاب العين – الفراهيديّ ، الخليل بن أحمد الفراهيديّ [ت ١٧٠ هـ] – تحقيق : مهدي المخزوميّ ، إبراهيم السامرّائيّ –
(د . ط) – دار الرشيد للنشر – بغداد – ١٩٨٢ م .
📖 كشّاف اصطلاحات الفنون –التهانويّ ، محمد بن علي التهانويّ [ت ١١٥٨ هـ] – وضع حواشيه : أحمد حسن بسج – ط ٣ – دار الكتب العلميّة – بيروت – ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م .
📖 الكليّات ، معجم في المصطلحات والفروق اللغويّة – الكفويّ ، أبو البقاء الكفويّ [ت ١٠٩٤ هـ] – تحقيق : عدنان درويش ، ومحمد المصريّ – ط ١ – منشورات ذوي القربى – قم – ١٤٣٣ هـ .
📖 لباب النقول في أسباب النزول – السيوطيّ ، جلال الدين السيوطيّ [ت ٩١١ هـ] –خرّج أحاديثه وعلّق عليه : عبد الرزاق المهديّ – (د . ط) – دار الكتاب العربيّ – بيروت – ٢٠١٢ م .
📖 لسان العرب – ابن منظور ، محمد بن مكرم بن منظور [ت ٧١١ هـ] – مراجعة وتدقيق : يوسف البقاعيّ ، إبراهيم شمس الدين ، نضال علي – ط ١ – مؤسسة الأعلميّ للمطبوعات – بيروت – ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م .
📖 لسانيات النص ، مدخل إلى انسجام الخطاب – محمد خطابيّ – ط ٢ – المركز الثقافيّ العربيّ – الدار
📖 مجاز القرآن – أبو عبيدة ، معمر بن المثنى [ت ٢١٠ هـ] –عارضه وعلّق عليه : محمد فؤاد سزكين – (د . ط) – مكتبة الخانجيّ – القاهرة – (د . ت) .
📖 مجمع البيان في تفسير القرآن والفرقان – الطبرسيّ ، الفضل بن الحسن الطبرسيّ [ت ٥٤٨ هـ] – ط ١ – دار الأسوة – طهران – ١٤٢٦ هـ البيضاء – ٢٠٠٦ م .
📖 لسانيات النص النظريّة والتطبيق ، مقامات الهمذانيّ أنموذجاً – ليندة قيّاس – ط ١ – مكتبة الآداب – القاهرة – ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م .
📖 اللغة في الدرس البلاغيّ – عدنان عبد الكريم جمعة – ط ١ – دار السياب – لندن – ٢٠٠٨ م .

📖 اللغة معناها ومبناها – تمام حسان – (د . ط) – الهيأة المصريّة العامة للكتاب – القاهرة – ١٩٧٣ م .
📖 اللهجات العربيّة في التراث – أحمد علم الدين الجنديّ – (د . ط) – الدار العربيّة للكتاب – ليبيا ، تونس – ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م .
📖 مباحث في علوم القرآن – صبحي الصالح – ط ٥ – دار العلم للملايين – بيروت – ١٩٦٨ م .
📖 المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر – ابن الأثير [ت ٦٣٧ هـ] – تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد – (د . ط) – المكتبة العصريّة – بيروت – ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م .
.
📖 محاضرات في علم اللسان العام – فرديناند دي سوسور – ترجمة : عبد القادر قنينيّ – (د . ط) – دار أفريقيا الشرق – المغرب – ٢٠٠٨ م .
📖 مدخل إلى علم النصّ ومجالات تطبيقاته – محمد الأخضر الصبيحي – ط ١ – الدار العربيّة للعلوم ناشرون ، منشورات الاختلاف – بيروت ، الجزائر – ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م .
📖 المدرسة القرآنيّة – السيّد محمّد باقر الصدر – ط ١ – مكتبة سلمان المحمّديّ – بغداد – ١٤٣٤ هـ – ٢٠١٣ م .
📖مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع ، بحث في العلاقات بين مطالع سور القرآن وخواتيمها – السيوطيّ ، جلال الدين السيوطيّ [ت ٩١١ هـ] – قرأه وتمّمه : عبدالمحسن عبدالعزيز العسكر – ط١ – مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع – الرياض – ١٤٢٦ هـ .
📖 المزهر في علوم اللغة وأنواعها – السيوطيّ ، جلال الدين السيوطيّ [ت ٩١١ هـ] – تحقيق : محمد أحمد جاد المولى ، علي محمد البجاويّ ، محمد أبو الفضل إبراهيم – (د . ط) – دار إحياء الكتب العربيّة – القاهرة – (د . ت) .
📖 مشكل إعراب القرآن – القيسيّ ، مكي ابن أبي طالب القيسيّ [ت ٤٣٧ هـ] – تحقيق : حاتم صالح الضامن – (د . ط) – منشورات وزارة الإعلام العراقيّة – ١٩٧٥ م .
📖 المصطلحات الأساسيّة في لسانيات النصّ وتحليل الخطاب ، دراسة معجميّة – نعمان بوقرة – ط ١ – عالم الكتب الحديث ، دار جدرا للكتاب العالميّ – إربد ، الأردن – ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٩ م .
📖 معترك الأقران في إعجاز القرآن – السيوطيّ ، جلال الدين السيوطيّ [ت ٩١١ هـ] – تحقيق : أحمد شمس الدين – ط ١ – دار الكتب العلميّة – بيروت – ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م .
📖 معاني الأبنية في العربيّة – فاضل السامرّائيّ – ط ١- ساعدتْ جامعة بغداد على نشره – بغداد – ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م .
📖 معاني القرآن – الأخفش ، سعيد بن مسعدة الأخفش [ت ٢١٥ هـ] –قدّم له وعلّق عليه ووضع حواشيه : إبراهيم شمس الدين – ط ١ – دار الكتب العلميّة – ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م .

📖 معاني القرآن – الفرّاء ، يحيى بن زياد الفرّاء [ت ٢٠٧ هـ]– تحقيق : إبراهيم شمس الدين – ط ١ – دار الكتب العلميّة – بيروت – ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م .
📖 معاني القرآن – الكسائيّ ، علي بن حمزة الكسائيّ [ت ١٨٩ هـ] – أعاد بناءه : عيسى شحاته عيسى – (د . ط) – دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة – ١٩٩٨ م .
📖 معاني النحو – فاضل السامرّائيّ – ط ٢ – شركة العاتك للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة – ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م .
📖 معايير القبول والردّ لتفسير النصّ القرآنيّ – عبد القادر محمد الحسين – ط ٢ – دار الغوثانيّ للدراسات القرآنيّة – دمشق – ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م .
📖 المعايير النصيّة في القرآن الكريم – أحمد محمد عبد الراضي – ط ١ – مكتبة الثقافة الدينيّة – القاهرة – ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م .
📖 المعجم الفلسفيّ – جميل صليبا – ط ١ – منشورات ذوي القربى – قم – ١٣٨٧ هـ .
📖 معجم اللغة واللسانيات – هاتمان وستورك – ترجمة : توفيق عزيز عبد الله ، مروان محمد حسن ، أوس عادل عبد الوهاب – ط ١ – دار المأمون للترجمة والنشر – بغداد – ٢٠١٢ م .
📖 معجم مصطلحات المنطق – إعداد : جعفر الحسينيّ – ط١ – مطبعة دار الاعتصام للطباعة والنشر – القاهرة – (د . ت) .
📖 المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم – محمد فؤاد عبد الباقي – ط ١ – مؤسسة الأعلميّ للمطبوعات – بيروت – ١٤٣٠ هـ - ١٩٩٦ م .
📖 معجم مقاييس اللغة – ابن فارس ، أحمد بن فارس [ت ٣٩٥ هـ] – وضع حواشيه : إبراهيم شمس الدين – ط ٢ – دار الكتب العلميّة – بيروت – ١٤٢٩ هـ ٢٠٠٨ م .
📖 المعرّب من الكلام الأعجميّ على حروف المعجم – الجواليقيّ ، أبو منصور الجواليقيّ [ت ٥٤٠ هـ] – تحقيق : أحمد محمد شاكر – ط ٢ – مطبعة دار الكتب – القاهرة – ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م .
📖 المعنى خارج النصّ ، أثر السياق في تحديد دلالات الخطاب – فاطمة الشيديّ – (د . ط) – دار نينوى – دمشق – ٢٠١١ م .
📖 مغني اللبيب عن كتب الأعاريب – ابن هشام ، ابن هشام الأنصاريّ [ت ٧٦١ هـ] – تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد – (د . ط) – المكتبة العصريّة – بيروت – ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م .
📖 مفتاح العلوم – السكاكيّ ،يوسف بن محمد السكاكيّ [ت ٦٢٦ هـ] – تحقيق : عبد الحميد الهنداويّ – ط ١ – دار الكتب العلميّة – بيروت – ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م .
📖 مفردات ألفاظ القرآن – الأصفهانيّ ،الراغب الأصفهانيّ [ت ٤٢٥ هـ] – تحقيق : صفوان عدنان داووديّ – ط ٢ – منشورات طليعة النور – قم – ١٤٢٧ هـ .
📖 المقتضب – المبرد ، محمد بن يزيد المبرّد [ت ٢٨٥ هـ] – تحقيق : محمد عبد الخالق عضيمة – (د . ط) – عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت – ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م .
📖 مقدمة ابن خلدون – ابن خلدون ، عبد الرحمن بن خلدون [ت ٨٠٨ هـ] – اعتناء ودراسة : أحمد الزعبيّ – (د . ط) – شركة الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت – (د . ت) .
📖 المقرّب – ابن عصفور ، ابن عصفور الأشبيليّ [ت ٦٦٩ هـ] – تحقيق : أحمد عبد الستار الجواريّ ، عبد الله الجبوريّ – (د . ط) – مطبعة العانيّ – بغداد – ١٩٨٦ م .
📖 من أسرار التعبير القرآنيّ – فاضل السامرّائيّ – (د . ط) – (د . دار طبع) – (د . مكان طبع) – (د . ت) .
📖 مناهج البحث اللغويّ بين التراث والمعاصرة – نعمة رحيم العزاويّ – (د. ط) – مطبعة المجمع العلميّ – بغداد ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م .
📖 منطق فهم القرآن ، الأسس المنهجيّة للتفسير والتأويل في ضوء آية الكرسيّ – السيد كمال الحيدريّ – ط ١ – دار فراقد للطباعة والنشر – قم – ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م .
📖 منهاج البلغاء وسراج الأدباء – القرطاجنيّ ، حازم القرطاجنّيّ [ت ٦٨٤ هـ] – تحقيق : محمد الحبيب الخوجة – ط ٣ – دار الغرب الإسلاميّ – ١٩٨٦ م .
📖 المنهجيّة الأصوليّة والبحث البلاغيّ – سعيد النكر – ط ١ – عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع – إربد ، الأردن – ٢٠١٢ م .
📖 موجز علوم القرآن – داود العطار – ط ١ – مكتبة الكلمة الطيبة – بغداد – ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م.
📖 الميزان في تفسير القرآن – العلامة السيد محمد حسين الطباطبائيّ – ط ١ – منشورات ذوي القربى – قم – ١٤٣٠ م .
📖 نحو القرآن – أحمد عبد الستار الجواريّ – (د . ط) – المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر – بيروت – ٢٠٠٦ م .
📖 نحو النص ، اتجاه جديد في الدرس النحويّ – أحمد عفيفيّ – ط ١ – مكتبة زهراء الشرق – القاهرة – ٢٠٠١ م .
📖 نحو النص ، إطار نظريّ ودراسات تطبيقيّة – عثمان أبو زنيد – ط ١- عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع – إربد ، الأردن – ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م .

🕮 نحو النص بين الأصالة والحداثة – أحمد محمد عبد الراضي – ط ١ – مكتبة الثقافة الدينيّة – القاهرة – ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م .
🕮 نحو النص ، نقد النظريّة وبناء أخرى – عمر أبو خرمة – ط ١ – عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع – إربد ، الأردن – ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م .
🕮 نزهة القلوب في تفسير غريب القرآن العزيز – محمد بن عُزيز السجستانيّ [ت ٣٣٠ هـ] – تحقيق : يوسف عبد الرحمن المرعشليّ – ط ٢ – دار المعرفة – بيروت – ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م .
🕮 النسق القرآنيّ ، دراسة أسلوبيّة – محمد ديب الباجي – ط ١ – دار القبلة للثقافة الإسلاميّة ، مؤسسة علوم القرآن – جدّة ، بيروت – ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م .
🕮 نسيج النص ، بحث ما يكون به الملفوظ نصاً – الأزهر الزناد – ط ١ – المركز الثقافيّ العربيّ – بيروت – ١٩٩٣ م .
🕮 النشر في القراءات العشر – ابن الجزريّ ،محمد بن محمد ابن الجزريّ [ت ٨٣٣ هـ] – تصحيح ومراجعة : علي محمد الضباع – (د . ط) – دار الكتب العلميّة – بيروت – (د . ت) .
🕮 النص والخطاب والاتصال – محمد العبد – ط ١ – الأكاديميّة الحديثة للكتاب الجامعيّ – القاهرة – ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م .
🕮 النص والخطاب والإجراء – روبرت دي بوجراند – ترجمة : تمام حسان – ط ١ – عالم الكتب – القاهرة – ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م .
🕮 النص والسياق - ، استقصاء البحث في الخطاب الدلاليّ والتداوليّ – فان دايك – ترجمة : عبد القادر قنينيّ – (د . ط) – دار أفريقيا الشرق – المغرب ، بيروت – ٢٠٠٠ م .
🕮 نظرية علم النص ، رؤية منهجيّة في بناء النصّ النثريّ – حسام أحمد فراج – ط١ – مكتبة الآداب – القاهرة – ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م .
🕮 نظرية الفعل الكلاميّ بين علم اللغة الحديث ، والمباحث اللغويّة في التراث العربيّ والإسلاميّ – هشام عبد الله الخليفة – ط ١ – مكتبة لبنان ناشرون – بيروت – ٢٠٠٧ م .
🕮 نظرية المقام عند العرب في ضوء البراغماتيّة – منال محمد هشام سعيد نجار – ط ١ – عالم الكتب الحديث – إربد ، الأردن – ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م .
🕮 نظرية النص ، ضمن كتاب (دراسات في النص والتناصيّة) – ترجمها : محمد خير البقاعيّ – ط ١- مركز الإنماء الحضاريّ – حلب – ١٩٩٨ م .
🕮 النكت في إعجاز القرآن ، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن – الرمانيّ ، علي بن عيسى الرمانيّ [ت ٣٨٦ هـ] – تحقيق : محمد خلف الله أحمد ، محمد زغلول سلام – ط ٣ – دار المعارف – القاهرة – (د . ت) .
🕮 همع الهوامع في شرح جمع الجوامع – السيوطيّ ، جلال الدين السيوطيّ [ت ٩١١ هـ] – تحقيق : أحمد شمس الدين – ط ٢ – دار الكتب العلميّة – بيروت – ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م .

الرسائل الجامعيّة والأطاريح والبحوث :

🕮 آليات الانسجام النصيّ في خطب مختارة من مستدرك نهج البلاغة للهادي كاشف الغطاء – آمنة جاهمي – رسالة ماجستير – كلية الآداب والعلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة – جامعة باجي مختار – عنابة – ٢٠١٢ م .
🕮 الإبلاغيّة في الشاهد البلاغيّ ، دراسة وتحليل – نادر عبد الرحمن محمد الوقفيّ – أطروحة دكتوراه – الدراسات العليا – جامعة مؤتة – ٢٠٠٧ م .
🕮 الاتساق في العربيّة ، دراسة في ضوء علم اللغة الحديث – جبار سويس حنيحن الذهبيّ – رسالة ماجستير – كلية الآداب – الجامعة المستنصريّة – ٢٠٠٥ م .
🕮 أدعية الصحيفة السجاديّة ، دراسة في ضوء علم اللغة النصيّ – منتهى عناد تمل الموسويّ – أطروحة دكتوراه – كلية التربية للعلوم الإنسانيّة – جامعة البصرة – ٢٠١٤ م .
🕮 أصول المعايير النصيّة في التراث النقديّ والبلاغيّ عند العرب – عبد الخالق فرحان شاهين – رسالة ماجستير – كلية الآداب – جامعة الكوفة – ٢٠١٢ م .
🕮 الإعلاميّة في الخطاب القرآنيّ ، دراسة في ضوء نظرية التواصل – زهراء جياد عباس البرقعاويّ – أطروحة دكتوراه – كلية الآداب – جامعة الكوفة – ٢٠١٤ م .
🕮 تفسير من وحي القرآن ، دراسة في ضوء علم اللغة النصيّ – مؤيد عبيد صوينت – رسالة ماجستير – كلية الآداب – الجامعة المستنصريّة – ٢٠٠٦ م .
🕮 التماسك النصيّ في المثل القرآنيّ – شهلة عبدالرزاق نادر – رسالة ماجستير – كليّة اللغات – جامعة صلاح الدين – ٢٠١١ م .
🕮 السبك النصيّ في القرآن الكريم ، دراسة تطبيقيّة في سورة الأنعام – أحمد حسين حيال – رسالة ماجستير – كلية الآداب – الجامعة المستنصريّة – ٢٠١١ م .
🕮 سورة البقرة ، دراسة في ضوء علم لغة النص – خالد سعد جبر – رسالة ماجستير – كلية التربيّة ، ابن رشد – جامعة بغداد – ٢٠١٢ م .
🕮 السياق في الفكر اللغويّ عند العرب – صاحب أبو جناح – مجلة الأقلام – العدد (٣ – ٤) – ١٩٩٢ م .

🕮 العربيّة من نحو الجملة إلى نحو النصّ – سعد مصلوح – بحث منشور ضمن الكتاب التذكاريّ (الأستاذ عبد السلام هارون معلّماً ، ومؤلّفاً ، ومحقّقاً) – جامعة الكويت – كليّة الآداب – ١٩٩٠ م .
🕮 علم اللغة النصيّ بين النظريّة والتطبيق ، الخطابة النبويّة أنموذجاً – نادية رمضان النجار – بحث منشور في مجلة علوم اللغة – المجلد ٩ – العدد ٢ – ٢٠٠٦ م .
🕮 قراءة نحويّة نصيّة في سورة (ص) – عرفة عبدالمقصود عامر – بحث منشور على شبكة الأنترنيت ، الآلوكة (www.alukah.net) .
🕮 القصديّة في النص القرآنيّ – زهراء جياد عباس البرقعاويّ – رسالة ماجستير – كلية الآداب – جامعة الكوفة – ٢٠٠٩ م .
🕮 نحو أجروميّة للنصّ الشعريّ ، دراسة في قصيدة جاهليّة – سعد مصلوح – مجلة فصول – العدد (١ – ٢) – ١٩٩١ م .
🕮 نحو النصّ نظرية وتطبيق ، سورة آل عمران أنموذجاً – رافد حميد سويدان – أطروحة دكتوراه – كلية التربية للعلوم الإنسانيّة – جامعة الأنبار – ٢٠١١ م .

A text – linguistic study of Quranic
madaniyah surahs

A dissertation submitted by

Ali Husain Hammadi
To the council of the college of Arts Al – Qaddisiyah university in partial fulfillment of the requirements of Ph. D. in Arabic .

supervised by
prof. D. Suaad Kuraydi Kndauy

Abstract

Exegetes and scholars have categorized the surahs (chapters) of the Quran into makkiyah and madaniyah according to the time or era of their revelation . Madaniyah surahs are those which were revealed after the madinah era was characterized with being the era of issuing Islamic laws and of social , economic and political organization .the jihad (holly war) was legislated during the madinah era and moslems were ordered to fight the unbelievers at that time .text grammar or text linguistics is a western approach whose beginnings appeared at early twentieth century and came to maturity in the 1980 . most items of this approach were present in the ancient Arabic studies , rather , many textual indications can be observed in Arabic studies especially in the quranic studies : Tafsir (Exegesis),quranic sciences and ilm – al – usul (the science of the principles of Islamic jurisprudence) in addition to the references to it found in the rhetorical and critical studies .Western text linguists have identified the standards through which the feayure of textuality can be used to refer to a specific text. These standards are : cohesion , coherence , Intentionality , acceptability , informatively , situationality and intersexuality . Haliday and Ruqia Hasan subclassified the first standard into five categories : substitution, reference,

ellipsis lexical cohesion and conjunction .Reference is achieved through the use of pronouns , demonstratives , relative articles, definite article and comparative articles .These words are excessively used in the glorious Quran a matter which proves a hogh level of cohesion in the Quranic text .Besides the other cohesive ties also exist in the Quranic text. The Quranic text is also characterized with the existence of a number of textual linguistic phenomena that recent text linguists could not recognize .The standard of coherence indicates the semantic ties found in the text sentences that fulfill the unity of the subject matter in it .Among the most important coherence means are the semantic ties ,subject matter , total structure and causality Text – linguists studied various semantic relations including those relations that existing the Quranictext .But linguists did not mention some semantic relations found in the Quranic texts .The most important among them are the request – answer relation and the question – answer relation . The Quranic text is characterized with orderly discourse and the presence of concord between the beginning of the surah (the verse) and it is end and between the beginning of the next surah and the end of the preceding one .Despite the diversity of topics tackled by the madaniyah surahs ,but they all share one major point in common which is call for beliefin the Almighty Alloh and obeying his commands. Situationality is the third textual standard. Recent text linguists classified it into linguistic and non – linguists.And they subchassified the first according to the various levels of language : phonetics , morphology , lexicon and syntax while they subclassified the second into emotional ,attitudinal and psychological .The various types sub classified under these two headings are found in the glorious Quranic text .As for the fourth standard of intersexuality , it was categorized by linguists into two types ,internal and external .The internal type is done through the repetition of some vocabulary , structures or sentences in the surahs The external type , on the other hand , can be seen in the use of names especially .The names of prophets which are mostly foreign names taken from other languages .The researcher found examples of intersexuality with the preceding holly books such as the Bible and the Torah .As for intentionality , it refers to the intention of the writer to produce a cohesive text featured with unity of subject mater .Intentionality is related with speech acts theory ,where every linguistic occurrence contains information that identify the instigator and the producer and require a response on the part of the receiver . Intentionality appears in the levels of language : phonetics , morphology , syntax ,lexicon and rhetoric – acceptability on the other hand , represents the stand of the receiver towards the text. For the receiver either accepts the text or rejects it and his acceptance or rejection depends on the degree of commitment on the part of the text producer in fulfilling the other textual standards in his text ,especially the two standards of cohesion and coherence .one of the manifestations of accepting the Quranic text may be the clear admiration by the receivers once it is revealed , then making the text the model for deriving (formulating)the grammatical and rhetorical rules .For this reason ,their rhetorical studies used to take their citations from the glorified Quranic text . Informativity involves predicting the information mentioned in the text , the less predictable the information are , the more efficient in terms of informativity the text would be .The informativity of the Quranic text is manifest in the way of it is composition .The way of it is composition is totally different from the way Arabs used compose their poetry or prose with .The content of information found in the Quranic text represents another manifestation of it is informativity and the legislations , rules , the unknown and stories of the ancient peoples all granted the Quran the highest levels of informative efficiency .